

الحَيَاءُ عَالَمٌ مِنَ الْعَالَمِينَ

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى ١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

إبراهيم، محمد يسري

إحياء علوم الإيمان.

تأليف: محمد يسري إبراهيم.

القاهرة، دار اليسر ٢٠٢٤م.

٥٦٨ ص، ١٧ × ٢٤ سم.

تدمك: ٩٧٨٩٧٧٧٩٤٠٨٨٧

١- الإيمان

أ- العنوان

٢٤٣

دار اليسر للنشر والتوزيع غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية، أو ميكانيكية، ويشمل ذلك: التصوير الفوتوغرافي، والتسجيل على أشرطة، أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى. بما في ذلك: حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

٢١ ش عبد العزيز عيسى، المنطقة التاسعة، الحي الثامن

مدينة نصر، القاهرة، جمهورية مصر العربية

تليفون: ٠٢ ٢٣٥٧٢٣٤٠ محمول: ٠١٠٦٢٢٧٦٢٠٨

خدمة عملاء: ٠١١١٨٠٠٦٠٦٠

www.dar-alyousr.com

Email: alyousr@gmail.com

info@dar-alyousr.com



عضو اتحاد
الناشرين
المصريين



رقم الإيداع

٢٠٢١/٥٨٣٦

ترقيم دولي

978-977-794-088-7

إحياء علوم الإيمان

أَحْيَاءُ عَلَوِيِّ الْإِمَارَةِ

تَأْلِيفُ
أَبِي عَبْدِ اللَّهِ
مُحَمَّدٍ سُرِّي (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)





مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله ربّ العالمين، خَلَقَ الخَلْقَ لِيُؤْمِنُوا به، وَيُوحِّدُوهُ، وَيَعْبُدُوهُ،
وبالإلهية يُفَرِّدُوهُ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى النَّبِيِّ الْعَدْنَانِ الَّذِي جَاءَ الْأُمَّةَ بِالْكِتَابِ
وَالْإِيمَانِ، فَهَدَى مِنْ ضَلَالَةٍ، وَأَرْشَدَ مِنْ عَمَايَةٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ
اتَّبَعُوهُ وَنَصَرُوهُ، وَعَزَّزُوهُ وَوَقَّرُوهُ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا مَزِيدًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ،
أَمَّا بَعْدُ:

فَالْإِيمَانُ فِطْرَةُ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ الْخَلْقَ عَلَيْهَا، وَأَصْلُهُ فِي الْقَلْبِ الَّذِي مَا خُلِقَ
إِلَّا لِيَعْرِفَ الرَّبَّ جَلَّ وَعَلَا، وَلِيَعْبُدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، أَلَا اللَّهُ الدِّينَ الْخَالِصَ.
فَالْإِيمَانُ وَعِبَادَةُ الْوَاحِدِ الدَّيَّانِ ضَرُورَةٌ لَا تُدَانِيهَا ضَرُورَةٌ، وَحَاجَةٌ لَا
تَشْبِهُهَا حَاجَةٌ!

فَلَا أَمَانَ بَغَيْرِ إِيمَانٍ، وَلَا رِضًا وَلَا سَعَادَةً بَغَيْرِ إِيمَانٍ، وَلَا اسْتِقْرَارًا وَلَا
يَقِينَ بَغَيْرِ إِيمَانٍ، وَلَا كِفَايَةً وَلَا غِنًى بَغَيْرِ إِيمَانٍ، وَلَا نَجَاةً فِي الدُّنْيَا، وَلَا فِي
الْآخِرَةِ بَغَيْرِ إِيمَانٍ.

ذَلِكَ أَنَّ بِالْقَلْبِ وَالْعَقْلِ وَالرُّوحِ حَاجَاتٌ وَضَرُورَاتٌ لَا يَسُدُّهَا إِلَّا الْإِيمَانُ
الْحَقُّ بِاللَّهِ تَعَالَى، فَهُوَ الَّذِي يُصْلِحُ الْقَلْبَ وَالْعَقْلَ، وَيُسَعِدُ الرُّوحَ؛ إِذْ هُوَ نُورُ
الْوَحْيِ الَّذِي يَلَاقِي نُورَ الْفِطْرَةِ، فَيَزِدُّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ نُورًا عَلَى نُورٍ.
وَحَيَاةُ الْإِنْسَانِ تَفْتَقِرُ إِلَى ضَرُورَاتٍ فِي الدِّينِ وَالنَّفْسِ وَالْعَقْلِ وَالْعَرَضِ
وَالْمَالِ وَالنَّسْلِ، وَلَا يَقِيمُهَا عَلَى وَجْهِهَا الصَّحِيحِ مِثْلُ الْإِيمَانِ وَشَرِيعَةِ الرَّحْمَنِ.

إِنَّ الْإِيمَانَ يَقِيمُ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ مَنْظُومَةً مِنَ الْقِيَمِ الرَّاقِيَةِ تَرعى حَقُوقَ الْإِنْسَانِ، وَتَشِيعُ الْعَدْلَ وَالْإِحْسَانَ، وَتَعْتَنِي بِقِيَمَةِ الْعِلْمِ؛ أَدَاءً لِلْفَرْضِ، وَعِمَارَةً لِلْأَرْضِ، وَعِبَادَةً لِلوَاحِدِ الدِّينِ فِي سِيَاحٍ مِنَ التَّأَخِي فِي ظِلَالِ الْإِيمَانِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

فَتَتَجَهَّ كُلُّ مَنْشِطِ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، لَا إِلَى أَحَدٍ سِوَاهُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

وَقَبْلَ كُلِّ ذَلِكَ وَبَعْدَهُ فَإِنَّ الْإِيمَانَ أَوَّلُ مَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَى الْإِنْسَانِ عِلْمًا وَنُطْقًا وَعَمَلًا، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْعِلْمِ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ فِي النُّطْقِ: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٦]. وَيَقُولُ جَلَّ وَعَلَا فِي الْعَمَلِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

وَهُوَ إِيْمَانٌ تَرْيِدُهُ الطَّاعَاتُ وَثُوقًا وَبِقِيْنًا وَثَوَابًا، وَتَنْقِصُهُ السَّيِّئَاتُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَزِدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

وَحَقِيقَتُهُ مُرَكَّبَةٌ مِنْ مَعْرِفَةِ الْوَحْيِ عِلْمًا، وَالتَّصَدِيقِ بِهِ اعْتِقَادًا، وَالْإِقْرَارِ بِهِ نُطْقًا، وَالانْقِيَادَ لَهُ مَحَبَّةً وَخُضُوعًا، وَالْعَمَلَ بِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا وَاتِّبَاعًا، وَالدَّعْوَةَ إِلَيْهِ، وَالصَّبْرَ عَلَى الْأَذَى فِيهِ، وَعِبَادَةَ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ؛ تَحْقِيقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيزُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وَمَنْهَجُ تَلْقَى الْإِيمَانَ إِنَّمَا يَقُومُ عَلَى الْوَحْيِ الْمَعْصُومِ؛ كِتَابًا وَسُنَّةً،
وَتَلْقَى الْإِيمَانَ قَبْلَ تَلْقَى الْقُرْآنَ، بِمَعْنَى: إِقَامَةُ التَّعْظِيمِ وَالتَّأْلِيهِ وَالْمَحَبَّةِ
وَالْتَذَلُّ لِلَّهِ تَعَالَى، وَتَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ قَبْلَ الْإِشْتَغَالِ بِمَعْرِفَةِ الْأَحْكَامِ،
وَالْتَوْشُّعِ فِي طَلِبِهَا.

وَالْإِيمَانَ عِلْمٌ وَعَمَلٌ بِفَهْمِ السَّلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَعَنْهُمْ
يُتَلَقَّى تَعْظِيمُ النُّصُوصِ، وَالتَّسْلِيمُ لَهَا وَالتَّقْدِيسُ.

وَتَقْدِيمُ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ عَلَى أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ مِنْ فِقْهِ الْإِيمَانِ؛ إِذْ أَعْمَالُ
الْقُلُوبِ هِيَ الْأَصْلُ، وَمَا عَدَاهَا فَرَعٌ عَنْهَا.

وَالْإِيمَانُ بِالرَّحْمَنِ لَهُ أَرْكَانٌ، هِيَ: الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتُهُ، وَكِتَابُهُ،
وَرَسُولُهُ، وَالْيَوْمُ الْآخِرُ، وَالْقَدَرُ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ.

وَلَهُ شُعْبٌ كَثِيرَةٌ، قَالَ عَنْهَا النَّبِيُّ ﷺ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ:
بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا: قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا: إِمَاطَةُ الْأَذَى
عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»^(١).

وَهَذِهِ الشُّعْبُ تَتَفَرَّعُ عَنْ أَعْمَالِ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ، فَالشَّهَادَتَانِ
شُعْبَةٌ، وَإِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ شُعْبَةٌ، لَكِنَّ الْإِيمَانَ يَزُولُ بِزَوَالِ شُعْبَةٍ
الشَّهَادَتَيْنِ، وَلَا يَزُولُ بِزَوَالِ شُعْبَةٍ إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ.

وَجَمَاعُ هَذِهِ الشُّعْبُ: طَاعَةُ اللَّهِ تَعَالَى بِأَدَاءِ الْعِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ.
قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٩)، وَمُسْلِمٌ (٣٥) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكما أنَّ للإيمان شعباً وأركاناً، فهو كذلك على مراتب:

المرتبة الأولى: مطلق الإيمان، أو أصل الإيمان، أو الإيمان المجمل: وَهُوَ الإيمان المانع من الخلود في النيران، وحقيقته: التزام العبادة لله وحده، والبراءة من الشرك والكفر، وإن ارتكب صاحبه الكبائر الموبقات، وأخلَّ بالواجبات والطاعات.

والمرتبة الثانية: الإيمان المطلق، أو الإيمان الواجب، أو الإيمان المفصل: وَيَتَضَمَّن: مطلق الإيمان، وزيادة فعل الواجبات، وترك المحرمات، وأهله في الفضل مراتب.

وصاحبه لا يلج النار أصلاً، وهو من أهل اليمين.

المرتبة الثالثة: الإيمان الكامل، أو الإيمان الكامل بالمستحبات.

وصاحبه هو السابق بالخيرات إلى أعلى الجنات.

والسابق بالخيرات قد حقق الإيمان المطلق، وزاد من فعل المستحبات، وتوقَّى المكروهات.

وهذه المراتب وأصحابها مذكورون في قوله تعالى: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

فالظالم لنفسه: صاحب مطلق الإيمان وأصله، والمقتصد: صاحب

الإيمان المطلق الواجب، والسابق بالخيرات: صاحب الإيمان الكامل - نسأل

الله من فضله - وقد نصَّ الله تعالى على نجاة الجميع - بمن فيهم الظالم

لنفسه - فقال سبحانه: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ

وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٣].

فالجميع يدخلون الجنة برحمة الله، وقد قَدَّمَ الله في الآية الظالم لنفسه لئلا يقنط، وآخر السابق لئلا يُعَجَب!

وزيادة الإيمان ونقصانه بأعمال القلب والجوارح وقول اللسان، فالطاعات تزيده، والمعاصي تنقصه، قال تعالى: ﴿وَيَزِدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].
قال أحمد رحمه الله: «فكما يزيد، كذا ينقص»^(١).

وقال ابن تيمية رحمه الله: «وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان في الإيمان عن الصحابة، ولم يُعرف فيه مخالف من الصحابة رضي الله عنهم»^(٢).

والإيمان يزدد بزيادة معرفة الله بأسمائه وصفاته، وبطلب العلم النافع من القرآن والسنة، وفقه الصحابة، وبالتقرب بعمل الصالحات فرضاً ونفلاً، وترك المحرمات والمكروهات، وبالتحقق بأخلاق الصالحين، والاتصاف بصفات المؤمنين الصادقين، وبالإحسان إلى عباد الله أجمعين، وبالتدبر في كتاب الله، وتأمل آيات الله المسطورة والمنظورة في كونه العظيم، وبال دعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله.

(١) السنة، لأبي بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخلال البغدادي الحنبلي، تحقيق:

عطية الزهراني، دار الراية، الرياض، ط١، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م (١٠٣٠).

(٢) مجموع الفتاوى، لثقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني،

تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف

الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية ١٤١٦هـ (٧/ ٢٢٤ - ٢٢٥).

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

ولأهل الإيمان صفاتٌ جميلةٌ، وأخلاقٌ جليلةٌ في تعاملهم مع ربهم، ومع أنفسهم، ومع الناس؛ فهم متواضعون يمشون على الأرض هوناً، ولا يمشون في الأرض مرحاً، أصحاب علمٍ وحلمٍ، إذا خاطبهم السفهاء والجاهلون قالوا: سلاماً، فيسلمون من مقابلة الجهل بالجهل، ومن مقابلة الجهل بالإثم، فهُمْ من أهل كظم الغيظ، والعفو عن الناس، يدفعون السيئة بالتي هي أحسن، يَأْخُذُونَ الْعَفْوَ، وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ، وَيُعْرِضُونَ عَنِ الْجَاهِلِينَ، قولهم كما حكى عنهم الله تعالى: ﴿سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ لَا مُبَغِّضِي أَلْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

يقومون ليلهم، وَيَبْتَئُونَ لِرَبِّهِمْ سَجْدًا وقيامًا، يُكْثِرُونَ مِنَ الصِّيَامِ، ويتصدقون بفضول أموالهم، كما يتصدقون بجاههم وقوة أبدانهم.

يلازمهم الخوف من الله، ويلازمون قول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ ٦٥ ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥-٦٦].
أَبْعُدُ النَّاسَ عَنِ الدَّمِ الْحَرَامِ، وَالْفَرْجِ الْحَرَامِ، وَالْقَوْلِ الْحَرَامِ، وَالْفِعْلِ الْحَرَامِ!

يَعْتَنُونَ بِأَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، فَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ، وَيَحْتَفُونَ بِأَدَائِهَا، وَيُؤَدُّونَ الزَّكَاةَ عَلَى وَجْهِهَا، وَيَصُومُونَ رَمَضَانَ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا، وَيَحِبُّونَ بَيْتَ اللَّهِ الْحَرَامَ، وَيُخْلِصُونَ فِي عِبَادَتِهِمْ، وَيَحْذَرُونَ الرِّيَاءَ وَالشَّرْكَ الْخَفِيَّ!

يشكرون ويستغفرون ويصبرون، وعلى ربهم يتوكلون، يوالون في الله، ويعادون في الله، ويجاهدون في الله، ويتحلَّون بالفضائل والمكارم، ويقتدون بالصالحين، وَيُعَظِّمُونَ آلَ بَيْتِ نَبِيِّنَا ﷺ، وَيَحِبُّونَ صَحَابَتَهُ أَجْمَعِينَ، وَيُقَدِّمُونَ

الأربعة الخلفاء، والعشرة المُبشرين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

وللإيمان ثمراتُه الدينيَّة والدينيَّة والأخرويَّة، فالمؤمنون أهل معرفة الله، والتحقق باليقين، وهم أُولَى الناس بتحقيق الإخلاص، وأُولَى الخلق بولاية الخالق، وأخرى العباد بمحبَّة ربِّ العباد.

تنشرح صدورهم بالإيمان، وتطمئن قلوبهم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ، وتستنير بصائرهم بنور الإيمان، وَيَجِدُونَ فِي قُلُوبِهِمْ حِلَاوَةً وَطَعْمًا لَا يَجِدُهُ غَيْرُهُمْ، لهم تمام العزَّة في هذه الحياة، ولهم دون سواهم طيب الحياة، وسعادة القلوب، يكتب الله نصرهم، ويجبر كسرهم، وَيُدَافِعُ عَنْهُمْ، وتزدهر حضارتهم، وتقوم مدنيّتهم، وتجري عليهم أرزاقهم بِبَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فيتربص بهم أعداؤهم إحدى الحسنيين؛ النصر، أو الشهادة!

لا ييأسون، ولا ييأسون، لهم الأمان والأمان في الدنيا والآخرة، لا يخلدون في النار أبداً، ومنهم مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ ابْتِدَاءً، ومنهم مَنْ يَرْزُقُهُ اللَّهُ الْفَرْدُوسَ الْأَعْلَى مِنَ الْجَنَّةِ، وينعمون بمرضاة الله، وبرؤية وجهه الكريم في جنات النعيم.

وللإيمان نواقضُ تبطلُهُ، وله نواقضُ وخوارمُ تخذشُهُ، وتقذح فيه ولا تبطله. فالمؤمنون يحذرون من الشُّرك والشقاق، والكفر والنفاق، كما يحذرون من الكبائر الموبقة، والبدع المهلكة، ولا يحقرون الصغائر، ويجتنبون الفسوق والعصيان، وَيَبْرَأُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ كُلِّ انْحِرَافٍ، ويتوبون إليه من كل ذنب. إن تناول كُلَّ ما تقدَّم يجمعه عنوانٌ واحدٌ هو «إحياء علوم الإيمان»،

وإحياء علوم الإيمان إحياءٌ لأعمال الإيمان، وإحياءٌ لأخلاق أهل الإيمان، وهذا الإحياء هو واجب الوقت والزمان، وهو طوق النجاة لكل حيران! وقد ائتلف كل ذلك واجتمع تحت جملة من الأبواب والفصول، وهي: مقدمة.

الباب الأول: الضرورة إلى الإيمان:

الفصل الأول: الحاجة إلى الإيمان.

الفصل الثاني: فضل الإيمان.

الفصل الثالث: ثمرات الإيمان.

الباب الثاني: فقه الإيمان:

الفصل الأول: تلقي الإيمان.

الفصل الثاني: علم الإيمان.

الفصل الثالث: أسماء الإيمان.

الفصل الرابع: حقيقة الإيمان.

الفصل الخامس: شعب الإيمان.

الفصل السادس: زيادة الإيمان ونقصانه.

الفصل السابع: مراتب الإيمان.

الباب الثالث: أركان الإيمان:

مقدمة.

الركن الأول: الإيمان بالله تعالى.

الركن الثاني: الإيمان بالملائكة.

الركن الثالث: الإيمان بالكتب.

الركن الرابع: الإيمان بالرسل والرسالات.

الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر.

الركن السادس: الإيمان بالقضاء والقدر.

الباب الرابع: حياة الإيمان:

الفصل الأول: نور الإيمان.

الفصل الثاني: دعوة الإيمان.

الفصل الثالث: سباق الإيمان.

الفصل الرابع: أخوة الإيمان.

الفصل الخامس: مجالس الإيمان.

الفصل السادس: عزة الإيمان.

الفصل السابع: حلاوة الإيمان.

الباب الخامس: أهل الإيمان:

الفصل الأول: موالاة أهل الإيمان.

الفصل الثاني: صفات أهل الإيمان.

الباب السادس: أعداء الإيمان:

الفصل الأول: أعداء وخصوم الإيمان.

الفصل الثاني: معارضة الإيمان.

الباب السابع: آفات وخوارم الإيمان:

الفصل الأول: ضعف الإيمان.

الفصل الثاني: نواقض الإيمان.

الفصل الثالث: قواعد الإيمان.

الفصل الرابع: قواعد إجراء الأحكام.

حول هذه الكلمات وتلك المعاني النيرات تدور هذه الورقات، وفي بيانها وشرح متعلقاتها تتابع هذه الإشارات، نسأل الله تعالى فيها الإخلاص والقبول، إن ربنا خير مأمول، وأكرم مسئول.

فاللهم أحيي الإيمان في قلوبنا، وأحينا بالإيمان، واجعلنا من أهل الفردوس الأعلى من الجنان.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده النبي الرسول، وعلى آله وصحبه أهل الرضا والقبول.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وكتبه

د. محمد يسري إبراهيم

الدوحة، قطر

غرة رجب ١٤٤٥ هـ - ١٢/١/٢٠٢٤ م



البَابُ الْأَوَّلُ

الضرورة إلى الإيمان

الفصل الأول: الحاجة إلى الإيمان.

الفصل الثاني: فضل الإيمان.

الفصل الثالث: ثمرات الإيمان.

الفصل الأول الحاجة إلى الإيمان



إنَّ حاجةَ الإنسان للإيمان هي أعظمُ الحاجات، وأوْلى القضايا والمهمات، فالإيمان بالواحد الديان أعظم الحقائق، وأوثق المعارف، فمن اهتدى للإيمان فقد رُزق أعظم النعم، وحُقَّ له أن يكون من الأحياء! وتظهر الحاجة إلى الإيمان من خلال الأمور التالية:

أولاً: فطرية الإيمان:

إنَّ الحاجة إلى معرفة الله، والإيمان به وتوحيده حاجة فطرية، جَبَلَ الله الخلق عليها، وهداهم إليها بما أودعه في نفوسهم من الإقرار بوجود ربهم، وقبول الإسلام والإيمان.

قال سبحانه: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَلِكَ أَلَيْسَ أَلَيْسَ أَلَيْسَ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّكَاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

إنَّ هذا القلب ما خُلِقَ إلا ليعرف ربَّه، ويؤمن بالله الذي خلقه، ويعبد الله متقرباً إليه بالتوحيد، مخلصاً له الطاعة، متبرئاً من الشرك والتنديد!

فإذا عرف الإنسان ربَّه معرفةً توجب له صحيح الإيمان، وخالص التوحيد، فقد أدرك للحياة معناها، وللمعرفة مغزاها، فعرف وظيفة الإنسان، وسرَّ الوجود، وأصبح بالإيمان شيئاً مذكوراً، ووجد بالإيمان كلَّ شيءٍ، فإذا فقده لم ينتفع بشيءٍ، وفقد كلَّ شيءٍ!

إن ميثاق الفطرة متى تنبّه له صاحبه أجاب عن أسئلة الفطرة إجابة شافية هادية كافية، فعرف ربه، وآمن بخالقه، وعظّمه وقُدّسه؛ إذ الإيمان فطري في أصله، وأما تفاصيل أحكامه، فيعلمها الإنسان المكلف عن طريق الوحي.

فالإجابة عن أصل خَلَقَ الإنسان ووظيفته في الحياة، وإلى أي شيء يصير بعد الموت، ولماذا يموت؟ ولماذا يبعث تارة أخرى؟ كل ذلك مرهون بالإيمان الصحيح، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

فشتان بين من اهتدى بنور الإيمان، ومن تتخبطه الشياطين في الأرض حيران! أولئك قال عنهم ربهم ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال سبحانه: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

إنّ الضالين عن الإيمان من بني الإنسان تكلم عنهم أحدهم، ونطق على لسانهم، فقال:

جِئْتُ لَا أَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ وَلَكِنِّي أَتَيْتُ
وَلَقَدْ أَبْصَرْتُ قُدَّامِي طَرِيقًا فَمَشَيْتُ
وَسَأَبْقَى مَا شِئْتُ إِنْ شِئْتُ هَذَا أَمْ أَبَيْتُ

كَيْفَ جِئْتُ كَيْفَ أَبْصَرْتُ طَرِيقِي لَسْتُ أَدْرِي^(١)!

إِنَّ الإِيمَانَ بِالرَّحْمَنِ وَفَقًا لِرِسَالَةِ النَّبِيِّ الْعَدْنَانِ يَهْبِ الْقُلُوبَ مَعْرِفَةً مَفْصَلَةً بِاللَّهِ تَعَالَى تُمَكِّنُ الْقُلُوبَ وَالْأَبْدَانِ مِنْ عِبَادَةِ الْمَلِكِ الدِّيَّانِ الَّذِي يُدَبِّرُ أَمْرَ مَمْلَكَتِهِ، وَيَنْظُرُ إِلَى عِبَادِهِ مِنْ فَوْقِ عَرْشِهِ، وَيَشْهَدُ أَعْمَالَهُمُ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ، يَسْمَعُهُمْ وَيُرَاهُمْ، وَيَجِيبُ دَعَاءَهُمْ، وَيَغِيثُ مَلْهُوْفَهُمْ، وَيَعِينُ مُحْتَاجَهُمْ، وَيَجْبُرُ كَسْرَهُمْ، وَيَرْحَمُ ضَعِيفَهُمْ، وَيُفَرِّجُ كُرُوبَهُمْ، وَيَنْصُرُ مَظْلُومَهُمْ، وَيَشْفِي مَرِيضَهُمْ، وَيَرْحَمُ مَسْكِينَهُمْ، يَقْدَمُ مَا يَشَاءُ، وَيُؤْخِرُ مَا يَشَاءُ، فَازِمَةٌ الْأُمُورُ كُلُّهَا بِيَدَيْهِ، وَمَدَارُ تَدْبِيرِ الْمَمَالِكِ عَلَيْهِ، وَالْإِيمَانُ عَلَى هَذَا النِّحْوِ ضَرُورَةٌ فَطَرِيَّةٌ لَازِمَةٌ لِلْبَشَرِيَّةِ، لَا تَسْبِقُهَا قَضِيَّةٌ، وَلَا تَعْدِلُهَا قَضِيَّةٌ، وَالْحَاجَةُ إِلَيْهِ لَا تُشَبِّهُهَا حَاجَةٌ، أَوْ تُدَانِيهَا.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَحَاجَةُ الْعَبْدِ إِلَى الرَّسَالَةِ أَعْظَمُ بِكَثِيرٍ مِنْ حَاجَةِ الْمَرِيضِ إِلَى الطَّبِّ؛ فَإِنَّ آخِرَ مَا يُقَدَّرُ بَعْدَ الطَّبِيبِ مَوْتُ الْأَبْدَانِ، وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَحْصُلْ لِلْعَبْدِ نُورُ الرِّسَالَةِ وَحَيَاتُهَا، مَاتَ قَلْبُهُ مَوْتًا لَا تُرْجَى الْحَيَاةُ مَعَهُ أَبَدًا، أَوْ شَقِيَ شَقَاوَةً لَا سَعَادَةَ مَعَهَا أَبَدًا»^(٢).

ثانيًا: الحاجة النفسية للإيمان:

بِالنَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ حَاجَةٌ ضَرُورِيَّةٌ إِلَى الْأَمْنِ وَالْأَمْنَةِ وَالْأَمَانِ، وَدَفْعِ الْخَوْفِ وَالْقَلْقِ وَالْمَكْرُوْهَاتِ جَمِيعًا!

إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَشْعُرُونَ وَحْدَهُمْ بِالْأَمْنِ بِزَوَالِ أَسْبَابِ الْمَخَافِ، وَبِالْأَمْنَةِ

(١) قصيدة الطلاس، لإيليا أبو ماضي، دار العودة، بيروت (ص ١٩١ - ١٩٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٩ / ٩٦ - ٩٧).

مع وجود أسباب المخاوف، وليس ذلك إلا للمؤمنين.
 إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا تَغَادِرُهُمْ تِلْكَ النِّعْمَةُ فِي حَيَاتِهِم الدُّنْيَا، وَفِي حَيَاةِ الْبَرَزَخِ،
 وَفِي الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ.

فهم وإن احتوشتهم المخاوف وأسبابها في الدنيا، إلا أَنَّهُمْ لَا يَفْزَعُونَ،
 وَإِذَا حَصَلَ الْمَكْرُوهُ فَإِنَّهُمْ لَا يَجْزَعُونَ! وَإِذَا قَلَّتْ أَرْزَاقُهُمْ، وَشَحَّتْ
 أَقْوَاتُهُمْ فَهُمْ آمِنُونَ، وَإِذَا رَمَاهُمْ أَعْدَاؤُهُمْ، وَتَأَلَّبَ عَلَيْهِمُ الْكَافِرُونَ مِنْ كُلِّ
 حَدَبٍ وَصَوْبٍ، فَإِنَّهُمْ مُطْمَئِنُّونَ!

لأنَّ الْإِيمَانَ يَجْلِبُ الْأَمْنُ وَالْأَمَانُ وَالسَّكِينَةُ، وَيَسْكَبُ الْاطْمِئْنَانُ فِي
 قَلْبِ أَهْلِهِ وَأَوْلِيَائِهِ الْخُضُوعَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَالْاعْتِزَالَ بِاللَّهِ وَحْدَهُ. وَالْعِبُودِيَّةَ لِلَّهِ
 وَحْدَهُ هِيَ مَصْدَرُ الْأَمْنِ وَالْأَمْنَةِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَبَعْدَ الْمَمَاتِ.

ولهذا يَظُلُّ غَيْرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي خَوْفٍ وَفَزَعٍ مُسْتَمَرِّينَ وَإِنْ حَصَّلُوا مِنْ
 الْقُوَى الْمَادِيَةِ مَا بِهِ يَتَجَبَّرُونَ وَيَتَكَبَّرُونَ!

قال سبحانه: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ
 أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ
 تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ
 مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨١ - ٨٢].

فالكافر محروم من الأمن، جدير بالخوف والقلق واضطراب النفس،
 وكيف يأمن من كان هذا حاله من الكفر بالله، أو الشرك بالله!

قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾
 أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ
 فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧ - ٩٩].

وقال تعالى: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦﴾
 أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ۝١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ
 الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝ [الملك: ١٦-١٨].

إنَّ الأمن والإيمان مرتبطان متلازمان ارتباطَ الفرع بأصله، والثمره بالشجرة، والنتيجة بالمقدمة، وهذا كما هو في الدنيا فهو - أيضًا - في الآخرة.
 قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِيَّ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝﴾ [فصلت: ٤٠].
 وأين هؤلاء في الآخرة ممَّن قال الله - عنهم -: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۝﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

فالأطمأنينة وانسراح الصدر والسكينة والأمن من الاضطراب وَقَفَّ على أهل الإيمان في هذه الحياة! وإذا تعددت الأسياد على العبد شقي حاله، واضطرب فؤاده!

والنفس بها قلقٌ على المستقبل، وطلبٌ لاستجلاء الغيوب، ولا يزيل القلق والاضطراب مثل الإيمان بخيريَّة الذات، وخيرية العمل، وخيرية المال، فالمؤمن الموحَّد ينظر إلى الغيب بعين التفاؤل والرضا والتسليم لله في قضائه وقدره، فتأتيه مشاعر الاطمئنان والأمان تترى عليه في قلبه!

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ۝﴾ [الأنعام: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۝﴾ [الرعد: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

وبالنفْس البشرية فقرٌ وفاقةٌ، وشدةٌ حاجةٌ لا يسدُّها إلا الثقة بالله الغني الحميد! قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]. إِنَّ الخلق جميعاً في شدةٍ وكربةٍ لا يفرجها إلا الله، وفي حاجةٍ وفاقةٍ؛ فلا يكفيها إلا الله، ولا يغنيها، بل ولا يعطيها - في الحقيقة - إلا الله المعطي المانع! قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

ومتى تألَّب الخلق على المؤمن، وكادَه من بأقطار السماوات والأرض؛ فلا عصمة له إلا بالله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]. إذا: المؤمن يؤمن أن الله تعالى هو النافع الضار، المحيي المميت، فيتواضع من غير ذلٍّ، ويرفع من غير كبرٍ، ويتشجع في غير تهوٍ! فالإيمان تحقيقٌ للتوكل: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]. والمؤمن المتوكل حسن الظن بربه، يفوض إليه أمره، وينتظر نصره، ويبدل سببه، ويرضى قضاءه وقدره!

وبالنفْس حاجةٌ إلى السعادة والحياة الطيبة في الدنيا والآخرة، ولا يتأتى هذا إلا مع الإيمان!

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]. والحياة الطيبة في الدنيا تسلم للسعادة في الآخرة: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨].

وفي الحديث: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ - وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ - إِنَّ أَصَابَتُهُ سَرَاءُ شُكْرٍ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءُ صَبْرٍ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(١).

وهكذا المؤمن الذي يعمل الصالحات، ينعم بعملها، ويشكر الله على توفيقه لها، فيسعد بالشكر بعد الفعل، كما يسعد بالذكر والصبر والاستغفار! ويسعد بإدخال السرور على المؤمنين، وبإصلاح الدنيا والدين، بل ويجعل من المحنة منحةً، ويتطلب من النعمة نعمةً، ويصنع من الخسارة مكسباً! ثم هو يسعد بالنجاة في الدنيا من الانحرافات كافّة، وبالعافية من فتن الشهوات والشبهات عامّة!

وأخيراً: يسعد في الآخرة بالجنة، والنجاة من النار، ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]. وقال تعالى: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٣].

ثالثاً: الحاجة العقلية للإيمان:

كلُّ عاقلٍ يشهد أن الموجود لا بد له من موجدٍ، وأن الحادث لا بد له من محدثٍ، وأن كل صنعةٍ وراءها صانع متقن، وأنَّ العدم لا يخلق شيئاً، وأنه لا مجال للقول بصدفةٍ، أو طبيعةٍ، أو إلحادٍ!، أو شرك في الخلق، أو التدبير! ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَٰهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالَّذِينَ لَمْ يَتَّصِلُوا بِنُورِ الْإِيمَانِ ضَلُّوا فِي هَذَا الْبَابِ بِعَقُولِهِمُ الْقَاصِرَةِ، وَأَوْهَامِهِمُ الضَّعِيفَةِ، وَصَارَتْ عَقُولُهُمْ فِتْنَةً لَهُمْ، أَوْ وَبَالًا عَلَيْهِمْ؛ ذَلِكَ أَنَّ الْعَقْلَ إِذَا لَمْ يَصِلْ إِلَى الْإِيمَانِ، وَإِدْرَاكَ وَحْدَانِيَةِ الْخَالِقِ تَعَالَى يَشْقَى وَيُشْقَى صَاحِبُهُ!

وحياة الملحد والكافر والمشرِك ضلال، واضطراب، وفساد، وشك! فلا تطيب لعقل حياةً إلَّا بأن يهتدي إلى الله، فتتعم نفسه، ويطمئن عقله؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا بِأَسْرَهَا لَا تَطِيبُ إِلَّا بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَتَوْحِيدِهِ، وَالْآخِرَةُ لَا تَطِيبُ إِلَّا بِرِضَا اللَّهِ وَجَنَّتِهِ، وَالنَّظَرُ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ! والعقل لا يهتدي إلَّا بالوحي، والوحي لا يلغي العقل، وإنما يهديه كما يهدي الضياءُ العينَ إذا اتصل بها.

وخوض العقل في الإلهيات باستقلالٍ عن الوحي مظنةُ الهلاك، وسبيل الضلال!

وكثيرٌ من مسائل الإيمان والاعتقاد بعد معرفتها، والعلم بها عن طريق الوحي لا يدرك العقل حقيقتها وكيفيَّتها؛ كصفات الله تعالى، وحقائق ما ورد في اليوم الآخر من الغيبات التي لا يملك العقل أن يحكمَ باستحالتها وردّها، ولا يستطيع أن يحكم بوجودها وطلبها.

ولهذا ضرب الله الأمثال في القرآن لتقرير مسائل من الإيمان؛ تنبيهًا للعقل على إمكانها ووجودها، فاستدلَّ القرآن على النشأة الآخرة بالنشأة الأولى، وعلى خلق الإنسان بخلق السماء والأرض، وعلى البعث بعد الموت بإحياء الأرض بعد إنزال الماء عليها.

ثُمَّ إِنَّ الْعَقْلَ إِذَا كَانَ صَحِيحًا صَرِيحًا فَإِنَّهُ لَا يَخَالِفُ النُّقْلَ إِذَا كَانَ صَحِيحًا صَرِيحًا.

وما أحسنَ المثلَ المضروبَ للنقل مع العقل، وهو: أَنَّ العقلَ مع النقل كالعَامِّي المقلِّد مع العالمِ المجتهد، بل هو دون ذلك بكثيرٍ؛ فَإِنَّ العامي يمكنه أن يصير عالمًا، ولا يمكن العالم أن يصير نبيًّا رسولاً^(١).

وإذا كان غير المسلم يعاني غاية القلق والاضطراب في أمر إيمانه وعقيدته التي ضلَّ فيها عن الإيمان وحقائقه بالكلية؛ فإن كلَّ مَنْ انحرف عن عقيدة أهل السنة فله حظ من تلك الحيرة، وذاك القلق بحسب انحرافه!

ولذا فإنَّ فئات - كالفلاسفة والمعتزلة ومن شابههم - من أكثر المسلمين انتقالًا في الإيمان من قولٍ إلى قولٍ، ومن حالٍ إلى حالٍ، فتارةً يجزمون بأمرٍ، ثم ينقضونه بعد ذلك، ويجزمون بضده، ثم يتقلون... وهكذا.

وهذا دليلٌ على عدم اليقين، وحرمان الطمأنينة، أمَّا أهل السنة والحديث من الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسانٍ فلا يُعرَف عنهم التلُّون والتنقُّل والتقلُّب الذي عرف عند غيرهم!

وقد قال بعض المتكلمة المتفلسفة: إِنِّي أَبَيْتُ بالليل، وأستلقي على ظهري، وأضع الملحفة على وجهي، وأبيت أقابل أدلة هؤلاء بأدلة هؤلاء، وبالعكس، وأصبح وما ترجَّح عندي شيء^(٢).

وقد قال ابن أبي الحديد المعتزلي^(٣):

فِيكَ يَا أَغْلُوطَةَ الْفِكْرِ حَارَ أَمْرِي وَانْقَضَى عُمْرِي

(١) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي (١/ ٢٣١).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٢٦٣ - ٢٦٤).

(٣) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد (١٣/ ٥١).

سَافَرْتُ فِيكَ الْعُقُولُ فَمَا رَبَحْتُ غَيْرَ أَذَى السَّفَرِ
فَلَحَى اللَّهُ الْأَلَى زَعَمُوا أَنَّكَ الْمَعْرُوفُ بِالنَّظَرِ
كَذَبُوا إِنَّ الَّذِي ذَكَرُوا خَارِجٌ عَنْ قُوَّةِ الْبَشَرِ

وهكذا «إذا نظرت إلى أهل البدع رأيتهم متفرقين مختلفين شيعاً وأحزاباً، لا تكاد تجد اثنين منهم على طريقة واحدة في الاعتقاد، يدع بعضهم بعضاً، بل يرتقون إلى التكفير، يُكْفِّرُ الابن أباه، والأخ أخاه، والجار جاره، وتراهم أبداً في تنازع وتباغض واختلاف، تنقضي أعمارهم ولم تتفق كلماتهم ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤]»^(١).

فكلٌّ مَن عدل عن طريق الإيمان المهتدي بنور الوحي ضلَّ عقله، وزال فهمه! حتى قال الشهرستاني^(٢):

لَعَمْرِي لَقَدْ طُفْتُ الْمَعَاهِدَ كُلَّهَا وَسَيَّرْتُ طُرْفِي بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ
فَلَمْ أَرَ إِلَّا وَاضِعًا كَفَّ حَائِرٍ عَلَى ذَقْنٍ أَوْ قَارِعًا سِنَّ نَادِمٍ
وقال الرازي^(٣):

نَهَايَةُ إِقْدَامِ الْعُقُولِ عِقَالٌ وَغَايَةُ سَعْيِ الْعَالَمِينَ ضَلَالٌ

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، اختصره: محمد بن محمد بن عبد الكريم بن رضوان البعلبي شمس الدين ابن الموصلي، تحقيق: سيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة، مصر، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م (ص ٥٩٩).

(٢) الملل والنحل، للشهرستاني (١/ ٦٣).

(٣) رسالة في ذم لذات الدنيا، للرازي (ص ٢٦٢).

وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا وَحَاصِلُ دُنْيَانَا أَذَى وَوَبَالٌ

وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْنِنَا طُولَ عُمُرِنَا سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا

ولا يظنّ ظانٌّ أن منهج أهل الإيمان الإعراض عن البرهان، بل هم أهل الحجة والبرهان العقلي المستفاد من السنة والقرآن!

وقد قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

والعقل والعقلانية من الدين والإيمان بمكان، وقد قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨].

وقال سبحانه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وعليه؛ فإن أهل الإيمان الصحيح لا يهملون عقولهم، ولا يُقدِّسونها ويعصمونهم! ويجعلونها وراء النقل لا أمامه.

وهم في ذلك وسطٌ بين فئاتٍ أسقطتِ العقل، وهامت في الأوهام والخرافات، وفئاتٍ ألّهتِ العقل وقدّسته، وجعلته حاكماً باستقلالٍ عن الوحي، وعقدت لواء التعارض بين العقل والنقل.

والرسالات والرسل قد تأتي بما يعجز العقل عن إدراكه وفهمه، لكنها لا تأتي بما يعلم العقل، ويقطع بانتفائه واستحالته وخطئه!

والعقلانيون المنتطعون في شأن العقل اليوم يتزيّون بأزياء كثيرة، ويتسمّون بأسماء عديدة، فليحذر منهم!؛ ذلك أنّ طائفةً منهم قد تحلّلوا من الشرائع باسم العقلانية، فصاروا إلى الإلحاد أقرب!

وَمِنْ مقولات بعضهم الضالّة: «فلقد حرّر الإسلام العقل البشري من

سلطان النبوة من حيث إعلانه إنهاءها كليّة، وتخليص البشرية منها^(١).
ولقد شقيت البشرية بنظريات قيل: إنها عقلية، ثم لم تتمخض إلا عن
الوهم والخرافة والخطأ!

فالداروينيّة التي أُطلقت سنة (١٨٥٩م) تضمّنت الإلحاد، ونسبة
الخالقيّة للطبيعة، وادّعت النشوء والتطوّر في المخلوقات لغير خالقها، فلم
تصل في خاتمة المطاف إلا إلى الفشل العلمي، والانحطاط الأخلاقي!
وتراجع عنها أصحابها إلا مَنْ لا عقل له!

وهكذا كلما اخترعت عقولٌ ملحدةً نظرياتٍ تائهةً، وتصوراتٍ شائهةً
عن الإنسان والإيمان، نقضها الوحي والعقل المستنير بنور الإيمان، وأين
هذه الحيرة والاضطراب في الظلمات من التزام المحجّة البيضاء ليلها
كنهارها، وهو على نورٍ من ربه ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]، النور على النور:
نور الفطرة الصحيحة، والإدراك الصحيح، ونور الوحي والكتاب،
فينضاف أحد النورين إلى الآخر، فيزداد العبد نوراً على نورٍ؛ ولهذا يكاد
ينطق بالحقّ والحكمة قبل أن يسمع ما فيه بالأثر، ثم يبلغه الأثر بمثل ما
وقع في قلبه، ونطق به، فيتفق عنده شاهد العقل والشرع، والفطرة والوحي،
فيريه عقله وفطرته وذوقه الذي جاء به الرسول ﷺ هو الحق، لا يتعارض
عنده العقل والنقل ألّبتة؛ بل يتصادقان ويتوافقان^(٢).

وبناءً على ما سبق: فإنّ العقل إذا سار في ضوء الإيمان المستند للوحي
يصل إلى اليقين، وينتهي إلى الاستقرار، ويرتقي الإنسان من الإيمان المجمل

(١) الأسس القرآنية للتقدم، لمحمد أحمد خلف الله (ص ٤٤).

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية، لابن القيم (٢/ ٥٢).

إلى الإيمان المفصل، ومن حال التقليد إلى حال اليقين والإذعان.
وهذا هو ما يعصم الأذهان عن الحيرة والتخبط في متاهات الأوهام والظنون، ويحلُّ عقدة الأسئلة الكبرى في هذا الكون، وحين يقارن المؤمن بين حال أهل الإيمان ممَّا هم عليه من اليقين بصحَّة معتقدتهم، وسلامة عبادتهم، وبين ما عليه مَنْ دخل متاهات الإلحاد، ومن عبد الشجر والحجر، ومن عبد الأوثان والبقر، ومن قال بالتثليث، ومن نسب الولد إلى الله، وتاه بعقله في دروب الكفر بأنواعه - فإنه يحمد الله على ما رَزَقَ من اليقين الجازم بوحدانية الله تعالى.

ذلك أنَّ القلب والعقل فيهما خَلَّةٌ لا يسدُّها إلا الاعتقاد الحق، وحاجةٌ لا تنقضي إلا بمعرفة الرَّبِّ، وهذا يشترك فيه عامة المؤمنين مع علمائهم من أهل السنة والحديث.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «والمقصود: أنَّ ما عند عوام المؤمنين وعلمائهم - أهل السنة والجماعة - من المعرفة واليقين، والطَّمَأينة والجزم بالحقِّ، والقول الثابت، والقطع بما هم عليه - أمرٌ لا يَنازع فيه إلا من سلبه الله العقل والدين»^(١).



الفصل الثاني

فضل الإيمان

إنَّ للإيمان بالله تعالى فضلاً لا يُدانيه فضلٌ، ولا يبلغه شرفٌ بحالٍ من الأحوال، فلا عَرَوْا أَنَّ صارت العناية بالإيمان فوق كلِّ عنايةٍ، والرعاية لحقوقه وواجباته وظيفة كلِّ مؤمنٍ، ومهمة كلِّ مسلمٍ. ويتقرَّر فضل الإيمان بالنظر إلى جهاتٍ، منها: شدَّة الحاجة إليه، وعظم موضوعه الذي يتعلَّق به، وشدَّة خطر ما يناقضه ويعارضه.

وهذا بيانٌ لتلك الجهات:

أولاً: شدَّة الحاجة إلى الإيمان:

لقد تقدَّم أنَّ الحاجة إلى الإيمان فطريَّة، وهي - أيضاً - نفسيَّة، كما هي عقليَّة وعمليةٌ.

وهنا يتقرَّر: أنَّ الحاجة إلى الإيمان شرعية - أيضاً -؛ ذلك أنَّ الله تعالى طلب الإيمان من كلِّ مكلفٍ، وأمر به، وأثنى على أهله، ومدح من توسَّل به إليه، ووعد عليه أجراً عظيماً، وعده الله ورسوله أفضل الأعمال والأقوال والواجبات، وأول التكاليفات.

أمَّا كونه مطلوباً ومأموراً به أمراً عاماً؛ فلقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

ولقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

وقد أمر الله بأقوال الإيمان وأفعاله بعد علمه واعتقاده، فقال سبحانه: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢].

ولهذا كان الإيمان بالله وحده أول الواجبات وأولها، وآخرها وخاتمها.

قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

وفي الحديث: «إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ؛ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: عِبَادَةُ اللَّهِ»^(١).

وفي الحديث - أيضًا -: «إِنَّ الْعَبْدَ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ فِي قَبْرِهِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟»^(٢).

ومما يدل على أنه آخر واجب ومطلوب: حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(٣).

وفي حديث عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٤).

وكما هو آخر واجب في الدنيا، وأول ما يُسأل عنه العبد في القبر، فهو ما يُسأل عنه جميع الخلائق يوم القيامة.

وذلك لما رُوِيَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَابْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَمَجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ

(١) أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩) من حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٥٣) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٩١٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (٢٦).

تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]. قالوا: «عَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(١).
قال ابنُ أبي العزِّ الحنفي رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أنَّ التوحيد هو أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأوَّل مقام يقوم فيه السالك إلى الله ﷻ...؛ ولهذا كان الصحيح: أنَّ أول واجبٍ يجب على المكلف: شهادة أن لا إله إلا الله...»^(٢).

ولهذا قال الناظم:

أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَى الْعَبِيدِ مَعْرِفَةُ الرَّحْمَنِ بِالتَّوْحِيدِ^(٣)
وعليه؛ فَإِنَّ تَعْلُمَ فرض العين من علم الإيمان هو أول الواجبات وأولها وأفرضها على المُكَلَّفِينَ أَجْمَعِينَ، فهو غاية خَلْقِ الجنِّ والإنس، وهو مقصود إرسال الرسل أَجْمَعِينَ.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ولا تتأتَّى عبادة الله قبل الإيمان به وتوحيده.
قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وَلَمَّا كَانَ الإيمان بالله وحده بهذه المثابة من الأمر به، وطلبه طلباً عاماً، وأوَلِيَّتُهُ وأوَلَوِيَّتُهُ كان أفضل الأعمال وأرجاها عند الله تعالى، وقد سُئِلَ

(١) أخرجه الطبراني في الدعاء (١٤٩٢، ١٤٩٣، ١٤٩٤، ١٤٩٦، ١٤٩٧).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢١) وما بعدها.

(٣) منظومة سلم الوصول، لحافظ الحكمي، تعليق: علوي السقاف، مؤسسة الدرر السنية للنشر (ص ١٤).

النَّبِيُّ ﷺ: (أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟) فَقَالَ: إِيْمَانُ بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ.

قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ.

قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: حَجُّ مَبْرُورٍ^(١).

وَقَالَ ﷺ: «أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ عِنْدَ اللّٰهِ: إِيْمَانٌ لَا شَكَّ فِيهِ»^(٢).

وَأخِيرًا: فَإِنَّ الْإِيْمَانَ بِاللّٰهِ وَحْدَهُ هُوَ الشَّرْطُ لَصِحَّةِ وَقَبُولِ سَائِرِ الْعِبَادَاتِ،

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ

فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ

عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

«فَأَصْلُ الصَّلَاحِ: التَّوْحِيدُ وَالْإِيْمَانُ، وَأَصْلُ الْفَسَادِ: الشُّرْكُ وَالْكَفَرُ»^(٣).

ثَانِيًا: جَلَالَةُ مَوْضُوعِ الْإِيْمَانِ:

إِنَّ مَوْضُوعَ الْإِيْمَانِ هُوَ: اللّٰهُ تَعَالَى مِنْ حَيْثُ مَا يَجِبُ لَهُ مِنَ الْوَحْدَانِيَّةِ،

وَالْإِنْفِرَادِ بِصِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَالْإِنْفِرَادِ بِالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ، وَالْإِنْفِرَادِ

بِاسْتِحْقَاقِ الْأُلُوهِيَّةِ وَالْعِبُودِيَّةِ لِلّٰهِ وَحْدَهُ.

وَمَا أَوْجَبَهُ اللّٰهُ تَعَالَى مِنَ الْإِيْمَانِ بِمَلَائِكَتِهِ، وَمَا يَجِبُ لَهُمْ، وَمَا يَجُوزُ،

وَمَا يَمْتَنِعُ فِي حَقِّهِمْ.

وَمَا أَوْجَبَهُ اللّٰهُ مِنَ الْإِيْمَانِ بِكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ، وَمَا يَجِبُ وَمَا يَجُوزُ وَمَا يَمْتَنِعُ

فِي حَقِّهِمْ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٦)، وَمُسْلِمٌ (٨٣) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٧٥١١)، وَالدَّارِمِيُّ (١٤٦٤) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ.

(٣) مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى (١٨/١٦٣).

وما أوجبه الله من الإيمان باليوم الآخر، والقدر خيره وشره، حلوه ومُره. وبناءً على ذلك كله: فإن الإيمان يتعلق بأشرف ذاتٍ، وأكمل موصوفٍ، وهو: الله الحي القيوم، المتفرد بصفات الجلال والجمال والكمال، ونعوت الكبرياء والعزة والجبروت والملكوت.

وتحقيق الإيمان وبيان حقيقته، وحقيقة ما يعارضه، أو يناقضه، أو يضاده من الشرك والكفر والنفاق ونحوها من أهم ما تتعلق به همّة المكلف في هذه الحياة، ولأجل ذلك كله سمّى بعض السلف علم الإيمان بـ(الفقه الأكبر). ومعلوم أنّ علم الإيمان والتوحيد هو أشرف المعلومات؛ إذ هو مراد الله الشرعي الدال عليه وحيه وكلامه، الجامع للعقائد الحقة؛ كالأحكام الإيمانية المتعلقة بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والبعث بعد الموت، والقدر، وحق الله على عباده، وهو عبادته وحده لا شريك له. وإفراد الله تعالى وحده بالعبادة لا شريك له هو دعوة النّبيين أجمعين، وهو موضع النزاع بين الرّسل وأمّمهم، قال تعالى - على لسان أنبيائه - في مواضع عديدة من كتابه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥، هود: ٥٠، ٦١، ٨٤، المؤمنون: ٢٣، ٣٢]؛ ولهذا كله فإن علم الإيمان هو أشرف العلوم موضوعاً ومعلومًا؛ إذ شرف العلم بشرف المعلوم.

ومعلوم الإيمان هو: الأحكام الاعتقادية المكتسبة من الأدلة المرصّة من كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ.

والقرآن من فاتحته إلى خاتمته في بيان معلوم التوحيد والإيمان، وتقدير ما يجب على الخلق من الاعتقاد الحق، وفي بيان حقوق الإيمان ومُكمّلاته، ومقتضياته، أو في البشارة بعاقبة المُوحّدين في الدنيا والآخرة،

وفي النذارة بعقوبة المشركين والمعاندين في الدارين.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «وقد كان النبي ﷺ يحقق هذا التوحيد لأُمته، ويحسم عنهم موادَّ الشرك؛ إذ هذا تحقيق قولنا: لا إله إلا الله؛ فإنَّ الإله هو الذي تأله القلوب؛ لكمال المحبة والتعظيم، والإجلال والإكرام، والرجاء والخوف»^(١).

ثالثاً: شدة خطر ما يناقضه ويعارضه:

وممَّا يظهر فضل الإيمان: بيان خطر أضداده، وما يناقضه من الكفر والشرك والنفاق والظلم والفسق ونحوها.

فمن هُديَ إلى الإيمان بالله وحده فقد انطلق من الحقِّ، وابتدأ سيره إلى الإله الحق، ومن ضلَّ عن الإيمان فقد انحرفت به السبل كافة، وكان بناؤه كله على شفا جُرْفٍ هارٍ من الضلالة، والتَّخبط، والاضطراب، وشؤم العاقبة في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴾ (١١٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١١٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ الْيَوْمَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١١٦﴾

عَايِنَّا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿ طه: ١٢٤-١٢٦ ﴾.

وكلُّ من تردَّى في مهاوي الشرك والكفر بالله بقي في حالةٍ من الشك والريب والنفاق، قال تعالى: ﴿ مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ (١٤٣) يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿ النساء: ١٤٣-١٤٥ ﴾.

(١) مجموع الفتاوى (١/١٣٦).

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة: ٤٥].

وفي الحديث: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلتقي الله بهما عبدٌ غير شاكٍّ، فيُحجَبَ عَنِ الْجَنَّةِ»^(١).

والكفر والشرك والإلحاد بأنواعها ذنوبٌ لا يغفرها الله لمن مات مُصِرًّا عليها.

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال تعالى - على لسان إبراهيم عليه السلام -: ﴿ وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وكلُّ مَنْ وقع في الشرك، أو الكفر، أو النفاق فقد نزل عن رتبة الأنعام، بل الأنعام أهدى منه سبيلاً.

قال تعالى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤].

لَبِستُ ثوبَ العِيشِ لَمْ أُسْتَشِرْ وَحِزْتُ فِيهِ بَيْنَ شَتَى الْفِكْرِ
وَعَدًا سَوْفَ أَنْضُو الثَّوْبَ عَنِّي وَلَمْ أَدْرِ لِمَاذَا جِئْتُ أَيْنَ الْمَفْرِ؟!

«إنَّ السلامة من الشرك والكفر والنفاق يعني: امتناع الخلود في النار لمن

(١) أخرجه مسلم (٢٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ظلم نفسه من الموحدين، ودخول الجنة لمن اقتصد من أصحاب اليمين بلا سابقة عذاب في النار، والفوز بالدرجات العلى لمن سبق بالخيرات من السابقين المُقَرَّبِينَ مع رضوان الله تعالى، ورؤية وجهه الكريم في الجنَّات، وهو غاية المطالب، ونهاية الرغائب لجميع المؤمنين^(١).

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [فاطر: ٣٢-٣٣].

فَاللَّهُمَّ آتِنَا مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، وتوفنا على الإيمان الكامل برحمتك يا أرحم الراحمين.



(١) طريق الهداية، لمحمد يسري (ص ٢٠٨).

الفصل الثالث ثمرات الإيمان



إنَّ غاية الإيمان جليلة، وآثاره وفوائده في الدنيا والآخرة عميمة، وأغراضه ومقاصده العلمية والعملية قويمه، فطوبى لمن تحقق بالإيمان، وكان من أهله، فذاق حلاوته، وانتفع بثمرته.

وثمرات الإيمان فوق أن يأتي عليها حصراً، وأكثر من أن تضبطها جهة واحدة، فهي دينية ودنيوية كما هي ثمرات أخروية.

وهذا تعدادٌ لبعضها باعتبارات ثلاثة:

أولاً: ثمرات الإيمان الدينية:

١- الوصول إلى برِّد اليقين بمعرفة ومعاملة ربِّ العالمين:

فالإنسان بغير إيمانٍ ويقينٍ لا يسكن ولا يستقر في قرار مكين، فهو كَرِيشَةٍ في مهبِّ الريح، أو سفينةٍ تتقاذفها الأمواج في يوم عاصف! وما أوسع البونَ بين حال من حدَّث عن نفسه حائراً قائلاً:

أَحْسُ فِي نَفْسِي دَيْبَ الْفَنَاءِ وَلَمْ أَصِبْ فِي الْعَيْشِ إِلَّا الشَّقَاءَ
يَا حَسْرَتًا إِنَّ حَانَ حِينِي وَلَمْ يُتَخْ لِفِكْرِي حَلٌّ لُغْزِ الْقَضَاءِ

وقال - أيضاً -:

وَقَفَ الْكَوْنُ حَائِرًا أَيْنَ يَمْضِي وَلِمَاذَا أَوْ كَيْفَ لَوْ شَاءَ يَمْضِي

عَبَثَ ضَائِعٌ وَجْهَهُ غَبِيْنٌ وَمَصِيْرٌ مُّقَنَّنٌ لَيْسَ يُرْضِي

وما أحسن حالته حين أوى إلى جنة اليقين:

كَانَتْ لِقَلْبِي أَهْوَاءٌ مُفَرِّقَةٌ فَاسْتَجَمَعْتُ مُذْ رَأَيْتُكَ الْعَيْنُ أَهْوَائِي

فَصَارَ يَحْسُدُنِي مَنْ كُنْتُ أَحْسُدُهُ وَصِرْتُ مَوْلَى الْوَرَى مُذْ صِرْتُ مَوْلَائِي

إِنَّ مِنَّةَ الْإِيْمَانِ وَالْيَقِيْنِ أَعْظَمُ مِنْ مِنَّةِ الْخَلْقِ وَالْإِيْجَادِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، فَيَا فُوزَ الْمُؤْمِنِيْنَ الْمَوْقِنِيْنَ!

٢- تحقيق الإخلاص وأعمال القلوب كافة:

الإخلاص يتوقف في حصوله وكماله على معرفة العبد لربه، وإيمانه به، وتعظيمه وتأليهه لخالقه، وَمَنْ كَانَ بِاللّٰهِ أَعْرَفَ كَانَ لَهُ أَخْلَصُ، ومنه أخوف! وفيما عند الله أرغب، ومن عقابه أرهب!

قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُوْا إِلَّا لِيَعْبُدُوْا اللّٰهَ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ﴾ [البينة: ٥].

وقال تعالى: ﴿أَلَا لِلّٰهِ الدِّيْنُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

وأعمال القلوب من الإيمان، بل هي أصله، وكلما قوي الإيمان في القلب كانت أعمال القلوب فيه أرجى وأنفع، وكانت أعمال الجوارح أكثر وأصلح.

وإنما تتفاضل الأعمال بحسب ما يقوم بالقلب من أحوال!

وفي الحديث: «أَلَا وَإِنْ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةٌ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(١).

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

والقلب لا يصلح، ولا يفلح، ولا يسكن، ولا يطمئن إلا بالإيمان بالله وحده، وعبادة الله وحده، والرغبة في رحمته، والرغبة من عقوبته، وهو محتاج، بل مضطر، ومفتقر إلى ربه من حيث هو معبوده وخالقه ومحبوبه ومطلوبه، وبه تحصيل كل مصالحه.

٣- اشتغال الجوارح بالصالحات، وقبولها عند رب الأرض والسموات:
قال سبحانه: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُوبٌ﴾ [الأنبياء: ٩٤].

فلا يُجحد عمله، ولا يخيب سعيه، بل يثاب عليه أضعافاً مضاعفة بحسب قوة إيمانه، وصحة يقينه، وأعمال الجوارح شديدة الارتباط بإيمان القلب، والإيمان بلا عمل شجرة بلا ثمر.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

فأعظم ثمرات الإيمان واليقين: السعي في طلب مرضاة رب العالمين، والإيمان سبب لصحة وكمال جميع الأقوال والأفعال الصالحة الصادرة عن العبد في هذه الحياة، وهو شرط في قبولها، فمن لم يكن مؤمناً فلا انتفاع له بعمله في الآخرة!

قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].
وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

ولهذا لا يتقبل الله من كافر صالحه في الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

٤- حفظ علم الإيمان، وعلوم الإسلام:

وذلك بحفظ قواعد الإيمان وأصوله ومسائله، وفي هذا حفظ الدين بأسره؛ لأن علم الإيمان دين يدان الله تعالى به.

قال ابن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن هذا العلم دين؛ فانظروا عمن تأخذونه»^(١).
وقال ابن جماعة رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن تعليم العلم من أهم أمور الدين، وأعلى درجات المؤمنين»^(٢).

وإقامة علم الإيمان في هذه الحياة يقيم ما عداه من علوم الأصول والفروع.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «والعلم أصل العمل، وصحة الأصول توجب صحة الفروع»^(٣).

فإقامة علوم الدين إنما تبنى على إثبات وجود إله عظيم، مُرسلٍ للرسول، مُنزلٍ للكتب، يتأله الخلق محبة وذلاً، وبغير هذا العلم لا يُتصور وجود علم تفسير، أو حديث، أو فقه.

٥- هداية وإرشاد الخلق، ودعوتهم إلى الحق:

وهذا من أظهر الثمرات الدينية؛ إذ لا يتأتى تحصيل دعوة الخلق إلى

(١) أخرجه مسلم في مقدمة الصحيح (١/ ١٤)، وروي عن أبي هريرة وغيره.

(٢) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناشي الحموي الشافعي بدر الدين، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط ٣، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م (ص ٤٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ٥٣).

الحق إلا بالإيمان، ومعرفة أحكامه، وما يتعلق به، فمن آمن وعلم وعرف أحكام الإيمان أمكنه أن يدعو إلى الله، وإلى الإيمان برسالة رسول الله ﷺ، وأمكنه أن يرد الشبهات الضالة، ويدفع في نحر الأهواء المنحرفة، فكان في عداد من قال فيهم إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ: «ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»^(١).

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ
بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: ٩].

ومن لوازم حصول الهداية، وتحصيل أسبابها: النجاة في هذه الحياة من الانحراف عن الصراط المستقيم، والعافية من سلوك سبيل المجرمين، قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقال تعالى - عن نبيه ﷺ -: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].
والنَّجَاةُ تحصل بمجانبة سبل المنحرفين، ومفارقة طرق المخالفين.
قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

ودعاء المؤمنين في كل صلاة ووقت وحين: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

٦- محبة الله للمؤمنين وولايته:

وهاتان من أعظم الثمرات في هذه الحياة؛ ذلك أنَّ من فاز بهما فاز بكل خير، وحصل له كل فضل!

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

وقال سبحانه: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال سبحانه: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٣].

وكل من أحبه الله وتولاه فقد جعل محبته في القلوب، وهذا أمر لا بد منه، ولا غنى عنه^(١).

وفي الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جَبْرِيْلُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جَبْرِيْلُ، فَيُنَادِي جَبْرِيْلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبُوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»^(٢).

٧- عزة أهل الإيمان، واستعلاء أهل اليقين:

من الثمرات التي يجنيها المؤمنون في هذه الحياة ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

فأهل الإيمان أعزة ما داموا بالإيمان مستمسكين، وبعروته الوثقى متشبثين. ف«العزة والعلو إنما هما لأهل الإيمان الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، وهو علم وعمل وحال، قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]»^(٣).

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ١٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧).

(٣) إغاثة اللهفان (٢/ ١٨١).

وما أحسن فقه الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قال: «إنا كنا أذل قوم، فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله»^(١).

٨- حصول معية الله للمؤمنين المتقين:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].
وَهِيَ مَعِيَّةٌ توفيق وتسدید، ونصر وتأيید، وهي لعباد الله المخلصين، ولجنده المفلحين، وأوليائه الصالحين.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وقال تعالى: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافُ إِنَّنِي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦].

فمن كان الله معه فالعون في ركابه حيثما توجه، والحفظ في جهاته أينما توجه، والفلاح والنجاح في طريقه وسبيله، لا يحزن، ولا ييأس، لا يشقى، ولا ينصب.
يستقوي بالله إذا استقوى الخلق بسواه، ويستغني بالله إذا استغنى الناس بمن عداه!

ثانياً: ثمرات الإيمان الدنيوية:

١- الحياة الطيبة، والسعادة العاجلة:

إن الإيمان هو عنوان السعادة في الدنيا؛ ذلك أنه يُشعر العبد بخيرية ذاته وعمله وماله، فهو راحة المعذبين، وفرح المحزونين، ونجاة المكروبين، وأمان الخائفين!

(١) أخرجه الحاكم (٢٠٧).

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

فالإيمانُ يثمر طمأنينة القلب، وراحة البال، والرضا بما قدر الله وقضى؛ ذلك أن العبد المؤمن إنما تطيب حياته بمعرفته لربه، وعبوديته له وحده، ومهما ارتفع عبد في هذه الحياة فإنه لا يرتفع بمثل العبودية لله!

قال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

وقال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١].

والتعرف إلى الله بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى يثمر ثمرات السعادة والرضا والهناء للعبد المؤمن، فلا يعتريه قلق على رزق، ولا يجزع لتقلب حاله في الدنيا، ولا يلتفت لزوال لذاتها إن زالت؛ لأنه يتلذذ بلكذات معنوية غالية من معرفة ربه، ومحبته، والأنس به؛ ولهذا قالوا: إن في الدنيا جنة، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة!

ولكل ركن من أركان الإيمان أثره البالغ في تحصيل سعادة المؤمن في هذه الحياة؛ «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ...»^(١).

٢- قيام المدنية، وازدهار الحضارة:

ينظر الناس إلى ازدهار الحضارة، وقيام المدنية بعين الإجلال والرضا،

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد يعدده بعضهم آخر المطاف، وخلاصة السعي في هذه الحياة.
وتحصيل انتظام العيش، وطيبُ المقام في هذه الحياة إنما هو ثمرة
مباشرة للإيمان بالله تعالى ورسالاته.

قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِم بِرِكَاتٍ مِّنَ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال سبحانه: ﴿وَالْوَالِدَاتُ اللَّائِي أُتْنِيَهُنَّ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].
وقال جلَّ وعَلَا: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ
مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيُنِيزَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].
ولا تنقيد النعم بمثل الشكر الذي هو نصف الإيمان، قال جلَّ وعَلَا: ﴿وَإِنْ
تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨].

وقال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي
لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

٣- استقامة الأخلاق:

إن أخلاق أهل الإيمان هي أكمل الأخلاق من كل الجهات، فهي
أخلاق لا تتبدل، ولا تتغير بتغير الأحوال، وهي أخلاق ظاهرة وباطنة في
السر والعلن، مع كل الخلق، وعلى كل حال، وهي أخلاق لا يراد من أحد
ثواب عليها؛ لأنها عبادة يتوجه بها المؤمن إلى الله!

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُطْعَمُونَ لُجُوهَ اللَّهِ لَا تُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: ٩].

ومن ثوابها الدنيوي: وقاية السوء بكل معنى.

وفي الحديث: «صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السَّوِّءِ»^(١).

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٨ / ٣١٢) من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فأخلاق المؤمنين جامعة لكل معروف خُلقي، وكما هي شاملة للأخلاق مع الناس فهي - أيضًا - مع الملائكة؛ استحياء لهم، وإكراما أن يطلعوا من العبد على ما لا يليق، فضلا أن يؤذيه المومن بشيء مما يتأذى به بنو آدم.

وهكذا فإن أهل الإيمان يتشبهون ويقتدون في أخلاقهم بالنبى العدنان، وبسائر أنبياء الله الكرام، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْنُهُمْ أَفْتَدِ﴾ [الأنعام: ٩٠].

«فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم، وما جاءوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال»^(١).

٤- الاجتماع والألفة:

إن أهل الإيمان هم أهل الاجتماع على الحق، وهم أهل الألفة والوحدة بما اجتمعوا عليه من توحيد الله تعالى وطاعته - ظاهراً وباطناً - فهم المعتصمون بالكتاب والسنة، الماضون على طريق الأئمة، لما أقاموا الدين - كما أمر رب العالمين - جازاهم على جمعه بجمع كلمتهم، ووحدة صفوفهم، فإن أخلوا بواجب الإيمان، واختلفوا في الحق عُوقبوا بالفرقة، وذَهَاب الألفة!

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

(١) زاد المعاد (١/ ٦٨).

فأخبر: أن أهل الرحمة لا يختلفون، وأهل الرحمة هم أتباع الأنبياء - قولا وفعلا - وهم أهل القرآن والحديث من هذه الأمة، فمن خالفهم في شيء من ذلك فاتته من الرحمة بقدر ذلك^(١).

وأساس وحدة الأمة هو إيمانها بربها وحده، وتحكيمها لكتابه، واتباعها لسنة نبيه ﷺ على منهاج الصحابة رضي الله عنهم.

٥- انشراح الصدور، وطمأنينة القلوب، واستنارة البصائر:

انشراح الصدور: اتساعها وانفساحها لنور الإيمان، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

وقال سبحانه: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وإذا انشاحت الصدور اطمأنت القلوب، وهذأت النفوس، وحصل لها من اللذة والسكون والسكينة والطمأنينة ما لا يتأتى بغير الإيمان واليقين، وهذا سر الأمن النفسي الذي يكون لأهل الإيمان، قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

فمَن أراد الله له الأمن هداه إلى الإيمان والإسلام أولا، ثم هداه إلى سلامة الإيمان من شوائب الأهواء والانحرافات آخرا.

ومن ثمرات انشراح الصدور، واطمئنان القلوب: استنارة البصائر، والسلامة من الوسوس والهواجس الشيطانية.

(١) مجموع الفتاوى (٤/٥٢).

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (١٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿[النحل: ٩٨ - ١٠٠].

٦- المدافعة عن المؤمنين، والنصر على المحاربين، والاستخلاف في الأرض

والتمكن:

من أعظم ثمرات الإيمان وعاجل جزائه في الدنيا: مدافعة الله تعالى عن عباده المؤمنين، وتولي نصرهم على أعدائهم من الكافرين والمنافقين، وضمّان نجاتهم على رب العالمين.

قال سبحانه - في دفاعه عنهم -: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]. ولم يذكر ما يدافعه ويدفعه حتى يكون أعظم وأعم وأتم، وقال سبحانه: ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١].

وقال سبحانه - في نصرتهم -: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]. فهو سبحانه من جعل نصرتهم عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١].

وقال تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرُكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]. وقال سبحانه: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣].

ومهما أحاط بأهل الإيمان من المخاوف والمتالف والأعداء فإن نجاتهم على الله تعالى، قال جلّ وعلا: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿وَنَجِّينَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ﴾ [فصلت: ١٨].

والاستخلاف في الأرض ثمرة مباشرة للإيمان والعمل الصالح، قال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ

وَلْيَبْدِلْهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴿٥٥﴾ [النور: ٥٥].

ثالثاً: ثمرات الإيمان الآخروية:

١- الأمن في الآخرة:

بالقيامة فزع هائل، ورعب طائل، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوِّهٍ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧].
ذلك أنه يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار، وفيه يغضب الجبار غضباً لم يغضب قبله مثله!

وفيه من العذاب ما فيه، قال جلّ وعلا: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢].

وأهل الإيمان لا يفرعون في ذلك اليوم الشديد، ﴿لَا يَخْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وما ذاك إلا لأنهم جاءوا بحسنة الإيمان، والعمل الصالح، قال سبحانه: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

وفي عموم قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] ما يدل على حصول الأمن في الدنيا والآخرة.

٢- امتناع الخلود في النار:

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

وفي الحديث: «مَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ، وَمَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١).

وفي الحديث - أيضًا -: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ»^(٢).

وفي الحديث: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزَنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزَنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزَنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ»^(٣).

٣- دخول الجنة ابتداء:

قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ [النساء: ١٢٢].
وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ [التوبة: ٧٢].

ومن المؤمنين مَنْ يدخل الجنة بغير حساب، ولا عذاب، وهم الذين لا يَسْتَرْقُونَ، ولا يَكْتُون، ولا يَتَطَيَّرُونَ، وعلى ربهم يتوكلون.
وكل مَنْ رجحت كفة حسناته على سيئاته من المؤمنين فإنه يدخل الجنة، ولا يلج النار إلا تحلة القسم، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١].

٤- تحصيل الدرجات العلى من الجنات:

أهل الجنة مراتب متفاوتة؛ لأن الجنات درجات بعضها فوق بعض، قال

(١) أخرجه البخاري (١٢٣٨)، ومسلم (٩٢) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٥٩٤)، والترمذي (٣٠٩٢) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٤٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سبحانه: ﴿وَلَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف: ١٩].

وفي الحديث: «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق، من المشرق، أو المغرب؛ لتفاضل ما بينهم»^(١).

وأعلى الجنة وأوسطها: الفردوس، ولما أخبر النبي ﷺ بتفاضل درجات الجنة، قال بعض الصحابة: «يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟! قال: بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين»^(٢).

٥- حصول مَرَضَاةِ اللَّهِ:

إن مرضاة الله تعالى من أعظم المطالب، وأسنى الرغائب، قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وقال جل وعلا: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].
وقال ﷺ - فيما رواه عن ربه من عطيته لأهل الجنة -: «أُحِلَّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهذا أعظم من نعيم الجنة!

٦- رؤية وجه الله الكريم:

قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

لقد علم النبي ﷺ في دعائه: «... وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ نَظَرٍ إِلَىٰ وَجْهِكَ، وَالشُّوقَ إِلَىٰ لِقَائِكَ، مِنْ غَيْرِ ضَرَاءٍ مُّضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُّضِلَّةٍ»^(١).

وقد أخبر النبي ﷺ عن رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، وفي الجنة على حد سواء.

وقد قال ﷺ: «... فَإِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ»^(٢).

ثم إن رؤية الله في الجنة أعظم نعيمها، وهي الزيادة التي ذكر الله تعالى في القرآن: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وفي الحديث: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﷻ، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]»^(٣).



(١) أخرجه أحمد (٢١٦٦٦) من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (١٨١) من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

البَابُ الثَّانِي

فقه الإيمان

الفصل الأول: تلقي الإيمان.

الفصل الثاني: علم الإيمان.

الفصل الثالث: أسماء الإيمان.

الفصل الرابع: حقيقة الإيمان.

الفصل الخامس: شعب الإيمان.

الفصل السادس: زيادة الإيمان ونقصانه.

الفصل السابع: مراتب الإيمان.

الفصل الأول

تلقي الإيمان



إنَّ الإيمان هو الدُّرة اليتيمة، والجوهرة العظيمة، وهو أول ما يُتلقَّى من الدين، وأعظم ما عني بتعليمه سيدُ الأنبياء والمرسلين ﷺ.

والانحرافُ عن الإيمان من أخطر الأدواء والمنكرات؛ ذلك أنَّ قومًا من الناس انحرفوا عن جادة الإيمان الصحيح، فعبدوا مع الله غيره، وادَّعوا لله صاحبةً وولداً، وقالوا -تعالى الله-: إن الله ثالث ثلاثة! ثم إن قومًا آخرين شهدوا لله بالتوحيد، وللنبي ﷺ بالرَّسالة، ثم انحرفوا عن جادة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في تلقي الإيمان، فلم يهتدوا، بل ضلوا وأضلوا! وقد قال تعالى - عن أهميَّة الإيمان بما آمَنَ به الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِمْ فَقَدْ أَهْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٣٧].

وكثيرٌ ممَّن خالفوا منهج الصحابة في تلقي الإيمان تشعَّبَ بهم المسالك، وانقطعت بهم السُّبل، وتاهوا في صحاري المهالك!

فصار الإيمان لدى بعضهم معرفةً ذهنيَّةً عقليةً باردةً، أقرب إلى الآراء الفلسفية منها إلى الإيمان الحيِّ الفعَّال، الذي يستمد من الوحي.

وغداً الإيمان لدى طائفةٍ أخرى تصديقاً جامداً لا حيوية فيه، ولا ثمرة له، ولا تأثُّر به.

وصار الإيمان عند آخرين مشاعرَ وعواطفَ وانفعالاتٍ، وسُبُحاتِ فكرٍ،

وخطرات خيالٍ، ورؤى نفسٍ، تُحدث نوعاً من المتعة النفسية، والسياحة الخيالية، ولا تنشئ واقعاً بالأعمال الجادة، والمجاهدات الصادقة!

لقد أصبح الإيمان على هذا النحو خامداً جامداً لا يُثبت قدّمي العبد على طاعة الربِّ، ولا يوصل إلى المنازل العالية في الدار الآخرة، وإن كان يحوّل بين العبد وبين الخلود في النار يوم القيامة.

وعلة تلك الأدواء هي الخلل في منهج تلقي الإيمان، والحيدة عن منهج التلقي للإيمان عند الصحابة رضي الله عنهم.

ومن العجب: أن يعتني المسلمون في حياتهم بأشياء كثيرة ليس من بينها الإيمان! والأعجب: أن يعتني الدعاة إلى الله بأمور من الدين عديدة، ويغفلون الإيمان، أو يهملون تصحيحه، أو الدعوة إلى تجديده!

وكل من أراد للدعوة نجاحاً فليبدأ برأس أمرها، وهو: الإيمان بالله وحده، وعلى منهج النبي ﷺ الذي علّمه للصحابة رضي الله عنهم، ولقنه الصحابة للتابعين.

معالم منهج تلقي الإيمان:

لهذا المنهج الرباني معالمٌ، نُجملها فيما يلي:

أولاً: الإيمان قبل القرآن:

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «لقد عشنا برهةً من دهرنا وإنّ أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حرامها وحلالها، وزاجرها وأمورها، وما ينبغي أن يوقف عنده منها، كما تتعلّمون أنتم القرآن.

ثم قال: لقد رأيت رجلاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته لا يدري ما زاجره ولا أمره، ولا ما ينبغي أن يوقف عنده

منه، ينثره نثر الدَّقَل»^(١).

وعبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وُلِدَ بعد البعثة بثلاث سنين، وهاجر وهو ابن عشر سنين، وردَّه النبي ﷺ في بدرٍ وأُحِدٍ لصغر سنِّه، وأجازَه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة، ومات النَّبِيُّ ﷺ وابن عمر له إحدى وعشرون سنة، ثم عاش بعد النبي ﷺ نحو اثنتين وستين سنة، وكانت وفاته سنة اثنتين أو ثلاثٍ وسبعين من الهجرة النبوية.

ولهذا فقد شهد ابن عمر عهد الصفاء والنقاء، وأدرك أول ظهور الكدر والبدع، وذلك في مسألة القدر، كما أدرك خروج الخوارج، ورفض الروافض، ثم إنه في هذا الحديث يَبَيِّنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ القضية الأساسية، ومنهج تلقِّيها، إنها قضية الإيمان ومنهج تلقِّيهِ وأخذه عن النبي العدنان ﷺ، وذلك ليدلَّ أهل زمانه - وأهل كل زمان - على العلاج الناجع لتلك الأدواء والأهواء، والذي يمكن إجماله فيما يلي:

- إنَّ الإيمان يجب أن يُتلقَّى قبل القرآن!

- إنَّ الإيمان يجب أن يتحقَّق ويرسخ قبل التوسُّع في تلقِّي التكليف العملية، والأحكام الشرعية.

- إنَّ الإيمان يعني: تعظيم وتأليه الرحمن أولاً وقبل كل شيء.

- إنَّ الإيمان محبةٌ وتذلُّلٌ، خوفٌ ورجاءٌ، توكلٌ وصبرٌ، تقديسٌ وتنزيهٌ، إخبارٌ وخضوعٌ، استعانةٌ ورضاٌ، إجلالٌ وثناءٌ، حمدٌ وتمجيدٌ، انقيادٌ واستسلامٌ، بذلٌ لله وعطاءٌ في سبيل الله، وطاعةٌ وامتنالٌ، وتلقُّ عن الله في كلِّ مجالٍ.

(١) أخرجه الحاكم (١٠١)، والبيهقي في الكبرى (٥٣٥٥)، والدَّقَل: رديء التمر.

- إن الإيمان محبةٌ للرسول ﷺ، وتعزيزٌ وتوقيرٌ، وتفديةٌ له ولدينه بالنفس والنفيس، وهو اتباعٌ وطاعةٌ، دعوةٌ وبلاغٌ.

وقد علّم النبي ﷺ ابنَ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وهو غلامٌ - طرفاً من الإيمان، فقال: «يَا غُلامُ، إِنِّي أَعَلَّمُكَ كَلِمَاتٍ: أَحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، أَحْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»^(١).

وهكذا يتلقّى الغلام أن يتّجه إلى الله تعالى وحده بالسؤال والاستعانة، وأن يتيقن قدرة الله على النفع والضرر وحده لا شريك له، فيصحّ بذلك إيمانه، ويستقرّ يقينه، ويبدأ البداية المستقيمة، ويفهم أن التلقّي إنما يكون عن الله ومن الله، وقد قال ﷺ - لمعاذٍ -: «إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلُ كِتَابٍ؛ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: عِبَادَةُ اللَّهِ»^(٢).

فهذا هو رأس الأمر وأسه وأساسه، ألا وهو: الإيمان، وعبادة الواحد الديان!

ثانياً: الوحي مصدر الإيمان:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].
إنَّ مصدر الإيمان هو الوحي المعصوم الذي لا يأتيه الباطل من بين

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

يديه، ولا من خلفه، إِنَّهُ الْحَقُّ الْمَطْلُوقُ، الذي لا ارتياب فيه، قال الحق تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ [الزخرف: ٨٦]، إنه العلم الحق، والحجة الدامغة، والهدى المستقيم، والاعتصام بالوحي - كتاباً وسُنَّةً - هو العصمة من كل انحراف، والسلامة من كل تَلَفٍ.

والوحي تدور رحاه على الإيمان والتوحيد، فالقرآن من فاتحته إلى خاتمته يتضمّن التوحيد بالنص عليه، أو بالدعوة إليه، أو ببيان حقوق الإيمان ومكملاته، أو ببيان ثوابه جزائه، أو ببيان خطر الكفر، أو الشرك، وشؤم عاقبته وجزائه.

وقد عَلِمَ بالاضطرار من دين الرسول ﷺ، واتفقت الأمة عليه: أَنَّ أَصْلَ دين الإسلام، وأَوَّلَ ما يُؤْمَرُ به الخَلْقُ: شهادةُ أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

ولا يتمُّ أَمْرُ الإيمان - على وجهه الصحيح - حتى يتجرّد مصدره عن كل شوبٍ فلسفيٍّ مذبومٍ، أو كلاميٍّ مردودٍ، أو مسلكيٍّ مبتدعٍ، وذلك لا يتم إلا بالاعتماد والتعويل على القرآن الكريم، والسُنَّة الصحيحة الثابتة، وهدى الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وعليه؛ فإنَّ عقلَ الجدليّين المتفلسفين لا يصلح أن يكون مصدراً للإيمان باستقلالٍ عن الوحي، كما لا يصلح كشفُ^(١) الدراويش، أو منامات

(١) الكشف والمكاشفة: علوم يحدثها الله سبحانه في قلب العبد، وقد تكون بإلهام أو بهاتف يسمعه العبد أو فراسة صادقة أو بغير ذلك، وهو من خوارق العادات الجائزة على أولياء الرحمن، ولكن توسع في ادعائه قوم، حتى أدخلوا فيه أهواء النفوس ووساوس الشيطان، راجع: مجموع الفتاوى (١/ ٣١٣)، والتوقيف على مهمات التعاريف، لزين الدين عبد الرؤوف المناوي، دار عالم الكتب، ط. ١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م (ص ٢٨٢).

ورؤى المتزهدين أن تكون مصدرًا للإيمان.

والوحي حين عرّف الإيمان وبيّنه، وفصّل شعبه وأركانه قدّم علمًا منضبطًا بضوابط علمية ومنهجية.

«فالإيمان ليس خبط عشواء، ليس شطحة مهووس، ولا تخيلات ناسك، ولا توهّمات مجذوب! لا مجال في الإيمان للتخيلات، ولا للتوهّمات، ولا للتخبطات، ولا للشطحات!

إذا ظنّ الإنسان أنّ الإيمان ملكة غير معلومة، يستطيع أن يُحقّقها بشيء من الرياضات النفسية، أو الأعمال السلوكية دون حاجة إلى العلم، فهذا المسكين لم يفهم الإيمان»^(١).

ثالثًا: الإيمان علم وعمل بفهم السلف:

ثم الإيمان بعد كونه علمًا، فهو عمل - أيضًا -؛ إذ الإيمان ليس نظرية يشتغل بها متفلسف، أو أمرًا يتأمل فيه مُفكّر من بُرج عاجي منقطع عن العالم! إنه علم وعمل، اعتقاد ونية، ومصدر ذلك كله هو: الوحي المعظم، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩].

فلا بدّ أن تعلم، وأن تستغفر، ولا يصلح أن تعلم ولا تعبد، أو لا تستغفر، كما لا يصح أن تستغفر، أو تعبد بدون أن تعلم وتؤمن. والعلم له منهج، والعمل له منهج، وكل ذلك يُرجع فيه إلى مَنْ عدّ لهم الله في كتابه، وشهد لهم على لسان رسوله ﷺ.

قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

(١) الإيمان وأهميته في حياة الإنسان، عبد العزيز قاري (ص ١٣).

وما أحسن صنيع البخاري! فعندما صَنَّف الصحيح ابتدأه بكتاب: بدء الوحي؛ لأنه مصدر الإيمان، ثم ثنى بكتاب: الإيمان؛ لأنه أهمُّ مطلوبٍ، وأعظم مرغوبٍ ومقصودٍ، ثم لَمَّا كان الإيمان يقوم على دعائمي: العلم، ثم العمل، صَنَّف كتاب: (العلم) بعد: (الإيمان)، ثم ثلث بكتاب: (العمل) مبتدئاً في ذلك بالوضوء الذي هو مفتاح الصلاة التي هي أعظم موضوع. فما أروعَ الفهمَ عن الله ورسوله! وما أجَلَ عملَ أهل الحديث والسنة، وما أعظمَ نُصَحهم للأمة!

قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْمُهَجَّرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فَعِلْمُ السلف المستند للوحي هو العلم الرباني، وعمل السلف المستند للوحي هو العمل المَرْضِي، وشتان بين الصحابة والسلف في طلبهم للإيمان، وطلب الخلف.

فَالصَّحَابَةُ يسألون عن الإيمان وأَعْيُنُهُمْ على الامتثال والعمل، والاجتهاد في طلب الرضا، والمتفلسف والجدلي يسأل عن الماهية، وفي ذهنه ما يعارض ويناقض العلم، ويقدر فيه، وليس في ذهنه الامتثال والاجتهاد في العمل.

لقد جاء وفد بني عبد القيس إلى النبي ﷺ يسألونه عن الإيمان، والنجاة، ودخول الجنة، فماذا قالوا؟

قالوا: «يا رسول الله، إِنَّا نَأْتِيكَ مِنْ شُقَّةٍ بَعِيدَةٍ، وَإِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَيَّ مِنْ كُفَّارٍ مُضَرٍّ، وَإِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيكَ إِلَّا فِي شَهْرٍ حَرَامٍ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ نُخْبِرُ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا، وَنَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَسَأَلُوهُ عَنِ الْأَشْرَةِ، فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ، أَمَرَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ، قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ

وَحَدُّهُ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ الْمَغْنَمِ الْخُمْسَ، وَنَهَايَهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ الْحَتَمِ وَالذَّبَّاءِ وَالنَّقِيرِ وَالْمَزَفَّةِ، وَرَبَّمَا قَالَ: الْمُقَيَّرِ، وَقَالَ: احْفَظُوهُنَّ وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ^(١).

وَلَمَّا عَرَضَ أَحَدُ الصَّحَابَةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ فِي سَفَرٍ، فَأَخَذَ بِخِطَامِ النَّاقَةِ، وَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَقْرِبُنِي مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ، فَكَفَّ النَّبِيُّ ﷺ - أَيْ: كَفَّ رَاكِلَتَهُ عَنِ السَّيْرِ - وَالتَفَتَ إِلَى أَصْحَابِهِ، وَقَالَ: لَقَدْ وُفِّقَ، ثُمَّ قَالَ: كَيْفَ قُلْتَ؟

فَأَعَادَ الْأَعْرَابِيُّ: ذُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَقْرِبُنِي مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، دَعِ النَّاقَةَ^(٢).

وَفِي لَفْظٍ آخَرَ: «إِنَّهُ لَمَّا أَدْبَرَ الْأَعْرَابِيُّ بَعْدَ أَنْ سَمِعَ هَذَا الْأَمْرَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنْ تَمَسَّكَ بِمَا أُمِرَ بِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٣).

وَعَلَيْهِ؛ فَإِنَّ عِلْمَ السَّلَفِ، وَفَهْمَ السَّلَفِ - مِنَ الصَّحَابَةِ خَيْرَ الْقُرُونِ - لَا يَصْلَحُ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَعْدِلَ عَنْهُ؛ رَغْبَةً عَنْهُ، أَوْ زَهْدًا فِيهِ، فَهُمْ أَهْلُ التَّلَقِّيِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ، وَلَا سَفِيرٍ، أَوْ صَلَوةٍ، تَلَقَّوْا الْإِيمَانَ وَالْقُرْآنَ وَالْوَحْيَ غَضًّا طَرِيقًا، وَلَمْ تَشَبْ أَفْهَامُهُمْ شَائِبَةُ شَبَهَاتٍ، أَوْ انْحِرَافَاتٍ، وَلَمْ يَمِيلُوا فِي تَلَقِّيهِمْ إِلَى مَصَادِرَ أَجْنَبِيَّةٍ عَنِ الْوَحْيِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٥٣)، وَمُسْلِمٌ (١٧) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١٣) مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَيُّوبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١٣) مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَيُّوبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل على رسول الله ﷺ أحدث، تقرأونه محضاً لم يُشَبَّ»^(١).
وقد استقرَّ منهجُ الصحابة في فهم النصوص، ومعرفة ما أشكل منها، وسؤال النبي ﷺ عنها، مع سلامة فطريهم من التلوث بعقائد غير المسلمين، أو شبهات الوسوس والأفكار الدخيلة، مع تمام الانصراف إلى العمل والتَّعبُّد والتزهُد، وصلاح القلوب والأحوال، وانفرادهم بمشاهدة الوحي والتنزيل، ومعرفة ملابساته، وحضور وقائعه، مع قريحة عربية وسليقة فصيحة ولسانٍ بليغ، لم تتغير سليقتهم، ولم تختلف ألسنتهم.
ثمَّ هم أعظم الناس عقلاً وفهماً وحساً وإدراكاً، وأزكا هم بصيرةً، وأنفذهم رأياً، ولو أنَّ مَنْ بعدهم آمن كإيمانهم، وفعل ما فعلوه لكان خيراً لهم، وأشدَّ تثبيتاً.

وَهُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِوَصْفِ الْإِيمَانِ، وذكر سبيل المؤمنين في قوله تعالى:
﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

والتَّعْوِيلُ إنما يكون على إجماع الصحابة والسلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، واتفاقهم في باب الإيمان خاصةً، فهم أعمق علماً، وأدق فهمًا، وأقلُّ تكلفاً في العمل بالإيمان وشرائعه، وأبعدُ عن الخلاف والافتراق في أصوله وقواعده، فما أجمعوا عليه فهو الحقُّ ولا بدَّ، وما اختلفوا فيه فالحقُّ لا يجاوز أقوالهم، ومن أخذ ببعض أقوالهم عند اختلافهم في الأمور الاجتهادية فلا حرج عليه.

(١) أخرجه البخاري (٧٣٦٣).

رابعاً: تَلَقَّى نصوص الإيمان بالتَّعْظِيم والتَّسْلِيم:

إِنَّ مِنْ أَصُولِ دِينِ الْإِسْلَامِ: تَعْظِيمُ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَعْظِيمُ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَالْوُقُوفُ عِنْدَ حُدُودِ مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهَذِهِ حَقِيقَةُ الْإِسْتِسْلَامِ لِلَّهِ تَعَالَى، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [لقمان: ٢٢].
وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣].

والمؤمنون إذا وقفوا أمام نصوص الإيمان في الكتاب والسنة يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].
وقالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].
وذلك من غير تعرُّضٍ لنصوص الوحيين بتحريفٍ، أو تأويلٍ، أو معارضةٍ، أو مناقضةٍ للنصوص الإلهية، أو النبوية.

ومن التَّسْلِيمِ والتَّعْظِيمِ: اجتناب الجدل المذموم، والمراء في نصوص العقيدة الجزئية وقواعدها، وهذا التَّسْلِيمُ وذاك التعظيم ممَّا يُعِينُ عَلَى تجاوز الخصومة المفتعلة بين صحيح النقل، وصريح العقل، فإن بدا ما ظاهره التعارض بين العقل والنقل، فمرَّده إلى الوهم في قطعية أحدهما- ثبوتاً، أو دلالة-؛ فَإِنَّ الْعَقْلَ الصَّرِيحَ لَا يَنَاقِضُ النُّقْلَ الصَّحِيحَ وَلَا بَدَ، فالأمر كما قال الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَمَنْ اللَّهُ ﷻ الْعِلْمُ، وَعَلَى الرَّسُولِ الْبَلَاغُ، وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ»^(١).

(١) السنة، للخلال (١٠٠١).

وقد قال بعض السلف: «قَدِمُ الإسلام لا تثبت إلا على ظهر التسليم»^(١).
وفي كلِّ حكمٍ شرعيٍّ - إيماني علمي، أو فقهي عملي - يأتي قول الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].
وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُفَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

وقد نُقِلَ عن السلف - من الصحابة فَمَنْ بعدهم - كثيرٌ من الآثار الجليلة في تعظيم كلام الله تعالى، وكلام رسوله، وعدم معارضتهما برأي، أو قول، واشتدادُ نكيرهم على مَنْ فعل ذلك!

فعن سالم بن عبد الله أن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لَا تَمْنَعُوا نِسَاءَكُمْ الْمَسَاجِدَ إِذَا اسْتَأْذَنَكُمْ إِلَيْهَا). قال: فقال بلال بن عبد الله: والله لنمنعهن قال: فأقبل عليه عبد الله: فسبَّه سبًّا سيئًا ما سمعته سبَّه مثله قط، وقال: أخبرك عن رسول الله ﷺ وتقول: والله لنمنعهن»^(٢).

وعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه ذكر أن النبي ﷺ نهى عن درهمين بدرهم، فقال رجل من الناس: ما أرى بهذا بأسًا يداً بيد، فقال عبادة: «أقول:

(١) شرح العقيدة الطحاوية، لصدر الدين محمد بن علاء الدين علي بن محمد ابن أبي العز الحنفي الأذرعي الصالحي الدمشقي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عبد الله بن المحسن التركي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ١٠، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م (١/ ٢٣١).

(٢) أخرجه مسلم (٤٤٢).

قال النبي ﷺ، وتقول: لا أرى به بأسًا، والله لا يظلني وإياك سقف أبدًا^(١). وإن إنكار الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لا يقتصر على من خالف الوحي الثابت إلى غيره، بل يمتد إلى من عمل في الدين عملاً لا يرجع فيه إلى وحي، فعن أبي موسى الأشعري أنه أتى ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال: «رأيت في المسجد قومًا حلَقًا جلوسًا ينتظرون الصلاة في كل حلقة رجل، وفي أيديهم حصًا، فيقول: كبروا مائة، فيكبرون مائة، فيقول: هللو مائة، فيهللون مائة، ويقول: سبحوا مائة، فيسبحون مائة قال: فماذا قلت لهم؟ قال: ما قلت لهم شيئًا انتظار رأيك، أو انتظار أمرِك.

قال: أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم، وضمنت لهم ألا يضيع من حسناتهم! ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حلقة من تلك الحلقة، فوقف عليهم، فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ قالوا: يا أبا عبد الرحمن، حصًا نعد به التكبير والتهليل والتسبيح.

قال: فعُدُّوا سيئاتكم، فأنا ضامن ألا يضيع من حسناتكم شيء، ويحكم يا أمة محمد، ما أسرع هلكتكم هؤلاء صحابة نبيكم ﷺ متوافرون، وهذه ثيابه لم تبل، وأنيته لم تكسر، والذي نفسي بيده، إنكم لعلى ملة هي أهدي من ملة محمد ﷺ، أو مفتحو باب ضلالة!

قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن، ما أردنا إلا الخير.

قال: وكم من مريد للخير لن يصيبه، إن رسول الله ﷺ حدثنا أن قومًا يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، وإيمُ الله ما أدري لعل أكثرهم منكم، ثم

(١) أخرجه الدارمي (٤٥٧)، وإسناده ضعيف.

تولّى عنهم. فقال عمرو بن سلمة: رأينا عامة أولئك الحلق يطاعنوننا يوم النهر وان مع الخوارج»^(١).

خامساً: تقديم أعمال القلوب من الإيمان:

من علوم الإيمان ما هو فرض عين، ومنه ما هو فرض كفاية، وأوجب الواجبات فروض الأعيان من الإيمان، وهو ما يصح به إيمان الإنسان؛ بمعرفة الله وتوحيده وتعظيمه، والتحقق بقول القلب واللسان، وعلم القلب والجوارح بالإيمان.

فأصل الإيمان تصديق الخبر، والانقياد للشرع.

وكماله الواجب بفعل الأركان والواجبات، وترك الكبائر، والمحرمات. وكماله المستحب بفعل المندوبات وترك المكروهات، والورع عن الشبهات.

ومدار الإيمان والتوحيد على أن يكون مصدر التلقي في هذه الحياة واحداً، وهو الله تعالى، فعن الله يتلقى العبد عقيدته وعبادته وشريعته، وعن الله تعالى يتلقى العبد كل ما به نجاته، وصلاحه، وفلاحه، وهذه حقيقة الحقائق. وأصل الإيمان يرجع إلى ما يقوم بالقلب من اعتقاد وإخلاص ومحبة وتعظيم لله تعالى، وانقياد لشرعه، وامثال لأمره، عبادة بكامل الحب والذل، واستعانة بتحقيق التوكل، وجمعاً بين الخوف والرجاء لتحصل بهما النجاة، وبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٩٠٤٥)، والدارمي (٢١٠)، وابن وضاح في البدع والنهي عنها (٢٥٨)، وصححه الألباني.

وبالجملة: فعبادات القلب أصل كل خير، وعنهما يصدر كل بر.
قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ
الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

وفي منزلة أعمال القلوب قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «أعمال القلوب التي تُسمى: المقامات والأحوال، وهي من أصول الإيمان، وقواعد الدين؛ مثل: محبة الله ورسوله، والتوكل على الله، وإخلاص الدين له، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له، وما يتبع ذلك... هذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق المأمورين في الأصل باتفاق أئمة الدين، والناس في هذا على ثلاث درجات، كما هم في أعمال الأبدان على ثلاث درجات: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات»^(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وعمل القلب كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه، والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه، وعلى أقداره، والرضا به وعنه، والمواظاة فيه، والمعاداة فيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضها أفرض من أعمال الجوارح، ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة، أو قليل المنفعة»^(٢).

(١) التحفة العراقية في الأعمال القلبية، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد بن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، المطبعة السلفية، القاهرة، ط ٢، ١٣٩٩ هـ (ص ٣٧).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م (١/ ١٢١).

وقد ورد ذكر تلك الأعمال القلبية في كثير من الآيات القرآنية، قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر: ٥٤]، وقال سبحانه: قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]، وقال ﷺ: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

وليس من الصَّواب: إخراج تعظيم الله وتأليهه، والرضا بقضائه، واليقين بموَعوده، والمحبة لله ولرسوله ﷺ، والخوف من الله تعالى، والرجاء في رحمته من الإيمان، وإدخالها فيما اصطلح عليه بالرقاق، أو الوعظ، أو الزهديات وغيرها من مُسمَّيات؛ ذلك أن هذه الأعمال هي أصل الإيمان، وأساس التوحيد، وهي فرض عين كل مسلم.

أمَّا الردُّ على المخالفين من أهل الابتداع في الدين، وأهل الانحرافات والضلالات، ومقاومة البدع الكلامية، والانحرافات الفلسفية، وخوض المعارك والمناظرات مع أهل المقالات الردية، فذلك من فروض الكفايات، لا الأعيان.

كما أن هذه المناظرات والمناقشات إنما هي حمايةً لجَناب الإيمان، وضبطٌ وحراسةٌ لحدوده الخارجية، وليست هي الإيمان الواجب على الأعيان، وإنما تجب على المتخصصين في الردِّ على أهل الأهواء والبدع المخالفين.

وأعظم كتب الإيمان هو: القرآن، وصحيح سنة النبي العدنان ﷺ، وقد أفرد القرآن قسمًا كبيرًا لبناء الإيمان في القلوب، ونوّه بسلامتها من الشرك، والكفر، وسائر الذنوب.

وقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

[الشعراء: ٨٨-٨٩]، والسنة صنو القرآن في ذلك البيان.

فأعمال القلوب - كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ - «هي الأصل المراد المقصود، وأعمال الجوارح تبعٌ ومكملةٌ ومتممةٌ... فمعرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح؛ إذ هي أصلها، وأحكام الجوارح متفرعة عليها»^(١).

وقال - أيضًا - رَحِمَهُ اللهُ: «وَمَنْ تَأَمَّلَ الشريعةَ في مصادرها ومواردها عِلْمَ ارتباطِ أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها، وأنَّ أعمال القلوب أفرضُ على العبد من أعمال الجوارح، وعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح وأكثر وأدوم، فهي واجبةٌ في كلِّ وقتٍ»^(٢).

وفي الحديث: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(٣).

ومِمَّا هو معلوم: أن الفرقَ التي انحرفت عن منهج أهل الإيمان من الصحابة والسلف إنما كان انحرافهم في معظمه من جهة أعمال القلوب! قال بعض السلف: «مَنْ عَبَدَ اللهَ بالحب وحده فهو زنديق، وَمَنْ عَبَدَ اللهَ بالخوف وحده فهو حروريٌّ، وَمَنْ عَبَدَهُ بالرجاء وحده فهو مرجئيٌّ، وَمَنْ عَبَدَهُ بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمنٌ موحدٌ»^(٤).

(١) بدائع الفوائد، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان (٣/ ٧٠٥).

(٢) بدائع الفوائد، لابن القيم (٣/ ٧١٠).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٤) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٠٧).

سادساً: التلقي الشامل لأصول الإيمان:

الإيمان ليس قاصراً على أعمال القلوب فقط، وإنما هو أعمال في القلوب، وفي الجوارح.

وهو شامل في جانبه العلمي للإيمان بربوبية الله تعالى، وشمول تدبيره لخلقه وكونه، وقيام الله تعالى على خلقه؛ إيجاباً وإحياءً ورزقاً وإماتةً وبعثاً ونشوراً، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وهو شامل في جانبه العملي للإيمان بالوهمية الله تعالى، وعبادته وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

وهو شامل في الإيمان بأسماء الله وصفاته للجانبين العلمي والعملي معاً، فتخليص الأخلاق والسلوك من الآفات والموبقات التي تنشأ الغفلة عن مدلولات الأسماء والصفات - وهو الجانب العملي - لا يقل في أهميته عن تخليص العقل والقلب من الشبهات والأهواء، وهو الجانب العلمي.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وهو شامل لدراسة أركان الإيمان جميعاً، ويشمل ذلك: تحقيق الإيمان بالملائكة والكتب والرسول واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

وهو شامل لجميع شعب الإيمان التي تكون في القلب واللسان والجوارح كافة، وقد قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ

كَافَّةً ﴿ [البقرة: ٢٠٨].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٣﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

وهو شاملٌ لتحقيق عقيدة الولاء لله ورسوله والمؤمنين، والبراءة من أعداء الدين، وسائر المخالفين في أصل الدين.

قال تعالى: ﴿ إِنهَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٥ - ٥٦].

وقال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [التوبة: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُمْ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١].

وهو شاملٌ لبيان ما يصير به الكافر مؤمناً، وما يصير به المؤمن كافراً.

قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ ﴾ [التغابن: ٢].

وهو شاملٌ لقضية الحكم والتشريع، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا فَضَلْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].
وقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وهو شاملٌ للسَّعي في تحكيم الشريعة، وبيان وثيق الارتباط بين التحكيم للشريعة، والرضا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمدٍ ﷺ نبيًّا. ونقلٌ مصدرية الأحكام ومرجعيتها من الوحي المعصوم إلى الهوى المشثوم - اعتداءً على مقام الإيمان، والرضا بالله ربًّا، والتعبد له وحده إلهًا، ونقضٌ لعقيدة الوحداية، وردَّةٌ إلى الجاهلية، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وهو متناول لعرض المسائل والأحكام الإيمانية من جهة البناء والتأسيس، وبيان مبطلاته ونواقضه، والرد على المنحرفين فيه، وسد الطرق الموصلة إلى الشرك كافة، وحماية جناب التوحيد عامة من جهة أخرى. وفي جانب الرد هو شاملٌ لمواجهة كل الانحرافات، فلا فرق بين انحرافٍ وشركٍ حضاريٍّ، وآخر بدائيٍّ.

فلا بدَّ من مواجهة تيارات الإلحاد والتغريب والعلمنة، وانحرافات القبور والأضرحة؛ وصرف العبادة لغير الله سواء بسواء، وهو خلاصة منهج الأنبياء والمرسلين في بناء الإيمان واليقين، وحماية جنابه، والرد على المخالفين والمنحرفين.



الفصل الثاني

علم الإيمان

إن علم الإيمان عظيم القدر، شريف المعنى، بالغ في القيمة والأهمية الذروة، كيف لا وهو متعلق بمعرفة الله تعالى، والعلم بالله - وتلك غاية المعارف وأولها - وعبادته وحده جَلَّ وَعَلَا - وتلك أشرف المقاصد وأرجاها - والوصول إلى مرضاته، والتنعم بجناته، وتلك نهاية المطالب وأرضاها.

قال سبحانه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «معرفة ربِّ العالمين غاية المعارف، وعبادته أشرف المقاصد، والوصول إليه غاية المطالب، بل هذا خلاصة الدعوة النبوية، وزبدة الرسالة الإلهية»^(١).

أولاً: تعريف علم الإيمان:

هو علمٌ باعتقادات قلبية، وإقرارات لفظية، وأعمال بدنية تتعلق بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقضاء والقدر، والاستدلال لها بالأدلة المرصية.

وهذا التعريف مُسْتَقَى من القرآن والسنة، فمن القرآن: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ ۚ وَكُتِبَ لَهُمْ لَا نُفِرُّ مِنْ أَحَدٍ مِنْ رَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

(١) مجموع الفتاوى (٧/٥).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

ومن السنة قوله ﷺ - في حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَام - : «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»^(١).
وقوله ﷺ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ؟ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ الْمَغَانِمِ الْخُمْسَ»^(٢).
فعرّف الإيمان في الحديث الأول بالاعتقادات الباطنة، وفي الحديث الثاني بالأعمال الظاهرة، ثم صار الإيمان يطلق ويراد به: مسائل الاعتقاد كلها، وصنف السلف والأئمة كتباً باسم: (الإيمان) بحثت قضاياها العلمية، ومسائله، وأحكامه.

ومن أوائل تلك الكتب: كتاب: (الإيمان ومعالمه وسننه واستكمال درجاته)، لأبي عبيد القاسم ابن سلام البغدادي رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٢٤هـ).
وكتاب: (الإيمان) للحافظ أبي بكر ابن أبي شيبه رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٣٥هـ).
وكتاب: (الإيمان) للحافظ ابن منده رَحِمَهُ اللَّهُ (٣٩٥هـ).
وغيرها من الكتب والمصنفات.

ثانياً: ركائز علم الإيمان:

يقوم علم الإيمان على ركيزتين أساسيتين:
الأولى: التصديق والإقرار بجملة العقائد المتعلقة بأصول الإيمان الستة.
الثانية: الاستدلال لتلك العقائد بالأدلة المَرُضِيَّة من الكتاب والسنة

(١) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٦٨)، ومسلم (١٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الصحيحة، والفطرة المستقيمة، والعقل الصريح، وبالمنهجية المتلقاة عن النبي ﷺ، والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والأئمة الأثبات الثقات رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

وبتعبيرٍ عامٍّ: فإن مصادر العلوم ترجع إلى مصدرين كبيرين:

أولهما: الوحي.

ثانيهما: الكون.

فأما الوحي: فالكتاب والسنة، وما استند إليهما من الإجماع.

وأما الكون: فكل ما سوى الله تعالى من موجودات؛ سواء أكانت حسية كالإنس والسموات والنباتات والأرض.

أو موجودات معنوية؛ كالإيمان والكفر.

أو موجودات غيبية؛ كالملائكة والجنة والنار.

ومتى ادعى إنسان دعوى لا دليل عليها من وحي مسموع، أو كون منظور مشاهد - والكون المشاهد لا يدخل فيه الموجودات الغيبية؛ إذ ليست في ذاتها مصدرًا للعلوم - فإن دعواه باطلة، لا صحة ولا قبول لها، وبهذا احتج القرآن الكريم على المشركين، وأظهر بطلان عبادة شركائهم، فقال سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ [فاطر: ٤٠].

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنَوِّى بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرُوا مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأحقاف: ٤].

فعبادة الأنداد والأوثان من دون الله لا دليل عليها من الكون المنظور، ولا

من الكتاب المسطور، وحيث لا سند لتلك العبادة من أيِّ من المصدرين كانت باطلة بالضرورة.

ثالثاً: أدلة علوم الإيمان:

مما ينبغي أن يُعلم: أن الأدلة المَرُضية تنقسم إلى قسمين:

١- أدلة شرعية سمعية:

وهي ما لا يُعلم إلا بالخبر الصادق من الوحي.

٢- أدلة شرعية عقلية:

وهي ما يُعلم بالحس مع العقل، وتبَّه الشرع إليها، ودلَّ عليها في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، وهي أدلة عقلية معلومة الصحة بالعقل، وقد ذكرها الوحي على أحسن وجوهها وأرضاها، وكلا القسمين يعتبر دليلاً شرعياً. وقد تطلق الأدلة الشرعية العقلية على ما أذن فيه الشرع من الأدلة العقلية، السالمة من مخالفة الوحي، والبريئة من كل معنى باطل، أو إجمال غير مرضي.

وأما الأدلة غير الشرعية:

فهي كل ما حرَّمه الشرع المطهر من علوم، أو أدلة، أو استدلالات، أو مناهج، فيحرم القول بغير علم، والجدال بالباطل، والرجوع إلى المصادر الفاسدة للعلم والمعرفة، كالفلسفة، والسحر، والكهانة، وغيرها. وبناءً على ما سبق: فإن الأدلة المَرُضية في علم الإيمان شرعية سمعية، وشرعية عقلية على حدٍّ سواء.

رابعاً: أسماء علم الإيمان:

وكما أُطلق على هذا العلم: (الإيمان)، فقد أُطلق عليه: (الفقه الأكبر) في

القرن الثاني الهجري، واستمر مصطلح الإيمان في الذبوع خلال القرن الثالث -أيضاً- ثم ظهر مصطلح: (السنة) للتعبير عن العقيدة الصحيحة، والإيمان الخالص عن شوب البدع، وصدرت كتب عدة تحمل اسم: (السنة)، وتوالى التصنيف بتلك الأسماء والمصطلحات العلمية في القرن الرابع.

وفي نفس هذا القرن ظهرت مصطلحات جديدة شاعت وذاعت، وهي: (التوحيد، والشريعة، وأصول الدين)، وكان آخرها ظهوراً: (العقيدة) في آخر القرن الرابع، وأوائل القرن الخامس الهجري، حيث ظهرت مصنفات حملت هذا الاسم، ومنها: (عقيدة السلف أصحاب الحديث)، لأبي عثمان الصابوني، و(شرح أصول اعتقاد أهل السنة)، للآلكائي، وتتابع المصنفون على ذلك.

بين علم الإيمان ونقيضه:

ليس علم الإيمان من فلسفة اليونان في قليل ولا كثير، ولا قبيل ولا دبير! ولا من علم الكلام المخلوط بالفلسفة وعلومها! وقد اتفقت كلمة أهل السنة على ذم الفلسفة التي تعني: خوض العقل في الإلهيات بلا وحي!

ومن الخلل الفاحش: تسمية علم الإيمان بالفلسفة؛ إذ هو تسمية للنور بالظلمة، وللهدى بالضلال، ولليقين بالشك، وللإيمان بضده! وقد عانت الأمة من الفلسفة، ومن دخولها إلى علوم بعض المتكلمين في أصول الدين، حتى حذر منها عموم علماء المسلمين من أهل الحديث والسنة، بل حذر منها كثير من علماء الكلام الأشاعرة والماتريدية! قال التفتازاني الماتريدي: «ولا يصدّنك عن آيات الله ودين الإسلام،

ولا يصرفنك عن اتباع هؤلاء الأنبياء خوض بعض المتفلسفين في زي الفقهاء في هذه الزندقة الهادمة لدين الإسلام، وملة الأنبياء؛ فإنه انسلخ من الدين، فأتبعه الشيطان، فكان من الغاوين، وصار من أئمة الكفرة في صورة علماء المسلمين»^(١).

وقال السنوسي الأشعري: «فليحذر المبتدئ جهده أن يأخذ أصول دينه من الكتب التي حُشيت بكلام الفلاسفة، وأُولع مؤلفوها بنقل ما هو كفر صريح من عقائدهم التي ستروا نجاساتها باصطلاحاتهم، وعبارات مهمة على كثيرٍ من الناس؛ ككتب الرازي في فن الكلام، وطوالع البيضاوي، ومن هذا حذوهما في ذلك، وقُلَّ أن يفلح من أُولع بصحبة كلام الفلاسفة، أو يكون له نور إيمان في قلبه، أو لسانه»^(٢).

ولا شك أن أكثر من دخلوا في علم الكلام المشحون بالفلسفة قد ندموا وتحيروا، وتمنوا أن يرجعوا إلى دوحة الإيمان من الوحي المتضمن للأدلة السمعية والعقلية بأوضح بيان.

يقول الجويني رَحِمَهُ اللهُ: «يا أصحابنا، لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفتُ أن الكلام يبلغ بي ما بلغ، ما اشتغلتُ به»^(٣).

(١) رد الفصوص، للتفتازاني، نقلاً عن ترتيب العلوم، لمحمد بن أبي بكر المرعشي الشهير بساجقلي زاده، تحقيق: محمد بن إسماعيل السيد أحمد، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط ١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م (ص ٢٣١).

(٢) حاشية الدسوقي على أم البراهين، لمحمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المالكي، دار إحياء الكتب العربية (ص ٧٠ - ٧١).

(٣) طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين عبد الوهاب ابن تقي الدين السبكي، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي، د. عبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤١٣ هـ (١٨٦/٥).

وقال رَحِمَهُ اللهُ - عند موته نادماً -: «لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته، فالويل للجويني، وها أنا ذا أموت على عقيدة أُمِّي»، أو قال: «على عقيدة عجائز أهل نيسابور»^(١).

والرازي نفسه - وهو أكثر من أغرق في الفلسفة وعلومها وكتبها، وألف فيها، وصنف - قال: «وأقول: ديني متابعة الرسول ﷺ، وكتابي هو القرآن العظيم، وتعويلي في طلب الدين عليهما... وأما الكتب التي صنفتها، واستكثرت فيها من إيراد السؤالات، فلَئذِكرني من نظر فيها بصالح دعائه على سبيل التفضل والإنعام، وإلا فليحذف السيئ؛ فإنني ما أردتُ إلا تكثير البحث، وشحذ الخاطر...»^(٢).

ومثل هذا ينقل عن الغزالي، والآمدي، والشهرستاني، وغيرهم كثير! ونختم هذا التنبيه بقول الشيخ محمد المرعشي - صاحب كتاب: (نشر الطوابع)، وهو شرح لكتاب البيضاوي في علم الكلام:

«وأقول: كما هجر الغزالي الكلام، كذلك هجرته، وتبرأت وتبت منه إلى الله تعالى الذي يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، وأسأل الله ألا يحشرني يوم القيامة مع المتكلمين، وهذا القول مني بعد اشتغالي بالكلام، وتألفي فيه (نشر الطوابع)، والآن أتمنى أن أجمع نسخه المتشرة، وأحرقها بالنار، ولئلا يبقى مني أثر في الكلام، لكنني لا أقدر على ذلك»^(٣).

(١) منح الروض الأزهر في شرح الفقه الأكبر، لعلي بن سلطان محمد أبي الحسن نور الدين الملا الهروي القاري، دار البشائر الإسلامية، ط ١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م (ص ٣٦).

(٢) طبقات الشافعية الكبرى (٨ / ٩٢).

(٣) ترتيب العلوم (ص ٢١٤).

وأخيرًا: فإن القول التمام في هذا المقام هو: أن العبرة بكمال النهايات، لا بنقص البدايات، وذُكر هذه الأخبار عن علماء أهل الإسلام يدل على كمالهم، وحسن معتقدهم، غفر الله لهم جميعًا.

وما أحسنَ قولَ الذهبي رَحِمَهُ اللهُ - بعد أن ذكر طوائف من أهل القبلة -: «... قد ماجت بهم الدنيا وكثروا، وفيهم أذكىاء، وعُبَّاد، وعلماء، نسأل الله العفو والمغفرة لأهل التوحيد، ونبرأ إلى الله من الهوى والبدع، ونحب السنة وأهلها، ونحب العالم على ما فيه من الاتباع والصفات الحميدة، ولا نحب ما ابتدع فيه بتأويل سائغ، وإنما العبرة بكثرة المحاسن»^(١).

وقال - معتذرًا عن الغزالي، ومحذرًا من كتب الكلام الفلسفي وغيرها -: «ولولا أن أبا حامد من كبار الأذكىاء، وخيار المخلصين لتلف! فالحذار الحذار من هذه الكتب، واهربوا بدينكم من شبه الأوائل، وإلا وقعتم في الحيرة، فمن رام النجاة والفوز فليلزم العبودية، وليدمن الاستغاثة بالله، وليبتهل إلى مولاه في الثبات على الإسلام، وأن يُتوفَّى على إيمان الصحابة وسادة التابعين، والله الموفق، فبحسن قصد العالم يُعَفَّر له وينجو، إن شاء الله»^(٢).

خامسًا: موضوع علم الإيمان:

يبحث علم الإيمان عن حقيقة الإيمان بالله تعالى، وما يجب له تعالى من إفراده بالعبادة وحده لا شريك له، وما يجب له من صفات الجلال،

(١) سير أعلام النبلاء، لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م (٢٠ / ٤٥ - ٤٦).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٩ / ٣٢٨ - ٣٢٩).

ونعوت الكمال، والأسماء الحسنى، وإفراده تعالى بأفعال الربوبية وحده لا شريك له، وما يجب من الإيمان بالملائكة، والكتب، والرسل، واليوم الآخر، والقضاء والقدر، وبيان حقيقة ما يضاد الإيمان من الشرك والكفر والنفاق وغيرها، وما ينقض من الرياء، والشرك الأصغر، والبدع، والكبائر.

سادساً: حكم علم الإيمان:

علم الإيمان منه فرض عين على كل مسلم ومسلمة، ومنه فرض كفاية. قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ: «أجمع العلماء على أن من العلم ما هو فرض متعين على كل امرئ في خاصته بنفسه، ومنه ما هو فرض على الكفاية، إذا قام به قائم سقط فرضه على أهل ذلك الموضع»^(١).

وفرض العين من علم الإيمان هو: تعلُّم ما يصح به الإيمان بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر، على جهة الإجمال. وهذا الإيمان عنه يُسأل جميع الخلق، قال تعالى: ﴿فَوَرِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢].

قال عدة من أهل العلم^(٢): «عن: لا إله إلا الله»^(٣). وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

(١) جامع بيان العلم وفضله، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م (١/٥٦).

(٢) كأنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، ومجاهد رَحِمَهُ اللهُ.

(٣) صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل أبي عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط١، ١٤٢٢هـ (١/١٤).

وتعلم فرض العين من علم الإيمان هو أول الواجبات، وأولها وأفرضها على المكلفين.

وقد قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

وقال سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

وفي حديث معاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: «يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»^(١).

وفي حديثه الآخر قال ﷺ: «فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: عِبَادَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٢).
فالإيمان أول الواجبات وآخرها، وقد قال ﷺ: «لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(٣).
وقال - أيضًا -: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٤).

وبناءً على ما تقدم: فإن تعلم علم الإيمان فرض عين على كل مكلف من ذكر، أو أنثى، وذلك بالأدلة الإجمالية، وأما بالأدلة التفصيلية ففرض على الكفاية.

والأصل: أن حكم العلم كحكم معلومه، فإن كان المعلوم فرضاً، أو سنةً، فعلمه كذلك.

أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَى الْأَعْيَانِ مَعْرِفَةُ الرَّحْمَنِ بِالْإِيمَانِ

(١) أخرجه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه مسلم (٩١٧) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (٢٦) من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سابعًا: فضل علم الإيمان:

علم الإيمان أشرف العلوم معلومًا وموضوعًا، وتحقيق الإيمان أشرف الأعمال فضلًا وقدرًا.

وقد قال ﷺ حين سئل: «أي العلم أفضل؟ فقال: إيمانُ باللهِ ورَسُولِهِ»^(١).

وقال ﷺ: «أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ عِنْدَ اللَّهِ: إِيْمَانٌ لَا شَكَّ فِيهِ»^(٢).

وهو موضوع دعوة الرسل جميعًا، وما أرسلت الرسل، ولا أنزلت الكتب إلا لأجل الإيمان بالله وحده، وعبادته دون غيره.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، أي: يوحدون ويؤمنون.

وقد أمر الله به اعتقادًا وقولًا وعملاً، فقال سبحانه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦].
وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ٢].

والإيمان شرط قبول العمل الصالح، قال سبحانه: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُوبٌ﴾ [الأنبياء: ٩٤].
وقال جلَّ وعَلَا: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ

(١) أخرجه البخاري (٢٦)، ومسلم (٨٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٧٥١١، ٨٥٨٠)، والنسائي في الكبرى (٢٣١٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿[الإسراء: ١٩].

والحاجة إلى الإيمان بالله تعالى فوق كل حاجة، بل هي أشد من حاجة الأبدان إلى الماء والهواء والطعام.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

ومع ذلك فإن الحياة لن تطيب بلا إيمان!
﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وما أحسن قول ذي النون: «ما طابت الدنيا إلا بذكره، ولا طابت الآخرة إلا بعفوه، ولا طابت الجنة إلا برويته!»^(١).

فالمؤمن في دنياه في حياة طيبة، فإذا انتقل إلى آخرته انتقل إلى دار الطيبين الجنة ﴿طَبَّتُمْ فَأَدْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

ولمّا كان علم الإيمان بهذه المثابة، فقد حرص عليه أهل الإيمان، واعتنوا به غاية العناية، وتلقّوه عن أهل السنة من الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان، وعملوا بقول أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن هذا العلم دين؛ فانظروا عمن تأخذونه»^(٢).

ولمّا تلقّوه عن أهله بذلوه لأهله!

قال أنس بن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «بلغني: أن العلماء يُسألون يوم القيامة كما

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣٧٢ / ٩)، وابن الجوزي في صفة الصفوة (٤٤٦ / ٢).

(٢) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد (٤٥ / ١).

تُسأل الأنبياء، يعني: عن تبليغه»^(١).

وقال رَحْمَةُ اللَّهِ - أَيْضًا -: «إن طلب العلم لحسن، وإن نشره لحسن إذا صحت فيه النية»^(٢).

والعالم بالإيمان بالله تعالى وتوحيده، المعلم للناس ما يجب عليهم من الإيمان «إنما يريد ابتغاء مرضات الله، والامتثال لأوامره، والاجتناب لنواهيه، ويريد نشر العلم، وتكثير الفقهاء، وتقليل الجهلة، وإرشاد عباد الله إلى الحق، ودلالتهم على ما يصلحهم على النشاطين، وإظهار دين الله، وإقامة سنة رسول الله ﷺ، وتشديد قواعد الإسلام، والتفريق بين الحلال والحرام، ويكون مخلصًا في ذلك، راغبًا في الآخرة، موقفًا بما أعدَّ الله للعلماء العاملين، راجيًا ثوابه، وخائفًا من عقابه»^(٣).

ثامنًا: ثمرات علم الإيمان:

من ثمرات علم الإيمان: إقامة ما عداه من علوم الشريعة والفروع؛ فإنها تتعلق بعد ذلك بالعمل، «والعلم أصل العمل، وصحة الأصول توجب صحة الفروع»^(٤).

فإقامة علوم الفروع تبنى على إثبات وجود إله عالم حلیم، مرسل للرسل، منزل للكتب، وبغير علم الإيمان لا يتصور وجود علم تفسير، أو

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/٣١٩)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٧٨٤).

(٢) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، لمحمد بن علي بن عطية الحارثي أبي طالب المكي، تحقيق: عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥هـ - ٢٠٠٥م (١/٢٣٣).

(٣) مفتاح السعادة، لطاشكبري زادة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م (ص ٣٩).

(٤) مجموع الفتاوى (٤/٥٣).

حديث، أو فقه، أو غير ذلك من العلوم الشرعية.

قال السفاريني رَحِمَهُ اللهُ:

وَبَعْدُ فَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ الْعِلْمِ كَالْفَرْعِ لِلتَّوْحِيدِ فَاسْمَعْ نَظْمِي^(١)

تاسعاً: مسائل علم الإيمان:

الإيمان اعتقاد، وقول، وعمل، ومسائله تتعلق بهذه الأجزاء الثلاثة.
فأما مسائل الاعتقاد: فتدور حول معنى الإيمان، وحقيقته الشرعية
المركبة من أصله الذي في القلب، وفرعه الذي على اللسان وفي الجوارح،
وبيان ارتباط العلم بالإيمان، والظاهر بالباطن.

والإيمان الباطن يشمل: اعتقاد القلب بقسميه:
قول القلب: وهو التصديق والعلم والمعرفة والإقرار ونحوها، وأدلتها،
وما يتعلق بها.

وعمل القلب: وهو الإخلاص واليقين والمحبة والانقياد والخضوع
والتسليم وغيرها، وأدلتها، وما يرتبط بها.

والإيمان الظاهر يشمل:

قول اللسان: وهو النطق بالشهادتين، وما يجب النطق به، والأدلة على
ذلك، وحكم ترك الإقرار بالشهادتين.

وعمل الجوارح، وبيان دخولها في مسمى الإيمان، وأهميتها، وارتباطها

(١) العقيدة السفارينية، لشمس الدين، أبي العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني
الحنبلي، تحقيق: أبي محمد أشرف بن عبد المقصود، مكتبة أضواء السلف - الرياض،
ط ١٩٩٨ م (ص ٣٩).

الوثيق بأعمال القلب، وبيان أعمال الجوارح الواجبة، وحكم ترك العمل، وأثره في الإيمان.

كما يدخل في هذا القسم: زيادة الإيمان ونقصانه، وأسباب زيادة الإيمان، وأسباب نقصانه، وبيان خصال الإيمان وشعبه، وتفاوت أهل الإيمان في تحققهم بتلك الشعب.

ويدخل فيه - أيضًا - بيان مراتب الإيمان ودرجاته، والتمييز بين مطلق الإيمان، والإيمان المطلق، والإيمان الكامل.

والبحث في أثر المعصية على الإيمان، والموقف من أهل الكبائر والصغائر، وموالاتة أهل الإيمان، ومعاداة أهل الكفر والعصيان.

وبيان العلاقة بين الإسلام والإيمان، وبيان مراتب الدين الثلاث: الإسلام، والإيمان، والإحسان.

وتفصيل أركان الإيمان الستة، وما يندرج تحتها من مباحث ومطالب، تبدأ بإثبات وجود الله تعالى وأدلتها، والإيمان بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات، وأدلتها وقواعدها، وما يتعلق بها جميعًا.

والإيمان بالملائكة ومعناه، وأصناف الملائكة ووظائفها، وصفاتها، وعلاقتها بالإنسان، وأهل الإيمان، وأثر ذلك في حياة المؤمنين.

والإيمان بالكتب المنزلة ومعناه، وما يجب لها، وما يتعلق بفقدائها، أو تحريفها، والإيمان بالقرآن، وما اختص به، وما يجب له، والإيمان بالرسول ومعناه، والحاجة إلى الرسالات، ووظائف المرسلين والأنبياء وصفاتهم، وعصمتهم، ودلائل نبوتهم، والواجب لهم وعليهم، وما يمتنع في حقهم، وأثره في حياة المؤمنين.

والإيمان باليوم الآخر وأشراطه وعلاماته، والقبر وعذابه ونعيمه، والبعث

والنشور، والحشر، وما يتعلق بأهوال القيامة، وأحوال الناس فيها، والشفاعة والحساب والجزاء، وما يكون من الميزان، والحوض، والصراط، والجنة، والنار، والنعيم، والعذاب.

والإيمان بالقضاء والقدر، ومعناه، وأدلته، ومراتبه، وثمراته، وآثاره. ومما يلتحق بالإيمان: بيان نواقضه وقوادحه من الكفر والشرك والنفاق والظلم والفسق، وما ينقض أصل الإيمان، وما ينقض كماله، ويقدر في تمامه. ويلتحق بأبواب الإيمان: العقيدة في الصحابة، وأهل بيت النبي ﷺ، والعلماء، والأولياء، والأئمة.

والحذر من الابتداع والافتراق، والاعتصام بالكتاب والسنة، وبيان منهج التلقي والاستدلال.

ومن أهل العلم مَنْ يُدخل في ثنايا كتب الإيمان: الرد على المخالفين من أهل الأهواء من الرافضة والخوارج والمعتزلة والجهمية والمرجئة، وغيرهم، ومن ظهر في العصور المتأخرة؛ كالبهائية والقاديانية والعلمانية، وغيرهم. والإيمان كما يشمل البيان، فإنه يشمل الرد - أيضًا - وكما يتضمن التأصيل والتأسيس، فإنه يتناول النقض والإبطال.

غير أن المحذور في هذا السياق أن تزداد مساحة الردود على مساحة البناء، وتستغرق المناظرة مع أهل الانحرافات معظم الجهد، بحيث يفضي هذا إلى تقصير وتفريط في جانب بناء التعبد القلبي، وتحقيق أصل الدين محبةً وانقيادًا وخوفًا ورجاءً وعلماً وعملاً وحالاً!

ولهذا كان علم الإيمان المعتمد على الوحي من السنة والقرآن عنايته بالتأصيل والتفصيل في باب تحقيق أعمال القلوب وتكميلها أوفر، أما علم المناظرة والجدل مع الخصوم فبابٌ آخر؛ إذ هو أشبه بمعارك على حدود

الإيمان والعقيدة، أما ما هو داخل في أصل بنائها، وأساس تكوينها، فيرجع إلى ما يقوم بالقلب من تعظيمٍ وتأليهٍ وتقديسٍ وتوكلٍ ويقينٍ، ونحو ذلك، وما يترتب على ما في القلوب من طاعات الجوارح، والعمل الصالح.

عاشراً: كتب علم الإيمان:

أعظم كتب علم الإيمان: القرآن، ثم كتب سنة النبي العدنان، وما صنفه بعد ذلك الأئمة تحت اسم: (الإيمان، والسنة، والتوحيد والاعتقاد) في القرون الأخيرة، والتي عُرفت بكتب العقيدة المسندة.

ثم إن العقيدة جُرِّدت في متون مختصرة منظومة شعراً، أو مكتوبة نثرًا، ثم جاءت كتب الشروح ما بين مختصرة وموسعة.

وهذه الكتب كثيرة وفيرة - بحمد الله تعالى - منذ بدأ التصنيف في القرن الثاني الهجري، وإلى يوم الناس هذا، وكتب أهل السنة يَبني فيها اللاحق على ما بدأه السابق؛ ولذا كانت عقائدهم - بحمد الله - لا تناقض فيها، ولا اختلال، أو اعتلال.

ومن أهم كتب العقيدة المسندة ما يلي:

- ١ - السنة، للإمام ابن أبي عاصم الشيباني (٢٨٧هـ).
- ٢ - السنة، لعبد الله بن أحمد بن حنبل (٢٩٠هـ).
- ٣ - التوحيد وإثبات صفات الرب، للإمام محمد بن إسحاق بن خزيمة (٣١١هـ).
- ٤ - الإيمان، للإمام الحافظ محمد بن إسحاق بن منده (٣٩٥هـ).
- ٥ - شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للإمام الحافظ هبة الله بن الحسن اللالكائي (٤١٨هـ).

ومن أهم كتب متون العقيدة المنثورة ما يلي:

- ١ - السنة، للإمام أحمد بن حنبل (٢٤١هـ).
- ٢ - العقيدة الطحاوية، للإمام الطحاوي (٣٢١هـ).

- ٣- اعتقاد أئمة الحديث، لأبي بكر الإسماعيلي (٣٧١هـ).
- ٤- مقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني (٣٨٦هـ).
- ٥- العقيدة الواسطية، لابن تيمية (٧٢٨هـ).
- ومن أهم كتب العقيدة المنظومة ما يلي:
- ١- الحائية، لابن أبي داود (٣١٦هـ).
- ٢- التائية، لابن تيمية (٧٢٨هـ).
- ٣- الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، لابن القيم (٧٥١هـ).
- ٤- الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، للسفاريني (١١٨٨هـ).
- ٥- سُلَّم الوصول إلى علم الأصول، لحافظ حكيم (١٣٧٧هـ).
- ومن أهم كتب الشروح:
- ١- الحجة في بيان المحجة في شرح التوحيد ومذهب أهل السنة، لقوام السنة أبي القاسم التميمي الأصبهاني (٥٣٥هـ).
- ٢- شرح الطحاوية، للإمام ابن أبي العز الحنفي (٧٩٢هـ).
- ٣- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرة المضية، للسفاريني (١١٨٨هـ).
- ٤- معارج القبول شرح سُلَّم الوصول، لحافظ حكيم (١٣٧٧هـ).
- ٥- المحاضرات السنية في شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين (١٤٢١هـ).



الفصل الثالث

أسماء الإيمان



إن للإيمان عند الإطلاق والتجريد أسماء متعددة، منها: الإسلام، والإحسان، فإذا أطلق الإسلام، أو الإيمان، أو الإحسان فقد دلت جميعاً على الدين.

فإذا تقيّد أحد هذه المصطلحات بأمر، أو اقترن مع غيره - كما لو اجتمع الإسلام والإحسان، أو الإسلام والإيمان - فعند ذلك يكون اسماً له دلالة الخاصة.

يقول ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «فإنه يتضح بتقرير أصل، وهو: أن من الأسماء ما يكون شاملاً لمسميات متعددة عند إفراده وإطلاقه، فإذا قرن ذلك الاسم بغيره صار دالاً على بعض تلك المسميات، والاسم المقرون به دال على باقيها. وهذا كاسم: الفقير، والمسكين، فإذا أُفرد أحدهما دخل فيه كل من هو محتاج، فإذا قرن أحدهما بالآخر دل أحد الاسمين على بعض أنواع ذوي الحاجات، والآخر على باقيها»^(١).

«وهذه الأسماء التي تختلف دلالتها بالإطلاق والتقييد، والتجريد والاقتران،

(١) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السّلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، تحقيق: الدكتور محمد الأحمد أبو النور، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م (١/١٠٩).

تارةً تكون إن أفرد أحدها كان أعم من ذلك الآخر كاسم: المعروف مع الصدق مثلاً، والمنكر مع الفحشاء والبغي.

وتارةً يكونان متساويين في العموم والخصوص كلفظ: الفقير، والمسكين^(١). وقد تختص الأسماء بمعانيها، وتكون لها دلالة واحدة، فالأسماء الحسنى كلها تدل على ذات واحدة، ثم كل اسم منها يدل على اتصاف الله تعالى بصفة معينة، وتختلف تلك الصفات في معانيها.

فاسم: (الرحمن) كما يدل على الذات فإنه يتضمن اتصافه تعالى بصفة الرحمة، وهكذا: العليم والسميع والبصير والقدير كلها تدل دلالة واحدة على ذات واحدة، وتتضمن معاني مختلفة من الاتصاف بالعلم والسمع والبصر والقدرة.

ومثل هذا- أيضًا- أسماء النبي ﷺ، وأسماء القرآن.

وباستصحاب تلك القواعد المهمة فإن الإيمان والإسلام والإحسان إذا اقترنت جميعاً في سياق واحد تباينت في معانيها.

وهذا ظاهر في حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَام حين سأل النبي ﷺ عنها جميعاً، ففرق النبي ﷺ بينها في الجواب والمعنى، فعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منها أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ:

(١) الإيمان، لابن تيمية (ص ١٣٥).

الإِسْلَامُ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، قَالَ: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله، ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ، قال: فأخبرني عن الساعة، قال: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، قال: فأخبرني عن أمارتها، قال: أَنْ تَلِدَ الْأُمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ، قال: ثم انطلق فلبث ملياً، ثم قال لي: يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مِنَ السَّائِلِ؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فَإِنَّهُ جَبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ^(١).

وباستقراء المواضع التي اقترن بها الإيمان بالإسلام وجد أنه دل كل من الإيمان والإسلام على ما يلي:

أولاً: الإسلام: الظاهر. والإيمان: الباطن، فالإسلام قسيم للإيمان.

ثانياً: الإسلام: عمل القلب وعمل الجوارح. والإيمان: قول باطن وظاهر.

ثالثاً: الإسلام: عمل القلب. والإيمان: قول القلب.

فالإسلام إما أن يكون جزءاً من مسمى الإيمان، أو لازماً له.

فأما ما يدل على (أولاً): فقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

كما دل - أيضاً - قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ ءَأَمْنٌ وَعَمَلٌ وَالصَّالِحَاتِ﴾

[البقرة: ٢٧٧]، فالإيمان: قلبي باطني، والإسلام: عملي ظاهري.

ويشهد له حديث جبريل حين عرّف الإيمان بالأعمال القلبية الباطنة، والإسلام بالأعمال المتعلقة بالجوارح.

أما إذا ذكر اسم الإيمان، أو الإسلام مجردًا عن الآخر فقد دل كل منهما على الدين بتمامه، ودخل الظاهر والباطن منهما كلٌّ على حدة.

فلا إيمان لمن لا إسلام له، ولا إسلام لمن لا إيمان له، فلا يخلو مسلم من إيمان به يصح إسلامه، ولا يخلو المؤمن من إسلام به يحقق إيمانه! فالمسلم مؤمن، والمؤمن مسلم بإجماع أهل القبلّة.

وأعمال الإسلام الظاهرة هي من ظاهر الإيمان، وأعمال الإيمان الباطنة هي من باطن الإسلام. وضد الإسلام والإيمان واحد وهو الكفر ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ﴾ [آل عمران: ٨٦]، ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠].

وعليه؛ فإن الأعمال الظاهرة من الإيمان، والتصديق والانقياد القلبي من الإسلام.

فالإسلام والإيمان والإحسان هي الدين الذي جاء جبريل ليعلّمه. وأما ما يدل على (ثانيًا): فالإسلام عمل باطن وظاهر، والإيمان قول باطن وظاهر، فالإسلام في الأصل من باب العمل (عمل القلب والجوارح) والإيمان أصالة التصديق والإقرار والمعرفة، فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب، والأصل فيه التصديق، والعمل تابع له.

وفي الحديث: أن النبي ﷺ قال لرجل: «أَسْلِمْتَ تَسْلَمُ! قال: وما الإسلام؟ قال: يُسَلِّمُ قَلْبُكَ لِلَّهِ، وَيَسْلَمُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِكَ وَيَدُكَ، قال: فأَيُّ الإسلام أفضل؟ قال: الْإِيْمَانُ، قال: وما الإِيْمَانُ؟ قال: تُؤْمِنُ بِاللَّهِ

وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ»^(١).

فقد دل هذا على: أن الإسلام أعم من جهة أهله، والإيمان أخص من جهة أهله.

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «وإن قُرْن بين الاسمين كان بينهما فرق، والتحقيق في الفرق بينهما: أن الإيمان هو: تصديق القلب وإقراره ومعرفته، والإسلام هو: استسلام العبد وخضوعه وانقياده له، وذلك يكون بالعمل وهو الدين»^(٢).

وأما ما يدل على (ثالثاً): فهي أن يجتمعا فيكون الإسلام عبارة عن عمل القلب من الإخلاص والرضا ونحوها. والإيمان قول القلب من علم وتصديق ويقين واعتقاد ونحوها.

والإسلام هنا قسيم للإيمان، واجتماع الإسلام والإيمان هو أصل الدين، أو الإيمان المجمل.

ويدل عليه: قوله تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِن رَّبِّهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٤) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ

(١) أخرجه أحمد (١٧٠٢٧) من حديث عمرو بن عبسة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) جامع العلوم والحكم، لابن رجب (١/ ١١١).

يُقْبَلُ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْأَخِرَةِ مِنَ الْخَيْرِينَ ﴿[آل عمران: ٨٤].

فعبر عن الإيمان بقول القلب، أو التوحيد القولي، وعبر عن الإسلام بعمل القلب، أو التوحيد العملي.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن هاتين الآيتين فيهما دين الإسلام، وفيهما الإيمان القولي، والإيمان العملي، فقوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦] يتضمن الإيمان القولي والإسلام»^(١).

وإذا اقترن الإسلام بالإيمان والإحسان كان الإسلام أعم من الإيمان والإحسان، وكان الإحسان أخص من الإيمان والإسلام، وذلك من حيثية الداخلين في عداد أصله.

وكان الإيمان أخص من الإسلام وأعم من الإحسان من نفس الحيثية. فالمسلمون هم الأكثر عدداً، والمحسنون هم الأقل عدداً، وبينهما المؤمنون. وكل محسن مؤمن ومسلم، وكل مؤمن مسلم، والعكس ليس صحيحاً. وهذا تعبير عن مراتب الدين؛ إذ أعلاها: الإحسان، وأصحابه قليلون، وأدناها: الإسلام وأصحابه كثيرون، وبينهما الإيمان.

والإحسان يدخل تحته الإيمان والإسلام، والإيمان يدخل تحت الإسلام. فالإحسان أعم من جهة نفسه، وأخص من جهة أصحابه، والإيمان أعم

(١) قاعدة جلية في التوسل والوسيلة، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: ربيع بن هادي عمير المدخلي، مكتبة الفرقان، عجمان، ط ١ ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م (ص ٣٣٦).

من جهة نفسه، وأخص من جهة أصحابه.

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ [فاطر: ٣٢]، فالسابق: محسن، والمقتصد مؤمن، والظالم: مسلم.

وهنا يأتي ذكر القاعدة:

أنهما إذا اجتماعا في سياق واحد افترقا في معناهما.

وإذا افترقا فذكر أحدهما في سياق دون الآخر في معرض الثناء والمدح، ولم تكن قرينة على إرادة المعنى الخاص اجتماعا في دلالة كل منهما على الآخر. فإذا ورد سياق فيه مدح للمسلم عني به المؤمن - أيضًا - والعكس صحيح. وإذا كان القول الذي عليه جماهير أهل السنة هو: التفريق بين الإسلام والإيمان إذا اجتماعا، والاتفاق في معناهما إذا انفردا، فإن من الأقوال التي قيل بها من بعض أهل السنة: الترادف بين الإسلام والإيمان، وأنهما اسمان لمسمى واحد.

كما هو مذهب محمد بن نصر المروزي^(١)، والبخاري^(٢)، وابن حبان^(٣) وغيرهم. والراجح الذي عليه الأكثر هو ما عبر عنه شيخ الإسلام بقوله: «وأما إذا قرن الإيمان بالإسلام فإن الإيمان في القلب، والإسلام الظاهر، كما في

(١) تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٥٢٠).

(٢) باب: «إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة...» (١/ ١٤).

(٣) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد التميمي أبي حاتم الدارمي البستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م (١/ ٣٧٥).

المسند عن النبي ﷺ أنه قال: (الإِسْلَامُ عَلَانِيَةٌ، وَالْإِيْمَانُ فِي الْقَلْبِ)»^(١).
«والإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت
وتؤمن بالقدر خيره وشره، ومتى حصل له هذا الإيمان وجب ضرورة أن
يحصل له الإسلام الذي هو الشهادتان، والصلاة والزكاة، والصيام،
والحج؛ لأن إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله يقتضي الاستسلام لله،
والانقياد له، وإلا فمن الممتنع ألا يكون قد حصل له الإقرار والحب
والانقياد باطنًا، ولا يحصل ذلك في الظاهر، مع القدرة عليه كما يمتنع
وجود الإرادة الجازمة مع القدرة بدون وجود المراد»^(٢).



(١) أخرجه أحمد (١٢٣٨١) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) مجموع الفتاوى (٥٥٣/٧).

الفصل الرابع

حقيقة الإيمان



إن إدراك حقيقة الإيمان ومعناه، والتعرّف على مفهومه ومغزاه لمن أوجب المهمات، وأفرض التكليفات.

والأصل في معرفة معاني المصطلحات الشرعية هو: الرجوع إلى بيان الشريعة لها، وتعريفها إياها؛ إذ المرجع في بيان الشرعيات كلام الله وكلام رسوله ﷺ، فإن لم يوجد في الشريعة البيان ينظر - عندئذ - في كلام العرب، ومعهود أهل العرف.

و«لقد بين النبي ﷺ المراد بلفظ الإيمان، وما يضادّه بياناً لا يحتاج معه إلى الاستدلال على ذلك بالاشتقاق، وشواهد استعمال العرب، ونحو ذلك...؛ فلهذا يجب الرجوع في مسميات هذه الأسماء إلى بيان الله ورسوله ﷺ؛ فإنه شافٍ كافٍ، بل معاني هذه الأسماء معلومة من حيث الجملة للخاصة والعامة»^(١).

وقد ذهب جمهور أهل السنة - سلفاً وخلفاً - إلى أن الإيمان الذي طلبه الله ورسوله مركّب من أمور ثلاثة:

أولاً: اعتقاد القلب.

ثانياً: إقرار اللسان.

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٨٧).

ثالثاً: عمل الجوارح.

وَأَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَنَّ إِيْمَانَ الْوَرَى قَوْلٌ وَفِعْلٌ ثُمَّ عَقْدُ جَنَانٍ^(١)

أولاً: اعتقاد القلب:

أمّا اعتقاد القلب، فيتضمّن: ركنين، لا يُغني أحدهما عن الآخر:
الركن الأول: المعرفة والعلم والتصديق، ونحوها، ويُطلق عليه: قول القلب.
الركن الثاني: الالتزام والتسليم والانقياد، ونحوها، ويُطلق عليه: عمل القلب.
وعليه؛ فإنّه يطلب في القلب قولٌ وعملٌ، هُما: التصديق والانقياد؛ فمن
لم يحصل في قلبه التصديق والانقياد فليس بمؤمنٍ، ولا بمسلم!
وقد قال تعالى - بشأن التصديق -: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ [الزخرف: ٨٦]،
أي: «شهد بلا إله إلا الله»^(٢)، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، أي: بقلوبهم
معنى ما نطقوا به بألسنتهم.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيْمَنُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيْمَنَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

قال أحمد رحمه الله: «من جحد المعرفة والتصديق فقد قال قولاً عظيماً؛
فإنّ فساد هذا القول معلومٌ من دين الإسلام»^(٣).

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، نونية ابن القيم، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط ٢، ١٤١٧ هـ (ص ١٧٤).

(٢) تفسير القرطبي، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م (١٦ / ١٢٢).

(٣) الإيمان، لابن تيمية (ص ٣٠٨).

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

أما ركن الالتزام والانقياد فيدل عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وقال سبحانه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].
قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «والكفر هو عدم الإيمان؛ سواء كان معه تكذيب، أو استكبار، أو إباء، أو إعراض، فمن لم يحصل في قلبه التصديق والانقياد فهو كافر»^(١).

«وإذا زال عمل القلب مع اعتقاد الصدق فأهل السنة مجمعون على زوال الإيمان، وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب»^(٢).
ولما قال أبو طالب:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينًا

(١) مجموع الفتاوى (٦٣٩/٧).

(٢) الصلاة وحكم تاركها، لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابري، الجفان والجابري، دار ابن حزم، قبرص، بيروت، ط ١، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م (ص ٧١).

لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حَذَارُ مَسَبَّةٍ لَوَجَدْتَنِي سَمَحًا بِذَلِكَ مُبِينًا^(١)

لم يكن بهذا مسلمًا؛ لأنه امتنع عن الانقياد والتسليم؛ كراهة أن يُعيرَه قومه بالرغبة عن دين آبائه!

ولمَّا جاء يهود، فقال بعضهم للنبي ﷺ: «نشهد أنك نبي»^(٢) - لم يكونوا مسلمين بذلك؛ لأنهم لم يقصدوا إنشاء الالتزام والتسليم والانقياد للنبي ﷺ، فكانوا كفارًا في الظاهر والباطن.

ثانيًا: إقرار اللسان:

وأما إقرار اللسان بالإيمان فلا بدَّ منه، ولا غنى عنه؛ إذ هو في حقيقة حاله إنشاءٌ للالتزام والانقياد من جهة، وإخبارٌ عمَّا في القلب من جهةٍ أخرى، فإقرار اللسان يتضمَّن: الإخبار والالتزام معًا.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «ولفظ الإقرار يتضمَّن: الالتزام، وهو على معنيين: أحدهما: الإخبار، وهو من هذا الوجه شبيهٌ بلفظ التصديق والشهادة، وهذا هو معنى الإقرار الذي يذكره الفقهاء في كتبهم باسم: كتاب الإقرار. الثاني: إنشاء الالتزام، كما في قوله تعالى: ﴿أَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، وليس هو هنا بمعنى: الخبر المجرد... فهذا التزامٌ للإيمان، والنصر للرسول ﷺ، وكذلك لفظ: (الإيمان) فيه إخبارٌ وإنشاءٌ والتزامٌ»^(٣).

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٤١).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٠٩٢)، والترمذي (٢٧٣٣)، والنسائي (٤٠٧٨)، وابن ماجه (٣٧٠٥) من حديث صفوان بن عسال رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ.

(٣) الإيمان الأوسط، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، تحقيق: محمود أبي سن، دار طيبة، الرياض، ط ١، ١٤٢٢ هـ (ص ٧٨).

قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦].
وقال سبحانه: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].
وقال جلَّ وعلا: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [غافر: ٨٤].
وفي الحديث: «الإيمان بضع وستون شعبة، فأفضلها: قول لا إله إلا الله»^(١).
وبناءً عليه؛ فإنه يتعين على كل قادر أن ينطق بالشهادتين ليدخل في الإسلام،
فإن لم يفعل مع القدرة فهو كافر باطنًا وظاهرًا^(٢).

«واتفق أهل السنة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين على أن المؤمن الذي يُحكم بأنه من أهل القبلة ولا يخلد في النار لا يكون إلا من اعتقد بقلبه دين الإسلام اعتقادًا جازمًا خاليًا من الشكوك، ونطق بالشهادتين، فإن اقتصر على إحدهما لم يكن من أهل القبلة أصلًا إلا إذا عجز عن النطق لخلل في لسانه، أو لعدم التمكن منه لمعاجلة المنية، أو لغير ذلك»^(٣).

وَمَنْ نطق بالشهادتين يريد الدخول في الإسلام، ولم يقرنها بما يناقضها فإنه يُحكم بإسلامه، وتجري عليه أحكام المسلمين في الدنيا، ثم يُطالب بالفرائض والأحكام.

وعليه؛ فلا يحكم بالإسلام حتى يجتمع التصديق والانقياد القلبي مع الإقرار باللسان، وَمَنْ أقرَّ بلسانه وكذب بجنانه حُكم بإسلامه ظاهرًا في أحكام الدنيا، وكان منافقًا في أحكام الآخرة، قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنْفِقُونَ قَالُوا

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) راجع: مجموع الفتاوى (٧/ ٦٠٩).

(٣) شرح صحيح مسلم، لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ٢، ١٣٩٢ هـ (١/ ١٤٩).

نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾
[المنافقون: ١].

ثالثاً: عمل الجوارح:

وَأَمَّا عملُ الجوارح، فَعَامَّةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَجَمَاهِيرِهِمْ - سَلَفًا وَخَلَفًا -
على دخول جميع العمل في مسمى الإيمان، ومن أهل العلم مَنْ جعل عمل
الجوارح خارجاً عن الإيمان لازماً له ^(١).

وَقَدْ دَخَلَتِ الْأَعْمَالُ فِي مُسَمَّى الْإِيمَانِ بِدَلَالَةِ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الْكِتَابِ
وَالسُّنَّةِ، مِنْ ذَلِكَ: حَضَرُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَنْ يُوَدِّي الْأَعْمَالِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا
الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا
وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾
أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

فَدَخَلَ الْجِهَادُ فِي مُسَمَّى الْإِيمَانِ، وَضَمَّنَ حَقِيقَتَهُ، وَهُوَ مِنَ الْأَعْمَالِ.
ومثله: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا
وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥].

ومن ذلك: كُلُّ الْآيَاتِ الَّتِي تَحَدَّثَتْ عَنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَإِنِهَا ذَكَرَتْ
الْأَعْمَالَ الْبَدَنِيَّةَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ

(١) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز (٢/ ٤٤٥).

خَشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾
[المؤمنون: ١ - ٤].

وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴿٦٤﴾﴾
[الفرقان: ٦٣ - ٦٤].

ومن ذلك: الجمع بين الإيمان والعمل الصالح بصيغة المفرد في خمس عشرة آية، منها: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٠].
وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ [سبا: ٣٧].

ومن ذلك: الجمع بين الإيمان والعمل بصيغة الجمع في اثنتين وخمسين آية:
قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ [المائدة: ٩٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

ومن ذلك: إطلاق اسم الإيمان على العمل في بعض الآيات:
قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣].
ذهب جمهور المفسرين من لدن الصحابة إلى أن المقصود بـ(إيمانكم): الصلاة التي صلى الصحابة إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة^(١).

(١) تفسير الطبري، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبي جعفر الطبري، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م (١٦٩/٣).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩].
وقد ذهبت طائفة من المفسرين أن المقصود بالإيمان هنا: الأعمال التي عملها في الدنيا^(١).

ومن ذلك: إطلاق عبارات وألفاظ تشير إلى العمل، والمقصود منها: الإيمان:

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبُذُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧].
قال البخاري رحمه الله: «دعائكم: إيمانكم. ومعنى الدعاء في اللغة: الإيمان»^(٢).
وعد ابن عباس رضي الله عنهما الدعاء هنا بمعنى: الإيمان، قال في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾: «لولا إيمانكم»^(٣).

وقال ابن حجر رحمه الله - نقلاً عن ابن عباس - رضي الله عنهما: «لولا إيمانكم: أخبر الله الكفار أنه لا يعذبهم، ولولا إيمان المؤمنين لم يعذبهم أيضاً»^(٤).
وقال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ

(١) التفسير البسيط، لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري الشافعي، عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، ١٤٣٠هـ (١١/١٢٩).

(٢) صحيح البخاري (١/١٠).

(٣) أخرجه ابن جرير (١٧/ ٥٣٦)، وأبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس التميمي الرازي، المعروف بابن أبي حاتم، في تفسير القرآن العظيم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط٣، ١٤١٩هـ (٨/ ٢٧٤٥).

(٤) فتح الباري، شرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة، بيروت ١٣٧٩هـ (١/ ٤٩).

ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ
ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَى السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ
الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ
وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿البقرة: ١٧٧﴾.

فالآية اعتبرت هذه الخصال المذكورة تصديقاً وإيماناً، وجعلت أعمال
البر هذه من الإيمان.

وقد سأل أبو ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النبي ﷺ عن الإيمان، فتلا عليه هذه الآية ^(١).
وقد صَنَّفَ البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «باب: أمور الإيمان» ^(٢)، وفيه هذه الآية مع
آيات أول سورة: (المؤمنون)، وحديث: «الإيمانُ بضعٌ وستونُ شعبةً» ^(٣).
ومن السنة دلالاتٌ متعددة على دخول الأعمال في مسمى الإيمان، من ذلك:
حديث: «الإيمانُ بضعٌ وستونُ شعبةً، فأفضلُها: قولُ: لا إلهَ إلا اللهُ،
وأدناها: إماطةُ الأذى عن الطريق، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان» ^(٤).

وفي حديث وفد بني عبد القيس حين عرَّفَ النبي ﷺ الإيمان أدخل
فيه: الصلاة والزكاة والصيام، وإيتاء الخمس من المغنم.
فقال لهم ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم.

(١) أخرجه عبد الرزاق بن همام بن الحميري الصنعاني، تحقيق: مركز البحوث بدار التأصيل،
دار التأصيل - القاهرة، ط ١، ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م في المصنف (٢١٠٢٧)، وأبو عبد الله
محمد بن نصر بن الحجاج المروزي، في تعظيم قدر الصلاة، تحقيق: عبد الرحمن عبد
الجبار الفريوائي، مكتبة الدار - المدينة المنورة، ط ١، ١٤٠٦ هـ (١/٤١٧).

(٢) صحيح البخاري (١/١١).

(٣) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ الْمَغْنَمِ الْخُمْسُ»^(١).

وقد ذكر الحافظ ابن منده قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»^(٢).

وذلك في مقام الاستدلال على أن: «الإيمان اعتقاد بالجنان، ونطق باللسان، وعمل الجوارح بالأركان، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية»^(٣).

ومن ذلك: قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(٤).

وقَدْ سَاقَ عِدَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إِجْمَاعًا عَنِ السَّلَفِ فِي دُخُولِ الْأَعْمَالِ فِي مُسَمًّى الْإِيمَانِ، مِنْ ذَلِكَ:

قول الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٠٤هـ): «كَانَ الْإِجْمَاعُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِمَّنْ أَدْرَكْنَاهُمْ: أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَنِيَّةٌ، وَلَا يَجْزِي وَاحِدٌ مِنَ الثَّلَاثَةِ إِلَّا بِالْآخِرِ»^(٥).

وقال أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٤١هـ): «أَجْمَعَ تِسْعُونَ رَجُلًا مِنَ التَّابِعِينَ وَأُثْمَةَ

(١) أخرجه البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) الإيمان، لأبي عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن مَنَدَةَ العبدى، تحقيق: علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤٠٦هـ (١/٣٤١).

(٤) أخرجه البخاري (٣٧)، ومسلم (٧٥٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، لأبي القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، دار طيبة، السعودية، ط ٨،

المسلمين، وأئمة السلف، وفقهاء الأمصار على: أن السنة التي تُوفِّي عنها رسول الله ﷺ... الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية»^(١).

وقال البخاري رَحِمَهُ اللهُ (٢٥٦ هـ): «كتبْتُ عن ألف نفرٍ من العلماء وزيادة، ولم أكتب إلا عَمَّن قال: الإيمان قول وعمل»^(٢).

كما بَوَّب البخاري رَحِمَهُ اللهُ: «باب: أمور الإيمان»^(٣)، و«باب: من قال: إن الإيمان هو العمل»^(٤)، و«باب: قيام ليلة القدر من الإيمان»^(٥)، و«باب: الجهاد من الإيمان»^(٦)، و«باب: الصلاة من الإيمان»^(٧)، و«باب: صوم رمضان احتساباً من الإيمان»^(٨)... وغير ذلك.

وقال أبو عمر الطلمنكي رَحِمَهُ اللهُ (٤٢٩ هـ): «أجمع أهل السنة على: أن الإيمان قول، وعمل، ونية، وإصابة السنة»^(٩).

وقال ابن بطال رَحِمَهُ اللهُ (٤٤٩ هـ): «مذهب جماعة أهل السنة من سلف الأمة وخَلَفِها: أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص»^(١٠).

(١) طبقات الحنابلة، لأبي الحسين ابن أبي يعلى محمد بن محمد، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت (١/ ١٣٠).

(٢) شرح أصول الاعتقاد، للالكائي (١٥٩٧).

(٣) صحيح البخاري (١/ ١١).

(٤) المصدر السابق (١/ ١٤).

(٥) المصدر السابق (١/ ١٦).

(٦) المصدر السابق (١/ ١٦).

(٧) المصدر السابق (١/ ١٦).

(٨) المصدر السابق (١/ ١٦).

(٩) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٣٢).

(١٠) شرح صحيح البخاري، لابن بطال أبي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، تحقيق:

أبي تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض، ط ٢، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م

(١/ ٥٦).

وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ (٤٦٣ هـ): «أجمع أهل الفقه والحديث على: أن الإيمان قول وعمل، ولا عمل إلا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، والطاعات كلها عندهم إيمان»^(١).

وقال البغوي رَحِمَهُ اللهُ (٥١٦ هـ): «اتَّفقت الصحابة والتابعون فمن بعدهم من علماء السنة على: أن الأعمال من الإيمان»^(٢).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ (٧٧٤ هـ): «قد حكاها الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو عبيدة وغيره إجماعاً: أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص»^(٣).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ (٧٢٨ هـ): «وأجمع السلف: أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص»^(٤).

وعليه؛ فإنَّ عامَّة أهل السنة والحديث على أن الأعمال جزءٌ من الإيمان، وهي داخلةٌ في مُسمَّاه، وأن الإيمان والأعمال متلازمان، ولم يثبت في الكتاب والسنة مدح، أو ثناء على إيمانٍ لا عمل فيه، بل لا بد من عمل القلب، وعمل الجوارح.

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب ١٣٨٧ هـ (٢٣٨/٩).

(٢) شرح السنة، لمحيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، ط ٢، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م (٣٨/١).

(٣) تفسير ابن كثير، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري، ثم الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م (١٦٥/١).

(٤) مجموع الفتاوى (٦٧٢/٧).

وقد يُعبر عن حقيقة الإيمان، فيقال: هي: الطاعات الظاهرة والباطنة. وهذه كلمة جامعة للاعتقادات الباطنة والأقوال والأعمال الظاهرة. وقد يُقال: حقيقة الإيمان: فعل ما ينفع، وترك ما يضر. فكل اعتقاد وقول وعمل نافع للإنسان في الأولى والآخرة فهو من الإيمان، وكل ما يضره فهو مما يصاده من الفسوق والعصيان. وقد يُعبر عن حقيقة الإيمان ببعض أركانه، أو أجزائه لبيان أهميتها، وعظيم منزلتها.

ومن ذلك: ما روي من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةً، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ»^(١).

وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً: «لَا يَبْلُغُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مِنَ الْخَيْرِ»^(٢).

وعنه - أيضاً - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ: «لَا يَبْلُغُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَخْزَنَ مِنْ لِسَانِهِ»^(٣).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا موقوفاً: «لَا يَبْلُغُ أَحَدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَدَعَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَيَدَعَ الْمُزَاحَةَ فِي الْكَذِبِ»^(٤).

(١) أخرجه أحمد (٢٧٤٩٠).

(٢) أخرجه ابن حبان (٢٣٥).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٦١٣).

(٤) الإيمان، لأبي عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله الهروي البغدادي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م (ص ٣٧).

وعنه - أيضاً - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مَوْقُوفًا: «لَنْ يُصِيبَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَرَى النَّاسَ كَأَنَّهُمْ حَمَقَى فِي دِينِهِمْ»^(١).

وهذه تعبيراتٌ جزئيةٌ لا تدلُّ إلا على دخول تلك الخصال في الإيمان، وأنها بمنزلةٍ عظيمةٍ منه.

أمَّا حقيقة الإيمان الجامعة: فهي: «حقيقة مركبة من معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علمًا، والتصديق به عقدًا، والإقرار به نطقًا، والانقياد له محبةً وخضوعًا، والعمل به باطنًا وظاهرًا، وتنفيذه والدعوة إليه بحسب الإمكان، وكماله في الحب في الله، والبغض في الله، والعطاء لله، والمنع لله، وأن يكون الله وحده إلهه ومعبوده، والطريق إليه تجريد متابعة رسوله ﷺ ظاهرًا وباطنًا، وتغميض عين القلب عن الالتفات إلى سوى الله ورسوله»^(٢).

وحقيقة الإيمان تنافي الكفر والشرك والنفاق والفسوق والعصيان. قال ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»^(٣). فإنَّ ذوق حقيقة الإيمان ومباشرته لقلبه يمنعه من أن يؤثر عليه ذلك القدر الخسيس، وينهاه عما يشعته وينقصه.

ولهذا تجد العبد إذا كان مخلصًا لله، منيبًا إليه، مطمئنًا بذكره، مشتاقًا إلى لقاءه، منصرفًا عن هذه المحرمات، لا يلتفت إليها، ولا يعول عليها، ويرى استبداله بها عما هو فيه كاستبداله البعر الخسيس بالجواهر النفيس،

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (ص ٢٩٦).

(٢) الفوائد، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م (ص ١٠٧).

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وبيعه الذهب بأعقاب الجزر، وبيعه المسك بالرجيع^(١).

قال سفیان بن عُیَیْنَةَ رَحِمَهُ اللهُ: «لا يصيب عبدٌ حقيقة الإيمان حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال، وحتى يدع الإثم، وما تشابه منه»^(٢).

والفرق واسع والبون شاسع بين حقيقة الإيمان وأدعاء الإيمان!

وقد نفى الله الإيمان عمَّن ادَّعاه، ولم يتحققوا بتمام حقيقته.

قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلُوبُنَا لَمْ نُوْمِنُوا وَلَكِنْ قَوْلُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

فهؤلاء مسلمون، وليسوا بمؤمنين؛ لأنَّهم لم يباشر الإيمان قلوبهم، فيذوقوا من حلاوته، وهؤلاء مسلمون؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ قَوْلُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤].

ثمَّ ذكر بعد ذلك حال أهل الإيمان الذين ذاقوا حلاوته، واطمأنوا بالإيمان، ولم يرتابوا.

فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وإنَّما انتفى عنهم الرِّيب؛ لأنَّ الإيمان قد باشر قلوبهم، وخالطتها بشاشته، فلم يبق للرِّيب فيها موضع، كما قال الحسن البصري: «ليس الإيمان

(١) إغاثة اللفهان من مصايد الشيطان، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية (١٩٩/٢).

(٢) تفسير ابن رجب، لزين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن السلامي البغدادي، ثم الدمشقي الحنبلي، تحقيق: أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، دار العاصمة، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤٢٢ - ٢٠٠١ م (١/١٤٤).

بالتمني، ولا بالتحلي، ولكن ما وَقر في القلب، وصدَّقه العمل»^(١).
والعمل دليل على الإيمان، ومصدَّق له، والأعمال ثمرات العلوم
والعقائد، فاليقين يثمر الجهاد ومقامات الإحسان، فعلى حسب قوته،
تكون ثمرته ونتيجته، والريب والشك يثمر الأعمال المناسبة له^(٢).

وبناءً على ما تقدم:

فحقيقة الإيمان في القلب: جزم لا شك فيه على قضايا الإيمان.
وحقيقته في اللسان: إقرار بالشهادتين.
وحقيقته في الجوارح: خضوع وإذعان واستسلام، والتزام لكل أوامر الله
مع البعد عن الحرام.



(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٠٩٨٨).

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم (٩١/٣ - ٩٢).

الفصل الخامس شعب الإيمان

إنَّ الإيمان الذي كلف الله به عباده: اعتقاد وقول وعمل، والاعتقاد شعب متعددة، كذا القول والعمل، فمن أتى بأصل الإيمان، واستكمل شعبه فقد كَمَلَ الإيمان.

ومن جاء بأصله، واستكثر من شعبه، كان أكمل ممن اقتصر على بعضها، أو قصر في بعضها، فالمستكثر أفضل من المقل. ويتفاوت تحقق العبد بالإيمان، والدخول في شعبه يتفاوت الأجر، ويتفاضل في الآخرة.

فالسَّابِقُونَ بدرجةٍ عليا من تحصيل شعب الإيمان وتكملها، وهم في درجةٍ من الجنة يقصر عنها أصحاب اليمين.

أدلة شعب الإيمان:

دلَّ القرآن الكريم، والسُّنة المُطَهَّرة على شعب الإيمان الاعتقادية والقلوية والعملية، فمن ذلك:

١ - قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُؤُا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُنْقُونَ ﴿البقرة: ١٧٧﴾.

وهذه الآية من أجمع الآيات في ذِكْرِ شُعْبِ الإيمان، فقد ذَكَرَ الله تعالى فيها من شُعْبِ الإيمان:

- الإيمان بالله.
 - الإيمان باليوم الآخر.
 - الإيمان بالملائكة.
 - الإيمان بالكتب.
 - الإيمان بالنبیین.
 - صرفُ المال في الصَّدقات بطيب النفس؛ حبًّا في حصول الأجر والثواب على الأصناف الستة المذكورة في الآية.
 - إقامة الصلاة.
 - إيتاء الزكاة.
 - الوفاء بالعهد.
 - الصبر في البأساء والضراء، وحين البأس.
- وقد شهد الله تعالى لِمَنْ أتى بهذه الشُّعب بالصدق والتقوى، فقال جَلَّالُهُ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

- ٢- قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَلِأَنَّهُمْ غَيْرَ مَلُومِينَ ٦ فَمَنْ أَتْبَغَىٰ ذَٰلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ٩ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿[المؤمنون: ١-١١].

وفي هذه الآية ذَكَرَ الله تعالى مجموعة من شُعْبِ الإيمان القوليَّة والفعلية، وهي:

- الخشوع في الصلاة.
- الإعراض عن اللغو.
- حفظُ الفُروج.
- إيتاء الزكاة.

- رعاية الأمانة وحفظها. - الوفاء بالعهد.

- المحافظة على الصلوات.

ومن الأحاديث: قوله ﷺ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ: بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا: قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا: إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»^(١).

وقد اعتنى الأئمة بهذا الحديث، واعتبروه أصلاً لإدخال الطاعات في الإيمان، وعدوها من شعبه، وألفوا في ذلك بعض المصنّفات، ومن أغزرها: (المنهاج في شعب الإيمان) للإمام أبي عبد الله الحلي، واختصره البيهقي في كتاب: (الجامع لشعب الإيمان).

عناية العلماء بحصر شعب الإيمان:

ممن اعتنى بحصر شعب الإيمان وجمعها: اللالكائي في: (شرح أصول اعتقاد أهل السنة)، وابن بطه في: (الإبانة).

قال أبو حاتم ابن حبان رَحِمَهُ اللَّهُ: «تَبَعْتُ معنى هذا الحديث مَدَّةً، وعددت الطاعات، فإذا هي تزيد على العدد شيئاً كثيراً، فرجعت إلى السنن، فَعَدَدْتُ كل طاعة عَدَّها رسول الله ﷺ من الإيمان، فإذا هي تنقص عن البضع والسبعين، فَرَجَعْتُ إلى كتاب الله، فقرأته بالتدبر، وعَدَدْتُ كل طاعة عَدَّها الله تعالى من الإيمان، فإذا هي تنقص عن البضع والسبعين، فَضَمَمْتُ الكتاب إلى السنن، وأسقطت المُعَاد، فإذا هي كل شيء عَدَّه الله تعالى، ونبيه ﷺ من الإيمان تسع وسبعون شعبةً، لا يزيد عليها، ولا تنقص، فَعَلِمْتُ أَنَّ

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ.

مراد النبي ﷺ في الكتاب والسُنن»^(١).

وعدها- أيضًا- الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ فَقَالَ: «هذه الشُّعَبُ تنفَرِّعُ عن أعمال القلب، وأعمال اللسان، وأعمال البدن، فَأَعْمَالُ القلب فيه المعتقدات والنيات، وتشتمل على أربع وعشرين خصلةً»، ثم ذكرها. قال: «وأعمال اللسان، وتشتمل على سبع خصالٍ»، ثم ذكرها. قال: «وأعمال البدن، وتشتمل على ثمانٍ وثلاثين خصلةً»، ثم ذكرها^(٢).

وَتُعَدُّ أَعْمَالُ القلوب أكثر وجوبًا من أعمال الجوارح، وهي كثيرةٌ متفرعةٌ، يدخل فيها حبُّ الله، والتوكُّلُ عليه، والخوفُ منه، والإنابةُ إليه، وإخلاص الدين له، ورجاؤه، والصبر على أوامره ونواهيه، والرضا عنه، والذلُّ له، والطمأنينة، والخضوعُ إليه، ونحوها.

ولأعمال القلوب أهميةٌ كبيرةٌ؛ لأنها سائق النفس وقائدها، ولا يعني أبدًا الاعتناء بها إهمال أعمال الجوارح، فبينهما تلازمٌ ضروريٌّ؛ إذ يؤثر عمل القلب في عمل الجوارح.

أحكام شعب الإيمان:

إن من سَعَةِ فَضْلِ الله تعالى: أَنْ جعلَ الإيمانَ شُعْبًا وخصالًا متعددةً، كلما عَمِلَ المسلمُ بِشُعْبَةٍ منها زاد إيمانه، وعَظُمَ أجره، ولهذه الشعب أحكام وسمات، منها:

التفاوت بينها في الحكم والمرتبة:

وقد نَوَّعَ الشرع بين هذه الشُّعَبِ في الحكم، كما نَوَّعَ بينها في المرتبة،

(١) شرح صحيح مسلم، للنووي (٢/٤ - ٥).

(٢) فتح الباري (١/٥٢ - ٥٣).

فمنها: ما لا يصح الإيمان إلا به، مثل: قول: لا إله إلا الله، ومنها: ما هو واجب، مثل: بر الوالدين، ومنها ما هو من مكارم الأخلاق، مثل: الحياء، ومنها: ما هو من الآداب الشرعية، مثل: إمطة الأذى عن الطريق.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وهذه الشُّعَبُ منها: ما يزول الإيمان بزوالها؛ كشعبة الشهادة، ومنها: ما لا يزول بزوالها؛ كترك إمطة الأذى عن الطريق، وبينهما شُعَبٌ متفاوتةٌ تفاوتاً عظيماً، منها: ما يلحق بشُعبة الشهادة، ويكون إليها أقرب، ومنها: ما يلحق بشُعبة إمطة الأذى ويكون إليها أقرب، وكذلك الكفر ذو أصلٍ وشُعَبٍ، فكما أن شُعبَ الإيمان إيمانٌ، فشُعبُ الكفر كفرٌ، والحياء شعبة من الإيمان، وقلة الحياء شعبة من شُعب الكفر، والصدق شعبة من شعب الإيمان، والكذب شعبة من شُعب الكفر... والمعاصي كلها من شعب الكفر، كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان»^(١).

كل شُعبةٍ منها تسمى: (إيماناً):

فالإيمان - عند جمهور أهل السُّنة - له شُعبٌ متعددة، كما أخبر بذلك أعلم الخلق ﷺ، وكل شُعبةٍ منه تسمى: (إيماناً)، فالصلاة وسائر أعمال الجوارح من الإيمان، والأعمال الباطنة كالحياء والتوكل والرجاء من الإيمان.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «الإيمان أصل له شعب متعددة، وكل شعبة تسمى: (إيماناً)، فالصلاة من الإيمان، وكذلك الزكاة والحج والصوم، والأعمال الباطنة كالحياء والتوكل»^(٢).

(١) كتاب الصلاة، لابن القيم (ص ٧٠).

(٢) كتاب الصلاة، لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، شمس الدين، ابن قيم الجوزية، دار ابن حزم - قبرص - بيروت، ط ١، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م (ص ٧٠).

تفاوت الناس فيها:

والإيمان الشرعي يتضمن: أصولاً وأركاناً وواجباتٍ، فمن ترك أصل الإيمان، وأخل بأركانه لم يتم إيمانه، ولم يكن مؤمناً، ومن ترك الواجب نقص بفوته إيمانه نقصاً يستحق عليه العقوبة، ومن ترك المستحب فاتته من علو الرتبة والدرجة بقدر ما فاتته من مستحبات الإيمان.

والناس متفاوتون في شعب الإيمان، وينقسمون إلى ظالم لنفسه، ومقتصدٍ، وسابقٍ بالخيرات.

وعليه؛ فالواجب على المؤمن أن يجتهد في التحقق بشعب الإيمان التي تقيم أصله، والتي تُحقق الواجب من أعماله وأقواله واعتقاداته، وأن يجتهد وسعه في التحقق بمستحباته قدر طاقته حتى يحوز الخير العظيم، والأجر العظيم، والله تعالى شاكر عليم.

قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].



الفَصْلُ السَّادِسُ

زيادة الإيمان ونقصانه

إِنَّ الْإِيمَانَ طَاعَاتٌ فِي الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ، مَتَى زَادَتْ زَادَ الْإِيمَانُ، وَمَتَى نَقَصَتْ نَقَصَ الْإِيمَانُ.

قال مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْإِيمَانُ يَبْدُو فِي الْقَلْبِ ضَعِيفًا ضَعِيلًا كَالْبَقْلَةِ، فَإِنْ صَاحِبُهُ تَعَاهَدَهُ، فَسَقَاهُ بِالْعُلُومِ النَّافِعَةِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَأَحَاطَ عَنْهُ الدَّغْلَ، وَمَا يَضْعِفُهُ وَيُوْهِنُهُ أَوْشَكَ أَنْ يَنْمُو، أَوْ يَزْدَادَ، وَيَصِيرَ لَهُ أَصْلٌ وَفَرْعٌ، وَثَمَرَةٌ وَظِلٌّ - إِلَى مَا لَا يَنْتَهِي - حَتَّى يَصِيرَ أَمْثَالَ الْجِبَالِ، وَإِنْ صَاحِبُهُ أَهْمَلَهُ وَلَمْ يَتَعَاهَدَهُ جَاءَهُ عَنَزٌ فَتَفْتَتِهَا، أَوْ صَبِيٌّ فَذَهَبَ بِهَا، وَأَكْثَرُ عَلَيْهِ الدَّغْلُ فَأَضْعَفَهَا، أَوْ أَهْلَكَهَا، أَوْ أَيَسَّهَا، كَذَلِكَ الْإِيمَانُ!»^(١).

وقال خيثمة بن عبد الرحمن رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْإِيمَانُ يَسْمُنُ فِي الْخَصْبِ، وَيَهْزُلُ فِي الْجَدْبِ، فَخَصْبُهُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَجَدْبُهُ الذُّنُوبُ وَالْمَعَاصِي»^(٢).
وما من شكٍّ أَنْ الْإِيمَانَ الْمَأْمُورَ بِهِ يَتَفَاوَتُ مِنْ حَيْثُ الْوُجُوبِ، فَمَا أُمِرَتْ بِهِ الْحَائِضُ مِنَ الدِّينِ فِي رَمَضَانَ لَا يَسْتَوِي مَعَ مَا أُمِرَ بِهِ غَيْرُهُنَّ، فَصَحَّ وَجُودُ تَفَاوُتٍ فِي الْمَأْمُورِ بِهِ.

وَمَنْ طَلَبَ عِلْمَ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَمِنَ بِهِ، وَعَمِلَ بِهِ إِيْمَانُهُ أَكْمَلَ مِمَّنْ عِلْمَ وَلَمْ يَعْمَلْ، بَلْ خَالَفَ، وَهُوَ خَائِفٌ مَقَرٌّ بِذَنْبِهِ، وَإِيْمَانُ هَذَا أَكْمَلُ مِنْ إِيْمَانِ

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٢٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٢٥).

مَنْ لَمْ يَطْلُبِ الْعِلْمَ، وَلَمْ يَعْمَلْ، وَلَمْ يَقَرَّ بِذَنْبٍ، وَلَا خَافَ مِنْ تَقْصِيرٍ.
وَالْعِلْمُ وَالتَّصَدِيقُ يَتَفَاضِلُ وَيَتَفَاوَتُ، وَيَكُونُ بَعْضُهُ أَقْوَى وَأَفْضَلُ مِنْ
بَعْضٍ، وَكَمَا يَتَفَاضِلُ النَّاسُ فِي مَدَارِكِهِمْ وَعَقُولِهِمْ وَأَسْمَاعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ
وَقُدْرَاتِهِمْ يَتَفَاضِلُونَ فِي إِيمَانِهِمْ تَصَدِيقًا وَعَمَلًا.

والتصديقُ القلبيُّ الذي يستلزم انقيادًا ورغبةً ورهبةً ومحبةً أفضلُ من
التصديق الذي يضعف عن توريث صاحبه للأعمال القلبية، وَالنَّاسُ جَمِيعًا
يَشْعُرُونَ بِتَفَاضُلِهِمْ فِي تِلْكَ الْأَعْمَالِ حُبًّا لِلَّهِ، وَإِنَابَةً وَخَشْيَةً وَتَوَكُّلاً وَإِخْلَاصًا،
كَمَا يَتَفَاضِلُونَ فِي الْبَرَاءَةِ، وَالبعد عن الرِّياء، وأدواء القلوب.

وَأَمَّا التَّفَاضُلُ فِي أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ وَالتَّفَاوَتُ فَظَاهِرٌ لَا خَفَاءَ فِيهِ، وَكَلَّمَا
قَوِيَ أَعْمَالُ الْقُلُوبِ وَزَادَتْ اقْتَضَى ذَلِكَ زِيَادَةَ عَمَلِ الْجَوَارِحِ، وَتَعَدَّدَتْ
بَوَاعِثُ تِلْكَ الْأَعْمَالِ.

وَتَتَعَاضَمُ أَعْمَالُ الْجَوَارِحِ بِاسْتِدَامَةِ وَاسْتِحْضَارِ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ، وَتَذْكُرُ
الثَّوَابَ الْآخِرِيَّ، وَالْإِحْتِسَابُ مَعَ الْإِيمَانِ فِي الْأَعْمَالِ، وَالْغَفْلَةُ عَنْ ذَلِكَ
مِمَّا يَضْعَفُ تِلْكَ الْأَعْمَالِ، وَيَضْعَفُ الثَّوَابُ عَلَيْهَا، فَيَتَفَاوَتُ الثَّوَابُ عَلَى
الْأَعْمَالِ بِتَفَاوَتِ مَا بِالْقُلُوبِ مِنْ أَحْوَالٍ^(١).

أدلة زيادة الإيمان ونقصانه:

قَدْ دَلَّتْ أَنْوَاعٌ مِنَ الْأَدْلَةِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الدَّلَالَاتِ عَلَى زِيَادَتِهِ وَنَقْصَانِهِ، فَمِنْ
تِلْكَ الْأَدْلَةِ:

أولاً: إجماع السلف الصالح:

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: «مذهب جماعة أهل السنة - من سلف الأمة

(١) مستفاد من كلام ابن تيمية في: الإيمان الأوسط (ص ١٠٤ - ١١٦).

وَحَلَفَهَا - أَنْ الْإِيمَانَ قَوْلَ وَعَمَلٍ، يَزِيدُ وَيَنْقُصُ»^(١).

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَجْمَعَ أَهْلُ الْفَقْهِ وَالْحَدِيثِ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، وَلَا عَمَلٌ إِلَّا بِنِيَّةٍ، وَالْإِيمَانُ عِنْدَهُمْ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ، وَالطَّاعَاتُ كُلُّهَا مِنَ الْإِيمَانِ»^(٢).

وَقَالَ الصَّابُونِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمَذْهَبُ أَهْلِ الْحَدِيثِ: أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَمَعْرِفَةٌ، يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ»^(٣).

وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَجْمَعَ السَّلَفُ أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، يَزِيدُ وَيَنْقُصُ»^(٤).

وَقَالَ ابْنُ بَطَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَزِيدُ وَيَقْوَى بِالْمَعْرِفَةِ وَالطَّاعَةِ، وَيُضْعَفُ وَيَنْقُصُ بِالْغَفْلَةِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَبِهَذَا نَزَلَ الْكِتَابُ، وَبِهِ مَضَتْ السُّنَّةُ، وَعَلَيْهِ أَجْمَعَ الْعُقَلَاءُ مِنْ أُمَّةِ الْأُمَّةِ»^(٥).

وَلَمَّا ذَكَرَ الْأَشْعَرِيُّ فِي: (مَقَالَاتِ الْإِسْلَامِيِّينَ) جُمْلَةً قَوْلَ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ قَالَ: «وَيَقْرَأُونَ أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، يَزِيدُ وَيَنْقُصُ»^(٦).

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٥٦/١).

(٢) التمهيد، لابن عبد البر (٢٣٨/٩).

(٣) عقيدة السلف أصحاب الحديث، لأبي عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني، تحقيق:

بدر بن عبد الله البدر، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، ط ٢، ١٩٩٤م (ص ٦٧).

(٤) مجموع الفتاوى (٦٧٢/٧).

(٥) الإبانة الكبرى، لأبي عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَرِيُّ المعروف

بأبن بَطَّةَ العُكْبَرِيِّ، تحقيق: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، والوليد بن

سيف النصر، وحمد التويجري، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض (٢/٨٣٢).

(٦) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن

سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، تحقيق:

نعيم زرزور، المكتبة العصرية، ط ١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م (١/٢٢٧).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «والمأثور عن الصحابة، وأئمة التابعين، وجمهور السلف، وهو مذهب أهل الحديث، وهو المنسوب إلى أهل السنة: أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص»^(١).

وقال رَحِمَهُ اللهُ - أيضاً -: «وقد ثبتَ لفظ: (الزيادة والنقصان) في الإيمان عن الصحابة، ولم يُعرف فيه مخالف من الصحابة»^(٢).

ثانياً: الأدلة من القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿وَزَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدرثر: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا تَلَّيْتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

وقال ﷺ: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ تَقَوُّهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

ثالثاً: الأدلة من السنة المطهرة:

في الحديث: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»^(٣).

وقال ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرِبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرِبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهَبُ نَهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»^(٤).

(١) الإيمان الأوسط (ص ٤٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٢٤).

(٣) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ.

وقال ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا: أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»^(١).

وقال ﷺ: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ»^(٢).

فالأدلة السابقة من القرآن والسنة تدل بمنطوقها وحقوقها: أن الإيمان يزيد وينقص؛ إذ ما من شيء يزيد إلا وهو ينقص، وزيادته تستلزم نقصه.

رابعاً: أقوال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

ثبت عن كلٍّ من: أبي الدرداء^(٣)، وأبي هريرة^(٤)، وابن عباس^(٥) أنهم قالوا: «الإيمان يزداد وينقص، أو يزيد وينقص».

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اللَّهُمَّ زِدْنَا إِيمَانًا وَيَقِينًا وَفَقْهًا»^(٦).

وكان معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول - لرجل من إخوانه -: «اجلس بنا نؤمن ساعة»^(٧)، فيجلسان، فيذكران الله ويحمدانه^(٨).

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٧٥).

(٤) شعب الإيمان، لأحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُو جَرْدِي الخراساني أبي بكر البيهقي، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية، بومباي، الهند، ط ١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م (٥٢).

(٥) أخرجه ابن ماجه (٧٤).

(٦) السنة، لأبي عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني البغدادي، تحقيق: محمد بن سعيد بن سالم القحطاني، دار ابن القيم، الدمام، ط ١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٧) صحيح البخاري (١٠ / ١).

(٨) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣١٠٠٢).

وقال جندب بن عبد الله ^(١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «تَعَلَّمْنَا الإيمان، ثم تَعَلَّمْنَا القرآن؛ فازدَدْنَا إيمانًا» ^(٢)، ثم هو منقول عن طائفةٍ كبيرةٍ من التابعين، وتابعيهم، وأئمة المسلمين ^(٣).

وقال سفيان بن عُيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليس شيءٌ يزيد إلا وهو ينقص» ^(٤).
وقد سُئِلَ الأوزاعي عن زيادة الإيمان، فقال: «نعم، حتَّى يكون كالجبال.
قل: ينقص؟ قال: نعم، حتَّى لا يبقى منه شيءٌ» ^(٥).

وقال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد نقلَ محمد بن نصر المروزي في كتابه: (تعظيم قدر الصلاة) عن جماعةٍ من الأئمة نحو ذلك، وما نقل عن السلف صَرَّحَ به عبد الرَّزَّاق في: (مُصَنَّفَه) عن سفيان الثوري، ومالك بن أنس، والأوزاعي، وابن جريج، ومعمر، وغيرهم، وهؤلاء فقهاء الأمصار في عصرهم.

وكذا نقله أبو القاسم اللالكائي في: (كتاب السنة) عن الشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبي عبيد وغيرهم من الأئمة، وروى بسنده الصحيح عن البخاري قال: لقيتُ أكثر من ألف رجلٍ من العلماء بالأمصار،

(١) أخرجه ابن ماجه (٦١).

(٢) الإيمان، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، عمان، الأردن، ط ٥، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م (ص ١٧٨).

(٣) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، لشمس الدين أبي العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، مؤسسة الخافقين ومكتبتها، دمشق، ط ٢، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م (١/ ٤١٢).

(٤) الشريعة، لأبي بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الأجرِّي البغدادي، تحقيق: د. عبد الله بن عمر بن سليمان الدميحي، دار الوطن، الرياض، ط ٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م (٢٤٠).

(٥) شرح أصول الاعتقاد، للالكائي (١٧٤٠).

فما رأيت أحداً منهم يختلف في أن الإيمان قولٌ وعملٌ، يزيد وينقص، وأطنب ابن أبي حاتم واللالكائي في نقل ذلك بالأسانيد عن جمعٍ كثيرٍ من الصحابة والتابعين، وكل مَنْ يدور عليه الإجماع من الصحابة والتابعين، وحكاه فضيل بن عياض ووكيعة عن أهل السنة والجماعة.

وقال الحاكم - في (مناقب الشافعي) -: حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ الْأَصَمُّ أَخْبَرَنَا الرِّبِيعُ قَالَ: سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ يَقُولُ: الْإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَأَخْرَجَهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي تَرْجُمَةِ الشَّافِعِيِّ مِنْ: (الحلية) مِنْ وَجْهِ آخَرَ عَنِ الرِّبِيعِ، وَزَادَ: يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ، ثُمَّ تَلَا: ﴿وَيَزِدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا...﴾ الآية [المذثر: ٣١]، ثُمَّ شَرَعَ الْمُصَنِّفُ يَسْتَدِلُّ لَذَلِكَ بِآيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ مُصَرِّحَةً بِالزِّيَادَةِ، وَبُثُوتِهَا يَثْبِتُ الْمَقَابِلَ؛ فَإِنْ كُلُّ قَابِلٍ لِلزِّيَادَةِ قَابِلٌ لِلنَّقْصَانِ ضَرُورَةً^(١).

وقد ترجم البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِ: (الإيمان): «باب: قول النبي ﷺ: بني الإسلام على خمسٍ، وهو قولٌ وفعلٌ، يزيد وينقص»^(٢).
وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «باب: زيادة الإيمان ونقصانه»^(٣).

وقال أبو داود رَحِمَهُ اللَّهُ: «باب: الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه»^(٤).
وبَوَّبَ النَّسَائِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ وَشُرَائِعِهِ: «باب: زيادة الإيمان»^(٥).

(١) فتح الباري (١/٥٦).

(٢) صحيح البخاري (١/١٠).

(٣) صحيح البخاري (١/١٧).

(٤) سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السَّجِسْتَانِي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت (٤/٢١٩).

(٥) السنن الصغرى، للنسائي أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني النسائي،

وقال أحمد رَحِمَهُ اللهُ - عندما سُئِلَ عن كيفية نقصان الإيمان -: «فكما يزيد، كذا ينقص»^(١).

وقال البيهقي رَحِمَهُ اللهُ: «وأن الإيمان يزيد وينقص، وإذا قَبِلَ الزيادة، قَبِلَ النقصان»^(٢).

وَبِنَاءً عَلَى ما سَلَفَ: فَإِنَّ جميعَ عناصر الإيمان تقبل الزيادة والنقصان؛ سواء ما في القلب منه، وما هو على اللسان، وفي الجوارح من الأعمال. فالتَّصَدِيقُ القَلْبِيُّ واليقين رُتَبٌ ودرجاتٌ، وأعمال القلوب من المحبة والخوف والرجاء، والتوكل والخشوع، والإخبات والانقياد تتفاوت من وقتٍ لآخر، ومن حالٍ لآخرى.

وأما الأعمال الظاهرة فهي ظاهرة التفاوت، والزيادة والنقصان، والأسباب والدوافع الداعية للأعمال متفاوتةٌ - أيضًا - والدوام والاستمرار على الصالحات والمحافظة عليها في جميع الأوقات متفاوتٌ لذلك بتفاوت ما في القلب من أعمالٍ وأحوالٍ.

أسباب زيادة الإيمان:

يجمع تلك الأسباب: الدخول في شُعَبِ الإيمان البضع والسبعين كَافَّةً،

تحقيق: عبد الفتاح أبي غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط ٢، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م (٨/ ١١٢).

(١) السنة، للخلال (ص ١٠٣٠).

(٢) الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث، لأحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُو جَرْدِي الخراساني أبي بكر البيهقي، تحقيق: أحمد عصام الكاتب، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ١، ١٤٠١ هـ (ص ١٧٤).

فيشمل ذلك: الأعمال القلبية والقولية، والأعمال الظاهرة والباطنة، العلمية والعملية.

كما يشمل: التجافي، والحذر من شُعب الكفر كافّة، وترك جميع الكبائر والمُحرّمات والمعاصي والمنهيات؛ ابتغاء وجه الله تعالى، فلا بد من الإتيان بالفرائض والواجبات مع النوافل والمستحبات ليزداد العبد إيماناً، وليحصل له مزيد النور واليقين.

وعليه أن يكفّ عن كلّ المعاصي والسيئات ليزداد إيمانه، وليحفظه من النقص والضعف.

ومن خصال الخير التي تزيد الإيمان: التخلُّق بأخلاق المؤمنين، والإحسان إلى الخلق أجمعين، والدعوة إلى الله تعالى، ونشر دين الله بين العالمين، والجهاد في سبيل ذلك الهدف المنشود، والصبر على الأذى في هذا الطريق.



الفصل السَّابِعُ

مراتب الإيمان



قد تَقَرَّرَ: أَنَّ الإيمان حقيقة مركبة من قول القلب وتصديقه، وقول اللسان إقرارًا بالإيمان، وأنه عمل القلب بالانقياد والالتزام والخضوع للشرع؛ محبةً ورغبةً ورهبةً، وعمل الجوارح بالطاعات، والكف عن السيئات.

وَتَقَرَّرَ -أيضًا-: أَنَّ الإيمان يزيد وينقص بطاعات القلب واللسان والجوارح، وَأَنَّ أهله فيه يتفاضلون، وَلَمَّا كان الأمر كذلك فقد صار الإيمان وأهله مراتب ودرجات:

المرتبة الأولى: مرتبة الإيمان المجمل، أو أصل الإيمان، أو مطلق الإيمان:

وهذه المرتبة تتحقق بأمرين إجمالاً، أو بثلاثة تفصيلاً:

الأول: التصديق بالقلب علماً بأركان الإيمان، واعتقاداً لصدق النبي العدنان فيما أخبر بالوحي عن ربنا الرحمن.

الثاني: الانقياد والالتزام بأمرِ النَّبِيِّ ﷺ جملةً، ما علمه وما سيعلمه سواء، فهو قابلٌ للتوحيد؛ محبةً لله تعالى ولرسوله ﷺ، ولدين الإسلام، عازم على الانقياد لأمر الله ورسوله ﷺ. هذا إجمالاً.

أمَّا تفصيلاً، فَيُصَافُ إليهما: نطق اللسان، فيُقَالُ:

الثالث: النُّطق بالشَّهادتين إقرارًا بمعناهما من التوحيد، وبراءةً من الشرك وسائر الملل والمعبودات الباطلة.

وهذا القدرُ من الإيمان القلبي يطلق عليه اصطلاحًا: (أصل الإيمان).
وهذا القدرُ من الإيمان لا يتمُّ، ولا يصلح، ولا يصحُّ إيمان عبدٍ إلا بتحصيله.
وهذا القدرُ يقابله الكفر، فمن لم يتَّصف به، أو لم يُحصِّله، أو نقضه،
فليس بمؤمنٍ، ولا مسلمٍ.

قال محمد بن نصر المروزي رَحِمَهُ اللهُ: «الكفر ضدُّ الإيمان؛ لأنَّ
للإيمان أصلًا وفروعًا؛ فلا يثبت الكفر حتى يزول أصل الإيمان الذي هو ضدُّ
الكفر»^(١).

وعليه؛ فإنَّ أصلَ الإيمان هو: القدرُ الذي لا يوجد الإيمان بدونه،
والذي يدخل به صاحبه في زمرة المؤمنين في الدنيا، وبه ينجو صاحبه من
الخلود في النار إن دخلها.

وقد يُسمَّى اصطلاحًا: (الإيمان المجمل)؛ لأنه يتحقَّق بالتصديق والانقياد
المجمل.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فعامة الناس إذا أسلموا بعد كفرٍ، أو وُلِدُوا على
الإسلام، والتزموا شرائعه، وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله فهم مسلمون،
ومعهم إيمان مجمل، ولكن دخول حقيقة الإيمان إلى قلوبهم إنما يحصل
شيئًا فشيئًا»^(٢).

وقال - أيضًا - رَحِمَهُ اللهُ: «فإذا كان نفس ما وجبَ من الإيمان في الشريعة
الواحدة يختلف ويتفاضل، وإن كان بين جميع هذه الأنواع قدرٌ مشتركٌ

(١) تعظيم قدر الصلاة، لمحمد بن نصر لمروزي (٢/ ٥١٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٧١).

موجودٌ في الجميع؛ كالإقرار بالخالق، وإخلاص الدين له، والإقرار برسله، واليوم الآخر على وجه الإجمال»^(١).

ويسمى - أيضاً -: (مطلق الإيمان)؛ لدخول صاحبه في مسمى: (الإيمان)؛ لأن صاحبه ثبت له أصل الإيمان، فيُعدُّ من أهله الذين ثبت له مطلق الاسم، وليس الاسم المطلق؛ لأنَّ الإيمان المطلق يُراد به: جميع الشرائع الواجبة والمستحبة، أمَّا صاحب مطلق الإيمان، فقد يقع منه ارتكاب الكبائر، والتقصير في الواجبات، فيكون مؤمناً باعتبار ما عنده من أصل الإيمان، وفاسقاً باعتبار ما ارتكب من الكبائر والعصيان، مع براءته من الشرك والمكفرات والنفاق الاعتقادي، وهو إن مات على هذه الحال من أهل الإيمان المُتَوَعِّدين في الآخرة بالنار، ثم يكون مآلهم إلى الجنة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾

[النساء: ٤٨].

قال ﷺ: «مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٢).

وفي الحديث عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «آتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي، فَأَخْبَرَنِي: أَنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ. قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ»^(٣).

وعليه؛ فكلُّ مَنْ جاء بهذا الإيمان، فصَدَّقَ به، وانقاد له، ووقف من النبي ﷺ موقفَ التصديق والسمع والطاعة، فقد جاء بأصل الإيمان الذي

(١) مجموع الفتاوى (٥١٩/٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٣٨) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (١٢٣٧)، ومسلم (٩٤).

ينجيه من الكفر، ويؤول به إلى الجنة، وإن دخل النار قبل ذلك بسبب ما فرط، أو قصر في الواجبات، واقترب الموبقات، ما دام أنه قد مات مؤحداً لا يشرك بالله شيئاً، ولم ينقض إيمانه بقول، أو اعتقاد، أو عمل. وهذه المرتبة يُسمى أصحابها: عصاة المؤحدين، أو فساق المؤمنين، أو الظلمة لأنفسهم، وأصحابها مؤمنون، ناقصو الإيمان، وليس لهم اسم: (الإيمان المطلق).

المرتبة الثانية: مرتبة الإيمان المفصل، أو حقيقة الإيمان، أو الإيمان المطلق، أو الإيمان الواجب:

وهذه المرتبة تتضمن - بالضرورة - ما تضمنته المرتبة الأولى، وهي رتبة الإيمان المجمل من التصديق والانقياد والإقرار باللسان، وزاد أصحابها على أصل الإيمان فعل الواجبات، وترك الكبائر والموبقات، فجاءوا بكمال الإيمان الواجب. فهُمْ مصدقون بكل خبر ثبت عن النبي ﷺ، منقادون لكل أمر علموه من أمره ﷺ.

فإذا طلبوا علم ما أخبر به النبي ﷺ، وعملوا بما علموه بحسب قدرتهم وطاقاتهم، وكفوا عن المحارم فقد استحقوا بهذا الإيمان المفصل بلوغ حقيقة الإيمان.

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]. ولأنهم جاءوا بالإيمان المجمل، وأصل الإيمان، وأضافوا إليه فعل

الطاعات الواجبة والمندوبة، والكف عن المُحرّمات والموبقات استحقوا رتبة الإيمان الواجب.

أو بلغوا رتبة الإيمان المطلق، وبقدر ما يأتون من طاعاتٍ، ويستزيدون من الصالحات يكمل إيمانهم ويزداد، وأصحابه معهم إيمانٌ مطلقٌ من كل قيدٍ، فهو إيمانٌ يمنع صاحبه من دخول النار ابتداءً، وهو في الآخرة من أصحاب اليمين.

«لأنَّ الإيمان المطلق هو الذي يستحقُّ صاحبه الثواب، ودخول الجنة»^(١).
وصاحبُ الإيمان المطلق معه كمال الإيمان الواجب، وصاحب مطلق الإيمان معه أصل الإيمان دون كماله الواجب.

وكل ما وردَ من نفي الإيمان عمّن ارتكب كبيرةً، فهو متجهٌ لنفي الإيمان المطلق، وكمال الواجب، وحقيقته، وليس المراد: نفي مطلق الإيمان وأصله.
ومن ذلك: قوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمنٌ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمنٌ، ولا يتتهب نُهبةً يرفعُ الناسُ إليه أبصارهم فيها حين يتتهبها وهو مؤمنٌ»^(٢).
فالحديثُ هنا عن نفي كمال الإيمان الواجب، وليس عن نفي أصل الإيمان، وفي نفي كمال الإيمان دلالة على نقصانه.

ومثل ذلك: أحاديث، منها:

قوله ﷺ: «لا يؤمنُ أحدُكم حتّى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه»^(٣).

(١) الإيمان، لابن تيمية (ص ٢٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥) من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

والمعنى: لا يؤمن بالإيمان التام.

وقوله ﷺ - أيضًا -: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»^(١).

أي: لا يبلغ الإيمان المطلق، أو الواجب، أو حقيقة الإيمان حتى يُحِبَّ النبي ﷺ أكثر مما ذَكَرَ في الحديث.

ولَمَّا لَعَنَ الصَّحَابَةُ الصَّحَابِيُّ الَّذِي جُلِدَ فِي الشَّرَابِ قَالَ ﷺ: «لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا أَنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»^(٢).

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَيُؤْخَذُ مِنْهُ: أَنْ نَفَى الْإِيمَانَ عَنْ شَارِبِ الْخَمْرِ لَا يُرَادُ بِهِ: زَوَالُهُ بِالْكُلِّيَّةِ، بَلْ نَفَى كَمَالِهِ»^(٣).

وبناءً على ما سبق: فَإِنَّ الْإِيمَانَ الْمَطْلُوقَ لَا يَتَقَيَّدُ بِمَعْصِيَةٍ، وَلَا بِفِسْقٍ، وَإِنَّمَا هُوَ مَطْلُوقٌ مِنْ كُلِّ قَيْدٍ يَضْعُفُهُ، أَوْ يَنْقُصُهُ، وَهُوَ إِيْمَانٌ يَشْتَمِلُ عَلَى شَرَائِعِ الْإِيمَانِ الْوَاجِبَةِ وَالْمُسْتَحَبَّةِ، وَأَمَّا مَطْلُوقُ الْإِيمَانِ فَهُوَ أَذْنَى قَدْرٍ يَحْقُقُ الْإِيمَانَ، وَلَا يَتِمُّ الْإِسْلَامُ إِلَّا بِهِ، وَهُوَ أَصْلُ الْإِيمَانِ الَّذِي يَفْرُقُ بِهِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ. وَصَاحِبُهُ لَا يَسْتَحَقُّ اسْمَ الْإِيمَانِ مَطْلُوقًا، فَهُوَ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ، فَاسْقَ بِكِبِيرَتِهِ وَذَنْبِهِ، وَيَطْلُوقُ عَلَى هَذَا الصَّنْفِ: عَصَاةُ الْمُوحِدِينَ، أَوْ أَصْحَابِ الْكِبَائِرِ، وَهُمْ فِي الْمَشِيئَةِ فِي الْآخِرَةِ، وَتَنَالَهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ.

(١) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤) من حديث أنس رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٨٠) من حديث عمر بن الخطاب رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) فتح الباري (٧٨/١٢).

قال تعالى: ﴿وَأَخْرُوتَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].
وفي الحديث عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «... وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ»^(١).

وَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ: أَنَّ مَنْ نَفَى عَنْهُ الْإِيمَانَ الْمَطْلُوقَ لَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ مُنَافِقًا، بَلْ قَدْ يَكُونُ مُسْلِمًا لَمْ يَدْخُلْ فِي حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ بَعْدَ، ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَمَّا قُلْنَا لَمْ تَوَسُّوْا وَلَكِنْ قَوْلُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

«وَنَفَى الْإِيمَانَ الْمَطْلُوقَ لَا يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونُوا مُنَافِقِينَ، بَلْ لَا يَكُونُوا قَدْ أَتَوْا بِالْإِيمَانِ الْوَاجِبِ، فَنَفَى عَنْهُمْ، كَمَا يُنْفَى سَائِرُ الْأَسْمَاءِ عَمَّنْ تَرَكَ بَعْضُ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ، فَكَذَلِكَ الْأَعْرَابُ لَمْ يَأْتُوا بِالْإِيمَانِ الْوَاجِبِ، فَنَفَى عَنْهُمْ لَذَلِكَ، وَإِنْ كَانُوا مُسْلِمِينَ، مَعَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ مَا يُثَابُونَ عَلَيْهِ»^(٢).

«وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ كُلَّ مَا نَفَاهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ مُسَمًّى أَسْمَاءِ الْأُمُورِ الْوَاجِبَةِ؛ كَاسْمِ الْإِيمَانِ، وَالْإِسْلَامِ، وَالِدِينِ؛ فَإِنَّمَا يَكُونُ لَتَرْكِ وَاجِبٍ مِنْ ذَلِكَ الْمُسَمًّى، فَحَيْثُ نَفَى اللَّهُ الْإِيمَانَ عَنْ شَخْصٍ، فَلَا يَكُونُ إِلَّا لِنَقْصِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَيَكُونُ مِنَ الْمُعَرِّضِينَ لِلْوَعِيدِ، لَيْسَ مِنَ الْمُسْتَحْقِقِينَ لِلْوَعْدِ الْمَطْلُوقِ»^(٣).

(١) أخرجه البخاري (١٨)، ومسلم (١٧٠٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٤٣/٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٧/٧).

المرتبة الثالثة: الإيمان الكامل:

وَتُسَمَّى - أَيْضًا -: الإيمان الكامل بالمستحَبَّات، وهي رتبةٌ يتحقَّق منها العبد بمطلق الإيمان، والإيمان المطلق، ويزيد عليها اجتناب المكروهات، والاستكثار من المستحَبَّات، والتورُّع عن الشُّبهات، وعندها يكون إيمانه قد بلغ رتبة الإيمان الكامل، وهو أعلى مراتب الإيمان، وهي مرتبة السابقين المقربين، أهل الإحسان.

فالمحسنون المُقَرَّبون السابقون هُم في أعلى الدرجات من الإيمان، وأعلى الدرجات من الجنان، الفائزون بالمرتبة العليا من الإيمان، والفردوس الأعلى من الجنة في الآخرة بِرُفْقَةِ النَّبِيِّينَ، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا!

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].
وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٠ - ١٤].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّتِ وَنَهْرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ﴾ [القمر: ٥٤ - ٥٥].

وهذه المراتب الثلاث ذكَّرها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وذكر أهلها في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾

جَنَّتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٢﴾ [فاطر: ٣٢-٣٣].

فالسَّابِق بالخيرات: هو صاحب منزلة الإحسان، والإيمان الكامل بالمستحبات، وهو فاعل الواجبات والمندوبات، التارك للمحرّمات والمكروهات والشُّبهات.

والمقصد: هو صاحب منزلة الإيمان المطلق، الفاعل للواجبات، المجتنب للمحظورات، وإنَّ أَخْلَّ ببعض المستحبات، وارتكب بعض المكروهات، وخالط صغائر السيئات. وهو صاحب الإيمان الواجب، والمفصّل أيضًا.

والظالم لنفسه: هو صاحب مطلق الإيمان، والإيمان المجمل، وأصل الإيمان، وهو مَنْ جاء بما يصحُّ به إيمانه، وإنَّ ارتكب بعض الموبقات، وفرّط في بعض الواجبات.

فَاللَّهُمَّ ارزقنا الفردوس الأعلى من الجنّة برحمتك وفضلك وامتنانك يا أكرم الأكرمين، ويا أرحم الراحمين.



البَابُ الثَّالِثُ أركان الإيمان

مقدمة.

الركن الأول: الإيمان بالله تعالى.

الركن الثاني: الإيمان بالملائكة.

الركن الثالث: الإيمان بالكتب.

الركن الرابع: الإيمان بالرسل والرسالات.

الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر.

الركن السادس: الإيمان بالقضاء والقدر.

مُقَدِّمَةٌ

لقد بُني الإسلام على دعائم خمسة، سُميت: أركان الإسلام، كما بُني الإيمان على أصول ستة، هي: أركان الإيمان، وإذا انهدم الركن انهدم البناء كله، ولم يبق منه شيء.

وهذه الأركان منصوصة في القرآن، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفِرُّ بَيْنَكَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وقال سبحانه: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وقد نص النبي ﷺ على تلك الأركان في تعريفه الجامع للإيمان، فقال ﷺ: «الإيمانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ...»^(١).

فهذه الستة الأركان عليها يقوم ببيان الإيمان، وما يأتي بعدها فواجبات ومستحبات، يجمعها اسم شعب الإيمان.

ولا يتأتى الإيمان بتلك الأركان كافة حتى تبنى جميعاً على أصل عظيم

(١) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

جليل، وهو: الإيمان بالغيب، الذي لا يقع تحت إدراك الحواس، ولا تقتضيه بدهة العقول، وإنما يُعلم بخبر الوحي الصادق عن النبي ﷺ. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الذين يؤمنون بالغيب: آمنوا بالله، وملائكته، ورسله، واليوم الآخر، وجنته وناره، وآمنوا بالحياة بعد الموت، فهذا كله غيب»^(١). والإيمان بالغيب أفضل مقامات الإيمان.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والذي لا إله غيره ما آمن مؤمن بإيمان قط أفضل من إيمان بغيب»^(٢). ومن آمن بالغيوب الثابتة في الوحي كلها تصديقاً وإقراراً ويقيناً، من غير شك، ولا شبهة، ولا غفلة؛ فقد حقق إيمانه، وبناه على أصل ثابت وقاعدة راسخة، ومن تردد، أو تشكك بقي متخبطاً في عماية الشبهات، وضلالة الانحرافات!



(١) أخرجه ابن جرير في التفسير (١/ ١٠١).

(٢) أخرجه ابن منده في الإيمان (١/ ٣٧١)، والحاكم (٣٠٣٣).

الركن الأول: الإيمان بالله تعالى



أول ما يتضمنه الإيمان: الإيمان بوجود الله تعالى ووحدانيته، وهو يبنى على أدلة كثيرة، ترجع إلى أنواع متعددة، منها:

النوع الأول: دليل الفطرة:

إن معرفة الله تعالى وإثبات وجوده تعالى أمر فطري ضروري، لا يتوقف على نظر واستدلال إلا عند فساد الفطرة بأمر طارئ عليها، فكل إنسان يولد على صفة تقتضي إقراره بخالقه، وتستوجب معرفته إياه، وتأليه له.

ومعرفة الخالق، وإثبات وجوده يتحقق إجمالاً بالفطرة، وأما معرفة الله ومعرفة ما أمر به تفصيلاً فلا سبيل إليه إلا بالوحي.

والاستدلال بالأدلة الأخرى كالعقل وغيره لا ينافي فطرية وجود الله، وإنما يزيد ذلك برهاناً، كما قال الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ومن أدلة فطرية الإيمان: قول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِن كَثُرَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وفي الحديث: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجْسِسَانِهِ، كَمَثَلِ الْبَيْهَمَةِ تُنْتَجُ الْبَيْهَمَةُ...»^(١).

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي الحديث - أيضًا -: «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلَّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالًا، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلِّهِمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ، فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا...»^(١).

فالفطرة هي القوة والاستعداد والصلاحية لمعرفة الله تعالى وتوحيده، وبذلك فهي الإسلام إجمالاً، لا تفصيلاً، والعباد بأصل خلقتهم وضرورة فطرتهم قادرون على معرفة الله، ومريدون لتلك المعرفة، ما لم تنحرف الفطرة بسبب خارجي.

وأما الأدلة العقلية على فطرية الإيمان: فقد ساقها النقل بأحسن بيان، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]، فهذا استفهام تقريرى يتضمن: تقرير الأمم كافة على ما هم مقرون به في الأصل، من أنه ليس في الله من شك! فهو سبحانه حق لا شك فيه، بل هو اليقين الذي لا مرية فيه!

فهذا التقرير يتضمن: أن وجود الله ووحدانيته مركز في الفطرة الإنسانية، من غير احتياج إلى شيء خارجي يثبت ذلك، أو يرجحه^(٢).

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) درء تعارض العقل والنقل، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط ٢، ١٤١١هـ - ١٩٩١م (٨/ ٤٥٦)، وما بعدها.

ومن ذلك - أيضاً-: أن الفطرة إذا غشيتها غاشية إلحاد، أو إشراك؛ فإنها مع أول شدة تتضرع إلى ربها موحدة، لا مشركة ولا ملحدة.
قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

ولما كانت معرفة الله فطرية ضرورية كان أول واجب على المكلفين: توحيد الله بالعبادة، ولأجله أرسل الله الرسل وأنزل الكتب.
قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وفي الحديث: «إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ أَنْ يُوحِدُوا اللَّهَ تَعَالَى...»^(١).

النوع الثاني: دليل العقل:

دلت الأدلة العقلية الصحيحة على وجود الله تعالى، وعلى وحدانيته، وعلى بعض صفاته، وعلى دحض شبهات الإلحاد والملاحدة.
ولقد جمع القرآن الكريم أصول الأدلة العقلية التي تقيم الحجة على وجهها، وتغني عن غيرها، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، فمن هذه الأدلة:

(١) أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

١- دليل العناية:

وبينى على مقدمتين:

الأولى: أن جميع ما في هذه الحياة من موجودات موافق لوجود الإنسان، وموائم لتسيير حياته على أكمل نظام.

فالأفلاك الدوارة هي سبب تعاقب الأزمان من ليل ونهار، والجبال الرواسي للأرض أوتاد، والأرض مهاد وبساط، والسماء سقف محفوظ، والأنهار عذب فرات، والبحار ملح أجاج.

وكل ذلك موافق لسكنى الناس هذه الأرض، تقديرا حسنا، وهداية وتوفيقا، وصنعا متقنا... قال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ١-٣].

الثانية: أن كل ما يوجد متوافقا متلائما مع غاية واحدة لا بد أن يكون له صانع متقن خبير، فلا شيء أدل على وجود الصانع الحكيم من وجود موجود بهذه الصفة في الإحكام.

فإذا كان العقل لا يسيغ أن توجد دور معمورة بغير بان، ولا أسفار مكتوبة بغير كاتب، ولا ثياب منسوجة بغير ناسج، فلم خص أحسن الخالقين بأن يكفر، ولا يستدل عليه بعجيب صنعه، وبديع خلقه ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ﴾ [عبس: ١٧]؟!

وقد حث القرآن الكريم على النظر والتأمل في ملكوت الله، ومعرفة آثار رحمته تعالى وعنايته بخلقه، فقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ

عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُغْنِي الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيٍ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿[الروم: ٤٨-٥٠].

بل إن التأمل في الأنفس وما خلق الله فيها من عجائب القدرة وآيات
الوحدانية ما يدل على وجود الخالق العظيم، قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا
تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، ومن عرف نفسه عرف ربه.

٢- دليل الاختراع:

وينبني على أصليين:

الأول: أن الموجودات وُجدت بعد أن لم تكن، كما يُعلم ذلك
بالمشاهدة.

الثاني: أن كل حادث لا بُد له من محدث، وكل مخترع لا بُد له من مخترع؛
لأن الموجودات لا توجد نفسها؛ لأنها قبل أن توجد كانت عدماً، والعدم لا
يخلق شيئاً، وهذه ضرورة عقلية شرعية، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ
الْمَخْلُوقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

وليس بالمخلوقات بأسرها قدرة على أن تخلق، وليس فيها صفة بها
تخلق، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ الْذِي تَدْعُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ
اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣]، وقال: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا
وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا
نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

دلائل الآيات في الأنفس والمخلوقات:

إن في خلق الأنفس والمخلوقات في الأرض والسموات لآيات بينات على
وجود رب الأرباب، ووحدانية خالق الأسباب، ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ

فَهَدَى ﴿ [الأعلى: ٢-٣].

ولقد جاءت آيات القرآن الكريم آمرة بالنظر في الأنفس والمخلوقات، قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

ومن غير شك فإن النظر في آيات الله المجلوة في الآفاق، وتدبر آياته المتلوة بالألسنة يقيم براهين الإثبات على أكمل وجوهاها، وأتم مقصودها. قال سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنه لا بد من أن يريهم من آياته المشهودة ما يبين لهم أن آياته المتلوة حق»^(١).

النوع الثالث: آيات الأنبياء (المعجزات):

من أهم دلائل النبوة: ما يؤيد به الله تعالى أنبياءه ورسله من المعجزات، التي يعجز البشر أن يأتوا بمثلها، أو يبطلوا أثرها، وإنما تظل أعناقهم لها خاضعين.

ومع أن آيات النبيين والمرسلين تُساق أصلاً كبراهين على صحة دعوى الرسالة، إلا أنها تدل على وجود الله تعالى من جهات عدة، ومن ذلك:

١- أن الآيات الباهرات التي ظهرت على يد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تدل على وجود الله تعالى من باب أولى؛ فإن إثبات صدق

(١) الفوائد، لابن القيم (ص ٢١).

الرسول يتضمن أولاً: الإقرار بوجود المرسل.

فلهذه الآيات الدلالة المباشرة على صدق الرسول في دعواه، ووجود من أرسله، وصحة ما تتضمنه الرسالة من عبادة الله وحده، والإقرار بأنه الرب الخالق المالك المدبر، وأنه الإله المعبود المقصود، والحكم الأعلى، وحده لا شريك له.

٢- أن خوارق العادات هي آيات دالة على عظمة قدرة الله، قبل أن تكون دلائل على صدق الرسول؛ «فانقلاب العصا حية أمر يدل بنفسه على ثبوت صانع قدير عليم حكيم، أعظم من دلالة ما اعتيد من خلق الإنسان من نطفة...»^(١).

ولهذا، يُسبح الرب ويُمجّد عند حصول تلك الآيات البيّنات أعظم مما يكون عند حصول المعتاد من خلق الإنسان، وإنبات النبات. يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وهذه الطريقة من أقوى الطرق وأصحها، وأدلها على الصانع وصفاته، وأفعاله، وارتباط أدلة هذه الطريقة بمدلولاتها أقوى من ارتباط الأدلة العقلية الصريحة بمدلولاتها؛ فإنها جمعت بين دلالة الحس والعقل، ودلالاتها ضرورية بنفسها؛ ولهذا يسميها الله سبحانه: آيات بيّنات»^(٢).

٣- تأيدت دلالة تلك الآيات على وجود الله، وصحة الرسالات بأمرين: أحدهما: استمرار نصر الأنبياء في عاقبة أمرهم، وإهلاك أعدائهم.

(١) درء تعارض العقل والنقل (٩/ ٤٤).

(٢) الصواعق المرسلّة، لابن القيم (٣/ ١١٩٧).

وثانيهما: سلامة الأنبياء وأتباعهم مما نزل بأعدائهم من العذاب^(١).
قال سبحانه: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١].

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ
وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَتَيْنَهُمْ رُسُلَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ
فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التوبة: ٧٠].

إن إهلاك القوم المكذبين، ونجاة المرسلين، وعباد الله المؤمنين مدعاة
للتذكر والاعتبار؛ قال سبحانه: ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر: ٢].

٤ - ومن المعجزات الباهرة والآيات القاهرة ما هو متجدد على مر الزمان، لا
ينقضي إعجازه، بل مع مرور الزمان يتجدد عطاؤه، وتنفجر كنوزه، ألا وإن
ذلك هو معجزة الدهر، وشعار الفخر: القرآن الكريم، والذكر الحكيم!
فما يزال التحدي قائما بما عُرف في القديم من وجوه إعجازه، وما زالت
تلك الوجوه في تجدد وزيادة حيث حدث عن الغيوب التي تتحقق كل يوم،
وعن إشارات في الكون والخلق والإنسان يظهر صدقها يوما بعد آخر، وفي
ذلك أعظم الدلالة على صدق من جاء به، وأنه مخبر عن ربه جل في علاه.

النوع الرابع: إجابة الداعين، وإغاثة المكروبين:

سبحان من يجيب أولياءه، وينصر أنبياءه!
قال سبحانه: ﴿ فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ﴾ ١٠ ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ
مُنْهَمَرٍ ﴾ [القمر: ١٠ - ١١].

(١) إيثار الحق على الخلق، لابن الوزير اليماني (ص ٥٤ - ٥٥).

وسبحان من يغيث المكروبين، ويسمع دعاء المضطرين!
قال سبحانه: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا نَذْكُرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

وسبحان من يسمع دعاء الملتجئين إليه في الشدائد، ولو كانوا من المشركين!

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

واقتران الدعاء بالإجابة، وحصول عين المطلوب - دليل عقلي حسي صريح يشهد به كل منصف على وجود السميع البصير اللطيف الرؤوف سبحانه، وقد قال الله تعالى - في جواب دعاء أنبيائه مرارا - ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ﴾ [الأنبياء: ٧٦، ٨٤، ٨٨، ٩٠].

ولا يُعْتَرَضُ على هذا الدليل بأنه وُجد في بعض الأحوال تخلف الإجابة، ويجاب عن هذا بأنه ليس من شرط الدليل الإجابة في كل استغاثة؛ إذ قد توجد موانع من الإجابة، وقد تؤجل الإجابة لحكمة بالغة.
وإجابة دعاء المضطرين تدل على وجود الله تعالى من جهة أخرى:

وهي: جهة الفطرة، وهي: انصراف الكل - من مسلم وكافر - في ساعة الخطر إلى الإله الواحد الأحد؛ فلا تلتفت القلوب إلا إلى الله، ولا تُرْفَعُ الأكف إلا إليه، وحده لا شريك له!

قال سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَ﴾ [الإسراء: ٦٧].

النوع الخامس: إجماع الأمم:

لم تُجمع الأمم جميعًا على أمر كإجماعهم على وجود الله تعالى، ولم ينكر وجوده سبحانه إلا شذاذُ الخلق، وأفراد المكابرين المعاندين ممن لا وزن لهم!

بل حتى هؤلاء الجاحدين حكى عنهم ربهم في القرآن الكريم: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

ومن المقطوع به أنه لم يُنقل عن أمة من الناس إنكار وجود الله تعالى إنكارا كلياً، وإنما نُقل الشرك بالله في عبادته، أما ربوبيته فلا ينكرها أحد، ولا ينازعه فيها من استقر عقله، ونطق بما يجد في نفسه من غير التواء أو كذب. واسم الله تعالى معروف في كل جماعة بشرية، وأمة إنسانية، ولغة آدمية، وإن ضلت أمة عن ربها، وأشركت في معبودها!

وقد قال سبحانه - على لسان المشركين -: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَإِنِّي يَوْمَئِذٍ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ [العنكبوت: ٦١]. وعليه؛ فالإلحاد في وجود الله تعالى لا يعدو إما أن يكون هوساً عقلياً، أو انحرافاً شهوانياً، يطلب أصحابه تحللاً من الشرائع، وإسقاطاً للشعائر! وهو في هذا وذاك لون من ألوان الشذوذ، وما في قلوب أصحابه إلا كبر ما هم بباليغية!

قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

النوع السادس: الدليل النقلي:

الوحي والنقل والشرع دليل واحد، حقه التقديم والتعظيم عند الحديث

عن وجود واهب الوجود سبحانه، وإنما تأخر ذكره؛ لأن خطاب الجاحد المنكر يقوم على ما لا يمكن دفعه من الأدلة السابقة.

والنصوص كلها دالة على هذه المسألة بدلالة أولية بديهية؛ إذ هي جميعاً تشير إلى مقام الله تعالى بالوحدانية في ذاته وصفاته وأفعاله، وهي تطالب العباد بإفراده تعالى بالعبادة، وتنبههم إلى أنواع الأدلة على ربهم وخالقهم سبحانه.

قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ (٥٨) ﴿ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ ۚ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ (٥٩) ﴿ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ (٦٠) ﴿ عَلَى أَنْ يُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنْشِئَ لَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٦١) ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٦٢) ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ (٦٣) ﴿ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ۚ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ (٦٤) ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ (٦٥) ﴿ إِنَّا لَمَغْرُمُونَ ﴾ (٦٦) ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ (٦٧) ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾ (٦٨) ﴿ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴾ (٦٩) ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَجَاًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ [الواقعة: ٥٨ - ٧٠].

والجواب على ذلك جميعاً: ﴿ قُلِ اللَّهُ ذَرَّهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام: ٩١].

فاللهم إنا نبرأ إليك من إلحاد كل ملحد، وشرك كل مشرك، وكفر كل كافر. سبحانه أنت البرهان على وجود كل موجود، فكيف يُطلب على وجودك برهان، سبحانه بك تُعرف الأشياء، ولا تُعرف بالأشياء!

قد عرفناك بما عرفت به نفسك في كتابك، وعلى لسان رسولك.

قَالُوا ائْتِنَا بِرْهَانٍ فَقُلْتُ لَهُمْ أَنَّنِي يَقُومُ عَلَى الْبُرْهَانِ بُرْهَانٌ^(١)



الإيمان ربوبية الله تعالى



توحيد الربوبية هو: الإيمان بأن الله تعالى هو رب العالمين، خلقهم وهو يرزقهم، وملكهم وهو يديرهم، يريهم بالنعم، ويدفع عنهم المفسد والنقم، ويمدهم بما تقوم به مصالحهم، فهذه ربوبية عامة للخلق، ثم هو يخصص أولياءه بتوقيفه، ويحبب إليهم الإيمان، ويزينه في قلوبهم، ويكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، إلى غير ذلك من أفعال الربوبية التي انفرد بها سبحانه وتعالى.

فهي ربوبية عامة وخاصة، فمن العامة: قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]، ومن الخاصة: قوله جل وعلا: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، ونعرض تفصيلاً لربوبية الله تعالى في النقاط التالية:

أولاً: مجمل أفعال الربوبية:

إن الإيمان بالربوبية يعني: اعتقاد أن الله تعالى هو المنفرد بالخلق والملك والتدبير لكل ما في الكون؛ فلا يخرج شيء في الكون عن سلطان ربوبيته، ولا يشاركه في سلطانه أحد؛ فلا يقوم هذا الإيمان إلا على توحيد الله في ربوبيته، واعتقاد دخول كل موجود تحت سلطان قهره وعزته.

وسائر أفعال الربوبية إنما ترجع إلى جوانب ثلاثة: الخلق، والملك، والتدبير. ففي جانب الخلق: يقول تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

وفي جانب الملك: يقول سبحانه: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وفي جانب التدبير: يقول جلَّ وعلا: ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ [يونس: ٣].

وقد يعبر عن مجموع ذلك بلفظ الأمر، يقول تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وإذا تقرر انفراد الله تعالى بهذه الثلاثة الأنواع؛ فإنه ولا بد منفرد بالأمر والسلطان والتشريع، يقول سبحانه: ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فهذا من لوازم توحيد الربوبية ومقتضياته.

فكما أن الله تعالى هو الخالق الرازق المالك المدبر، فهو سبحانه الحاكم الحَكَمَ المشرع المتصرف، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه.

ومما يدخل في توحيد الرب بأفعاله: الإيمان بقضائه وقدره، وأنه تعالى خالق لأفعال عباده، وأنها تقع وفق مشيئته وإرادته الكونية، قال سبحانه: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصفات: ٩٦]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٩].

ثانياً: من خصائص الربوبية:

١- الغنى المطلق: لا يكون الرب ربا إلا وهو غني عن عباده غنى مطلقا، قال تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥].

٢- الانفراد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع: قال سبحانه: ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام: ١٧].

٣- القدرة العامة التامة: فهو سبحانه يفعل ما يشاء: قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَاعِلٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، وقال ﷻ: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠].

ثالثاً: الاستدلال على توحيد الربوبية:

قام البرهان العقلي النقلي على ربوبية الله تعالى، وانفراده بالخلق والملك والتدبير بقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

فالإله الحق لا بد أن يكون خالقاً رازقاً، واحتمال وجود إلهين خالقاً ورزقاً، وقَدَرَا على إيصال النفع، ودفع الضرر - يُفضي إلى أحد احتمالين:

١- إما أن يستقل كل إله بعباده الذين خلقهم ورزقهم، وينفرد كل بملكه وتدبيره، وهذا لم يحدث، ولم يقع؛ إذ الكون على نظام واحد، آخذ بعبضه ببعض.

٢- وإما أن يعلو بعضهم على بعض، فيكون أحدهم هو الإله القاهر المسيطر، وما سواه مقهور، وهذا لم يحصل - أيضاً - ولو قُدِّرَ هذا لكان إبطالا للإلهية ما سوى الإله القاهر، فيكون هو وحده الرب المعبود، والإله المقصود.

قال سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَغُوا إِلَيَّ الْمَرْثِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢].

وما دام شيء من هذا لم يحدث، فإن الإله المعبود والرب المقصود هو الله وحده، لا شريك له في ملكه وأمره، كما لا شريك له في خلقه.

رابعاً: التلازم بين توحيد الربوبية والعبادة:

إن الإقرار الصحيح بربوبية الله تعالى يدعو إلى عبادته وحده لا شريك له، وعليه: يفهم أن إقرار المشركين بربوبية الله تعالى كان إقراراً مدخولاً، أو منتقصاً، حيث لم يحملهم على عبادة الله وحده لا شريك له؛ ولهذا جاء الإنكار عليهم في القرآن.

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [٨٨] سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿ ٨٩ ﴾ بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿ [المؤمنون: ٨٨ - ٩٠].

ومثل هذا الإقرار المنقوص منقول عن سائر طوائف المشركين؛ إذ لا تعرف طائفة زعمت للعالم خالقين متماثلين من كل وجه! فالثنوية - الذين قالوا بإله للنور، وإله للظلمة - يقدسون النور ويحمدونه، والنصارى لم يقولوا بثلاثة آلهة مستقلة، وإنما قالوا: «باسم الآب، والابن، وروح القدس إله واحد»!

ومع إقرار هؤلاء المشركين لله تعالى بالخلق فقد أشركوا في الربوبية، فنسبوا إلى آلهتهم النفع والضرر والعطاء والمنع، حتى قال بعضهم - لنبيهم -: ﴿ إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ [هود: ٥٤].

ومن أجل هذا؛ فمن صح إيمانه بالربوبية آمن ولا بد بألوهية الله تعالى وحده، وعبدته من غير شريك.

وقد أقام القرآن توحيد العبادة على قاعدة من توحيد الربوبية، وبين: أن عجز الآلهة المُدعاة عن الخلق والرزق والإحياء والإماتة - دليل على بطلان عبادتها من دون الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا

مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُم كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ [فاطر: ٤٠].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقال ﷻ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [النحل: ١٧ - ٢٠].

خامساً: خطر الانحراف في الربوبية:

يتعين الحذر من إخلال بالإيمان بالربوبية، ومن أسف فإن مظاهر متعددة قد وقعت بين المسلمين مما يمس صحيح الإيمان بربوبية الله تعالى!

فمن ذلك: اعتقاد البعض أن في الكون أناسا يملكون تصرفا في حياة الخلائق تولية وعزلا، وعطاء ومنعاً، ونفعاً وضراً! سواء تمسحوا بأولياء، أو أئمة، أو جان!

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتُخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد: ١٦].

وقال تعالى: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَكَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ [الحج: ١٢ - ١٣].

ومن ذلك: الغلو في أشخاص بعض المتبوعين من الضالين، حين يحرمون الحلال، أو يحلون الحرام، أو يُغيرون منار العبادات، أو يسنون الباطل من الأفعال والأقوال والشرائع!

قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى: ٢١].

وقال سبحانه: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْكَبًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهُهُ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

سادساً: آثار الإيمان بربوبية الله تعالى:

إن من آمن بربوبية الله حقاً اطمأنت نفسه إلى قضاء ربه وقدره، ولازمته السكينة في أحواله، وعرف اليقين طريقه إلى قلبه، وتحقق بصدق اللجوء إلى الله تعالى وحده، والتوكل عليه دون غيره، ولم يخف الخلق في رزقه، أو أجله! قال تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِن الظَّالِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٦].

يقول ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِن العبد إِذَا علم أَنه لَن يصيبه إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ مِن خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَنَفَعٍ وَضَرٍّ، وَأَن اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد البتة علم - حيثئذ - أَن الله وحده هو الضار النافع، المعطي المانع، فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه»^(١).



الإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته



الإيمان بأسماء الله الحسنى، وصفاته العلى هو إقرار واعتراف وإثبات جازم بكل ما ورد في الكتاب والسنة الصحيحة من أسماء الله وصفاته، على ما يليق به سبحانه، من غير تحريف أو تعطيل، أو تكيف أو تمثيل، قال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ونعرض تفصيلاً لهذا في النقاط التالية:

أولاً: منزلة العلم بأسماء الله وصفاته:

١ - إن العلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته أشرف المعلومات^(١)؛ إذ هو سبيل معرفة الله تعالى، و«هو الأصل الذي يقوم عليه التوحيد؛ إذ لا تقوم شجرة الإيمان إلا على ساق العلم والمعرفة، وكل العلوم والمعارف تبع لهذه المعرفة، ومرادة لأجلها»^(٢).

٢ - العلم بأسماء الله تعالى وصفاته من أهم أسباب زيادة الإيمان،

(١) أحكام القرآن، للقاضي محمد بن عبد الله أبي بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م (٢/٣٣٨).

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار ابن كثير، دمشق، بيروت - مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط٣، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م (ص ١١٤).

«فمن عرف أسماء الله ومعانيها، فأمن بها كان إيمانه أكمل ممن لم يعرف تلك الأسماء، بل آمن بها إيماناً مجملًا»^(١).

٣- وكما أن معرفة الأسماء الحسنى، والصفات العلى هو الطريق القاصد لمعرفة الله وتوحيده، فهي كذلك الطريق إلى عبادة الله وحده؛ إذ بمعرفتها يتحقق العبد بالذل والخضوع لله في أكمل درجاته، وتتحقق المحبة في أعلى صورها، وكلما كان العبد بأسماء الله وصفاته أعرف كان له أعبد.

٤- ومعرفة الأسماء الحسنى هو سبب وسبيل دعاء الله بها، و«الدعاء هو العبادة»^(٢)، قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].
والدعاء يتضمن دعاء المسألة، ودعاء العبادة.

فدعاء المسألة: بتقديم ما يناسب الطلب من أسماء الله الحسنى، فطالب الرحمة يتوسل باسمه: (الرحمن الرحيم)، وطالب الهداية يتوسل باسمه: (الهادي)... وهكذا.

ودعاء العبادة، هو العمل بمقتضى أسمائه تعالى، فيتوب العبد إلى ربه التواب، ويستغفر ربه الغفور، ويخشى ربه السميع البصير الرقيب... وهكذا.
وجملة القول: إن الإيمان بالأسماء والصفات، وإثبات حقائقها، وتعلق القلب بها، وشهوده لها- مبدأ الطريق، ووسطه، وغايته، وهو روح السالكين وحاديهم، ومُحرك عزماتهم إذا فتروا، ومثير همهمهم إذا قصرُوا^(٣).

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٧/ ٢٣٣ - ٢٣٤).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٣٥٢)، وأبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجه

(٣٨٢٨) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٣٢٧).

ثانيًا: ركائز الإيمان بالأسماء والصفات:

إن للإيمان بأسماء الله تعالى الحسنی، وصفاته العليا ركائز عليها يقوم، وقواعد إليها يستند ويعتمد، ومن تلك الركائز والقواعد ما يلي:

١- الإيمان بكل ما ورد من الأسماء والصفات في القرآن والسنة الصحيحة: فكل ما سمي الله به نفسه في كتابه، أو سنة نبيه ﷺ فحق على المسلم أن يؤمن به، لا يتجاوز القرآن والحديث، وإجماع السلف، لا في نفي ولا إثبات. «وكل من أثبت لله ما نفاه عن نفسه، أو نفى عنه ما أثبتته لنفسه من المعطلة والممثلة؛ فإنه قال على الله غير الحق»^(١)، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّٰهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا نَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «الله تعالى أسماء وصفات جاء بها كتابه، وأخبر بها نبيه ﷺ أمته، لا يسع أحدًا من خلق الله قامت عليه الحجة - ردها؛ لأن القرآن نزل بها، وصح عن رسول الله ﷺ القول بها فيما روى عنه العدول، فإن خالف ذلك بعد ثبوت الحجة عليه، فهو كافر»^(٢).

وقال أحمد رَحِمَهُ اللهُ: «نعبد الله بصفاته كما وصف بها نفسه، ولا نتعدى القرآن والحديث، فنقول كما قال، ونصفه كما وصف نفسه، ولا نتعدى ذلك»^(٣).

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٦٤).

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: عواد عبد الله المعتق، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ط ١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م (٢/ ١٦٥).

(٣) الإبانة الكبرى، لابن بطة (٧/ ٣٢٦).

وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ: «فلا يصفه ذوو العقول إلا بخير، ولا خير في صفات الله إلا ما وصف نفسه به في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ، فلا نتعدى ذلك إلى تشبيه، أو قياس، أو تمثيل، أو تنظير؛ فإنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]»^(١).

وعليه؛ فإن معرفة الله تعالى وأسمائه وصفاته تكون بالسمع، لا بالعقل، كما قاله اللالكائي رَحِمَهُ اللهُ: «وجوب معرفة الله تعالى وصفاته بالسمع، لا بالعقل»^(٢)، ومعرفة الله تعالى بالعقل إجمالاً ممكنة، أما معرفته تعالى تفصيلاً فهي مسلمة إلى الوحي المعصوم.

٢- الأخذ في العقيدة بما اعتمده أهل السنة من مصادر التلقي:

إن أسماء الله تعالى وصفاته تثبت بما اعتمده أهل السنة من مصادر التلقي والاستدلال، وأول ذلك: القرآن، ثم صحيح السنة - ولو آحاداً - ثم إجماع السلف.

أما خبر الواحد فهو من جملة ما صح من قول الرسول ﷺ، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وهذا شامل لأصول الدين وفروعه، من العقيدة والأحكام والأخلاق على حد سواء. ولم يُحفظ عن أحد من أئمة الدين ترك خبر الواحد في الاعتقاد.

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٧/ ١٤٥).

(٢) شرح أصول الاعتقاد (٢/ ٢١٦).

قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «لم أحفظ عن فقهاء المسلمين أنهم اختلفوا في تثبيت خبر الواحد»^(١).

أما الإجماع فإنه حجة في باب الأسماء والصفات؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وقال سبحانه: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَتْ بِهِ ۖ فَقَدْ أَهْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٣٧]، والخطاب هنا للصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ.

وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي - أو قال: أُمَّة مُحَمَّدٍ ﷺ - عَلَى ضَلَالَةٍ، وَيَدُّ اللَّهُ مَعَ الْجَمَاعَةِ»^(٢).

وقد استدل الأئمة بإجماع السلف في العقيدة في مواطن كثيرة:

قال أحمد رَحِمَهُ اللهُ - فيمن يقول: أنا أقف في القرآن تورعا - : «ذاك شك في الدين! إجماع العلماء والأئمة المتقدمين على أن القرآن كلام الله غير مخلوق، هذا الدين الذي أدركت عليه الشيوخ، وأدرك الشيوخ من قبلهم على هذا»^(٣).

وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ: «الله ﷻ لا يوصف عند الجماعة (أهل السنة) إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسول الله ﷺ، أو أجمعت الأمة عليه،

(١) الرسالة، للشافعي أبي عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبية القرشي المكي، تحقيق: أحمد شاكر، مكتبة الحلبي، مصر، ط ١، ١٣٥٨ هـ - ١٩٤٠ م (ص ٤٥٧ - ٤٥٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٦٧) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٣) طبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى (١/ ١٧٢).

وليس كمثله شيء، فيدرك بقياس أو بإنعام نظر»^(١).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «أما الاعتقاد فلا يؤخذ عني ولا عمن هو أكبر مني، بل يؤخذ عن الله ورسوله ﷺ، وما أجمع عليه سلف الأمة»^(٢).

ولا ينعقد إجماع إلا مستندا إلى دليل من الوحي؛ كتابا، أو سنة.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فلا يوجد قط مسألة مجمع عليها إلا وفيها بيان من الرسول ﷺ، ولكن قد يخفى ذلك على بعض الناس، ويعلم الإجماع فيستدل به»^(٣).

٣- تنزيه الله تعالى عن باطل التمثيل والتعطيل:

إن الله تعالى منزّه أن تماثل صفاته صفات عباده، أو أن يعطل عما وصف به نفسه في كتابه، أو سنة نبيه ﷺ، فهو موصوف بكل كمال، وكل نقص عليه محال.

وقد جمع سبحانه بين الإثبات والتنزيه، فقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وقال تعالى -في خصوص التنزيه-: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤]، وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: ٢٢].

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ: «فليس لصفة الله ند، ولا مثل، ولا يوجد شيء من صفاته بالمخلوقين»^(٤).

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٢٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ١٦١).

(٣) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٩٥).

(٤) خلق أفعال العباد، لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، تحقيق: فهد بن سليمان الفهيد، دار أطلس الخضراء، ط ١، ٢٠٠٥ هـ (٤٧٩).

وقد ختم الله سورة الإخلاص بقوله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ، كُفُوًا أَحَدٌ ﴾** [الإخلاص: ٤].

قال ابن تيمية **رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمقصود هنا: أن صفات التنزيه يجمعها هذان المعنيان المذكوران في هذه السورة:**

أحدهما: نفي النقائص عنه، وذلك من لوازم إثبات صفات الكمال، فمن ثبت له الكمال التام انتفى النقصان المضاد له، والكمال من مدلول اسمه: (الصمد).

الثاني: أنه ليس كمثله شيء في صفات الكمال الثابتة، وهذا من مدلول اسمه: (الأحد).

فهذان الاسمان العظيمان: (الأحد، الصمد) يتضمنان تنزيهه عن كل نقص وعيب، وتنزيهه في صفات الكمال ألا يكون له مماثل في شيء منها. واسمه: (الصمد) يتضمن إثبات جميع صفات الكمال، فتضمن ذلك إثبات جميع صفات الكمال، ونفي جميع صفات النقص»^(١).

وقال نعيم بن حماد **رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٢٨هـ): «من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر، فليس ما وصف الله به نفسه ورسوله ﷺ تشبيه»**^(٢).

فهذا جمع بين الإثبات من غير تشبيه ولا تمثيل، والنفي من غير تحريف ولا تعطيل، وكل من أدخل بهذين الأصلين، فقد ضل سواء السبيل؛

(١) مجموع الفتاوى (١٧/١٠٨ - ١٠٩).

(٢) تاريخ دمشق، لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م (٦٢/١٦٣).

سواء في ذلك من بالغ في الإثبات فوق في التمثيل، ومن بالغ في التنزيه فوق في التعطيل.

والمعطلة والممثلة المشبهة كلاهما أهل تمثيل، إلا أن الممثلة ثبتوا على ما اعتقدوا من التمثيل، أما المعطلة فظنوا دلالة الكتاب والسنة على التمثيل، ثم فروا بباطل التأويل إلى تعطيل يظنونه تنزيها!!

ومما يرتبط بهذه القاعدة: ما أشار إليه شيخ الإسلام من الارتباط بين ثبوت الكمال ونفي النقص، وبين نفي النقص وإثبات الكمال؛ معرفة أن ثبوت الكمال لله يستلزم نفي نقيضه.

قال تعالى: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فإثبات كمال الحياة لله ينفي عنه السنة والنوم، وكمال غناه جلّ وعلا ينفي عنه الفقر والبخل... وهكذا.

وفي الحديث: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ، وَلَا غَائِبًا؛ إِنَّهُ مَعَكُمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، تَبَارَكَ اسْمُهُ، وَتَعَالَى جَدُّهُ»^(١).
فنفي النبي ﷺ عن الله تعالى نقص الصمم والغياب، وأثبت له كمال أضدادهما من السمع والقرب.

والاشتراك في الأسماء والصفات لا يستلزم تماثل المسميات والموصوفات،

(١) أخرجه البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فقد أثبت الحق لنفسه سمعا، وبصرا، وعلما، وحياة، وغير ذلك، كما أثبت له بعض خلقه، ولكنه نفى أن يقع تماثل بين سمعه وبصره تعالى، وبين سمع وبصر الإنسان.

والعقل يقضي بداهته: أن الأوصاف والمعاني تنقيد بما أضيفت إليه، وإن كانت جميعاً من المخلوقات؛ فَيَدُ الفيل ليست ويد النملة سواء، فانتفاء التماثل بين الخالق والمخلوق في ذلك من باب أولى وأحرى وأجلى!

٤- صفات الله تعالى معلومة المعنى على حقيقتها:

إن الله تعالى خاطبنا بكتابه العربي المبين للإفهام، لا للإيهام، قال سبحانه: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢]، فما خاطبنا به تعالى في كتابه إنما يُعَرَفُ معناه من حيث يُعَرَفُ مراد المتكلم من كلامه، وكذا ما خاطبنا به نبينا ﷺ، ومن ذلك - ولا بد - أسماء ربنا وصفاته.

وقد قال سبحانه: ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ [ص: ٢٩]، ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [محمد: ٢٤]، والتدبر إنما يتأتى ممن يفهم ويعقل، ويكون لما يمكن فهمه، وإدراك معانيه.

ولو أُريد بالصفات غير حقيقتها اللائقة بالله تعالى لكان ذلك محتاجاً إلى بيانه من النبي ﷺ، ولا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة، فدل هذا على وجوب حمل الصفات على حقيقتها اللائقة به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والقرآن الكريم نور وهدى، يتضمن أكمل البيان، وأتم البرهان، وأوضح الدلالة في حق الله تعالى، وتوحيده، وأسمائه وصفاته مع كمال إرادة الخير بعباد الله بأقرب وأيسر عبارة، فحيث أضيفت تلك الصفات، أو الإضافات الخبرية إلى الذات العلية، فهي على هذا النحو حقيقة في حق الله تعالى، وينتفي المجاز.

كما أن الصفات الإلهية وردت مكررة على وجوه التأكيد، الذي ينقطع معه احتمال إرادة خلاف الظاهر، فمن ذلك: قوله سبحانه: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، قال الكرجي: «والمجاز لا يؤكد بالمصدر، وقد أكدّه جَلَّوَعَلَا كما ترى، فجاء بالتكليم»^(١).

وأخيراً: فقد تواتر النقل عن الصحابة ومن تبعهم من أئمة الدين بصريح إثبات حقائق الصفات، بما لا يحتمل التأويل، فمن ذلك: أنه لما سئل ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أبلغك أن الله عَجَبٌ يَعَجِبُ مِمَّنْ ذكره؟ فقال: لا، بل يضحك!»^(٢).

وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الصمد: السيد الذي قد انتهى سؤدده»^(٣).
فقد بين معنى الصمد، وغاير بين معني: العجب، والضحك، ولم يفوض العلم بالمعنى.

وقال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «خلق الله أربعة أشياء بيده: آدم، والعرش، والقلم، وجنات عدن، ثم قال لسائر الخلق: كن فكان»^(٤).
وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ (٣١٠هـ): «فإن قال لنا قائل: فما الصواب من القول في معاني هذه الصفات التي ذكرت، وجاء ببعضها كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ ووحيه، وجاء

(١) نكت القرآن، لمحمد بن علي الكرجي القصاب، تحقيق: د. علي بن غازي التويجري، دار ابن القيم، السعودية، دار ابن عفان، القاهرة، ط ١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٣٣م (١/ ٢٨٠).

(٢) الإبانة الكبرى، لابن بطة (٧/ ١١١).

(٣) صحيح البخاري (٦/ ١٨٠).

(٤) نقض عثمان بن سعيد الدارمي على المريسي، تحقيق: رشيد بن حسن الألمعي، مكتبة الرشد، الرياض، ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م (١/ ٢٦١)، والآجري في الشريعة (٧٥٦)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٧٣٠).

بعضها رسول الله ﷺ؟

قيل: الصواب من هذا القول - عندنا - أن ثبت حقائقها على ما نعرف من جهة الإثبات، ونفي التشبيه^(١).

وقال ابن منده رَحِمَهُ اللهُ (٣٩٥هـ): «باب: ذكر قول الله ﷻ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، وذكر ما يستدل به من كلام النبي ﷺ على أن الله ﷻ خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بيدين حقيقة»^(٢).

وقال القادر بالله أحمد بن إسحاق المقتدر العباسي رَحِمَهُ اللهُ (٤٢٣هـ): «وكل صفة وصف بها نفسه، أو وصفه بها رسوله ﷻ فهي صفة حقيقة، لا صفة مجاز»^(٣).

وقال الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ (١٣٩٣هـ): «فإن قيل: إذا منعت المجاز في آيات الصفات، فما معنى الحقيقة فيها؟ فالجواب: أن الصفات تختلف حقائقها باختلاف موصوفاتها، فللخالق صفات حقيقية تليق به، وللمخلوق صفات حقيقية تناسبه وتلائمه، وكل من ذلك حقيقة في محله»^(٤).

(١) التبصير في معالم الدين، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبي جعفر الطبري، تحقيق: علي بن عبد العزيز بن علي الشبل، دار العاصمة، السعودية، ط ١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م (ص ١٤٠).

(٢) الرد على الجهمية، لأبي عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن مَنَدَه العبدوي، علي محمد ناصر الفقيهي، المكتبة الأثرية - باكستان (ص ٣٤-٣٥).

(٣) العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمتها، لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَائِمَاز الذهبي، تحقيق: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، مكتبة أضواء السلف، الرياض، ط ١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م (ص ٢٤٥).

(٤) منع جواز المجاز، لمحمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، دار عالم

والأصل: هو إجراء نصوص القرآن والسنة على ظاهرها المتبادر من معانيها بحسب ما تضاف إليه، وما يحتف بها من القرائن، وما فهمه منها العرب الأول، من غير التعرض لمعانيها بتحريف، أو تأويل، وظاهرها لا يقتضي - بحال - تمثيل خالق بمخلوق؛ «فإن الدلالة في كل موضع بحسب سياقه، وما يحف به من القرائن اللفظية والحالية»^(١).

فمن قال: إن ظاهر نصوص الصفات غير مراد؛ لأنها تدل على تشبيه، أو تمثيل، فقد أخطأ فهم الظاهر، فمثلاً: لا يقال: إن سفينة نوح تجري في عين الله، حتى يقال: إن الظاهر من قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] غير مراد! ولا أن الله تعالى يمرض، أو يجوع، أو يعطش؛ لأنه تعالى قال - في الحديث القدسي -: «ابن آدم، مَرَضْتُ فَلَمْ تُعْدِنِي...»^(٢)؛ لأن سياق الحديث يرد هذا الفهم؛ إذ بين فيه: أن العبد هو الذي مرض، أو جاع وعطش! ونحو هذا.

فيجب فهم الكلام الشرعي على ما يقتضيه اللسان العربي المستقيم، ولا يقبل التأويل إلا لما دلت على خلافه المنقولات الشرعية، فيفسر بما يوافقها.

قال الدارمي رحمه الله: «ولا يجوز الكلام في آيات الصفات، وأحاديث الإثبات لها... إلا بما يُعرف من اللغة العربية على سياق الكلام وملازمته»^(٣).

الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية، مشروع آثار الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي (ص ٤٣).

(١) مجموع الفتاوى (١٤ / ٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) نقض عثمان بن سعيد الدارمي على المريسي (١ / ٢٩٠).

وعليه؛ فلا يتبادر من نحو قوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] أن يد الله تعالى كأيدي المخلوقين، أو على كيفيتها، أو تشبهها، وقد قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

٥- صفات الله تعالى مجهولة الكيفية:

التكليف: اعتقاد أن صفات الله تعالى على كيفية معينة، والكيفية هي ما يسأل عنه بـ(كيف)، ولا يعلم كيفية صفات الله إلا الله، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

والذات والصفات من باب واحد، فكما ثبت ذاتا لا نعلم كنهها، أو كيفيتها، فكذلك ثبت لها من الصفات ما لا نعلم كيفيته.

وليس أمام المؤمن إلا أن يقطع طمعه عن إدراك حقيقة وكيفية وكنه الذات العلية والصفات؛ لأن ذلك مما لا يدخل تحت قدرة الإنسان.

وقد قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلُ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٧].

وعلم الكيفية مما يدخل فيما لا يعلم تأويله إلا الله؛ ذلك أن إدراك الكيفية لا يمكن إلا بخبر من الله؛ حيث لم يشاهد أحد من الخلق ربه، أو يشاهد مثله، والله حين أخبرنا عن صفاته لم يخبرنا عن كيفيتها؛ فلا سبيل لأحد إلى علم الكيفية.

وكما نطق سلف الأمة من الصحابة والتابعين بمعاني الصفات وتفسيرها،

فقد بينوا الجهل بالكيفية والسكوت عنها، والخبر عن مالك بن أنس رَحِمَهُ اللهُ في الاستواء معلوم مشهور.

قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللهُ: «كنت عند ربيعة بن أبي عبد الرحمن، فسأله رجل: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، كيف استوى؟!

فقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق»^(١).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وهذا الجواب ثابت عن ربيعة شيخ مالك»^(٢).
وأما جواب مالك فكان: «الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة؛ فإني أخاف أن تكون ضالا، وأمر به فأخرج»^(٣).

وفي لفظ: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول»^(٤).

وفي لفظ: «استواؤه معلوم، والكيف غير معقول»^(٥).

وقال الوليد بن مسلم رَحِمَهُ اللهُ (١٩٤هـ): «سألت الأوزاعي، والثوري، ومالك بن أنس، والليث بن سعد عن الأحاديث التي فيها الصفات؟ فكلهم قال: أمروها كما جاءت بلا كيف»^(٦).

(١) الإبانة الكبرى، لابن بطة (١٦٣/٧)، شرح أصول الاعتقاد، للالكائي (٦٦٥)، درء تعارض العقل والنقل (٢٦٤/٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٦٥/٥).

(٣) شرح أصول الاعتقاد، للالكائي (٦٦٤).

(٤) درء تعارض العقل والنقل (٢٠٧/١).

(٥) مجموع الفتاوى (١٨١/٥).

(٦) شرح أصول الاعتقاد، للالكائي (٩٣٠).

فهذا إثبات لها على ظاهرها بلا كيف يُعلم، أو مثل يُضرب.
ولما قيل لأحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ: «إن قوما يقولون: لما كلم الله موسى لم يتكلم بصوت، فقال: بلى، إن ربك ﷻ تكلم بصوت، هذه الأحاديث نرونها كما جاءت»^(١).

وقال وكيع بن الجراح رَحِمَهُ اللهُ (١٩٧هـ): «نسلم هذه الأحاديث كما جاءت، ولا نقول فيها: مثل كذا، ولا كيف كذا، يعني: مثل حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (ويجعل السماوات على إصبع، والجبال على إصبع)^(٢)»^(٣).

وهذا ظاهر في الإثبات والإمرار من غير بحث في الكيفية.
وقال الترمذي رَحِمَهُ اللهُ (٢٧٩هـ): «قالوا: قد تثبت الروايات في هذا، ويؤمن بها، ولا يُتوهم، ولا يقال: كيف؟ هكذا روي عن مالك، وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن المبارك، أنهم قالوا- في هذه الأحاديث-: أمروها بلا كيف، وهكذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة.

وأما الجهمية: فأنكرت هذه الروايات، وقالوا: هذا تشبيه.
وقد ذكر الله ﷻ في غير موضع من كتابه: اليد، والسمع، والبصر، فتأولت الجهمية هذه الآيات، ففسروها على غير ما فسر أهل العلم، وقالوا: إن الله لم يخلق آدم بيده، وقالوا: إن معنى اليد- ههنا-: القوة.

(١) السنة، لأبي عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني البغدادي، تحقيق: د. محمد بن سعيد بن سالم القحطاني، دار ابن القيم، الدمام، الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م (٥٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤١٤)، ومسلم (٢٧٨٦).

(٣) السنة، لعبد الله بن أحمد (٤٩٥)، الإبانة الكبرى، لابن بطة (٢٧٨/٧).

وقال إسحق بن إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ (٢٩٤هـ): «إنما يكون التشبيه إذا قال: يد كيد، أو مثل يد، أو سمع كسمع أو مثل سمع، فإذا قال: سمع كسمع، أو مثل سمع، فهذا التشبيه!

وأما إذا قال كما قال الله تعالى: يد وسمع وبصر، ولا يقول: كيف، ولا يقول: مثل سمع، ولا كسمع، فهذا لا يكون تشبيهاً.

وهو كما قال الله تعالى - في كتابه -: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]»^(١).

وقال أبو القاسم التيمي رَحِمَهُ اللهُ (٥٣٥هـ): «... واستواء نوح على السفينة معلوم كونه، معلوم كلفيته؛ لأنه صفة له، وصفات المخلوقين معلومة كلفيتها، واستواء الله على العرش غير معلوم كلفيته؛ لأن المخلوق لا يعلم كلفية صفات الخالق؛ لأنه غيب، ولا يعلم الغيب إلا الله، ولأن الخالق إذا لم يشبه ذاته ذات المخلوق لم يشبه صفاته صفات المخلوق»^(٢).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ (٧٢٨هـ): «فالاستواء معلوم بعلم معناه وتفسيره، ويترجم بلغة أخرى، وأما كلفية ذلك الاستواء فهو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله تعالى»^(٣).

(١) سنن الترمذي، لمحمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبي عيسى، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ١٩٩٨م (٢/٤٣ - ٤٤).

(٢) الحجة في بيان المحجة، لإسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي الطليحي التيمي الأصهباني، أبي القاسم، الملقب بقوام السنة، تحقيق: محمد بن ربيع بن هادي عمير المدخلي، دار الراية، الرياض، السعودية، ط ٢، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م (٢/٢٧٥).

(٣) الفتوى الحموية الكبرى، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن

ومما يتعلق بهذه الركيزة: أن الإيمان بنصوص الصفات يبنى على قاعدة التسليم؛ فما أشكل واشتبه علينا علمه نكله إلى قائله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. قال تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

فكل ما نزل في القرآن الكريم حق مما علمناه، أو جهلناه، والهدى والنجاة في التسليم لكتاب الله، وهذه هي سنة أهل العلم وعادتهم. قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «آمنت بالله، وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله ﷺ على مراد رسول الله ﷺ»^(١).

وقال ابن المديني رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثم التصديق بالأحاديث، والإيمان بها، لا يقال: لم؟ ولا: كيف؟ إنما هو التصديق بها، والإيمان بها، وإن لم يعلم تفسير الحديث ويبلغه عقله، فقد كُفي ذلك، وأُحكم عليه الإيمان به والتسليم»^(٢).

وقال أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن السنة اللازمة التي من ترك منها خصلة لم يقبلها ويؤمن بها لم يكن من أهلها: الإيمان بالقدر خيره وشره، والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها، لا يقال لها: لم؟ ولا: كيف؟ إنما هو التصديق بها والإيمان، ومن لم يعرف تفسير الحديث، ويبلغه عقله، فقد كُفي ذلك وأُحكم له، فعليه الإيمان به والتسليم له»^(٣).

عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحرافي الحنبلي الدمشقي، تحقيق: د. حمد بن عبد المحسن التويجري، دار الصميعي - الرياض، ط ٢، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م (ص ٢٩١).

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٣٥٤).

(٢) شرح أصول الاعتقاد (٣١٨).

(٣) شرح أصول الاعتقاد (٣١٧).

ثانياً: قواعد الإيمان بالأسماء الحسنى:

لخصوص الإيمان بأسماء الله الحسنى قواعد وضوابط يمكن إيضاحها فيما يلي:

القاعدة الأولى: أسماء الله حسنى كلها؛ سواء انفردت، أو اقترنت، أو تضافت: وقد وصف الله تعالى أسمائه بأنها حسنى في أربع آيات من كتابه العزيز: قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وقال جلّ وعلا: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨]. وقال عز ذكره: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤].

وما كانت هذه الأسماء حسنى إلا لأنها دالة على أحسن مسمى، وأشرف مدلول، وهو الله تعالى، والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم^(١). وإذا كانت أسماء الله حسنى كلها؛ فلا مدخل للنقص فيها بحال.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ليس في أسماء الله الحسنى اسم يتضمن الشر»^(٢)، وإنما يقترن الشر بالخلق: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ٢]، أو مع

(١) بدائع الفوائد، لابن القيم (١/ ١٧٠).

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، علق عليه: السيد محمد رشيد رضا، لجنة التراث العربي (٥/ ١٢٤).

حذف الفاعل: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، أو مع العموم؛ كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦].

فما كان مسماه منقسما إلى: كمال، ونقص، أو لم يدل على المدح - لا يدخل في أسماء الله الحسنى؛ كالشيء، والمعلوم؛ ولذلك لم يسم بالمريد والمتكلم والفاعل ونحوها، وهذا من دقيق فقه الأسماء الحسنى^(١).

وكما يظهر هذا الحسن في الأسماء المفردة؛ كالرحمن، والعليم، والحكيم، يظهر في الأسماء المزدوجة^(٢)؛ كالقابض الباسط، الخافض الرافع، وهذا يدل على معنى العموم والشمول، فكل شيء هو خالقه، وكل أمر ناصيته بيده.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأسماء الله هي أحسن الأسماء وأكملها، فليس في الأسماء أحسن منها، ولا يقوم غيرها مقامها، ولا يؤدي معناها، وتفسير الاسم منها بغيره ليس تفسيرا بمرادف محض، بل هو على سبيل التقريب والتفهيم»^(٣).

القاعدة الثانية: أسماء الله توقيفية، ليست بمخلوقة:

فهي توقيفية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فالألف واللام في (الأسماء) للعهد، ولا معهود إلا ما ورد به نص الكتاب، أو السنة الصحيحة.

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٣٨٤ - ٣٨٥).

(٢) وهي: كل اسمين اقترن أحدهما بالآخر، ولولا هذا الاقتران لَمَا دل على الكمال، كما في الأمثلة المذكورة.

(٣) بدائع الفوائد، لابن القيم (١/ ١٧٧ - ١٧٨).

وقوله: ﴿الْحُسْنَى﴾، يدل على أنه لا أحسن منها، وأن غيرها لا يقوم مقامها، ولا يؤدي معناها، وأنها لا تُرد إلى قياس، أو عقل، أو تأويل.
وقد اتفق أهل العلم على أن من الإلحاد المنهي عنه في أسماء الله: أن يسمى الله بما لم يثبت في كتاب، أو سنة، قال تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ سَيَّجِرُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال أهل المعاني: الإلحاد في أسماء الله: تسميته بما لم يتسم به، ولم ينطق به كتاب الله، ولا سنة رسوله ﷺ»^(١).

وفي الحديث: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمِيَ بِهِ نَفْسِكَ، أَوْ أُنْزِلَتْهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلِمَتْهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرَتْ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ...»^(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالحديث صريح في أن أسماءه ليست من فعل الأدميين وتسمياتهم»^(٣)، فمن سَمِيَ الله بأسماء لم تثبت، فقد قال على الله بلا علم، والله يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

أما كون الأسماء غير مخلوقة، فقد قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «من حلف باسم من أسماء الله فحنت؛ فعليه الكفارة؛ لأن اسم الله غير مخلوق»^(٤).

(١) تفسير البغوي (٣/ ٣٠٧).

(٢) أخرجه أحمد (٣٧١٢) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) شفاء العليل، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م (ص ٢٧٧).

(٤) الإبانة الكبرى (٢/ ٢٧٤)، شرح أصول الاعتقاد (٣٤٣).

وقال أحمد رحمه الله: «لسنا نشك أن أسماء الله ﷻ غير مخلوقة»^(١).

ووجه ذلك: أن الأسماء والصفات تابعة للذات، فلا يكون الاسم مخلوقا والمسمى غير مخلوق، كما لا تكون الأسماء حادثة لذات قديمة، وإلا لزم أن تكون الذات مجهولة حتى حدثت الأسماء، كما أنها من كلامه تعالى، وكلامه غير مخلوق.

وأخيرا: فإن هذا مختص بما سمي الله به نفسه في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ، أما ما أخبر العبد به عن ربه فهو مخلوق؛ لأن العبد مخلوق. القاعدة الثالثة: باب الأسماء أضيق من الصفات، والصفات أضيق من الأخبار: إن ما يطلق على الله تعالى على أقسام ثلاثة:

ما ورد في الكتاب والسنة على وجه الإطلاق: بأن ترد الأسماء على وجه التسمية، والصفات على وجه الوصف، ولا إشكال في هذا القسم بحال. ما ورد أصله في الكتاب والسنة: كأن ترد أفعال عن الله تعالى لم يتسم باسم الفاعل منها؛ كالمجيء، والإرادة، والتكلم، ونحوها، فيقال في هذا القسم: يجوز إطلاق هذه الأفعال في بابي الإخبار والوصف، دون باب التسمية، مع التنبيه على أن ما ورد ذكره مقيدا - كمكرهه تعالى بالماكرين - لا يخبر به إلا مقيدا أيضا^(٢).

ما لم يرد أصله في الكتاب والسنة: وهو أنواع:

١ - ألفاظ كلية عامة دالة على معان لا نقص فيها من حيث هي؛ كالشيء والموجود والمتكلم.

(١) السنة، للخلال (١٨٠٤)، الإبانة الكبرى (٥/ ٢٩١).

(٢) بدائع الفوائد (١/ ١٦١)، طريق الوصول إلى العلم المأمول (ص ٣٢٧).

- ٢- ألفاظ خاصة بالله لا تطلق على سواه؛ كالقديم، وواجب الوجود.
 ٣- ألفاظ مجملة تتضمن الحق والباطل؛ كالحيز، والجهة، والحد، ونحوها.

فأما النوعان الأولان، فلا حرج من الإخبار بهما دون الوصف، أو التسمية، وأما الثالث فلا يجوز إطلاقه على الله؛ لما فيه من لبس للحق بالباطل^(١).

القاعدة الرابعة: أسماء الله أعلام وأوصاف تدل على ذات واحدة، وأوصاف متباينة:

لأسماء الله تعالى اعتباران:

- الأول: دلالتها على ذات الله تعالى بالعلمية، فهي - بهذا الاعتبار - مترادفة.
 والثاني: دلالتها على صفاته سبحانه بالوصفية، وهي - بهذا الاعتبار - متباينة^(٢).

فاسمه تعالى: (الرحمن) دال على العلمية، فهو معين لمسماه بمجردة، وهو دال على الوصفية؛ لتضمنه صفة الرحمة.

وقد ورد في القرآن مرادا به: الوصفية مع لفظ الجلالة، حيث جرى تابعا له، فقال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]، وورد مرادا به العلمية من غير أن يكون تابعا لغيره؛ مثل: ﴿الرَّحْمَنُ﴾^(١) عَمَّ الْقُرْآنَ ﴿[الرحمن: ١، ٢]، ومجيئه علما لا ينافي دلالته على صفة الرحمة.

(١) القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف، لإبراهيم بن محمد البريكاني، دار ابن القيم، الرياض، دار ابن عفان، القاهرة، ط ١، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م (ص ٦٧-٦٨).
 (٢) التدمرية، لابن تيمية (ص ٣٨)، بدائع الفوائد، لابن القيم (١/ ١٦٢).

وللأسماء الحسنی خصوصية في هذا الباب؛ حيث إن أعلام غير الله لا تدل بالضرورة على صفات هذا المسمى، فقد يسمى بخيل: كريما، أما أسماء الله فهي دالة على أوصافه الكاملة التي لا يشاركه فيها غيره، فيحصل تعيين الله تعالى بهذه الأسماء من جهة العَلَمِيَّة والوصفية.

ومحل الترادف هو الذات، ومحل التباين هو الصفات، وتعدد الأسماء لا يستلزم تعدد الذات، بل تعدد الصفات المدلول عليها بالأسماء.

القاعدة الخامسة: الإيمان بالأسماء الحسنی يتضمن الإيمان بالاسم، وما دل عليه من معان، وما اقتضاه من آثار:

وهذه أركان الإيمان بالأسماء الحسنی، وهي ثلاثة أركان:

الأول: الإيمان بالاسم الثابت في الكتاب والسنة: إقراراً به وتصديقاً، وبأنه دال على الذات والصفات، فلا يعارض الإثبات بإنكار، أو إلحاد بأي صورة.

الثاني: الإيمان بما دل عليه من معنى: وتلك دلالات ثلاث: دلالة على الذات بالعلَمِيَّة، ودلالة على الصفة بمفردها بالوصفية، وعلى صفات أخرى بالالتزام.

الثالث: الإيمان بآثاره ومقتضياته^(١): سواء في ذلك:

الآثار الكونية: فكل ما يجري في الكون من آثار أسمائه سبحانه.

والآثار القلبية: وهي ما يقوم بقلب المؤمن عند الاطلاع على معاني الأسماء، وما يتعبد به الله من دعاء ثناء ومسألة.

(١) الكواشف الجليلة (ص ٥٦)، التنبيهات السنية (ص ٢٠).

القاعدة السادسة: لله تسعة وتسعون اسماً، من أحصاها دخل الجنة:
قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا - مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا - مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١)، والإحصاء للأسماء الحسنى يحتمل عدة معان؛
حاصلها: أن الإحصاء على مرتبتين:

١ - علمية. ٢ - عملية.

١ - فأما العلمية، فعدّها، وجمعها، وحفظها، وتدبر معانيها ومقتضياتها
وآثارها، والإيمان بذلك كله.

٢ - وأما العمليّة، فدعاء الله بها، دعاء ثناء وتمجيد، ودعاء طلب
ومسألة، فيقدم بين يدي حاجته الاسم المناسب لمطلوبه، فالتائب يقول: يا
تواب، والمستغفر يقول: يا غفور... وهكذا.

وعبادة الله بمقتضى أسمائه الحسنى، وهذا من أعظم مراتب الإحصاء،
فيتوكل على الوكيل، ويشكر الشكور سبحانه، ويستغفر الغفور، وهكذا.
ويتجنب كل إلحاد في أسمائه تعالى، وذلك حتى تحصل له فضيلة تلك
الأسماء بدخول الجنة في الآخرة، ومحبة الله له، وبزيادة الإيمان في الدنيا،
وبحصول زكاة النفس، وإجابة الدعاء، وكمال العبودية لله.

ولا يفهم من الحديث: حصر أسماء الله في هذا العدد.

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «اتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر
لأسمائه سبحانه؛ فليس معناه: أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين،
وإنما المقصود: أن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة؛ فالمراد:

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها، لا الإخبار بحصر الأسماء»^(١).

وقد تكون تلك الأسماء معينة، وقد تكون غير معينة، فيحصل الثواب لمن أحصى تسعة وتسعين اسماً؛ «فإن الذي عليه جماهير المسلمين: أن أسماء الله أكثر من تسعة وتسعين»^(٢).

القاعدة السابعة: الحذر من الإلحاد في أسماء الله:

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، والإلحاد ميل وعدول عن جادة الحق، وهو في باب الأسماء الحسنی عدول بها، وبحقائقها، ومعانيها، وما يجب لها من الإيمان والإثبات إلى ما لا يحل.

والإلحاد في أسمائه تعالى أنواع:

١- أن يسمي غير الله بما اختص الله به من الأسماء؛ كتسميتهم اللات من الإلهية، والعزى من العزيز، وهذا الإلحاد عدول بأسماء الله إلى الآلهة الباطلة.

٢- تسميته بما لا يليق بجلاله؛ كتسمية النصارى له أباً، وتسمية الفلاسفة له: علة فاعلة، وموجبا بالذات... ونحو ذلك.

٣- إنكار الأسماء الحسنی، أو إنكار ما دلت عليه من معانٍ وحقائق؛ كقول بعضهم: إنها لا تدل على كمالات الله تعالى من الحياة والسمع والبصر وغيرها، كما هو مذهب المعطلة من الجهمية، ومن تابعهم!

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٥/١٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٦/٣٨١).

ومثله في الضلال نسبة هذه الكمالات لآلهة معبودة من دون الله، كما هي عقيدة المشركين.

٤- جعلها دالة على مثل صفات المخلوقين، عيادًا بالله.
فالإلحاد يدور بين التعطيل والتمثيل.

ثالثًا: من آثار الإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته:

ما أكثر تلك الآثار! وما أنفع هاتيك الثمار التي يجنيها العبد من التحقق بالإيمان الصحيح بأسماء الله تعالى وصفاته، بل إن لكل اسم وصفة من تلك الأسماء الحسنی والصفات العلی ثمرات ومنافع متنوعة، فمنها- على سبيل الاختصار:-

١- تزكية النفس، وإقامتها في طريق العبودية:

فإدراك ما لله تعالى من أسماء الجلال والكمال والجمال، وما يجب له من شعائر التعظيم والتأليه يطهر النفس من أدرانها، ويسوقها لطاعة ربها، ويفتح لها أبواب الخوف والرجاء، ويرقيها في معارج القرب من الله.

٢- تحقيق التعبد لله بأسمائه وصفاته:

إن تعبد الله بأسمائه وصفاته عزيز في الخلق، والذين يوفقون إليه هم السعداء بين الأنام، فيسأل ربه بأسمائه وصفاته كما سبق، ويشهد آثار هذه الأسماء في الكون والشرع، ويتعبد لله بما ينبغي أن يتعبد به من معاني أسمائه وصفاته، فيتخلق من اسم الله الرحيم بخلق الرحمة، ومن اسمه الكريم بالكرم، ومن العفو بالعفو... وهكذا؛ فيأخذ من معاني أسماء الله تعالى ما يليق به ويناسبه على الحد الشرعي، من غير تجاوز، أو إفراط.

ومن هذا التعبد- أيضًا-: تحقق العبد بعبادات القلوب، فتنبت في

القلب محبة الله من ملاحظة أسماء الجمال والكمال، وتنبت الخشية والتعظيم من ملاحظة أسماء العظمة والجلال.

٣- ألا ينازع العبد ربه في صفاته المختصة به:

ذلك أن العبد إذا عرف أن ربه هو الإله الحكيم الذي يحل ويحرم ويشرع، وهو الملك الجبار المتكبر - تحاشى أن ينازع ربه في شيء من تلك الصفات العلى، وتواضع لربه، وعرف قدر نفسه؛ فلم يحكم إلا بما أنزل الله، ولم يتحاكم إلا إلى كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ.



الإيمان بالوهمية الله تعالى



الألوهية هي العبادة، فهي مصدر (أَلِهَ يَأْلِه)، بمعنى: (عبد يَعبد)،
و(إِلَه) فعال بمعنى: مفعول، أي: معبود. والتأليه: التعبد. والتأله: التنسك
والتعبد^(١)، ومنه لفظ الجلالة: (الله).

والعبادة ترجع إلى الخضوع والذل، فالعبادة: طاعة وخضوع، والتعبد:
تنسك وتذل^(٢).

والإيمان بالألوهية هو: الاعتقاد الجازم باستحقاق الله تعالى وحده لجميع
أنواع العبادة الظاهرة والباطنة، والبراءة من كل معبود من دون الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩].

ولا يتحقق توحيد الإلهية والعبادة إلا بأمرين:

الأول: عبادة الله وحده.

الثاني: البراءة من الشرك وأهله، ومن كل معبود من دون الله.

قال سبحانه: ﴿قُلْ يَتَأَيَّمُوا لِكِفْرَتِكُمْ ۖ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۚ وَلَا

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي،
تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، ط ٤، ١٤٠٧ هـ -
١٩٨٧ م (٦/ ٢٢٢٤).

(٢) لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن علي، أبي الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري
الرويفعي الإفريقي، دار صادر - بيروت، ط ٣، ١٤١٤ هـ (٣/ ٢٧٤ - ٢٧٥).

أَنْتُمْ عِبَادُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٢﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عِبَادُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾
لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ [الكافرون: ١-٦].

فهو توحيد يجمع بين النفي والإثبات، كما جمعت بينهما شهادة التوحيد: (لا إله إلا الله)، فهي نفي لكل ألوهية وعبودية إلا ألوهية الإله الحق سبحانه جَلَّ وَعَلَا، فحقيقتها ألا يُعبد إلا الله، ولا يكون الدين إلا له، ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، وقال سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن حقيقة التوحيد: أن نعبد الله وحده، فلا يُدعى إلا هو، ولا يُخشى إلا هو، ولا يُتقى إلا هو، ولا يُتوكل إلا عليه»^(١)، وهذا التوحيد قد يسمى: توحيد الألوهية، وقد يسمى: توحيد العبادة؛ لأنه أفراد العبد لربه بالعبادة والتأله، وقد يسمى بـ(التوحيد العملي)؛ لأنه يبنى على إخلاص العمل لله وحده، وقد يسمى: التوحيد الإرادي الطلبي؛ لأنه يبنى على إرادة وجه الله بالأعمال التي طُلبت من العبد شرعا، ونعرض تفصيلاً لهذا في النقاط التالية:

أولاً: فضائل توحيد الألوهية:

هذا التوحيد هو أول الدين وآخره، وظاهره وباطنه، ويتبين ذلك في نقاط:

- ١- أفراد الله بالعبادة دين الرسل ودعوتهم جميعاً، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

(١) منهاج السنة النبوية، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط ١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م (٣/ ٤٩٠).

- ٢- مقصود خلق الجن والإنس، وحكمة إيجادهم هو: عبادة ربهم سبحانه.
قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].
- ٣- هذا التوحيد هو أول ما يخاطب به الناس عند دعوتهم لهذا الدين، فكما لا تُقبل صلاة بغير وضوء، فلا تُقبل عبادة بغير توحيد.
- ففي الحديث: أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن قال: «إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلُ كِتَابٍ؛ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: عِبَادَةُ اللَّهِ ﷻ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ فَأَخْبِرْهُمْ: أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ...»^(١).
- ٤- من جاء بهذا التوحيد في الدنيا، فقد نجى نفسه، وعصم دمه وماله، وصار مسلماً.
- قال رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنْ مَالِهِ وَنَفْسِهِ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحَسَابُهُ عَلَى اللَّهِ»^(٢).
- ٥- من جاء في الآخرة بهذا التوحيد فقد عصم نفسه من الخلود في النار، وإن كان عاصياً، ومن جاء في الآخرة مشركاً فقد حرم الله عليه الجنة.
- قال سبحانه: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].
- وقال ﷺ: «وَقَدْ سُئِلَ: مَا الْمَوْجِبَتَانِ؟ فَقَالَ: «مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ»^(٣).
- ٦- إن هذا التوحيد هو شعار دين الإسلام الذي يميزه عن كل ديانة شركية،

(١) أخرجه البخاري (١٤٨٥)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٩٩)، ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٩٣) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعبادة وثنية، وإلى التوحيد تشير عامة شعائر الإسلام؛ كالصلوات الخمس في الأذان، والإقامة، والتشهد، وكتلاوة القرآن، وتلبية الحجيح، وغيرها.

٧- كل من جاء بالشهادة عند موته فهي بشارته بحسن الخاتمة، ففي الحديث: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ مِنَ الدُّنْيَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١).

٨- كانت دعوة النبي ﷺ في ثلاثة وعشرين عاما في إقرار التوحيد، ثم لما حضرت المنية رسول الله ﷺ جعل يجتهد في حماية جناب التوحيد من كل ما قد يكون ذريعة للشرك، فقال ﷺ: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ. تقول عائشة: يحذر ما صنعوا»^(٢).

ثانياً: التوحيد أول الواجبات، وبه دخول العبد في الإسلام:

إن كل من نطق بالشهادتين - كتابيا كان، أو غير كتابي - فهو مسلم، تنفعه في الدنيا فتحقق دمه، وتعصم ماله، فإن نطق بها صادقا من قلبه نفعته في الدنيا والآخرة، والنطق بالشهادتين براءة من كل دين سوى الإسلام. وبناء عليه، فإن غير المسلم إذا نطق بالشهادتين بلسانه، معتقدا لمعناها بجنانة، ولم يقرنها بما ينقضها من اعتقاد، أو قول، أو عمل - فقد أصبح مسلما، وقد جاء بالتصديق والانقياد، وهذا هو الإيمان الإجمالي، أو المجمل.

(١) ترتيب الأمالي الخميسية، ليحيى المرشد بالله بن الحسين الموفق بن إسماعيل بن زيد الحسني الشجري الجرجاني رتبها: القاضي محيي الدين محمد بن أحمد القرشي العبشمي، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م (٢٦) من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٥٣)، ومسلم (٥٣١) من حديث عائشة وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ: «أول ما يلزم كل أحد، ولا يصح الإسلام إلا به: أن يعلم المرء بقلبه علم يقين وإخلاص لا يكون لشيء من الشك فيه أثر، وينطق بلسانه - ولا بد - بأن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله»^(١).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وهذا مما اتفق عليه أئمة الدين، وعلماء المسلمين، فإنهم مجمعون على ما عُلم بالاضطرار من دين الرسول أن كل كافر فإنه يدعى إلى الشهادتين؛ سواء أكان معطلاً، أو مشركاً، أو كتابياً، وبذلك يصير الكافر مسلماً، ولا يصير مسلماً بدون ذلك»^(٢)، ودليل الإجماع: قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ أَكُنْتُمْ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤].

وسبب نزولها: أن ناساً من المسلمين لقوا رجلاً في غُنيمة له، فقال: السلام عليكم، فأخذوه فقتلوه، وأخذوا تلك الغُنيمة، فنزلت: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤].



(١) المحلى، لابن حزم، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الفكر، بيروت، لبنان (١/ ٢ - ٣).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٧).

الركن الثاني: الإيمان بالملائكة



مقدمة:

الإيمان بالملائكة هو من الإيمان بالغيب، ولا قدرة للعقل على منع وجود الغيب، بل إن في الإنسان فطرة تدعو للإيمان بما غاب عن حواسه، ومن آمن بالله تعالى ولم يدركه بحواسه، لا يصعب عليه أن يؤمن بالملائكة وإن لم يدركها بسمعه وبصره، وليس له بعد ورود الوحي إلا الإيمان بما ثبت في القرآن والسنة الصحيحة على مراد الله تعالى، ومراد رسوله ﷺ.

والإيمان بالملائكة ركن الإيمان الثابت بالقرآن، وسنة النبي العدنان، فلم يؤمن بالله من لم يؤمن بملائكة الرحمن.

والحديث عن الملائكة، وحقيقتهم، وأصنافهم، وأعمالهم، وعلاقتهم بالكون والإنسان - حديث يزيد الإيمان، وآثار الإيمان بالملائكة حميدة طيبة على نفس الإنسان وسلوكه في الدنيا، وفي الآخرة.

ومن عجب: أن ينشغل البعض بالحديث عن الجان، وتقل العناية بشأن الملائكة مع أن ذكرهم في القرآن كثير مستفيض! ونعرض تفصيلاً لهذا الركن الثاني في النقاط التالية:

أولاً: التعريف بالملائكة، وبيان حقيقتهم:

الملائكة مخلوقات نورانية، خلقهم الله لطاعته، وفطرهم على عبادته، وحباهم بقوى عظيمة، وجعل لهم صفات حميدة، وأعمالاً جليلة.

وحقيقة هذا العالم تُباين حقيقة الإنس والجن:

- فالإنس مخلوقون من قبضة الطين ونفخة الروح، والجن مخلوقون من النار، والملائكة خلقت من النور.
- والإنس والجن مختارون في طاعة الله ومعصيته، والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.
- والإنس والجن يأكلون ويشربون ويتناكحون ويتناسلون، والملائكة ليسوا من ذلك كله في شيء.

وسياأتي بيان الأدلة على ما تقدم عند الحديث عن صفاتهم وأعمالهم.

ثانيًا: أدلة وجود الملائكة:

ورد الخبر الصادق من الله في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ بوجود الملائكة، وهو من المعلوم من الدين بالضرورة، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ مِّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١].

وقد رأى النبي ﷺ بعض الملائكة، وأخبر عن ذلك، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٣ - ١٤]، وفي الحديث: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ، عَلَيْهِ سِتْمَاءَةٌ جَنَاحٌ، يُنَشَّرُ مِنْ رِيشَةِ التَّهَاقُوتِ: الدَّرَجُ، وَالْيَاقُوتُ»^(١). وقد رأى كثير من الناس بعض الملائكة، لا سيما عند الاحتضار، وقد أخبروا بذلك حيث لا مجال للكذب، أو الخداع، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

(١) أخرجه أحمد (٣٩١٥)، والنسائي في الكبرى (١١٤٧٨) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا
وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ [فصلت: ٣٠].

وأخيراً: فإن آثار الملائكة تشهد بوجودهم، وتدل عليهم، ولهم مع
المؤمنين أعمال وأحوال يأتي بيانها.

ثالثاً: الإيمان بالملائكة، وحكمه، وأدلته:

الإيمان بالملائكة الأبرار ركن الإيمان، ويتضمن: الاعتقاد الجازم
بوجودهم إجمالاً، وبما ورد في الوحي من صفاتهم وأعمالهم، من غير
زيادة ولا نقصان، وهذا إيمان إجمالي فرض عين على كل مسلم ومسلمة.
كما يجب الإيمان تفصيلاً بمن ورد ذكره باسمه، أو صفته في القرآن
الكريم، والسنة الصحيحة، وهم: جبريل وميكائيل وإسرافيل ومالك
وملك الموت، والكرام الكتبة، وملكا القبر، وملك الجبال وغيرهم.
ومن أدلة ذلك: قوله تعالى: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ
وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ
وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ
وَالْكِتَابِ وَالرَّسُولِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وفي حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَام: «فأخبرني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله،
وملائكته، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»^(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان النبي ﷺ بارزاً يوماً للناس، فأتاه رجل

(١) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فقال: ما الإيمان؟ قال: الإيمانُ أن تُؤمنَ بالله، وملائكته، وكتبه، وبلقائه، ورُسُله، وتؤمنَ بالبعث^(١).

وبناء على ذلك: فإن الإيمان بالملائكة فرض لازم، لا يتحقق إيمان عبد إلا به، فلا إيمان لمن لم يؤمن بملائكة الرحمن؛ إقراراً بوجودهم، وتصديقاً بتكريم الله لهم، وموالاته ومحبة لهم، فمن كفر بهم، أو أبغضهم فقد كفر بالله تعالى، وقد قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

وكما يكفر من أنكرهم وجحدهم يكفر - أيضاً - من غلا فيهم وعبدهم من دون الله تعالى، كما فعل بعض مشركي العرب، وهؤلاء تبارأ الملائكة منهم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءَ بِإِيَّائِكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠ - ٤١].

رابعاً: خلق الملائكة:

١- مادة خلقهم:

خُلِقَتِ الملائكة من نور، وفي الحديث: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٥٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

٢- تاريخ خلقهم:

خَلَقَ الْمَلَائِكَةَ سَابِقَ عَلَى خَلْقِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقُ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧١].

وقال النبي ﷺ: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، طُولُهُ سِتُونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلَئِكَ النَّفَرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، جُلُوسٌ، فَاسْتَمَعَ مَا يُحْيَوْنَكَ؛ فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَرَاذُوهُ: وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلْ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الْآنَ»^(١).

٣- عَظُمَ خَلْقُ الْمَلَائِكَةِ:

أما جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَدْ وَصَفَهُ رَبُّهُ بِأَنَّهُ: ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥]، وقال النبي ﷺ: «... إِنَّمَا هُوَ جَبْرِيلُ، لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ، سَادَا عَظُمَ خَلْقُهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ»^(٢).

وَأَمَّا حَمَلَةُ الْعَرْشِ فَقَالَ فِيهِمْ ﷺ: «أُذِّنْ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنْ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ»^(٣).

٤- خَلَقَ الْمَلَائِكَةَ حَسَنَ جَمِيل:

قال الله تعالى - عن جبريل -: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ [النجم: ٦]، قال مفسرو السلف: ذو منظر حسن، أو خلق طويل حسن، وقد تقرر عند الخلق من

(١) أخرجه البخاري (٦٢٢٧)، ومسلم (٢٨٤١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٧) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٢٧) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قديم جمال الملائكة، حتى قالت النسوة- في حُسن يوسف الصديق عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

٥- أجنحة الملائكة وتفاوتها:

قال سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَئِكَ أَجْنَحُهُمْ مِثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١].

وتقدم أن لجبريل ستمائة جناح، فهم متفاوتون في الخلق والمقدار والقوة، وفي الحديث: أن جبريل قال للنبي ﷺ: «ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ- أو كلمة نحوها- قال: وكذلك من شهد بدرا من الملائكة»^(١).

٦- للملائكة قدرة على التشكل:

وذلك بالصور الحسنة الجميلة، ومن ذلك: الصورة البشرية، وقد جاءوا لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في هيئة أضياف كرام، كما تمثل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ لمريم في صورة بشر، وكثيرا ما أتى جبريل إلى النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي، وكان وَضِيئًا^(٢).

وقد رأى الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جبريل في صورة رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر الذي لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منهم أحد!^(٣) وإذا كان البشر يرون الملائكة متشكلين فإنهم لا يرونهم في صورهم الحقيقية إلا للأنبياء عليهم السلام، وقد ترى الملائكة بعض المخلوقات،

(١) أخرجه البخاري (٣٩٩٢) من حديث رفاعة بن رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (١٦٧) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ففي الحديث: «إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ فَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ؛ فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا...»^(١).

٧- الملائكة ليسوا ذكورا، ولا إناثا، ولا يتناسلون:

وقد ضلل القرآن الكريم من اعتقد فيهم تلك الاعتقادات الباطلة من مشركي العرب، فقال سبحانه - منكرًا عليهم -: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكُنَّبُ شُهَدَائِهِمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩]. وقال سبحانه: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾ ١٤٩ ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٩ - ١٥٠]، وهم لا يتناسلون، ولا يتناكحون.

٨- الملائكة لا يأكلون، ولا يشربون:

وقد أخبر الله بذلك عن ضيف إبراهيم المكرمين، فقال تعالى: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ ٢٦ ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ ٢٧ ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بَعْلَكُمُ عَلِيمٌ ﴾ [الذاريات: ٢٦ - ٢٨]. وقال سبحانه: ﴿ فَلَمَّارَاءَ أَيْدِيهِمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لَّوِطٍ ﴾ [هود: ٧٠].

٩- الملائكة لا يتعبون، ولا يسأمون، ولا يفترنون:

الملائكة في طاعة ربهم يدأبون، ولا يملون، أو يتعبون، أو يفترنون، أو يضعفون. قال سبحانه: ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿ قَالِ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ [فصلت: ٣٨].

(١) أخرجه البخاري (٣٣٠٣)، ومسلم (٢٧٢٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٠- الملائكة يموتون:

وذلك لعموم قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].
ولقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

١١- الملائكة لا يحصيهم عددا إلا الله:

قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].
وفي الحديث: «هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يُصَلِّي فِيهِ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخَرَ مَا عَلَيْهِمْ»^(١).

خامساً: خُلِقَ الملائكة:

١- كرام مكرمون:

قال سبحانه: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٥ - ١٦]، وهم كذلك عباد مكرمون، قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

٢- لا يعصون الله، ولا يسأمون طاعته:

قال سبحانه: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].
وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨].

٣- خائفون من الله وجلون:

قال سبحانه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].
وقال تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤- الملائكة تتأذى مما يتأذى منه الآدميون:

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الْبَقْلَةِ، الثُّومِ - وَقَالَ مَرَّةً: مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ وَالثُّومَ وَالْكُرْثَ - فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا؛ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَى مِمَّا يَتَأَذَى مِنْهُ بَنُو آدَمَ»^(١).

سادساً: أعمال الملائكة:

الملائكة بحسب أعمالهم أقسام وأنواع، وقد تكاثرت أعمالهم في النصوص الشرعية، وتعددت علاقاتهم بالإنسان والكون، والدنيا والآخرة! حتى قال سبحانه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١]. وقد أُطلقت على الملائكة أسماء عامة، وأسماء بحسب أعمالهم، فمن ذلك:

- الأشهاد: قال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُادُ﴾ [غافر: ٥١].

- الملائكة الأعلى: قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ [الصافات: ٨].

- الجنود: قال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٢٦].

- الرسل: قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ [الحج: ٧٥].

- السفرة: قال تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾^(١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ [عبس: ١٥-١٦].

ولأهمية أعمال الملائكة أقسم الله تعالى بها، وافتتح بها بعض سور القرآن؛ كالمرسلات والنازعات والصافات، وفيما يلي إضاءات على بعض تلك المهمات:

١- السفارة بين الله ورسله:

إن النزول بالوحي، وإبلاغه للأنبياء من أعظم أعمال الملائكة وأشرفها،

(١) أخرجه البخاري (٨٥٤)، ومسلم (٥٦٤) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهو أشرف أعمال جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وله أعمال أخرى عظيمة، قال سبحانه:

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٦٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤].

وقال سبحانه: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ [النحل: ٢].

٢- حملة العرش:

وهم ثمانية من الملائكة، كما قال سبحانه: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ ﴾ [الحاقة: ١٧].

٣- خزنة الجنة:

وقد قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣]، ورأسهم رضوان كما روي في بعض الحديث، واشتهر عند العلماء.

٤- خزنة النار:

وهم تسعة عشر، قال الله تعالى: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر: ٣٠]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [المدثر: ٣١]، ورأسهم مالك.

وهم غلاظ شداد، كما قال تعالى: ﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ [التحريم: ٦].

٥- الموكل بالنفخ في الصور:

وهو إسرافيل على ما قاله بعض العلماء، وفي القرآن ذكر نفختين؛ الأولى يصعق بها الخلق، وبالثانية يبعثون!

قال سبحانه: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا

مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾ [الزمر: ٦٨].
وفي الحديث: «كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدْ التَّقَمَ الْقَرْنَ، وَاسْتَمَعَ
الْإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ، فَيَنْفُخُ...»^(١).

٦- الموكلون بالظواهر الكونية المختلفة:

فهم موكلون بأمر السماوات والأرض، وما بينهما من الجبال والأنهار
وغيرها، وما يجري فيهما على وفق أمر الله تعالى وإرادته.
ولهذا أقسم الله بهم، فقال: ﴿فَالْمُدْرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، وقال: ﴿فَالْمَقْسَمَاتِ
أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤].

وقد قص الله أعمالهم في مطلع سور: الصافات والمرسلات والنازعات،
ومنهم من بين الله بعض أعمالهم، كميكائيل الموكل بالمطر.

٧- الموكلون بتثبيت قلوب المؤمنين، والقتال معهم:

قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَنَبِّئُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا
سَأُلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ
كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

ولما رجع النبي ﷺ من الخندق، ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل
عليه السلام، فقال: «قد وضعت السلاح؟ والله ما وضعناه، فاخرج إليهم. قال:
فإلى أين؟. قال: ههنا، وأشار إلى بني قريظة، فخرج النبي ﷺ إليهم»^(٢).

٨- الموكلون بالاستغفار والدعاء للمؤمنين وموالاتهم:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ»

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٣١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٤١١٧) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧-٨﴾ [غافر: ٧-٨].

ومن ذلك: الدعاء لبعض المؤمنين على وجه الخصوص؛ كالعلماء والدعاة، ففي الحديث: «إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير»^(١). وكم تنتظري الصلاة في المسجد، قال رسول الله ﷺ: «لا يزال العبد في صلاة ما كان في مُصلاه ينتظر الصلاة، وتقول الملائكة: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، حتى ينصرف، أو يحدث»^(٢).

ومن ذلك: تأمينهم على دعاء المؤمنين، ففي الحديث: «ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك: ولك بمثل»^(٣).

وقد يدعون على المبتدعة والعصاة المفسدين من المسلمين: ففي الحديث: «المدينة حرم من غير إلى كذا، فمن أحدث فيها حدثاً، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً، ولا عدلاً»^(٤). وفي الحديث: «من أشار إلى أخيه بحديدة؛ فإن الملائكة تلعنه حتى يدعّه، وإن كان أخاه لأبيه وأمه»^(٥).

٩- تبشير المؤمنين بالجنة، والسلام عليهم عند الموت وفي الآخرة: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥) من حديث أبي أمامة الباهلي رَحِمَهُ اللهُ عَنهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٥)، ومسلم (٦٤٩) من حديث أبي هريرة رَحِمَهُ اللهُ عَنهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٣٢) من حديث أبي الدرداء رَحِمَهُ اللهُ عَنهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٧٣٠٠)، ومسلم (١٣٧٠) من حديث علي بن أبي طالب رَحِمَهُ اللهُ عَنهُ.

(٥) أخرجه مسلم (٢٦١٦) من حديث أبي هريرة رَحِمَهُ اللهُ عَنهُ.

الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾

نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴿فصلت: ٣٠-٣١﴾.

وقال سبحانه: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾

[الرعد: ٢٣-٢٤].

١٠- إهلاك الأمم المكذبة في الدنيا:

قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٢﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الذاريات: ٣١-٣٤].

سابعاً: الإيمان بالملائكة ومحبتهم وموالاتهم:

١- محبة الملائكة، وموالاتهم:

يستشعر المؤمنون وجود الملائكة في بيوتهم ومساجدهم، وفي حياتهم كلها، ويعلمون أنهم عباد الله الطائعون، وجند الله الصادقون، وأنهم يحبون المؤمنين وينصرونهم، ويستغفرون لهم ويحفظونهم، فيبادلونهم المحبة والموالاتة، ويحبون من أحبهم، ويعادون ويغضون من عاداهم أو أبغضهم.

وقد ادعى أقوام دعاوى كاذبة في الملائكة، فالمؤمنون يرفضونها، ويعادون أصحابها، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾﴾

[البقرة: ٩٧-٩٨].

٢- الاستحياء من الملائكة، واجتناب الأذى:

إذا كان مع المؤمن من لا يفارقه في عامة أحواله، فإنه يستحي من نظره إليه

على غير حال كاملة، ويحفظ لسانه من أن يقول في ملائكة الله ما لا يحل أو يليق، ويصون جوارحه من أعمال، أو أفعال قد تؤذي الملائكة، أو تسيء إليهم، فيتجنب الروائح الخبيثة، والأقذار، والأوساخ المادية، والذنوب والمعاصي كافة.

فيُنزّه المؤمن نفسه وبيته عن كل ما ينفر الملائكة، فلا يدخل تمثالا، ولا كلبا، ولا يصحب رفقة فيها جرس، كما يتجنب المؤمن أكل الثوم والبصل والكراث وشرب الدخان، والخمور، وسائر المنكرات.

٣- الاتئناس بالملائكة:

كما يأتنس المؤمن بإخوانه المؤمنين، فإنه إذا استشعر قرب الملائكة، وجميل أعمالهم في حق المؤمنين فإنه يأنس بهم - أيضًا -؛ ذلك أن الملائكة تنزل على القلوب المتوضئة، والأنفس المتطهرة بالأمن والطمأنينة تارة، وبالبشارة أخرى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾﴾ [فصلت: ٣٠-٣١].

وهذا في الحياة الدنيا قبل الآخرة، وفي سائر الأوقات قبل وقت الممات.

٤- التشبه بهم فيما يليق بالمؤمن:

الملائكة طائعون لا يعصون، فمن استطاع أن يتشبه بهم فليفعل، والملائكة عظيمو العبادة، فمن استطاع أن يتشبه بهم فليفعل، والملائكة

طبيون طاهرون، فمن استطاع أن يكون مثلهم فلا يتأخر، والملائكة يسعون لنفع المؤمنين بالدعاء والاستغفار، فمن استطاع أن يكون مثلهم فلا يترث.

ثامناً: آثار وثمرات الإيمان بالملائكة:

الإيمان بهذا العالم الغيبي الكريم يسكب في قلب المؤمن معاني عظيمة، ويزرع في نفسه أعمالاً وأخلاقاً حميدة، وفيما يلي شيء من تلك الآثار والثمرات القلبية والعملية:

١- تحصيل صحيح الإيمان:

عرف النبي ﷺ الإيمان فقال: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورأسله...»^(١)، فالإيمان بالملائكة ركن الإيمان، فمن جحد الملائكة، أو كفر بهم، كان خارجاً عن ملة الإسلام.

كما أن هناك اعتقادات منحرفة في الملائكة، فمن آمن بهم - على منهج أهل السنة - فقد آمن الانحرافات والخرافات والأوهام، فلم يعبد الملائكة كما فعل قوم، ولا يزعم: أنهم بنات الله كما فعل آخرون، ولا يعاديهم، أو ينسب إليهم ما لا يليق كما فعلت طوائف من أهل الكتاب، ولا ينكر وجودهم، أو يؤوله بأنهم عقول، أو قوى نفسية ونحو ذلك مما قالته الباطنية والفلسفية.

٢- زيادة الإيمان:

حين يتفكر مسلم في عظمة خلق الملائكة، وأعدادهم، وشديد قوتهم، وكبير قدرتهم على الفعل والتشكل، والمهمات التي أوكلها الله إليهم في السماء والأرض، والدنيا والآخرة - فإنه يزداد لله تعظيماً، ولقدره وقدرته

(١) أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تقديرًا، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١].

والملائكة مهما أوتوا من القوة والقدرة والعظمة فخالقهم منهم أعظم، وعليهم أقدر.

ومهما أوتي الملائكة من محاسن الأخلاق، وجميل الفعال فإن موجدهم هو اللطيف الودود، وهو الرؤوف الرحيم.

ولما كان الملائكة عالمًا غيبيا؛ فإن الإيمان بالغيب يزيد الإيمان، ويصلح الإنسان.

٣- تحصيل الأمن والاطمئنان:

إن الإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان، والإيمان هو سبب الأمان، وأصل الاطمئنان، قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، فمن حقق الإيمان صار أهلا للأمان في الدنيا والآخرة.

ومن آمن بأن الله تعالى جعل له من الملائكة حرسا يحفظونه، وحفظة يحرسونه، فقد تضاعفت أسباب الأمن والأمان لديه.

وأيّن هذا من المشركين الذين يخافون مما حولهم، فيلجؤون إلى السحرة تارة، وإلى الشياطين أخرى، يطلبون منهم الأمان! فلم يصلوا إلا إلى مزيد من الخوف والعناء.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

٤- القيام بعبودية الشكر:

من آمن بوجود الملائكة، وأن لهم في حياته أعمالا عظيمة، وأنه يعيش

في رعاية منهم، وأن منهم من يقوم على حفظه أينما توجه في بر أو بحر أو جو، فإنه يتجه إلى الله تعالى بالشكر على نعمائه، ويعمل على تسخير ما آتاه الله تعالى في طلب مرضاته.

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

٥- عدم استكثار العمل:

حين يقارن المؤمن العابد المجاهد والعالم العامل ما يقوم به من أعمال بما تقوم به الملائكة من أعمال - مع دوامها وانقطاعه، ونشاطها وكسله، واستكثارها من الصالحات وضعفه - فإنه - عندئذ - لا يستكثر عملاً يقوم به، بل يرى كل عمل دون الواجب، وكل جهد أقل من المطلوب، وكان بمنجاة من الاغترار بالعمل، أو الرضا عن النفس، وكان آمناً من حال من أخبر الله عنه بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ [النجم: ٣٣-٣٤].

٦- الاستقامة على منهج الله:

فمن آمن برقابة الملائكة، وإحصائها الأعمال، وتدوينها في الصحف، وعملها في الشهادة عليه في الآخرة، فإنه يمتلئ حياء منهم، وحرصاً على تبيض صحيفته في الآخرة، وسعياً في أداء الأمانة الشرعية للتكليف، وتباعدة من معصية الله، وحذراً من الفضيحة بين العباد!

قال سبحانه: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَلِّئُنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وهذا يقوي في العبد الإحساس بالمسئولية الدنيوية والأخروية عن أعماله.

٧- تقوية عقيدة الخوف والرجاء:

لقد أيدت الملائكةُ النبيين والمرسلين، ونصرت عباد الله المؤمنين، وثبتت قلوبهم في الحياة، وعند الممات، وهذا مما يقوي عقيدة الرجاء! كما أنها عاقبت الكفار والمنافقين والعصاة والمفسدين، وتولت حربهم في القتال تارة، وفي خذلانهم تارات! وكما هي ملائكة رحمة عند الموت لأهل الإيمان، فهي ملائكة عذاب لأهل الكفر والفسق والطغيان، وهي في الآخرة ملائكة تسوق الصالحين، وتستقبلهم في الجنة، أو هي ملائكة تسوق الكافرين وتستقبلهم في النار! فمن آمن بذلك تمت عنده عقيدة الخوف والرجاء، وعمل في هذه الحياة رغبة ورهبة.

٨- ثبات القلوب في ميدان الجهاد والمجاهدة:

يخوض أهل الإيمان معركة الصبر في هذه الحياة على شهوات تستعر، ونفوس لا تزدرج، وعلى القيام بالطاعات أبداً وعلى كل حال، وعلى أقذار مؤلمة، وأحداث مفاجئة من فقد القريب والنصير، والصديق والظهير. وحين تقع الابتلاءات كافة فلا بد من الثبات؛ سواء في ميدان الجهاد، أو المجاهدة. والملائكة من أعمالها: تثبيت قلوب المؤمنين، وتبشير قلوبهم بالنصير المبين، والمؤمن حين يتعرض لشيء من الشدة يستروح بما ينتظره من ملائكة الرحمن، قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفَلَاحِ مِنَ الْمَلَكَةِ مُرْدِفٍ ۝٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿[الأنفال: ٩ - ١٠]. وهذا يثمر ترغيباً في طلب الشهادة، وصبراً على ما يلقيه العبد في سبيلها.

٩- المسارعة إلى الطاعات، والتجافي عن السيئات:

وذلك أمر لا بد منه؛ فإن من آمن بوجود ملائكة الرحمن العابدين، المسارعين إلى مرضاة رب العالمين؛ فإنه يسعى ليتشبه بهم، ولا سيما في الطاعات المقدورة له، وينتهي عن المعاصي كافة، لا سيما تلك التي تتأذى منها الملائكة؛ كافتناء صور ذوات الأرواح وتعليقها، واقتناء الكلاب لغير حاجة مشروعة، ويحرص على أن يكون متنظفاً متطهراً بعيداً عن إيذاء الملائكة بريح، أو عمل، مُتصفاً بمحاسن الأخلاق والعادات، بعيداً عن سيئها وسفسافها، متعرضاً لطاعات تُصلي الملائكة على أصحابها؛ كتعليم الناس، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، والحرص على الصف الأول في الجماعة، وكثرة الصلاة على النبي ﷺ، وعيادة المرضى، داعياً للمؤمنين لينال المؤمن رتبة الخروج من الظلمات إلى النور.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].



الركن الثالث: الإيمان بالكتب



أنزل الله على عدد من أنبيائه ومرسله كتباً وصحفاً، وقد أمر المؤمنين بالإيمان بها كافة، في صورتها الإلهية المنزلة قبل التحريف، والتبديل، والنسخ. قال تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقد سمي الله بعضها بالصحف، وبعضها بالكتب، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿[الأعلى: ١٨ - ١٩]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ونعرض تفصيلاً لهذا في النقاط التالية:

أولاً: الكتب المذكورة في القرآن:

لقد ذكر الله تعالى من تلك الكتب المنزلة في القرآن خمسة كتب، ترتيبها بحسب نزولها كالتالي:

١- صحف إبراهيم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿[الأعلى: ١٨ - ١٩].

وفي الحديث: «أُنزِلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ»^(١).
ولم يبلغنا مما في صحف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ شيء خاص، وإنما بعض ما فيها من المعاني التي اتفقت عليها الرسالات.

٢- التوراة، وصحف موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

وهي الكتاب الذي أنزله الله تعالى على نبيه وكرمه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وألقاها الله ﷻ إليه مكتوبة في الألواح.

«وَقَدْ أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ لِسِتِ مَضِينَ مِنْ رَمَضَانَ»^(٢).

وقد ذكرت التوراة في القرآن بأسمائها وأوصافها، فورد اسم التوراة ثمان عشرة مرة، ووردت تسميتها بالكتاب والفرقان، كما قال تعالى:
﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣].

كما سُميت الذكر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

واختلف: هل (صحف موسى) هي اسم من أسماء التوراة، أو أنها كتاب مستقل؟

٣- الزبور:

الزبور اسم كتاب الله تعالى الذي أوحاه إلى داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد ذكر في القرآن الكريم في ثلاثة مواطن: ﴿وَعَاثَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣]، [الإسراء: ٥٥].

(١) أخرجه أحمد (١٦٩٨٤) من حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١٦٩٨٤) من حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وقد أنزل الزبور جملة واحدة «لثمان عشرة خلّت من رَمَضَانَ»^(١).
٤- الإنجيل:

هو اسم كتاب الله الذي أنزله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد ذكر الإنجيل في القرآن اثنتي عشرة مرة، «وَأَنْزَلَ الْإِنْجِيلُ لثَلَاثَ عَشْرَةَ مَضَتْ مِنْ رَمَضَانَ»^(٢).

وقد وُصف الإنجيل بأنه هدى ونور وموعظة، كما قال سبحانه: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

وقد وردت إشارة تدل على أن الإنجيل جاء مكملًا للتوراة، وناسخًا لبعض أحكامها، كما قال سبحانه - على لسان نبيه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ -: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

ثانيًا: حكم وأهمية الإيمان بالكتب السابقة:

الإيمان بالكتب هو الركن الثالث من أركان الإيمان، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿ [النساء: ١٣٦].

وقد قُدم الإيمان بالكتب على الإيمان بالرسل في الآية تنبيها وتنويعا ببقاء الكتب وأصالتها بعد موت الرسل الذين أنزلت عليهم، علاوة على أن بعض الأنبياء لم تكن لهم كتب، بل قد يكلف جم غفير من الأنبياء باتباع كتاب واحد، كما في التوراة المنزلة على نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَام، حيث كُلف أنبياء كثر باتباعها، قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

ولقد تضافرت أدلة القرآن والسنة والإجماع والعقل الصحيح على وجوب الإيمان بالكتب الإلهية، ومن تلك الأدلة:

١- الأمر بالإيمان بها:

قال تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وفي حديث جبريل المشهور: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورُسُله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»^(١).

وفي الحديث: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تُصدّقوهم، ولا تُكذّبوهم، وقولوا: آمنا بالله وكتبه ورُسُله...»^(٢).

(١) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٢٢٥)، وأبو داود (٣٦٤٤) من حديث أبي نملة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢- الإخبار بأن الإيمان بها صفة الرسول والمؤمنين والمتقين:

قال سبحانه: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

٣- الحكم بكفر من لم يؤمن بتلك الكتب:

قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

بل ورد الوعيد فيمن آمن ببعض الكتب دون بعض، قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

قال ابن بطة رحمه الله: «وكذلك وجب الإيمان والتصديق بجميع ما جاءت به الرسل من عند الله، وبجميع ما قال الله ﷻ، فلو أن رجلاً آمن بجميع ما جاءت به الرسل إلا شيئاً واحداً كان برد ذلك الشيء كافراً عند جميع العلماء»^(١).

فالمؤمن مأمور بالإيمان بما أنزل الله على رسله وأنبيائه كافة، وليس له أن يؤمن ببعضها، ويكفر ببعضها؛ إذ كل من عند الله تعالى، والتكذيب ببعضها تكذيب بها جميعاً، وتكذيب بخاتمها والمهيمن عليها، وهو القرآن الكريم.

(١) الشرح والإبانة = الإبانة الصغرى، لأبي عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَرِي المعروف بابن بطة العكبري، تحقيق: د. رضا نغسان معطي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية، ط ١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م (ص ٢٣٢-٢٣٣).

ثالثاً: الإيمان بكتب الله المنزلة إجمالي وتفصيلي:

فأما الإجمالي: فالاعتقاد بأن الله تعالى أنزل كتبه على أنبيائه ورسله، وأنها من عند الله تعالى، وأنها دعت جميعاً إلى توحيد الله، وكما اتفقت في أصول الإيمان، ومكارم الأخلاق، وكمالات الدين فقد اختلفت في شرائعها، وفي أحكام المكلفين، وخاتماتها جميعاً القرآن المحفوظ بحفظ الله، والناسخ المهيمن على كتب رسل الله، والإيمان بها ركن الإيمان، والكفر بها، أو ببعضها كفر بجميعها.

ويجب الإيمان إجمالاً بكل كتاب أنزله الله على رسله، علمه المكلف، أم لم يعلمه، ويجب احترامها، ويحرم سبها.

وأما التفصيلي: فالتصديق الجازم بما ورد ذكره في القرآن الكريم والسنة الصحيحة من الصحف والكتب المنزلة، وهي: صحف إبراهيم وموسى، والتوراة، والزبور، والإنجيل، والقرآن الكريم، وكل كلام الله.

ويجب الإيمان أن الموجود من تلك الكتب وقع فيه التحريف، ولم يُحفظ منها بحفظ الله إلا القرآن العظيم، وبالجملة: فالإيمان التفصيلي يتضمن الإجمالي، وما زاد عليه من التفصيل والتدليل.

رابعاً: من الأحكام العقدية المتعلقة بالكتب الإلهية:

١- اتفاق مصدرها، والمقصد من إنزالها:

الكتب الإلهية والرسالات الربانية مصدرها واحد، وهو الله، ومن تنزل بها واحد، وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَام، وهي يصدق بعضها بعضاً، قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣].

٢- كل كتاب ورسالة فهي خاصة إلا القرآن:

كل رسالة وكتاب أنزله الله تعالى فهو لقوم معينين، وكل رسالة وكتاب

تُنسخ بالتي تليها كليا أو جزئيا إلا القرآن، ورسالة النبي العدنان، فهي الرسالة الخاتمة، والكلمة الإلهية الأخيرة منذ بعثته ﷺ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال ﷺ: «... وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعْثُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً»^(١).

٣- الرسائل والكتب متفقة في الأصول مختلفة في الشرائع:

تتفق الكتب والرسالات في جانب، وتختلف في آخر، فأما المتفق فأصول العقيدة والإيمان، والخلوص من الشرك، وهذا هو الإسلام العام الذي بُعث به كل نبي ورسول.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقال جلّ وعلا: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وأما الجانب المختلف فهو شرائع الأحكام، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾ [المائدة: ٤٨].

وفي الحديث: «الأنبياء إخوة من علات، وأمهاتهم شتى»^(٢)، فأصل الدين واحد، وفروع الشرائع مختلفة من شريعة لأخرى، حتى استقرت الشرائع بشريعة نبينا محمد ﷺ التي ختمت ونسخت ما سبقها من شرائع.

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٤- تحريف الكتب السابقة على القرآن:

الكتب المنزلة إما مفقودة، أو محرفة اختلط فيها الحق بالباطل، حاشا القرآن الكريم.

ولقد استحفظ الله تعالى الأحرار والرهبان فلم يحفظوا، واستأنمهم فلم يؤتمنوا، فأضاعوا تلك الكتب بصورتها الصحيحة التي أنزلت عليها أول مرة، فلم يحفظوا، ولم يدونوا، وانطمست معالمها بما أحدثوه من التحريف والزيادة والنقصان، والإهمال والكتمان، ولي اللسان ليلبسوا على السامع اللفظ المنزل بغيره، والحق بالباطل!

وقد وقع فيها الخلل عند ترجمتها وشرحها، عمدا وخطأ، ولا يزال فيها كثير من الحق الثابت؛ كآية الرجم، وصفة النبي ﷺ، وغير ذلك مما يقطع بأنه من الحق، وعليه أمارات الوحي.

وقد حدث القرآن عن ذلك التحريف المتعمد، فقال سبحانه - عن اليهود -: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦]، وقال عنهم - أيضاً -: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

وقد ثبت في (الصحيحين): «أن اليهود جأؤوا إلى رسول الله ﷺ، فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَةِ فِي شَأْنِ الرِّجْمِ؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون، فقال عبد الله بن سلام: كذبتهم، إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها، وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم! فقالوا: صدق يا محمد، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما...»^(١).

(١) أخرجه البخاري (٣٦٣٥)، ومسلم (١٦٩٩) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

والنظر في التوراة وفيما أشار إليه القرآن يكشف عن وقوع ثلاثة أنواع من التحريف:

النوع الأول: تحريف المعنى مع بقاء اللفظ:

حيث حملوا تحريم الربا على تحريمه فيما بينهم، وتعاملوا به مع غيرهم. قال سبحانه: ﴿فَيُظْلَمُ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحْلَتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠-١٦١].

وقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

النوع الثاني: التغيير والإضافة:

فقد أضافوا إلى التوراة وإلى كتبهم افتراءات وأساطير لا حقيقة لها، كما قال الله تعالى - عنهم -: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَعْلُوفَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

النوع الثالث: التحريف بالكتمان:

فيكتمون أحكام الشريعة، ويكتمون خبر نبينا ﷺ في كتبهم، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مُمْنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقد تقدم كتمانهم لحد الرجم.

وأما الإنجيل فقد طاله من التحريف والتغيير أكثر مما طال التوراة! حيث إن النصارى تعرضوا للاضطهاد بعد رفع عيسى ابن مريم عليه السلام،

وكان هذا سببا في اختفاء الحواريين، وانقطاع تدوين الإنجيل، ثم كُتبت الأناجيل بعد رفع عيسى بمدة طويلة، وليس بيد النصارى إنجيل واحد، بل أناجيل كثيرة، وقد حُرِّم أكثرها، وحُكِم بتقديس أربعة منها عام (٣٢٥م)، وهي أناجيل: (متى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا).

ومن الأناجيل المحرمة: (إنجيل برنابا) تلميذ المسيح، الذي ينكر النصارى كثيراً مما فيه؛ لمصادمته لعقائدهم الباطلة التي آمنوا بها، وفيه ألوهية المسيح وصلبه، وبيانه: أن الذبيح هو إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَام، وتصريحه بنبوّة نبينا محمد ﷺ^(١).

وقد قال الله - في حق النصارى -: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَى أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٤].

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

وقد وُجِدَ بالتوراة والإنجيل من الإيحاءات الجنسية، والأساطير الوهمية، والأخطاء العلمية والتاريخية والجغرافية الصريحة - ما يكفي في بيان وقوع العبث بتلك الكتب، فضلا عن التناقضات والاختلافات الكثيرة بين الأناجيل الأربعة، وبين نسخ وترجمات وطبعات كل إنجيل منها!

٥- موقف المسلم مما ورد في الكتب السابقة:

بعد الجزم بوقوع التحريف في التوراة والإنجيل الموجودين الآن، ووجود بقايا من الوحي المنزل فيها؛ فإن موقف المسلم منها ينقسم إلى ثلاثة:

الموقف الأول: ما عُلِمَ بطلانه وتحريفه بكتاب الله تعالى، وسنة النبي ﷺ

(١) الإنجيل والصلب، لعبد الأحد داود (ص ١٥)، المسيح في مصادر العقائد المسيحية،

لأحمد عبد الوهاب (ص ٥٣ - ٧٣).

نحو: عقيدة التثليث، وإلهية عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ونحو ذلك، ونسبة القبائح والمنكرات لله تعالى ولأنبيائه، وما احتوت عليه من خرافات يقطع العقل والحس بطلانها، فذلك كله لا إيمان به، ولا احترام له، ولا يُذكر إلا مع الرد عليه، وبيان انحرافه وتحريفه.

الموقف الثاني: ما عُلم صحته وموافقه لما ثبت بالقرآن والسنة، من وحدانية الله تعالى، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، فذلك مما يُقبل ويُحكى، ولا يُعتمد عليه في إثبات معتقد؛ لانقطاع أسانيد تلك الكتب.

الموقف الثالث: ما لم تُعلم صحته، ولا بطلانه، ولم يتعرض له القرآن، أو السنة، فهذا لا يملك المسلم أن يكذبه، ولا يطمئن إلى تصديقه؛ لاحتمال الكذب فيه، وقد قال النبي ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ، وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ﴾ ... الآية [البقرة: ١٣٦]»^(١).

واختلف في نقل ذلك وروايته، فذهبت طائفة إلى جواز حكاية ما لا تعلق له بالأحكام، كتفاصيل قصص الأنبياء ونحوها، مما أهتمه القرآن الكريم، لكنه يُحكى لا على وجه الإيمان به، ولا تكذيبه^(٢).

ومع هذا الاختلاط الحاصل في تلك الكتب فلا يجوز سبها جملة، أو إطلاق القول بدمها، وهذا لا يتنافى - أيضًا - مع تحريم العمل بها؛ لكونها منسوخة الشريعة بالقرآن الكريم، ومن عمل بها مع علمه بنسخها، وتبديل شريعته، فهو كافر^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٤٤٨٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) مجموع الفتاوى (٣٦٦/١٣)، تفسير ابن كثير (٥/١).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٠٠/٣٥).

وأخيراً: فلا يجوز الاطلاع على تلك الكتب، أو القراءة فيها؛ لورود النهي عن ذلك، فقد غضب النبي ﷺ لما رأى بيد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قطعة من بعض كتب أهل الكتاب، فقال: «أَمْتَهُوْكُمْ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةٍ، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقِّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا، مَا وَسَعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي»^(١).

وهذا النهي لما في الاطلاع عليها من ضرر في الدين، ووقوع الشبهات في نفس مُطالعها، أما من كان مُتضلعا من علوم الكتاب والسنة، مع فطنة وذكاء، فله مطالعتها لمناظرة أهلها، وبيان ما وقع فيها من خطأ وانحراف وتحريف^(٢).

خامساً: ثمرات الإيمان بالكتب السابقة:

للإيمان بالكتب الإلهية السابقة فوائد قلبية، وأخرى عملية، فمن تلك الثمرات ما يلي:

١- زيادة الإيمان بالله تعالى وأسمائه وصفاته العلا:

فكما أنه سبحانه خلق الخلق لعبادته، فهو لم يتركهم هملاً، بل جعل لكل أمة كتاباً ورسولاً يهديهم به إلى صراط مستقيم.

وهذا يدل على تمام رحمته سبحانه، وعنايته بعباده، قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

(١) أخرجه أحمد (١٥١٥٦) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) فتح الباري (١٣/٥٢٥)، كشف القناع، للبهوتي (١/٤٣٤).

٢- ظهور البرهان على أن العقل البشري كان - وما يزال - عاجزاً عن إدراك كيفية عبادة الله وحده:

ومن ثم تحصيل أحكام الله تعالى في أمره ونهيه، وما يُصلح الخلق ويُفسدهم على جهة التمام، وأن الضرورة إلى الرسالات والرسول، وما أنزل الله إليهم من الكتب - قائمة في كل زمان ومكان.

٣- التحقق من حكمة التشريع الإلهي المتدرج عبر شرائع الرسل المنزلة في الكتب الإلهية حتى خاتمها وناسخها: القرآن الكريم:

فقد جعل الله تعالى لكل أمة ما يناسبها حتى بلغت البشرية تمامها، فأنزل الله مسك الختام: القرآن الكريم.

٤- تقرير عقيدة: (إن الدين عند الله الإسلام):

وهو الذي أنزله على جميع أنبيائه من التوحيد والإيمان، ثم تقرير أن الدين الخاتم والشرعة الناسخة هي الإسلام الذي أنزله الله تعالى على خير الأنام نبينا محمد ﷺ.

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فيجب استشعار هذه النعمة العظيمة، وهي الإسلام.

٥- التوجه إلى الله تعالى بشكر نعمة إنزال الكتب:

والتي بها هداية الخلق إلى الحق في كل زمان ومكان، وتحقيق تلك النعمة بمقارنة ما عليه أهل الإيمان بالمبطلين والمنحرفين من كل ملة ودين!



الإيمان بالقرآن الكريم



أولاً: معنى الإيمان بالقرآن الكريم، وما يتضمنه:

الإيمان بالقرآن الكريم هو اعتقاد أنه كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين على قلب نبينا محمد ﷺ ليكون من المنذرين، بلسان عربي مبين، وهو خاتمة الكتب الإلهية، والمهيمن عليها، أنزله الله تعالى على الحوادث مفرقا في نحو من ثلاث وعشرين سنة، سورا محكمات، وآيات بينات، منه محكم ومتشابه، وفيه ناسخ ومنسوخ، وخاص وعام، وأمر ونهي، ووعد ووعد، منزل من الله غير مخلوق، منه بدأ، وإليه يعود.

وهو المعجزة الخالدة لنبينا ﷺ، تكفل الله بحفظه في الصدور، وهو محفوظ - أيضاً - في السطور، ومنقول بالتواتر كله، معجز للجن والإنس، ومُتَعَبَد بتلاوته.

له خصائص تُميزه في لفظه ونظمه، وأسلوبه ووقعه، يجمع بين جودة السبك، وإحكام السرد، ووجازة اللفظ، ووفاء المعنى، تتعدد فيه الأساليب، وتكثر معها المعاني، يُرضي العقل، ويخاطب الوجدان، معارفه لا تنقضي، وعجائبه لا تنتهي، وأمارات صدقه لا تنحصر، يخبر بالغيوب الماضية والآتية، ويؤثر في النفوس، ويشفي الأبدان، فهو آية الدهر، وشعار الفخر، يعلو ولا يُعلَى!

أسماءه شريفة، وأوصافه منيفة، ذكر منها في القرآن نحو من خمسين

اسما ووصفا، فهو القرآن والفرقان، وهو الهدى والنور، وهو الكتاب والذكر، وهو الوحي والتنزيل، وهو الشفاء والموعظة، وهو النبأ العظيم. أما أوصافه: فهو كتاب عزيز حكيم، كريم مجيد، لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، حق وبرهان، وصدق وبيان، وأحسن الحديث، وبلاغ للعالمين.

ومن لم يؤمن بالقرآن، أو جحد شيئا منه بعد ثبوته، أو قال بتفضيل غيره عليه، أو قال بتحريفه، أو استخف بالمصحف أو أهانه فقد أتى الكفر المجمع عليه.

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «والأفعال الموجبة للكفر هي التي تصدر عن تعمد واستهزاء بالدين صريح؛ كالقاء المصحف في القاذورات»^(١). وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وقد اتفق المسلمون على أن من استخف بالمصحف؛ مثل أن يلقيه في الحُش، أو يركضه برجله إهانة له - أنه كافر مباح الدم»^(٢).

ثانياً: تنزلات القرآن الكريم:

لقد شرف الله القرآن العظيم بأن جعل له عدة تنزلات:

التنزل الأول: التنزل في اللوح المحفوظ:

قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ۝ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١ - ٢٢].

(١) روضة الطالبين، لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت - دمشق - عمان، ط ٣، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م (١٠/٦٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٨/٤٢٥).

فالقرآن كتبه الله في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض، وأجمع الصحابة والتابعون على ذلك^(١).

التنزل الثاني: التنزل من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا جملة واحدة:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أنزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر إلى السماء الدنيا»^(٢).

التنزل الثالث: تنزل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالقرآن على نبينا ﷺ مفرقا على حسب الوقائع والأحداث:

وأول مكان في الأرض تشرف بنزول القرآن هو غار حراء بمكة المكرمة، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤].

والاتفاق حاصل على أن أول آيات أنزلت من القرآن هي الخمس الأول من سورة العلق، على ما أخرجه الشيخان^(٣)، وذلك في ليلة القدر من رمضان. وأما آخر ما نزل فقليل: إنه قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقد قال بعض الصحابة: إن النبي ﷺ عاش بعدها تسع ليال. وقيل: بل واحدا وثمانين يوما^(٤). وقيل: آية الدين من سورة البقرة.

(١) شفاء العليل، لابن القيم (٤١) بتصرف.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٦٢٥).

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٥٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٧٤)، الإتيقان في علوم القرآن (١/ ١٠٢).

وقيل: قوله تعالى من سورة المائدة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].
وأما آخر السور نزولا بتمامها: فهي سورة النصر.

التنزل الرابع: التنزل السنوي:

وهو نزول ما قدر الله نزوله في العام في ليلة القدر جملة إلى السفرة الكتبة من الملائكة، وهذا المعنى موافق لما تقرر من أن الله يقدر في ليلة القدر مقادير السنة الآتية، وينزلها إلى الكتبة من الملائكة^(١).

ثالثاً: حقوق القرآن:

جاء الوحي في حق القرآن بأوامر عظيمة، وحقوق واجبة، وآداب مهمة، لا يسع مسلماً أن يجهلها، أو يخل بها.

وقد أخبر النبي ﷺ: أن الدين النصيحة، وذكر منها: النصيحة لكتاب الله تعالى^(٢)، ومعنى النصيحة لكتاب الله: «شدة حبه، وتعظيم قدره - إذ هو كلام الخالق - وشدة الرغبة في فهمه، وشدة العناية لتدبره، والوقوف عند تلاوته لطلب معاني ما أحب مولاه أن يفهمه عنه، ويقوم له به بعدما يفهمه»^(٣).

وفيما يلي طرف من حقوق القرآن، والواجب نحوه:

١- الإيمان بالقرآن:

أول ما يجب نحو القرآن: الإيمان به، كما أمر الله تعالى ورسوله.

(١) تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ٥٠٣)، المحرر (ص ٧٥-٧٦).

(٢) أخرجه مسلم (٥٥) من حديث تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) جامع العلوم والحكم، لابن رجب (١/ ٢٣١).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ءَ﴾ [النساء: ١٣٦]، وقد سبق التفصيل في هذا الحق.

٢- تعظيم القرآن وإجلاله ومحبته:

القرآن كلام الله بألفاظه ومعانيه، وتعظيم القرآن إنما هو تعظيم لصفة الله العظيم، وحُقَّ لكلام الملك سبحانه الذي أنزله على خير الخلق ﷺ بواسطة كبير ملائكة الله ومعظمهم - أن تهتز له القلوب جلاله ومهابه، وتتحرك له شوقا ومحبة.

قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ نَبَوُّ عَظِيمٌ﴾ [ص: ٦٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾  عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿ [النبا: ١-٢].

ومن مظاهر تعظيم القرآن وإجلاله ومحبته: صيانة المصحف، وإكرامها، والتطهر عند مسها، والتزام رسمها المنقول بالتواتر من لدن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. ومنها: حفظ آياته من الامتهان بأي شكل كان، وصيانتها عن إدخاله فيما لا يليق من المزاح، أو استخدام عباراته وجمله فيما لا يليق، وحُسن التهيؤ لمجالس القرآن، وكمال الأدب بحضرتها.

٣- تلاوته وحفظه وتعاهده:

أمر الله تعالى بتلاوة القرآن وترتيله، فقال سبحانه: ﴿وَرِثِلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]، وأثنى الله ﷻ على من يتلون القرآن حق تلاوته فهما وتدبرا، وعملا واعتصاما، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ءَ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ءَ﴾ [البقرة: ١٢١].

كما أثنى سبحانه على حَفَظَتِهِ، فقال: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَاتٌ يَبَيِّنُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وأوصى النبي ﷺ بتعاهد القرآن ومراجعتها، فقال: «تَعَاهِدُوا هَذَا الْقُرْآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَهُوَ أَشَدُّ ثَقَلًا مِنَ الْإِبْلِ فِي عُقْلِهَا»^(١).

٤- تدبر آياته بالعمل بعد الفهم:

وقد حث الله تعالى على تدبر القرآن، وأنكر على من لا يتدبره، فقال سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْرًا عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤].

والتدبر سماع القلب بعد سماع الأذن، وانتفاع الجوارح بالعلم بعد السماع والتعقل، قال جل وعلا: ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤].

٥- تعلمه وتعليمه:

وهذا من أعظم وظائف النبي ﷺ في أمته، وهو من أعظم منن الله على الأمة، قال سبحانه: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وفي الحديث: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»^(٢)، فالمسلم إما طالب لعلم كتاب الله - قراءة وفهما وتدبرا - أو معلم لذلك كله.

٦- العمل به واتباعه:

أنزل الله القرآن للعمل والاتباع والهداية، قال تعالى: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

(١) أخرجه البخاري (٥٠٣٣)، ومسلم (٧٩١) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٢٧) من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولقد ضرب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَوْضَحَ الأمثلة في اتباع القرآن، فعندما أمروا باستقبال الكعبة استداروا إليها في الصلاة، وعندما أمرت النساء بالحجاب ابتدرنه من فورهن، ولما نزل تحريم الخمر أريق في الحال؛ استجابة لأمر الله تعالى.

٧- التحاكم إليه وتحكيمه:

أنزل الله القرآن الكريم ليحكم بين الناس، وليتحاكموا إليه، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]. ومن لم يرضَ بحكم الله تعالى في كتابه فقد رضي بحكم الجاهلية، قال سبحانه: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

٨- التزام الأدب مع القرآن:

من حق القرآن على مَنْ آمَنَ به: أن يتأدب معه، فيتخلى عن جملة أمور، منها: موانع الفهم والانتفاع، فيترك الذنوب، ويتوب منها، ويترك التعصب لغير الحق، وينزه قلبه عن عشق الدنيا، وشدة التعلق بها، ويترك الكبر والعجب والغرور، ويحرك قلبه بالقرآن تأثراً وانتفاعاً.

ثم ليحذر من هجر القرآن والبعد عنه، فهَجَرُ القرآن محرم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

وهَجَرُ القرآن يشمل: هَجَرَ تلاوته، وهَجَرَ سماعه، وهَجَرَ تدبر معانيه،

وهجر حفظه ومراجعتها، وهجر الاستشفاء به، وهجر العمل به والتزام أحكامه.

٩- الدعوة إليه وتبليغه:

إن مهمة الرسول ﷺ وورثته من بعده هي: بلاغ القرآن، قال تعالى:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

فالدعوة إلى القرآن هي دعوة إلى الله، وتبليغ القرآن اقتداء برسول الله

ﷺ، والله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا

اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].



الركن الرابع: الإيمان بالرسل والرسالات



الإيمان بالرسل ركن الإيمان، والحاجة إليه ماسة، والانتفاع به عام، فهو أساس من أسس النجاة والفلاح في هذه الحياة، وأهل الإسلام إيمانهم بالرسل كافة، فهم بهذا الركن منفردون، وبتحقيقه على وجهه متصفون، وهم لأجل هذا أولى الناس بأنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، وسنعرض تفصيلاً لهذا الركن في النقاط التالية:

أولاً: معنى النبوة والرسالة:

النبوة شرعا هي واسطة وسفارة بين الخالق والخلق في تبليغ خبره، وبيان شرعه، وأمره ونهيه، القائم بأمرها أفضل الخلق وأكرمهم على الله تعالى، وهي اختصاص واصطفاء رباني.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «النبوة خطاب سمعي بوحى يوحىه المَلَكُ إلى النبي عن الرب تعالى»^(١).

والنبي هو: من أُوحي إليه، وُبُعْث في قوم مؤمنين محكومين بشريعة سابقة عليه، وقد أُمِر بتجديدها وإحيائها.

وعليه؛ فالنبي الذي أُوحي إليه مأمور بالبلاغ في قومه، وتجديد عهدهم بالرسالة السابقة فيهم.

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٧٥٩).

وقد قال تعالى - في بيان إرسال الأنبياء وبعثهم إلى أقوامهم -: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ [الحج: ٥٢]، فالنبي مرسل، كما أن الرسول مرسل.

والرسول هو من يتحمل الرسالة، ويبلغها، ويؤدي أمانتها، وقد قيل: إن الرسول هو النبي اصطلاحاً، والراجح: الفرق بينهما. فالرسول هو: من أُوحي إليه بشرع، وأمر بالبلاغ لقوم مكذبين، أو مخالفين. وبناء عليه: فالرسول أعلى منزلة من النبي؛ لما تتضمنه رسالته من معالجة المكذبين، ولما تتضمنه - أيضاً - من الشرع الجديد، أو تكميل شرع سابق، فالرسول قد يتدئ، أو يكمل الشرع، والنبي مجدد في شرع الرسول. والعلاقة بين الرسول والنبي هي العموم والخصوص المطلق؛ إذ كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا.

وما سبق يقتضي: أن يكون آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ نبياً، وليس رسولا، وأن يكون نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أول الرسل؛ لبعثته في قوم مكذبين. وأن يكون إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ رسولا، وإن لم يختص بكتاب مستقل، قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٥٤]. وأن يكون يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ رسولا، مع أنه كان على شريعة أبيه يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولم يكن له كتاب خاص، قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ [غافر: ٣٤].

ثانياً: معنى الوحي وطرائقه:

الوحي في اللغة هو: الإعلام الخفي السريع، مهما اختلفت أسبابه. قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص: ٧].

وقد سمى الله تعالى ما يلقيه إلى أنبيائه ورسله: وحياً^(١)، قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

فالوحي في عرف الشريعة: إعلام الله تعالى لأنبيائه بما شاء من أحكامه وأخباره^(٢).

وللوحي طرائق معلومة ومذكورة في كتاب الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ [الشورى: ٥١]، وهذا بيان لطرق الوحي:

الطريقة الأولى: الإلقاء في الروح:

بحيث لا يشك النبي أن هذا الذي أُلقي في رُوعه ونفسه - إنما هو وحي من الله، وقد قال النبي ﷺ: «إِنْ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي: أَنْ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا؛ فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَأَجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ»^(٣).

الطريقة الثانية: الرؤيا المنامية للنبي:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبُكُ﴾ [الصفافات: ١٠٢]، وقد عد بعض العلماء الإلقاء في الروح هو هذه الرؤيا

(١) المصباح المنير، لأحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس، المكتبة العلمية - بيروت (٢/ ٦٥١ - ٦٥٢).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، حققه وعلّق عليه وقدم له: محيي الدين ديب مستو - أحمد محمد السيد - يوسف علي بدوي - محمود إبراهيم بزال، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، دار الكلم الطيب، دمشق - بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م (١/ ٣٧٤).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢١٤٤)، والحاكم (٢١٣٥) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المنامية، فيكونان طريقة واحدة.

الطريقة الثالثة: تكليم الله لنبيه من وراء حجاب:

وقد ثبت هذا في حق آدم وموسى ومحمد ﷺ، قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

الطريقة الرابعة: الوحي بواسطة الملك:

وهذا المقصود بقوله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى: ٥١].

ووحي القرآن كله عن طريق الملك جبريل عليه السلام، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (١١٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿[الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤].

ولنزول الملك بالوحي ثلاثة أحوال:

الأول: أن يأتي الملك فيتصل بالرسول ﷺ، فيكون له صوت كصلصلة الجرس، ثم يذهب عنه وقد وعى عنه الرسول ما قال، وهذا أشد الأحوال.
الثاني: أن يراه الرسول في صورة رجل يكلمه ويخاطبه، فيعي عنه كلامه، وهذا أخف الأحوال.

الثالث: أن يراه الرسول ﷺ في صورته التي خلقه الله عليها، وقد حدث هذا لنبينا ﷺ مرتين.

ثالثاً: حكم الإيمان بالرسل والرسالات:

إن الإيمان بالرسل من أعظم أركان الإيمان؛ لأن إثبات النبوة والرسالة هو أصل الدين وأسه، وكل ما ثبت من الدين فهو فرع عن إثبات الرسالة، فإذا لم تثبت الرسالة لم يثبت الكتاب المنزل، ولم يثبت في الإسلام شيء من العقائد والأحكام.

وقد تواترت النصوص من القرآن والسنة، وتتابع في وجوب الإيمان

بالرسل والرسالات، وذلك من أعظم أصول الدين والإيمان.

فجاء الأمر بالإيمان بهم، وبما أنزل إليهم من ربهم، فقال سبحانه: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

وجاء الأمر بالافتداء والاهتداء بهم، فقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وورد الشفاء على المؤمنين بهم، قال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١].

كما ورد ذم وتكفير من كفر ببعض الرسل، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].
 ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].
 فمن كفر بواحد من أنبياء الله الذين ذكروا في الكتاب العزيز، أو أجمع على نبوتهم فقد كفر بالله تعالى.

رابعاً: حاجة البشرية إلى الرسل والرسالات:

اتفقت كلمة العلماء والعقلاء على أن الحاجة ضرورية للرسل والرسالات من وجوه عديدة:

فهي ضرورة دنيوية:

لما خلق الله الإنسان جاهلاً ضعيفاً، ظلوماً هلوفاً، جزوعاً منوعاً، فقد احتاج إلى ما يعلمه ويقويه، وينصره ويهديه، وما ذاك إلا حين ترتبط

الأرض بالسماء، وحين يتصل الخلق بالخالق عن طريق الوحي.
قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿[سورة العصر].

ذلك أن المنهج الديني الصالح المصلح للإنسان لا يتمكن من وضعه إلا من عرف حقيقة الإنسان، وأحاط بماضيه وحاضره ومستقبله، والإنسان لا يزعم شيئاً من ذلك!

ثم ينبغي ألا يتحيز هذا المنهج لبعض الإنسان في بعض الزمان، أو المكان، ولا يتأثر بيئة أو فكر محدود، فيضع من الشرائع ما يناسب بعض الناس دون بعض، وهذا التجرد التام لا يدخل تحت قدرة الإنسان.

فاقتضت الضرورة استمداد منهج الإنسان في الحياة من لدن اللطيف الخبير، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيفُ الخبيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وأما الضرورة الأخروية:

فالإنسان مخلوق من قبضة الطين التي نُفخ فيها من الروح، فلئن كانت حاجة الجسد إلى ما يحفظه في الدنيا وبقيمه على منهج الفلاح ماسة؛ فإن حاجة الروح إلى هذا المنهج أشد، فما حياة الروح إلا بالوحي والنور الهادي.
قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

على أن من لطف الله: أنه لا يحاسب خلقه إلا بعد إقامة الحجة بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وذلك حتى لا يبقى لأحد عذر عند الله، قال سبحانه: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

وفي بيان الحاجة إلى الرسالة قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ومن ههنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر؛ فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح - لا في الدنيا ولا في الآخرة - إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا يُنال رضا الله ألبتة إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاءوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأى ضرورة وحاجة فرضت، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير...

وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ فيجب على كل من نصح نفسه وأحب نجاتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقل ومستكثر ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم»^(١).

وأخيراً: فإن الحاجة إلى الرسل هي الحاجة إلى القدوة البشرية الصالحة، والأنبياء هم القدوات للبشرية بأسرها، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط ٢٧، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م (١/١٥).

هَدَى اللَّهُ فِيهِدَهُمْ أَقْتَدَهُ ﴿ [الأنعام: ٩٠].

والخلاصة: أن كل من آمن بالله تعالى وصفاته يعلم يقينا ضرورة إرسال الرسل وإنزال الكتب.

قال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجَعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعِلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿ [الأنعام: ٩١].

خامساً: الإيمان بالرسل، وما يتضمنه:

الإيمان بالرسل والرسالات إجمالي وتفصيلي:

أما الإيمان الإجمالي: فيتضمن ما يلي:

١- الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى قد اصطفى من عباده أنبياء ورسلا، جعلهم واسطة بينه وبين خلقه، فأدوا رسالته وحفظوا أمانته، ونصحوا وأقاموا حجته.

٢- الاعتقاد بأن الأنبياء أفضل الخلق وصفوة البشر، وأنهم قد قاموا برسالتهم، وأدوا أمانتهم، وبلغوا البلاغ المبين.

٣- اعتقاد أنهم جميعاً دعوا إلى الإسلام العام، وهو توحيد الله وعبادته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴿ [النحل: ٣٦].

مع التصديق باختلافهم في فروع الشريعة والأحكام بحسب الشرائع التي أنزلت إليهم، وقد قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴿ [المائدة: ٤٨].

وفي الحديث: «الأنبياءُ إخوةٌ لعلات؛ أمهاتهم شتى، ودينهم واحد»^(١).
 ٤- عدم التفريق بينهم في الإيمان، والشهادة لهم بالنبوة، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿النساء: ١٥٠-١٥١﴾.

ولا يتنافى هذا مع اعتقاد تفاضلهم في المنزلة عند الله تعالى، فالذي فضل بعضهم على بعض هو الله تعالى وحده، قال تعالى: ﴿تِلْكَ أَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٣].
 وأفضل الرسل: أولو العزم، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنْ أَرْسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، عليهم الصلاة والسلام، وأفضلهم نبينا محمد ﷺ، وهو خاتمهم.
 وفي الحديث: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ»^(٢).

وأما الإيمان التفصيلي، فيتضمن:

الإيمان التفصيلي بمن بلغنا ذكرهم في القرآن الكريم والسنة الثابتة، والإيمان بما ورد من أخبارهم وأحوالهم وكتبهم، والإيمان بما أيدهم الله به من الآيات والمعجزات، والدلائل البينات على صدق نبوتهم ورسالتهم.
 وعدة من ورد في القرآن ذكره من الأنبياء: خمسة وعشرون، أما عامة الرسل والأنبياء فهم جم غفير، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نَذِيرٌ ﴿ فاطر: ٢٤ ﴾.

والمذكورون في القرآن الكريم هم:

- ١- آدم. ٢- نوح. ٣- إبراهيم. ٤- هود. ٥- صالح.
- ٦- شعيب. ٧- إسماعيل. ٨- إدريس. ٩- ذو الكفل. ١٠- إسحاق.
- ١١- يعقوب. ١٢- داود. ١٣- سليمان. ١٤- أيوب. ١٥- يوسف.
- ١٦- موسى. ١٧- هارون. ١٨- زكريا. ١٩- يحيى. ٢٠- عيسى.
- ٢١- إلياس. ٢٢- اليسع. ٢٣- يونس. ٢٤- لوط. ٢٥- محمد.

واختلف في الخضر ولقمان وذي القرنين وتبع، هل هم أنبياء، أم لا؟
وقد ذكر في السنة غير هؤلاء، منهم: يوشع بن نون، ورويت أخبار عن
بني إسرائيل بتسمية بعض الأنبياء، فلا يُصدقون ولا يُكذبون.

وقد جاء ذكر ثمانية عشر من هؤلاء الأنبياء في آيات متتابعة من سورة
الأنعام، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ
مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا
هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ
وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ
مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى
الْعَالَمِينَ ﴿ الأنعام: ٨٣-٨٦ ﴾.

وجاء ذكر السبعة الباقين في مواضع من القرآن متفرقة.

ونبينا ﷺ هو خاتم النبيين الذي كانت بعثته غلقا لباب النبوة إلى يوم
القيامة، فلا نبي معه ولا بعده، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنْ
رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴿ الأحزاب: ٤٠ ﴾.

سادساً: خصائص وصفات الأنبياء والمرسلين:

إن الرسل هم الصفوة من الخلق، وهم كبار الدعاة إلى الحق، ولهم صفات وخصائص، من أهمها:

١- البشرية والعبودية:

وذلك لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: ١١]، يأكلون، ويشربون، وينامون، ويتناكحون، ويموتون، فليسوا من الألوهية في شيء، بل هم عباد الله مخلصون، ومن خشيته مشفقون.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «والأنبياء يجوز عليهم المرض، والجوع، والنسيان، ونحو ذلك بالإجماع»^(١)، وذلك بحكم البشرية التي خلقوا عليها.

ولكنهم - مع اشتغالهم بأعمال البشر - في أعلى مراتب العبودية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، وقال سبحانه: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١].

٢- الذكورة:

وذلك لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء: ٧].
 وذهب بعض أهل العلم إلى أن الرسالة للرجال، أما النبوة فتشركهم فيها النساء، محتجين بوحى الله لبعضهن كأم موسى، وبكمال مريم وامرأة فرعون!

(١) الرد على البكري، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحرافي الحنبلي الدمشقي، تحقيق: محمد علي عجال، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، ط ١، ١٤١٧هـ (١/٣٠٦).

وهذا لا يُسلم لهم؛ لأن طائفة من أهل العلم لم يفرقوا بين الرسول والنبي، أما الوحي الذي ذكر لبعض النساء، فليس كل من خاطبته الملائكة نبيا، وقد وقع هذا لغير الأنبياء باتفاق.

والكمال لا يلزم منه النبوة، وإلا فقد كمل من الرجال كثير، ولم يدع أحد منهم النبوة، كما أن فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سيدة نساء أهل الجنة، وليست نبية باتفاق، فلو كانت آسية أو مريم نبيتين لكانتا أفضل من فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا^(١).

٣- الحرية:

الرق وصف نقص لا يليق بمقام الأنبياء، وهو سبب للطعن في النبي؛ ولهذا لم يكن من الأنبياء أرقاء، أما عبودية يوسف عَلَيْهِ السَّلَام فكانت مظلمة وابتلاء مؤقتا، أصبح من بعدها سيدا مطاعا^(٢).

٤- النسب الكريم:

جميع الرسل ذوو أنساب شريفة، وأصول كريمة، فالرسل من بعد نوح وإبراهيم من ذريتهما، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦]، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣].

وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ كَنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَىٰ قُرَيْشًا مِنْ كَنَانَةَ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ قُرَيْشِ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»^(٣).

(١) الرسل والرسالات، لعمر الأشقر، دار النفائس، الأردن، ط ٤، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م (ص ٨٦-٨٩).

(٢) لوايح الأنوار البهية، للسفاريني (٢/٢٥٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٧٦) من حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥- كمال الأخلاق:

جرى الثناء عاطرا على أخلاق أنبياء الله ورسله في الذكر الحكيم:
 - فيوصفون بالصدق في قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦].
 - ويوصفون بالأمانة في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الدخان: ١٨]
 على لسان ستة من أنبياء الله ورسله، كنوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب،
 وموسى.

- ويوصفون بأنواع المكارم والكمالات، قال سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

٦- الحكمة وقوة الحجة:

الحكمة صفة مطردة في أنبياء الله ومرسله؛ إذ هم أحرى الخلق بفعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي.
 وقد قال سبحانه- في حق داود عَلَيْهِ السَّلَامُ -: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠].

وأما قوة حجتهم فقد قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].
 والإسلام يعلو بحجته، ولا يعلو أبدا، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

٧- كمال الخلقة البشرية:

فليس في الأنبياء ذو عيب منفر عن اتباعه، بل كلهم ذوو خلقه تامة، وحسن ظاهر، مع تفاوتهم في صفة خلقتهم الشريفة، وقد وصف النبي ﷺ عددا من أنبياء الله، وشبههم بمن يعرفه أصحابه.

فشبه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بنفسه الشريفة^(١)، ووصف نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وشبهه برجال أزد شنوءة^(٢)... إلى غير ذلك.

ثم إن الصحابة وصفوا نبيهم ﷺ وصفا مفصلا، جمع بين الجلال والجمال والكمال^(٣)، فصار أنبياء الله تعالى متربعين على عرش جمال الخلقة والخلق على حد سواء.

٨- عصمة الأنبياء:

تتنوع عبارات أهل العلم في تعريف العصمة وبيانها، ومن ذلك: «حفظ الله لأنبيائه فيما يبلغون عنه، ومن الذنوب والمعاصي، وعدم إقرارهم عليها»^(٤).

أو هي: «لطف من الله تعالى، يحمل النبي على فعل الخير، ويزجره عن الشر، مع بقاء الاختيار؛ تحقيقا للابتلاء والامتحان»^(٥).

وفيما يلي شيء من التفصيل في عصمة الأنبياء:

(١) الأنبياء معصومون فيما يبلغون عن الله تعالى من الوحي بالإجماع:

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله سبحانه باتفاق الأمة؛ ولهذا وجب الإيمان بكل ما أوتوه، وهذه العصمة الثابتة للأنبياء هي التي يحصل بها مقصود النبوة

(١) أخرجه البخاري (٥٩١٣) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٥١)، ومسلم (٢٣٣٧) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) النبوات، لابن تيمية (٧٨٤/٢)، مجموع الفتاوى (٣١٩/٤).

(٥) نسيم الرياض في شرح الشفا، للخفاجي (٣٩/٤).

والرسالة، والعصمة فيما يبلغونه عن الله ثابتة؛ فلا يستقر في ذلك خطأ باتفاق المسلمين»^(١).

فلا يستقيم أن يخطئ النبي في بلاغ الوحي سهواً، أو عمداً؛ فإن ذلك مؤد إلى ارتفاع الثقة بنقله، كما لا يستقيم أن يخطئ في تنفيذ أمر الله تعالى، فترتفع عنه القدوة والأسوة.

قال سبحانه: ﴿سَنُفَرِّقُكَ فَلَا تَنْسَى ۖ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦-٧]، وقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۖ ۝١ مَاضٍ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۖ ۝٢ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۖ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم: ١-٥].

وفي الحديث: «ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به؛ فإنني لن أكذب على الله»^(٢).

يشمل هذا كل ما بلغه النبي ﷺ من القرآن والسنة قولاً وفعلاً وتقريراً، ومع التسليم بجواز العوارض البشرية - من النوم والنسيان والغضب - على الأنبياء، فإن ذلك لا يخل بعصمتهم في التبليغ.

٢) العصمة من الكبائر والدنایا التي تزري بهم:

أجمع المسلمون على عصمة الأنبياء من الكبائر مطلقاً، ومن الصغائر التي تزري بمقامهم، بالكفر والشرك والنفاق والكذب والخيانة... كل ذلك مستحيل في حق أنبياء الله ورسله.

(١) مجموع الفتاوى (٢٨٩/١٠)، منهاج السنة النبوية (١/٤٧٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٦١) من حديث طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه.

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ [آل عمران: ١٦١]؛ فلا تقع هذه الكبائر عمدا ولا سهواً، ومثلها في المنع الصغائر التي تدل على دناءة النفس!

وقد منع الأنبياء وعصموا من الإشارة، أو الغمز بالعين، وقال ﷺ: «إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له حائنه الأعين»^(١).

وهذه العصمة من الكبائر والدنيا ثابتة قبل البعثة وبعدها؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ [ص: ٤٧]، وقد كان النبي ﷺ معروفاً في شبابه بخلال الخير، متجافياً عن الكفر والفسوق والعصيان، وكان لقبه الصادق الأمين، وقد قالت له خديجة: «أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف...»^(٢).

(٣) حكم الصغائر قبل البعثة وبعدها:

بعد الاتفاق على ما تقدم في مسألة عصمة الأنبياء فقد جرى الخلاف اليسير في هذه المسألة:

- فقد ذهب طائفة من أهل العلم إلى امتناع الصغائر على الأنبياء قبل البعثة وبعدها، ووجهها ما ورد في حقهم من الصغائر.

قال ابن حزم رحمه الله: «والأنبياء عليهم السلام لا يعصون الله تعالى، لا بكبيرة، ولا بصغيرة على سبيل العمد؛ لأنهم معصومون، والناس مأمورون

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٨٣)، والنسائي في الكبرى (٣٥١٦) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

بالاقتداء بهم، ولا يجوز الأمر بالاقتداء بمن يعصي»^(١).

- والجمهور على جواز الصغائر غير المزرية بمقامهم قبل البعثة وبعدها، لكنهم يفعلونها بنوع خطأ، أو تأويل، ويُعَصِّمون من الإصرار، أو الإقرار عليها.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «القول بأن الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام، وجميع الطوائف، حتى إنه قول أكثر أهل الكلام، كما ذكر أبو الحسن الأمدي: أن هذا قول أكثر الأشعرية، وهو - أيضاً - قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل لم يُنقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول!»^(٢).

واستدل على ذلك بأدلة متعددة، منها: قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾^(١٢١) ثُمَّ أَجْبَاهُ رَبُّهُ، فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿طه: ١٢١-١٢٢﴾، وقوله - في حق موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ -: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾^(١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّكَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿[القصص: ١٥-١٦]، وقوله - في حق داود -: ﴿فَاسْتَغْفِرْ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾^(٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴿[ص: ٢٤-٢٥]، ونحوها من الآيات.

ومنع الأولون دلالة هذه الآيات على وقوع الصغائر؛ لمعارضته للقدوة والأسوة في الأنبياء والمرسلين، ويجاب عليهم بأن القدوة قد انتفت في

(١) الدرة فيما يجب اعتقاده، لابن حزم (ص ٢٢٩).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٤/ ٣١٩).

المعصية، ثم إن الأنبياء لا يؤخرون التوبة، وهم بعد التوبة أكمل إيماناً منهم قبل التوبة.

يقول الذهبي رَحِمَهُ اللهُ: «وقد يقع منهم الذنب ولا يُقرون عليه، فهم منزهون عن كل ما يقدح في نبوتهم، وعامة الجمهور الذين يجوزون عليهم الصغائر يقولون: إنهم معصومون من الإقرار عليها»^(١).

وينبغي أن يُعلم أن هذه العصمة خاصة بالأنبياء، لا يشركهم فيها أحد، فهي من خصائصهم دون سائر البشر بالإجماع^(٢)، وخلاف الاثني عشرية والباطنية بادعائهم عصمة أئمتهم لا يؤثر في الإجماع؛ للاتفاق على ضلالهم، فهم الذين قيل فيهم: «ظاهر مذهبهم الرفض، وباطنه الكفر المحض»^(٣).

سابعاً: وظائف الأنبياء في أممهم:

إن تبليغ الوحي وما أمر الله به هو قطب رحي الرسالات، وعمدة وظائف المرسلين، ويمكن رصد أهم المعالم في دعوات الأنبياء ورسالاتهم فيما يأتي:

١- الدعوة إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله:

لا امتراء في أن أصول دعوة الأنبياء إلى الله تعالى واحدة، وأنها تقوم على

(١) المنتقى من منهاج الاعتدال، لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، تحقيق: محب الدين الخطيب (ص ٥٠).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، لأبي الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن اليحصبي السبتي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م (٢/ ٧٨٤)، الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١/ ٣٠٨)، شرح مسلم، للنووي (٣/ ٥٣)، مجموع فتاوى ابن تيمية (٤/ ٣١٩).

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (٤/ ٣٢٠).

التوحيد الخالص لله، والبراءة من الشرك، واتباع شريعة نبي ذلك الزمان.
قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، فتوحيد الله تعالى بالعبادة هو غاية خلق الخلق، قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، أي: ليوحدون.

وحرب المرسلين كانت على الشرك بمختلف صورته، وعلى الانحرافات بكل أشكالها، فلا فرق بين شرك حضاري وآخر بدائي، ولا شرك قبور أو قصور، فالتصدي لجميع المخالفات والشركيات على حد سواء.
٢- البلاغ المبين:

البلاغ المبين من أعظم أعمال النبيين والمرسلين، قال سبحانه: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢].

وهذا البلاغ المبين يعني: است فراغ كل جهد، وبذل كل وسع في استفاضة البلاغ بالرسالة بكل تفاصيلها وأوامرها ومناهيها.

وليتحقق البلاغ المبين؛ فقد كانت حياة الأنبياء كلها وقفا لدعوتهم صلوات الله عليهم، فلم يدعوا من أعمارهم وقتا إلا اغتنموه، ولا للدعوة فجاء إلا سلكوه، قال سبحانه - على لسان نوح عليه السلام -: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥]، ثم قال: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ۖ ثُمَّ إِنِّي أَغْلَتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٨-٩].

ولقد دعا نبينا ﷺ قومه بمكة ليلا ونهارا، ودعا عمه عند موته^(١)، والغلام

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤) من حديث المسيب بن حزن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

اليهودي حال احتضاره^(١).

وكما دعا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ صاحبيه في سجنه، دعا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فرعونَ في قصره، وقد بلغ النبي ﷺ الإنس والجن، فلم يخرج عن الدعوة والبلاغ أحد.

ولقد دعا الأنبياء بالقول والفعل، والترغيب والترهيب، والعبارة والإشارة، وعلى هذا مضى أتباعهم في طريق الدعوة إلى الله.

٣- تزكية النفوس وتعليمها:

تعليم الوحي ونشره وبيانه وتلقينه مع تزكية المؤمنين من أعظم وظائف النبيين والمرسلين، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

وقال ﷺ -عن نفسه-: «فَوَاللَّهِ، إِنْ لَأَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدَّهُمْ لَهُ خَشْيَةً»^(٢).

ولا شك أن رأس العلم: العلم بالله تعالى، والتعرف إليه بأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وأحكامه، وهذا يثمر عظيم الإجلال والخوف من الله تعالى، وتمايز الامتثال لأمره، والاجتناب لنهيهِ.

وعادة ما يقترن التعليم بالتزكية والتربية؛ إذ إنهما تحولان العلم النظري إلى واقع عملي، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤].

ثم إن الأنبياء والمرسلين كما يربون أممهم بالقول والفعل يربونهم بالقدوة والأسوة، قال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠].

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٠) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٠١)، ومسلم (٢٣٥٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

٤- البشارة والندارة، وإقامة الحجة:

من معالم دعوة النبيين: البشارة والندارة، والترغيب والترهيب، قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وفي الحديث: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتُهُ عَلَى خَيْرٍ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرُهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ»^(١).

فالبشارة لمن آمن وعمل عملاً صالحاً ثم اهتدى، والندارة لمن أعرض وتولى، وكلاهما ينبهان العبد ويسوقانه إلى الصالحات، والكف عن السيئات. وبالبشارة والندارة تقوم الحجة على المُنْذِرِينَ، كما قال سبحانه: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

٥- التصدي لمنكرات الزمان:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل متفق عليه بين الأنبياء والمرسلين. وبإضااعته استحق بنو إسرائيل اللعنة على لسان الأنبياء، قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨) ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ - ٧٩].

وقد وُصف النبي ﷺ في كتب أهل الكتاب بإقامة هذه الشعيرة العظمى، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا

(١) أخرجه مسلم (١٨٤٤) من حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينههم عن المنكر ﴿ [الأعراف: ١٥٧].

وإذا كان كل نبي قد تصدى لمنكر الشرك الأكبر؛ فإنه - أيضًا - ما ترك النهي عما شاع في زمنه من منكرات، فنبى ينهى عن تطفيف المكيال، وآخر ينهى عن اللواط، وثالث ينهى عن الإفساد؛ فلا يترك الأنبياء منكرًا شائعًا إلا وتصدوا له.

وعلى هذا الدرب يسير أتباع الأنبياء، فقد قال ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»^(١)، وبإقامة هذه الشعيرة تتحقق خيرية الأمة، ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

٧- الشهادة على الأمم:

يشهد كل نبي على قومه، كما يشهد على من سبقه من الأنبياء أنه أدى رسالته، حتى إذا اكتمل البنيان بالنبي الخاتم ﷺ شهد على الأمم والأنبياء كافة. قال سبحانه - في حق عيسى عليه السلام -: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩]. وقال - في حق نبينا ﷺ -: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

(١) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم الشهادة ثابتة لأمتنا على الأمم كلها، قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].
٧- سياسة الأمم:

سياسة الدنيا بالدين هي من وظائف النبيين، قال سبحانه: ﴿يَكْدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٨].

وفي الحديث: «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ»^(١).

وقد كان نبينا ﷺ يحكم بالقرآن، ويسوس أمة بوصف الرسالة تارة، وبوصف الإمامة تارة أخرى، قال الله تعالى: ﴿وَأِنْ أَحْكَمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ﴾ [المائدة: ٤٩].

وقد شرع الجهاد لإقامة الدين مع النبيين من بعد نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأصبح السعي للتمكين للدين من هدي الأنبياء المرسلين، قال سبحانه: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

فالرسل وأتباعهم على دعوتهم يدعون الخلق إلى الحق، ويسوسون أمورهم بكتاب ربهم وشرعية نبيهم، وفي هذا المَعْلَم رد على العلمانيين وأشباههم المنكرين للحكومة الإسلامية، والدولة النبوية.

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثامناً: النبي والرسالة، والأمة الخاتمة:

حاز النبي الخاتم ﷺ على ما تربع به على عرش كل قلب مؤمن من كمال الخلق والخلق، وتمام الإحسان إلى كل إنسان برسالته الخاتمة، وانضم إلى ذلك شرف النسب، وطيب الأصل، وكرامة المحتد.

قال ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم»^(١).

الأدلة الدامغة على صدق النبي الخاتم:

إن أفراد الأدلة الدامغة على صحة الرسالة وصدق النبي ﷺ لا تدخل تحت عد، وإنما يمكن أن نشير إلى مجموعات من تلك الأدلة بعناوين عامة، ونضع تحت كل أمثلة فحسب:

المجموعة الأولى: بشارات الكتب الإلهية السابقة:

لقد أكد القرآن مرارا على ثبوت اسم نبينا ﷺ في الكتب الإلهية السابقة، ومن تلك الآيات البينات:

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

ولقد نقل ابن قتيبة (٢٧٦هـ)، والماوردي (٤٥٠هـ)، والرازي (٦٠٦هـ)، والقرافي (٦٨٤هـ)، وابن تيمية (٧٢٨هـ)، وابن القيم (٧٥١هـ)، وغيرهم نصوصا كثيرة من كتب أهل الكتاب في عصرهم فيها صريح اسم (محمد) وجادلوهم به، ولكنهم مع مرور الزمان ومع ما اعتاده أسلافهم

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٦) من حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

من التحريف بدأوا يخفون ذلك، ويمحونه من كتبهم ظلماً وحسداً.
قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «قد رأيت أنا من نسخ الزبور ما فيه تصريح بنبوة محمد ﷺ باسمه، ورأيت نسخة أخرى من الزبور فلم أر ذلك فيها، وحيث فلا يمتنع أن يكون في بعض النسخ من صفات النبي ﷺ ما ليس في أخرى»^(١).

المجموعة الثانية: خوارق العادات التي جرت له ﷺ:

ولقد صُنف في هذا المجال كتب ومؤلفات قديمة وحديثة تحت اسم:
(دلائل النبوة)، و(المعجزات)، وغيرها ومجموع هذه الدلائل تربو على ألف دليل^(٢).

وهذه الخوارق منها ما هو سماوي؛ كالإسراء والمعراج، وانشقاق القمر، ونزول المطر.

ومنها ما هو أرضي يتعلق بالإنسان والحيوان والنبات والجماد؛ كشفاء الأمراض على يديه، وتكثير الطعام ببركته، ونبع الماء من بين أصابعه، وخطاب البهائم والجمادات له ﷺ، وأدلة كل ذلك وأمثله مبسطة في كتب الحديث، ودلائل النبوة.

المجموعة الثالثة: إخباره بالغيوب ﷺ:

الإخبار بالغيب السابق أو الآتي من أظهر أدلة صحة القرآن، وصدق الرسول ﷺ.

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: علي بن حسن، عبد العزيز بن إبراهيم، حمدان بن محمد، دار العاصمة، السعودية، ط ٢، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م (٢/ ٢٧).

(٢) هداية الحيارى، لابن القيم (ص ٨٧).

فقد تضمن القرآن الكريم إخباراً بواقعات تكون في المستقبل، فكانت في حياته ﷺ، وفي جيل أصحابه؛ كإخبار بغلبة الروم للفرس كما في صدر سورة الروم، فوقع ذلك وفرح به المؤمنون.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ وَنُسُلِهِمْ لَمْ يَحْزَنُوا﴾ (١) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ وَنُسُلِهِمْ لَمْ يَحْزَنُوا﴾ (٢) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ وَنُسُلِهِمْ لَمْ يَحْزَنُوا﴾ (٣) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ وَنُسُلِهِمْ لَمْ يَحْزَنُوا﴾ (٤) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ وَنُسُلِهِمْ لَمْ يَحْزَنُوا﴾ (٥) [الروم: ١-٥].

ووعده النبي ﷺ سراقه بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١) بأن يلبس سوارى كسرى، وذلك في طريق هجرته، فكان ما وعده، فلبسهما في زمان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقد قال حسان:

نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا يَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ وَيَتْلُو كِتَابَ اللَّهِ فِي كُلِّ مَسْجِدٍ
وَإِنْ قَالَ فِي يَوْمٍ مَقَالَةً غَائِبٌ فَتَصْدِيقُهَا فِي الْيَوْمِ أَوْ فِي ضُحَى الْغَدِ^(٢)

المجموعة الرابعة: إجابة دعائه ﷺ:

إجابة دعائه ﷺ في مواضع كثيرة شاهد صدق على نبوته وصحة رسالته، وقد وقعت تلك العلامة في الخاص والعام وبمرأى من الجميع. فمن ذلك: أن دخل داخل المسجد شاكياً للنبي ﷺ هلكة الأموال، وانقطاع السبل، «فرفع النبي ﷺ يديه، ثم قال: اللَّهُمَّ أَغْنِنَا، اللَّهُمَّ أَغْنِنَا،

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م (٢/ ٥٨١).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٤/ ٤٨) من حديث حُبَيْش بن خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

اللَّهُمَّ أَغْثْنَا! فلم ينزل النبي ﷺ عن منبره حتى رئي المطر يتحادر على لحيته ﷺ، ودام المطر أسبوعاً، حتى دخل داخل الجمعة القادمة قائلاً: يا رسول الله، هلكت الأموال وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها عنا، فرفع النبي ﷺ يديه، ثم قال: اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ عَلَى الْآكَامِ وَالظَّرَابِ وَبُطُونِ الْأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ.

قال الراوي: فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت، فأقلعت وخرجنا نمشي في الشمس...»^(١).

وقد دعا النبي ﷺ على بعض من امتنع عن الأكل بيمينه، حين قال: لا أستطيع، فقال له ﷺ: «لَا اسْتَطَعْتَ. فما رفعها بعد ذلك إلى فيه»^(٢).
والأمثلة كثيرة عديدة.

المجموعة الخامسة: استقامة أحواله طيلة حياته ﷺ:

لقد عُرِفَ للمصطفى ﷺ أخلاق وسجايا حميدة قبل نبوته وبعدها، وقبل بعثته وبعدها، وقبل تمكينه وبعده، فما تغيرت أخلاقه ولا تبدلت أحواله، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].
وفي الحديث: قالت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «فإن خلق نبي الله كان القرآن»^(٣).

وهذا الخلق لم يختلف من أصحابه إلى أعدائه، ومن الصغار إلى

(١) أخرجه البخاري (٩٣٣)، ومسلم (٨٩٧) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٢١) من حديث سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٧٤٦).

الكبار، ومن الخدم والعييد إلى الأشراف والسادة، ولا من حال استضعافه إلى حال تمكينه، فقد انتهى زاهدا عابدا كما بدأ، لم يقبل في قدره العلي غلوا، ولا طلب لنفسه شيئا، وعاش ﷺ مثالا كاملا، وقدوة وأسوة حسنة للبشرية بأسرها.

ثم لقد تحقق له ﷺ النصر على أعدائه، والتمكين لدينه، ودانت له العرب والعجم، وأيده الله ونصره بما لا يقع مثله إلا لنبي مؤيد بالله، ودام له ذلك مدة حياته، ومن تأمل مجموع هذه الأحوال جزم بصدق نبوته ﷺ.

تاسعاً: معجزة الدهر وشعار الفخر: القرآن الكريم:

أعظم معجزات وآيات النبي ﷺ هو القرآن الكريم، والذكر الحكيم. فهو الموعظة والشفاء، والهدى والرحمة، ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وهو البرهان والنور المبين من رب العالمين للعالمين، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

وقد جعل الله هذا القرآن دليلا بنفسه على صدق رسالة نبينا ﷺ، فتحدى به الخلائق، وأعجزهم ذلك التحدي، قال تعالى: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقد قال ﷺ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ؛ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

(١) أخرجه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالقرآن معجزة عقلية معنوية جامعة، ووجوه إعجازه كثيرة، منها ما هو لغوي بياني، أعجز بلغاء العرب، حتى قال قائلهم: «إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يُعلَى، وإنه ليحطم ما تحته»^(١).

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

ومنها ما هو تشريعي، ومنها ما هو علمي.

عاشراً: حقوق الرسول الخاتم ﷺ:

لقد أعطى الله تعالى نبيه ﷺ من الخصائص، وحباه بما أكرمه به من الفضائل في الدنيا والآخرة؛ وهو ما يجب أن يعرفه كل مؤمن، وأن يتحقق به كل مسلم.

فهو الذي رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، وقد قرنه الله تعالى بنفسه الشريفة في مواطن كثيرة كالإيمان، والطاعة، والمحبة، والتأدب، ووجوب الإرضاء، والنصرة، وقبول القضاء والحكم، وغير ذلك من شريف المواضع.

وللنبي ﷺ على أمته حقوق واجبة على كل مسلم، وهذه أهمها على سبيل الاختصار:

١- الإيمان بالنبي ﷺ وبرسالته:

وهذا شطر الشهادتين اللتين بهما الدخول في الإسلام، فيجب الإيمان

(١) أخرجه الحاكم (٣٨٧٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٣٣).

بأنه رسول الله، وأن رسالته خاتمة الرسالات، قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

والإيمان به يقتضي تصديقه فيما جاء به من الخبر عن الله تعالى، وطاعته فيما أمر، والامتناع عما نهى وزجر.

٢- تعظيمه وتوقيره ﷺ:

وذلك حال حياته وبعد مماته؛ لعظيم منزلته عند ربه تعالى؛ فلا يُرفع الصوت بحضرته حال حياته، ولا يُتقدم بالرأي بين يديه، ولا ينادى كما ينادى آحاد الخلق، وتعظم رواية الحديث لتعظيمه ﷺ.

وقد قال تعالى: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩]، وهذا أمر بتفخيمه وتسويده وتشريفه وتعظيمه^(١).

٣- محبته ﷺ:

والمحبة ميل القلب إلى المحبوب ﷺ، قال تعالى: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، أي: في المحبة والنصرة، فيُحَبُّ أكثر من الوالد والولد، بل يُحَبُّ أكثر من النفس، ويفدى بالنفس والنفيس ﷺ. وفي الحديث: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ، وَوَلَدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»^(٢).

والمحب الصادق للنبي ﷺ لو خُير بين أن ينزل عن الدنيا ومتاعها وبين رؤيته ﷺ لا اختار رؤيته ﷺ.

(١) تعظيم قدر الصلاة، للمروزي (ص ٣٧٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي الحديث: «من أشد أمتي لي حبا ناس يَكُونُونَ بَعْدِي يَتَمَنَّى أَحَدُهُمْ لَوْ رَأَى بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ»^(١).

ولقد كان المحبون له ﷺ من الصحابة فمن بعدهم يكون عند ذكره شوقا له، وعند نطق اسمه محبة وتعظيما له!

٤- فداؤه ﷺ بالنفس والنفيس:

لما قُدم خبيب بن عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للقتل بمكة، قالوا له: «أيسرك أن محمداً مكانك، وأنت في أهلِكَ ومالك؟ فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والله، ما أحب أن يفديني محمد ﷺ بشوكة في قدمه»^(٢).

وقد قال سعد بن الربيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لقومه الأنصار وهو ينازع الموت يوم أحد-: «لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله وفيكم شفر يَطرِفُ»^(٣).

٥- طاعته واتباعه ﷺ:

قال سبحانه: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤]، وقد جاء الأمر بالاتباع في ستين موضعا من كتاب الله تعالى.

فكما يجب توحيد المعبود سبحانه، يجب توحيد المتبوع ﷺ، والاتباع للرسول شرط القبول، وسبب حصول الأجر، والأمن من الوزر، وأولى ما يكون فيه الاتباع: التحليل والتحريم، والحكم والتشريع، ثم هو داخل بعد ذلك في كل شأن، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سيرة ابن هشام (١٧٢/٢)، ودلائل النبوة، للبيهقي (٣/٣٢٦).

(٣) أخرجه الحاكم (٤٩٠٦)، والبيهقي في الدلائل (٣/٢٤٨).

لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿[الأحزاب: ٣٦].

٦- محبة آل بيته وصحابته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

قال النبي ﷺ: «أَذْكُرْكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أَذْكُرْكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أَذْكُرْكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي»^(١)، وقال الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته»^(٢).

فتجب محبة آل بيت النبي ﷺ، والإحسان إليهم، وتوليهم، ومناصرتهم، والنصح لهم، وينبغي الحذر ممن يبغض آل بيت النبي ﷺ، لا سيما عائشة الصديقة المبرأة.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد أجمع العلماء قاطبة على أن من سبها بعد هذا الذي ذكره في هذه الآية فإنه كافر؛ لأنه معاند للقرآن»^(٣).

وأهل الإيمان يحبون أصحاب النبي العدنان، الذين أثنى الله عليهم وزكاهم في القرآن، قال تعالى: ﴿وَالسَّيِّقُوتِ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فالحذر الحذر ممن يسب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أو يقع فيهم، قال ﷺ: «لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي؛ فَإِنْ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ»^(٤).

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٨) من حديث زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٧١٣).

(٣) تفسير ابن كثير (٢٧٦/٣).

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٤٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ففضل الصحبة عظيم، قال أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ: «فأدناهم صحبة هو أفضل من القرن الذين لم يروه، ولو لقوا الله بجميع الأعمال»^(١).

وقال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «وفضيلة الصحبة ولو لحظة لا يوازيها عمل، ولا تُنال درجتها بشيء، والفضائل لا تؤخذ بالقياس، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»^(٢).

وسب جميع الصحابة كفر؛ لأنه تكذيب بما نص عليه القرآن في غير موضع من الرضا والثناء عليهم، وكذا من كفرهم إلا نفرا قليلا... وكفر هذا الساب مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام.

٧- الصلاة والسلام عليه ﷺ:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وفي الحديث: «مَنْ صَلَّى عَلَى صَلَاةِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا»^(٣).

وفي الصلاة على النبي ﷺ امتثال الأمر، وموافقة الله تعالى وملائكته، وبها يحصل عظيم الأجر، وهي سبب لشفاعته النبي ﷺ في العبد يوم القيامة، كما هي سبب لإجابة الدعاء، وسبب لعرض اسم المصلي على النبي ﷺ في قبره، وهي سبب لغفران الذنوب وستر العيوب وتفريج الكرب، وهي طهرة من لغو المجالس، وسبب لمحبة النبي ﷺ للمؤمن، كما هي سبب للهداية وحياة القلب، والثبات على الصراط يوم القيامة.

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة، للالكائي (٣١٧).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٩٣/١٦).

(٣) أخرجه مسلم (٣٨٤) من حديث ابن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

٨- نشر دعوته وسيرته، والانتصار لسنته ﷺ:

توفي رسول الله ﷺ وقد جهز جيشاً أمر عليه أسامة بن زيد، وقبل أن يخرج الجيش مات النبي ﷺ، وارتدت فئام من العرب، فأشار البعض على أبي بكر بإرجاء بعث أسامة لحماية المدينة، فقال الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والذي نفس أبي بكر بيده، لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة، كما أمر به رسول الله ﷺ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته»^(١).

ولما قاتل أهل الردة قال: «والله، لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه»^(٢)، هكذا كان التعظيم والانتصار لسنة رسول الله ﷺ.

وقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يصلون، ويصومون، ويتعبدون، ويقولون: هكذا فعل رسول الله ﷺ، وهكذا نفعل، وكانوا يعظمون الرواية عنه ﷺ، ويدعون إلى السنة قولاً وعملاً، ويحثون على لزومها، ويحذرون من التقصير في التزامها، ويروون قوله ﷺ: «فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(٣).



(١) تاريخ ابن جرير، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبي جعفر الطبري، دار التراث، بيروت، ط ٢، ١٣٨٧ هـ (٢٢٥/٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٤)، ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر



الإيمان باليوم الآخر مشترك إيماني بين المؤمنين بالله من أتباع الرسل، ونعرض تفصيلاً لهذا الركن في النقاط التالية:

أولاً: تعريف اليوم الآخر وأسمائه:

اليوم الآخر هو: يوم القيامة الذي لا يوم بعده، وهو الذي يبدأ لدى كل أحد في اللحظة التي تغادر فيها روحه جسده، ويستمر معه إلى أبد الآبدين، حيث البعث والحساب، والخلود في الجنة أو في النار، فهو اليوم الآخر؛ لأنه لا يأتي بعده يوم غيره^(١).

ويتضمن اليوم الآخر ثلاثة أمور:

- مقدمات اليوم الآخر: وهي أشراف الساعة.
- أول منازل الآخرة: وهي الموت وحياة البرزخ.
- الحياة الآخرة: وتبدأ بالنفخ في الصور، وتبقى إلى دخول الناس في دار القرار، إما الجنة وإما النار^(٢).

ولليوم الآخر أسماء عدة، فسمي بيوم البعث، قال تعالى: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ

(١) تفسير ابن جرير (١/ ٢٧١).

(٢) النهاية في الفتن والملاحم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز، دار الجيل، بيروت - لبنان، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م (١/ ٢٧٩)، مجموع الفتاوى (٣/ ١٤٥).

فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ﴿ [الروم: ٥٦]، وسمي بيوم الدين، قال سبحانه: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، وهو كذلك يوم حسرة الكافرين، قال تعالى: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ [مريم: ٣٩]، وهو يوم الفصل بين المتنازعين، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ [المرسلات: ٣٨].

إلى أسماء أخرى كثيرة؛ كالساعة، والحاقة، والواقعة، والآزفة، والقارعة، والطامة الكبرى... وغيرها، وقد عد ابن كثير لها أكثر من ثمانين اسماً^(١).

ثانياً: الإيمان باليوم الآخر وحكمه:

الإيمان باليوم الآخر ركن الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْإِبْرَ مِنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وفي حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: «... قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...»^(٢).

والإيمان بالحياة الآخرة مشترك عظيم بين أهل الكتب الإلهية، وهو من الإيمان بالغيب الذي مدح الله عباده بالإيمان به، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالَاتِ هُمْ فِي صَفْوَةٍ مِمَّنْ لَدَى اللَّهِ حَقُّ الْإِيمَانِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وعليه؛ فإن الله تعالى قد اختص نفسه وحده بعلم الساعة، فلا يعلم متى الساعة إلا الله، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [فصلت: ٤٧]، ولما سأل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ النبي ﷺ: «متى الساعة؟» قال: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مَنْ السَّائِلُ!«^(٣).

(١) النهاية في الفتن والملاحم، لابن كثير (١/ ٢٥٥ - ٢٥٦).

(٢) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن أنكر اليوم الآخر فقد كفر بالله العظيم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]. وهو مستحق لعقوبة الدنيا والآخرة، قال سبحانه: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٢٩]. يقول ابن حزم رحمه الله: «اتفق جميع أهل القبلة على تنازع فرقههم على القول بالبعث في القيامة، وعلى تكفير من أنكر ذلك»^(١).

١- الموت والقبر أول منازل الآخرة:

قال سبحانه: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]. الموت هو القيامة الصغرى، والذي ينتقل به العبد إلى حياة البرزخ التي تنتهي بيوم البعث، قال تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]. ولا بد من الموت لكل إنسان، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]. ولكل إنسان أجل مضروب، لا يعلمه إلا الله، قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

وللموت فتنة يُستعاذ بالله منها. ومن دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ»^(٢)، فإذا مات الإنسان على التوحيد والعمل الصالح فذلك

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٥٠٦ هـ)، مكتبة الخانجي - القاهرة (٤/ ٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٧٧)، ومسلم (٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

من حُسن الخاتمة، خاصة إذا كان آخر كلامه من الدنيا: (لا إله إلا الله).
ثم إن القبر أول منازل الآخرة، كما ورد في الحديث: «إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ
مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ
مِنْهُ»^(١).

وللقبر ضمة لا ينجو منها أحد، وله هول شديد، وفيه فتنة سؤال الملكين
عن الرب والدين والرسول، فالمؤمن يوفق، والكافر والمنافق يُخَذَلُ^(٢).
وللقبر عذاب ونعيم يؤمن به أهل السنة والجماعة، دلت على ذلك
الأدلة الصحيحة الصريحة، قال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا
وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وفي
الحديث: «مَلَأَ اللَّهُ قُبُورَهُمْ وَيُيَوِّتُهُمْ نَارًا، كَمَا شَغَلُونَا عَنْ صَلَاةِ الْوُسْطَى
حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ»^(٣).

ومما يدل على نعيم القبر: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [١١١] فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠].

وفي الحديث: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَبِي سَلَمَةَ، وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ،
وَاخْلُفْهُ فِي عَقْبِهِ فِي الْغَابِرِينَ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَافْسَحْ لَهُ فِي قَبْرِهِ،

(١) أخرجه أحمد (٤٥٤)، والترمذي (٢٣٠٨)، وابن ماجه (٤٢٦٧) من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٩٩)، ومسلم (٢٨١٧) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٩٦)، ومسلم (٦٢٧) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَنُورٌ لَهُ فِيهِ»^(١).

وممن يُحَفَظُونَ من عذاب القبر: الشهيد، والمرابط يموت في رباطه،
ومن مات يوم الجمعة، وغيرهم.

٢- أشراط الساعة وعلاماتها:

أشراط الساعة هي علاماتها التي تدل على قربها، والإيمان بها واجب؛
إذ هي جزء من الإيمان باليوم الآخر الذي هو من أركان الإيمان.

قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨].

ولما سئل النبي ﷺ: «متى الساعة؟» قال: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ
السَّائِلِ، وَلَكِنْ سَأَحْدِثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا»^(٢).

وهي تنقسم إلى قسمين:

- ١- أشراط صغرى.
- ٢- أشراط كبرى.

وتنقسم الصغرى إلى:

- ١- قسم ظهر وانقضى.
 - ٢- قسم ظهر وما يزال يظهر.
 - ٣- قسم لم يظهر بعد.
- وفيما يأتي أمثلة على كل:

١- أمثلة من أشراط الساعة التي وقعت وانقضت:

- ظهور نار الحجاز:

في الحديث: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ تُضِيءُ

(١) أخرجه مسلم (٩٢٠) من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٧٧)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَعَنَّا الْإِبِلَ بُبْصَرَى»^(١).

وقد ظهرت في عام أربع وخمسين وستمائة، فقد نقل النووي^(٢)، وابن كثير^(٣)، والقرطبي^(٤)، وغيرهم خبرها، وأنها كما وُصف أمرها في الحديث. - توقف الجزية والخراج:

ففي الحديث: «مَنَعَتِ الْعِرَاقُ دَرَهْمَهَا وَقَفِيزَهَا، وَمَنَعَتِ الشَّامُ مُدِّيَهَا وَدِينَارَهَا، وَمَنَعَتِ مِصْرُ إِرْدَبَهَا وَدِينَارَهَا، وَعُدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ، وَعُدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ، وَعُدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ»^(٥).

٢- أمثلة من أشراف الساعة التي وقعت وما تزال مستمرة الوقوع: ذكر النبي ﷺ جملة من هذه الأشراف في قوله: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ» وَإِمَّا قَالَ: «مِنْ أَشْرَافِ السَّاعَةِ: أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيُظْهَرَ الْجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ، وَيُظْهَرَ الزِّنَا، وَيَقِلَّ الرِّجَالُ، وَيَكْثُرَ النِّسَاءُ حَتَّى يَكُونَ لِلْخَمْسِينَ امْرَأَةً الْقِيمُ الْوَاحِدُ»^(٦).

٣- أمثلة من أشراف الساعة الصغرى التي لم تقع بعد: - انحسار الفرات عن جبل من ذهب: ففي الحديث: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَحْسَرَ الْفَرَاتُ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ، يَقْتَتِلُ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَيَقْتُلُ مِنْ كُلِّ مِائَةِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، وَيَقُولُ كُلُّ رَجُلٍ

(١) أخرجه البخاري (٧١١٨)، ومسلم (٢٩٠٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) شرح صحيح مسلم، للنووي (١٨ / ١٢).

(٣) النهاية في الفتن والملاحم (١٤ / ١).

(٤) المفهم، للقرطبي (١٥٤ / ٧).

(٥) أخرجه مسلم (٢٨٩٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) أخرجه البخاري (٨١)، ومسلم (٢٦٧١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

منهم: لَعَلِّي أَكُونُ أَنَا الَّذِي أَنْجُوا!»^(١).

- خروج المهدي:

في الحديث: «يَكُونُ فِي آخِرِ أُمِّي خَلِيفَةٌ يَحْثِي الْمَالَ حَثِيًا، لَا يَعْدُهُ عَدَدًا»^(٢)، وفيه - أيضًا - : «المهدي منا أهل البيت، يُصَلِّحُهُ اللَّهُ فِي لَيْلَةٍ»^(٣).

والمهدي آخر علامات الساعة الصغرى، أو هو أول علامات الساعة الكبرى؛ لأنه يكون موجودا زمن عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد ذهب عدد من الحفاظ إلى تواتر أحاديث المهدي، وصُنفت في شأنه كتب.

٤- أمثلة من أشراف الساعة الكبرى:

وردت أمارات الساعة الكبرى في حديث حُذيفة بن أسيد الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: مَا تَذَكَّرُونَ؟ قالوا: نذكر الساعة، قال: إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْا قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ. فذكر: الدَّخَانُ، وَالْدِّجَالُ، وَالْدَّابَّةُ، وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، وَثَلَاثَةُ خُسُوفٍ: خَسَفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسَفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسَفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ: نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ، تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ»^(٤).

وأما أعظم هذه الأشراف فقال فيها نبينا ﷺ: «ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا: طُلُوعُ

(١) أخرجه البخاري (٧١١٩)، ومسلم (٢٨٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩١٣) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٦٤٥)، وابن ماجه (٤٠٨٥)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٠١).

الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض»^(١).

ثالثاً: مشاهد اليوم الآخر:

١- أهوال القيامة:

ليوم الآخر مشاهدٌ عظيمة وأهوالٌ جسيمة، زخر القرآن الكريم بتسطيرها، وامتلات دواوين السنة بأخبارها، ونقل السلف العدول الكثير من أنبائها، فهو يوم وصفه الله فقال: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجْبُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧]، ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿١﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٩-١٠].

فمن هذه الأهوال: دك الأرض وزلزلتها، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١]، حتى إن الجبال تُنسف وتسير، قال ﷺ: ﴿وَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]، والبحار تفجر نارا، ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ٣].

وكما تتغير الأرض تتغير السماء، فتنفطر وتشقق، وتمور، قال جل وعلا: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ [الطور: ٩]، وقال سبحانه: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ١-٢]، وقال سبحانه: ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٨-٩].

٢- النفخ في الصور:

ينفخ إسرافيل في الصور^(٢) - وهو قرن أو بوق - فيفزع الخلق ويصعقون،

(١) أخرجه مسلم (١٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) فتح الباري (١١/٣٦٨).

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال ﷺ: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧].

وقد ذهب جمع إلى أن النفخ في الصور يكون مرتين، الأولى للصعق، الثانية للبعث، وذهب آخرون إلى أنه ثلاث نفخات: فالأولى للنفخ، والثانية للصعق، والثالثة للبعث، وقد رجحه جماعة من المحققين؛ كابن العربي، وابن تيمية، وابن كثير^(١).

٣- بعث الخلق:

بين النبي ﷺ أول بعث الخلق من قبورهم، فقال: «... ثُمَّ يُنْزَلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ، لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنْبِ، وَمَنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

وأول من تنشق عنه الأرض نبينا ﷺ، كما في الحديث: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشْفَعٍ»^(٣).

٤- حشر الخلائق من إنس، وجان، وحيوان:

بعد ذلك يُحْشَرُ الخلائق إلى أرض المحشر، وهذا واقع للإنس والجن والحيوان، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥].

(١) عارضة الأحوذى، للقاضي محمد بن عبد الله أبي بكر بن العربي المعافري الاشيلي المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت (٩/ ٢٦٨)، مجموع الفتاوى (٤/ ٢٦٠)، النهاية، لابن كثير (١/ ٢٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وللعباد في محشرهم هيئات وصفات، منها ما يعم جميعهم، كحشرهم حفاة عراة غير مختونين؛ لقوله ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا»^(١)، ومنها ما يخص بعضهم.

فالكفار يحشرون على أقبح هيئة وحالة، قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَبُكَاءً وَضُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]، ويحشر المتكبرون من الناس كأمثال الذر، يطؤونهم الناس بأقدامهم^(٢).

أما الصالحون فيحشرون إلى الرحمن وفداً، قال سبحانه: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾^(٣) وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرْدًا ﴿[مريم: ٨٥-٨٦].

كما يحشر بعض الناس على الحالة التي ماتوا عليها، ففي الحديث: «كُلُّ كَلِمٍ يُكَلِّمُهُ الْمُسْلِمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ تَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهَا إِذَا طُعِنَتْ، تَفْجَرُ دَمًا، اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ، وَالْعَرَفُ عَرَفُ الْمَسْكِ»^(٤)، وهكذا من مات محرماً فإنه يُبْعَثُ ملياً^(٥).

وما من شك أن المقابلة بعيدة بين محشر أهل الإيمان، ومحشر أهل الكفران! قال جلَّ وعَلَا: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾^(٦) وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿[آل عمران: ١٠٦-١٠٧].

(١) أخرجه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه أحمد (٦٦٧٧)، والترمذي (٢٤٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه مسلم (١٨٧٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (١٢٦٥)، ومسلم (١٢٠٦) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٥- أرض المحشر والموقف وأحوال أهله:

إن أرض المحشر هي أرض مبدلة، غير الأرض التي كانت في الدنيا، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

وعلى هذه الأرض تطول وقفة الخلق في يوم قال الله فيه: ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

وهو يوم عسير على الكافرين، طويل عليهم، يقول تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦]، تشخص فيه أبصارهم، وتنخلع فيه أفئدتهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٤٢) ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٣].

وفي هذا اليوم تدنو الشمس من الرؤوس، «... فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ الْجَامَا»^(١).

أما الصالحون المتقون فهم آمنون مطمئنون، منهم: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَبَا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٤) من حديث المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»^(١).

٦- الشفاعة العظمى:

الشفاعة وساطة في جلب منفعة، أو دفع مضرة للغير، وأعظم شفاعة هي الشفاعة العظمى التي خُص بها نبينا ﷺ في أهل الموقف يوم القيامة أن يقضي الله بينهم، وله ﷺ شفاعات أخرى يشاركه فيها النبيون والشهداء والصالحون. وقد ورد في حديث هذه الشفاعة: استشفاع الناس بآدم، ثم بنوح، ثم بإبراهيم، ثم بموسى، ثم بعيسى عليهم الصلاة والسلام، كلهم يدفع الشفاعة عن نفسه، حتى ينتهوا إلى نبينا ﷺ.

يقول ﷺ: «فَأَنْطَلِقُ، فَأَتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقْعُ سَاجِدًا لِلرَّبِّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لِأَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهُ، اشْفَعْ تُشْفَعْ»^(٢).

وهذا هو المقام المحمود، كما في الحديث: «إِنَّ الشَّمْسَ تَدْنُو يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يَبْلُغَ الْعَرَقُ نَصْفَ الْأُذُنِ، فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ اسْتَغَاثُوا بِآدَمَ، ثُمَّ بِمُوسَى، ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَيُشْفَعُ لِيُقْضَى بَيْنَ الْخَلْقِ، فَيَمْشِي حَتَّى يَأْخُذَ بِحَلْقَةِ الْبَابِ، فَيَوْمَئِذٍ يَبْعَثُهُ اللَّهُ مَقَامًا مَحْمُودًا، يَحْمَدُهُ أَهْلُ الْجَمْعِ كُلُّهُمْ»^(٣).

وله ﷺ شفاعات أخرى، منها:

(١) شفاعته في أهل الجنة أن يدخلوها.

(٢) شفاعته في قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم أن يدخلوا الجنة.

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (١٤٧٤، ١٤٧٥) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

- ٣) شفاعته فيمن دخل الجنة أن يرتفعوا في درجاتها.
- ٤) شفاعته في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب.
- ٥) شفاعته أن يعفو الله عن أقوام استحقوا النار فلا يدخلوها.
- ٦) شفاعته في أهل الكبائر من أمته ممن دخل النار أن يخرج منها.
- ٧) شفاعته فيمن استحق النار أن يخفف عنه من عذابها.

٧- مجيء الله تعالى لفصل القضاء:

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، وقال سبحانه: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

وهذا المجيء والإتيان على ما يليق بجلال الله وكمال صفاته، إتيانا ومجيئا لا تشبيه فيه ولا تمثيل.

قال ابن تيمية - فيما نقله عن أبي عمر الطلمنكي (٤٢٩هـ) -: «أجمعوا - يعني: أهل السنة والجماعة - على أن الله يأتي يوم القيامة والملائكة صفا صفا لحساب الأمم وعرضها، كما يشاء، وكيف يشاء»^(١).

٨- العرض على الله تعالى:

المراد بالعرض هنا: عرض الخلائق على ربهم، لا تخفى عليه منهم خافية، وهذا العرض للمؤمن وغيره، قال تعالى: ﴿وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف: ٤٨].

(١) شرح حديث النزول، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط ٥، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م (ص ١٨٨).

وأما العرض الخاص فهو الحساب، وسيأتي الحديث عنه.

٩- تطاير الصحف وكتب الأعمال:

وبعد العرض العام والخاص يجاء بكتب الأعمال، وهي الصحف التي فيها الحقير والجليل من الأقوال والأعمال، وظاهر النصوص: أن أخذ الصحف يكون بعد العرض وعند الحساب وقبل الميزان.

قال تعالى: ﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤].

وقال سبحانه: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨].

وفي الحديث: «إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلَامَهُ: فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِمِثْلِهَا»^(١).

والمؤمن يأخذ صحيفته بيمينه، وأما الكافر فيُعطاها بشماله من وراء ظهره، كما دلت على ذلك الآيات.

١٠- الحساب وما يتضمنه:

إن الحساب والجزاء من أهم الغايات التي لأجلها يقوم الناس لرب العالمين، وهو مما أجمع عليه الأنبياء والمرسلون، قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ نُحْزِي كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [غافر: ١٧]، وقال سبحانه - في ذم المكذبين بالحساب -: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ [النبا: ٢٧].

ويتولى الله تعالى حساب الخلق بنفسه، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ

إِنَّا إِيَّاهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].

من الخلق من يحاسبه الله حسابا يسيرا بالتجاوز والفضل والستر،

(١) أخرجه البخاري (٤٢)، ومسلم (١٢٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومنهم من يحاسبون بالعدل، فالحساب نوعان:

- حساب المؤمنين:

وهو الحساب اليسير المذكور في قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ (٧) ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧-٨].

واليسير في الحساب على قدر الصلاح في الدنيا، فمن المسلمين من يناله من الشدائد والأهوال بحسب ذنوبه، من ذلك: ما ذكره رسول الله ﷺ في الحديث: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ»^(١).

ومن عباد الله المؤمنين من استثناهم الله فلا يحاسبون، ومنهم السبعون ألفا الذي ذكرهم النبي ﷺ.

- حساب الكفار والمنافقين:

وهو المناقشة، وهو عرض فضيحة على رؤوس الأشهاد، لا مغفرة فيه، ولا ستر، قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، وقال ﷻ: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَهُمُ جَهَنَّمُ﴾ [الرعد: ١٨].

وقال ﷻ: «وَلَيْسَ أَحَدٌ يُنَاقِشُ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا عُذِبَ»^(٢).

شهادة الشهود:

يتضمن الحساب: الإتيان بالشهود من الملائكة الحفظة، والكرام الكتبة، واستشهاد الأسماع والأبصار، وسائر الجوارح والأشهاد! قال تعالى:

(١) أخرجه مسلم (١٠٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٣٧) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].
حتى تشهد الأرض بما ارتكب عليها، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]، وفي الحديث: «... فَإِنْ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَوْ أُمَّةٍ بِمَا عَمَلَ عَلَى ظَهَرِهَا أَنْ تَقُولَ: عَمَلَ كَذَا وَكَذَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا»^(١).

ومن الشهود: الأنبياء يشهدون على أعمال أقوامهم، وعلى الجميع يشهد نبينا ﷺ، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].
كلام الله لعباده في الحساب:

مما يتضمنه الحساب كذلك: كلام الله تعالى لعباده في عرصات القيامة، أما الكافر فتقريع ونقمة، يقول ﷺ: «مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشَأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تَلْقَاءَ وَجْهِهِ؛ فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»^(٢).

وأما المؤمن فكلام تشریف ورحمة، يقول نبينا ﷺ: «يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، وَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقْرَأُهُ، ثُمَّ يَقُولُ: إِنِّي سَتَرْتُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ!»^(٣).

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٢٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (٧٥١٢) من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ..

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٧٠) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

١١- الميزان:

بعد الحساب تُنصب الموازين ليوم القيامة، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون، ومن خفت موازينه فأولئك هم الخاسرون، ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۖ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَهُوَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ ۖ ﴿٨﴾ فَأَمَّا هَٰؤُلَاءِ ۖ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ۖ ﴿١٠﴾ نَارُ حَامِيَةٍ ۖ ﴿١١﴾ ﴾ [القارة: ٦ - ١١].

والميزان حسي له كفتان ولسان، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى تعدد الموازين؛ لقوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

١٢- الحوض:

ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنْ قَدَرَ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ أَيْلَةٍ وَصَنْعَاءَ مِنَ الْيَمَنِ، وَإِنْ فِيهِ مِنَ الْأَبَارِقِ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ»^(١).

وورد في صفة الحوض قول رسول الله ﷺ: «إِنْ لِي حَوْضًا مَا بَيْنَ أَيْلَةٍ إِلَى صَنْعَاءَ عَرْضُهُ كَطُولِهِ، فِيهِ مِزَابَانِ يَنْشَعَبَانِ مِنَ الْجَنَّةِ: مِنْ وَرَقٍ، وَالْآخَرُ مِنْ ذَهَبٍ، أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَبْرَدُ مِنَ الثَّلْجِ، وَأَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ حَتَّى يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، فِيهِ أَبَارِقُ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ»^(٢).

والأحاديث في الحوض كثيرة، قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «أحاديث الحوض صحيحة، والإيمان به فرض، والتصديق به من الإيمان، وهو على ظاهره عند أهل السنة والجماعة، لا يُتَأَوَّل ولا يُخْتَلَف فيه»^(٣).

وقد قيل: إن الناس يَرُدُّون الحوض قبل الصراط، وقيل: بل بعده،

(١) أخرجه البخاري (٦٥٨٠)، ومسلم (٢٣٠٣) من حديث أنس بن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ عَنهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١٩٨٠٤)، وابن حبان (٦٤٥٨). من حديث أبي برزة الأسلمي رَحِمَهُ اللَّهُ عَنهُ.

(٣) شرح مسلم، للنووي (١٥٠/٥).

وقيل: بأنهما حوضان أحدهما قبل الصراط، والآخر بعده، وقيل: بأنه حوض واحد، يردّه المؤمنون قبل الصراط وبعده، وذلك كله بالاجتهاد.

١٣- الصراط:

الصراط جسر يُنصبُ على متن جهنم يوم القيامة، أدق من الشعرة، وأحد من السيف، يرّده الأولون والآخرون من المسلمين بحسب أعمالهم، فجاج مسلم، ونجاج مخدوش، ومكدوس في النار^(١).

قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ ﴿٧١﴾ ثُمَّ نَجَّيَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ [مريم: ٧١ - ٧٢]، فورود الكفار النار دخول فيها، وورود المؤمنين مرور عليها.

وفي الحديث: «... وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرِي جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ، سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِيْبٌ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمُ السَّعْدَانِ؟ قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا قَدْرُ عَظَمَتِهَا إِلَّا اللَّهُ، تَخْطِفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ الْمُؤْمِنُ بَقِيَ بَعْمَلِهِ، وَمِنْهُمْ الْمُجَارَى حَتَّى يُنَجَّى...»^(٢).

فشعار الرسل على الصراط: رب سَلِّمْ سَلِّمْ؛ ذلك أنه ممر رهيب، وعقبة خطيرة، عليه من أنواع الأهوال ما لا يعلمه إلا الله^(٣).

(١) شرح مسلم، للنووي (٢٠/٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) الحياة الآخرة، د. غالب العواجي، المكتبة العصرية الذهبية، جدة، ط ٢، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م (٣/١٢٣٨ - ١٢٣٩).

والصحيح أن الكفار والمشركين لا يعبرون الصراط، وإنما يقعون في النار قبل نصب الصراط، ثم يجوز من كان يعبد الله من بر وفاجر، فبين ناج ومعذب؛ لما في الحديث: «...إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذِنَ مُؤَذِّنٌ: تَتَّبِعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، فَلَا يَبْقَى مَن كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ، إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَن كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ بَرٌّ أَوْ فَاجِرٌ، وَغُيِّرَتْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَيُدْعَى الْيَهُودُ فَيَقَالُ لَهُمْ: مَن كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عَزِيرَ ابْنِ اللَّهِ، فَيَقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَمَاذَا تَبْغُونَ؟ فَقَالُوا: عَطَشْنَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ أَلَّا تَرُدُّونَ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهُمَا سَرَابٌ يَحْطُمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ.

ثم يُدْعَى النَّصَارَى فَيَقَالُ لَهُمْ: مَن كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ، فَيَقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ، مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَيَقَالُ لَهُمْ: مَاذَا تَبْغُونَ؟ فَكَذَلِكَ مِثْلَ الْأَوَّلِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَن كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ...»^(١).

١٤- القنطرة:

إذا اجتاز المؤمنون الصراط وقفوا على قنطرة ليقتص بعضهم من بعض في مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِبُوا ونُقُوا أُذِنَ لَهُمْ بدخول الجنة. وفي الحديث المرفوع: «إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا نُقُوا وَهُذِبُوا، أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ...»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٤٥٨١)، ومسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٥- المآل إلى دار القرار:

بجواز الصراط ينقسم الناس إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير. والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان ولا تبدان، وكلتاها معد للمتقين والكافرين، وقد دخل نبينا ﷺ الجنة ليلة الإسراء، ورأى من نعيمها ما رأى^(١). والجنة ونيعمها درجات، والنار وعذابها دركات، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢].

ذكر النار:

أما الكفار وسائر أصناف المشركين والملحدين فقد أَووا إلى أمهم الهاوية، ووردوا نار الجحيم، وبئس الورد المورد، يحشرون إلى النار زمراً، ويدعون إلى جهنم دعا، ويساقون على وجوههم عمياً وبكماً وصماً! والنار هي دار النكال والبوار، لا يعلم مكانها إلا الله، ولها خزنة من الملائكة، رأسهم مالك، الذي قص الله من شأنه مع الكفار، فقال: ﴿وَنَادُوا بِمَلِكٍ لِّيَقْضِ عَلَيْهِمْ نَارُكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وهي بعيدة القعر، شديدة الحر، لها زفير ووعيد، وتنادي: ﴿هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، وليأتين عليها يوم وهي ملأى، كما قال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

وليؤتين بها يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر: ٢٣]. وفي الحديث: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زَمَامٍ، مَعَ كُلِّ زَمَامٍ

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا»^(١).

ولها سبعة أبواب، كما قال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤]، فإذا دخل أهل كل باب من بابهم الذي قسم لهم أغلقت وأوصدت، قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَلَوْنَهَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿[البلد: ١٩ - ٢٠].

ومن أهل النار من يدخلها دخول الأبد، وهم كل كافر ومشرِك، ومنهم من يدخلها إلى أمد، وهم عصاة أهل الإيمان، من أهل الكبائر والعصيان، حتى يخرجوا برحمة الله من النيران.

ذكر الجنة:

الجنة دار المتقين، ومأوى الصالحين، وجائزة الصابرين الصادقين، قال تعالى: ﴿فَمَنْ رُحِّحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ثم هي مع ذلك محض فضل رب العالمين، فليست أعمال العباد ثمنًا تُستَحَقُّ به الجنة، بل هي سبب لتحصيل رحمة الله بدخولها، وسبب لتفاضل أهلها، أما أصل دخولها فمحض فضل الله وجوده وإحسانه.

فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، موضع السوط منها خير من الدنيا وما فيها!

وأول من يدخلها من البشر: نبينا ﷺ، وأول من يدخلها من الأمم: أمة نبينا ﷺ، فقد قال: «أَتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتَحُ، فَيَقُولُ الْحَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أَمْرٌ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ»^(٢).

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٢) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (١٩٧) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أكثر أهلها: الفقراء والضعفاء، وإليها يسبقون الأغنياء، ففي الحديث: «قُمْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَكَانَ عَامَةً مَن دَخَلَهَا الْمَسَاكِينُ، وَأَصْحَابُ الْجَدِّ مَحْبُوسُونَ، غَيْرَ أَنَّ أَصْحَابَ النَّارِ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، وَقُمْتُ عَلَى بَابِ النَّارِ فَإِذَا عَامَةً مَن دَخَلَهَا النِّسَاءُ»^(١).

وأصحابها فيها متفاوتون، قال تعالى: ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١]، و«إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»^(٢)، وأعلى تلك المنازل: الفردوس الأعلى.

وللجنة أبواب ثمانية، تراها مسك، وحصباؤها در وياقوت، وبنائوها لبنة ذهب ولبنة فضة، لا يبلى لأهلها ثياب، ولا يفنى لهم شباب، فيها أنهار ظاهرة وباطنة، وفيها نهر الكوثر حافته قباب اللؤلؤ والدر المجوف، وطينه مسك أذفر، فيها عيون من كافور وتسليم وسلسيل.

رائحتها زكية، وثمارها دانية، وغرفها عالية؛ فاللهم إنا نسألك: أن تكون من سابق أهلها، ومن أهل فردوسها، ثم تفضل بأفضل عطاياك وأكرم هباتك في جنات النعيم، برؤية وجهك الكريم، واجعلنا ربنا ممن قلت فيهم: ﴿دَعْوُهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَنَحْيَهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَعَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

(١) أخرجه البخاري (٥١٩٦)، ومسلم (٢٧٣٦) من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٩٠) من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٦- رؤية العباد لربهم تعالى:

كما يكلم الله عباده فإنه ينظر إليهم، وينظر إليه أهل الإيمان دون أهل النفاق والكفران، قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۖ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، أما الكفار فقال عنهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّحَجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]. وفي الحديث: «قال أناس: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: هَلْ تُضَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: هَلْ تُضَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ...»^(١).

١٧- ذبح الموت:

إذا صار كل إلى قراره ذبح الموت فلا موت أبدا.

فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُوتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٌ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَسْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَوْهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَسْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَوْهُ، فَيَذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩]»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رابعاً: آثار وثمرات الإيمان باليوم الآخر:

الإيمان باليوم الآخر مشترك بين أهل الشرائع الإلهية المنزلة، وهو حق يؤمن به كل أتباع الرسالات الإلهية، وآثار الإيمان باليوم الآخر عميقة في النفس البشرية وسلوكها ومواقفها، ومن تلك الثمرات والآثار ما يلي:

١- الانبعاث إلى فعل الطاعات ورغبة وحرصاً:

ذلك أن من آمن بيوم يثاب فيه أهل الإيمان والعمل الصالح بادر إلى الطاعة، وسابق إليها، واجتهد وجاهد في سبيل إقامتها، حتى يكون كالذين نزل فيهم قول الله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

٢- الانكفاف عن المعاصي رهبة وخوفاً:

إن من آمن بوجود نار تلظى لا يصلاها إلا الأشقى، ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿[الطور: ٧-٨]؛ فإن قلبه يوجل من عذاب الآخرة، وهذا الخوف من نار الله تعالى وعقوبته يحمل القلب على تقوى الرب، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ، يَعْبادُونَ﴾ [الزمر: ١٦].

٣- امتلاء القلب بتعظيم الرب:

ويتأتى هذا بتدبر العبد ما يكون من أحداث يوم القيامة؛ من قبض الأرض، وطي السماوات، وانفجار البحار، وتكوير الشمس والأقمار، إلى غير ذلك من آثار العزة والجبروت، الشاهدة بقول الله: ﴿الْمَلِكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

٤- الزهد في الدنيا وطلب الآخرة:

ذلك أن من أيقين بزوال الدنيا بأسرها لا يتعلق بشيء من حطامها، ولا يتبع نفسه هواها!

فيعظ نفسه بقوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦-١٧]، ويذكر نفسه بقول الله: ﴿إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر: ٣٩].

٥- تحصيل سعادة الدنيا والآخرة:

إن المؤمن باليوم الآخر يملك من السعادة ما لا يملكه سواه؛ ذلك أنه يؤمن بخيرية ذاته، وخيرية عمله، وخيرية ماله ومصيره بعد موته!

فالله تعالى حدثه عن كرامته، فقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠].

وحدثه عن عمله ووظيفته، فقال له: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

وحدثه عن ماله ومصيره إذا عمل بالصالحات، فقال له: ﴿يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزخرف: ٦٨-٦٩]، وحذره من مال الفاسقين، فقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤].



الركن السادس: الإيمان بالقضاء والقدر



الإيمان بالقضاء والقدر آخر أركان الإيمان الستة، ونعرض تفصيلاً للإيمان بالقضاء والقدر في النقاط التالية:

أولاً: معنى القضاء والقدر:

تعددت عبارات العلماء وتنوعت في معنى القضاء والقدر، وأجمعها قول ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «هو علم الله وكتابه، وما طابق ذلك من مشيئته وخلقهِ»^(١). وقد بحث العلماء في الفرق بين القضاء والقدر، بين مثبت للفرق ونافٍ له، والحق أنهما متلازمان وجوداً، وإن سُلِمَ اختلافهما مفهوماً. يقول الخطابي رَحِمَهُ اللهُ: «وجماع النقول في هذا الباب: أنهما أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما بمنزلة الأساس، والآخر بمنزلة البناء»^(٢).

ثانياً: حكم الإيمان بالقضاء والقدر وأدلته:

الإيمان بالقضاء والقدر ركن الإيمان، وأصل من أصول الاعتقاد، فلا يصح إيمان عبد لم يؤمن بالقدر جملة، ومن أخل ببعض تفاصيله فقد زلت به القدم، وضل عن سواء السبيل!

قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله عَزَّ وَجَلَّ وآمن

(١) جامع الرسائل (٢/ ٣٥٥).

(٢) معالم السنن، لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي، المطبعة العلمية - حلب، ط ١، ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م (٤/ ٣٢٣).

بالقدر فهي العروة الوثقى التي لا انفصام لها، ومن وحد الله تعالى وكذب بالقدر نقض التوحيد»^(١).

فيجب على كل مؤمن أن يؤمن بأن الله تعالى علم ما سيقع في كونه من الكائنات قبل أن يخلقها، وعلم أزمانها وأماكنها وصفاتها، ثم إنه تعالى كتب ذلك عنده، وشاء وقوع ذلك على ما علمه وكتبه، ثم أوجد ما سبق في علمه أن يُوجد، فكل ما وقع وسيقع إنما هو صادر عن علمه ومشيئته وقدرته.

على هذا دل الكتاب والسنة، وأجمع سلف الأمة، فمن هذه الأدلة:

قال الله جلَّ وعَلَا: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وقال جلَّ وعَلَا: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

وحديث جبريل المشهور في أركان الإيمان، وذكر منها: «... وَتُؤْمَنُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ...»^(٢).

وحديث: «لَا يُؤْمَنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمَنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئْهُ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبْهُ»^(٣).

وحديث: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ؛ احْرَصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ؛ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنْ لَوْ تَفَتَّحَ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»^(٤).

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة (٩٢٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٧٧، ٥٠)، ومسلم (٩، ١٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الترمذي (٢١٤٤) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأما الإجماع على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر فمنعقد سلفاً وخلفاً.
قال اللالكائي رَحِمَهُ اللهُ - عن الإيمان بالقدر -: «فتفرق الناس وما يختلف في القدر اثنان... فإن كان في الدنيا إجماع بانتشار من غير إنكار فهو في هذه المسألة؛ فمن خالف قوله فيها فهو معاند مشاقق يلحق به الوعيد، وهو داخل تحت قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]»^(١).
وقال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «وقد تظاهرت الأدلة القطعية من الكتاب والسنة، وإجماع الصحابة وأهل الحل والعقد من السلف والخلف على إثبات قدر الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى»^(٢).

والإيمان بالقدر من الإيمان بالله تعالى وأسمائه وصفاته.
إذ الأمر كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: «القدر: قدرة الله على العباد»^(٣)، فمن آمن بربوبية الله لزمه أن يؤمن بانفراد الله تعالى بتدبير الكون وخلق ما فيه، وذلك من القدر، ومن آمن بصفات الله تعالى فقد آمن بالقدر؛ لأن من صفاته: العلم، والمشيئة، والإرادة، والقدرة، وهي أصول الإيمان بالقدر.
وأخيراً: فإن الإيمان بالقدر منه مجمل، ومنه مفصل:

فأما المجمل: فهو الإيمان بأن كل شيء بقدر، وأن الله جَلَّ وَعَلَا هو مقدر هذه الأقدار، والإيمان بما ورد من النصوص، والبراءة العامة من كل انحراف.
وأما المفصل: فهو الإيمان تفصيلاً بمراتب القدر، وأركانه، والإيمان

(١) شرح أصول الاعتقاد (٤/ ٧٢٦).

(٢) شرح صحيح مسلم (١/ ١٥٥).

(٣) السنة، للخلال (٣/ ٥٤٤).

التفصيلي بالنصوص الواردة فيه، والقدرة على رد ما قد يثار من شبهات، ويقع من انحرافات، وهذا يتفاوت فيه العباد بحسب ما أوتوا من العلم. والإيمان بالقدر إجمالاً فرض على كل مسلم ومسلمة، وأما تفصيلاً فهو فرض كفاية، فلا بد أن يكون في العلماء من يُحسن أن يُقرر القدر بأدلتها، ويجيب عن التساؤلات فيه، ويرد على الشبهات.

ثالثاً: قاعدة قبل البحث في القدر:

لأهل السنة في باب القدر قاعدة مضمونها: «الإيمان بالقدر ركن الإيمان، والخوض في غيبه أمر مذموم».

فالأمر بالإيمان بالقضاء والقدر ركن مضى ذكره بالأدلة، ثم إنه ورد النهي عن تكلف الخوض في القدر، وما يتضمنه من الغيوب.

ففي الحديث: أن النبي ﷺ خرج على أصحابه وهم يتنازعون في القدر، فغضب غضباً شديداً، ثم قال: «أَبْهَذَا أُمِرْتُمْ، أَمْ بِهَذَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ؟! إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حِينَ تَنَازَعُوا فِي هَذَا الْأَمْرِ، عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَتَنَازَعُوا فِيهِ»^(١). وفي رواية: «بِهَذَا أُمِرْتُمْ، أَوْ لِهَذَا خُلِقْتُمْ؟! تَضْرِبُونَ الْقُرْآنَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، بِهَذَا هَلَكْتَ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ»^(٢).

وقال على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لمن سألته عن القدر -: «سر الله؛ فلا تكلفه»^(٣).

والمقصود: أن القدر ركن الإيمان؛ فيجب الإيمان به إيماناً صحيحاً،

(١) أخرجه الترمذي (٢١٣٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٦٦٦٨)، وابن ماجه (٨٥) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه الآجري في الشريعة (٤٢٢)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٤ / ١٤٠)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١١٢٢).

كما آمن به أصحاب نبينا ﷺ، ولا يكون ذلك إلا باتباع الآيات والأحاديث الصحيحة، وما نُقل عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في فهمه وإدراك أحكامه، دون خوض فيما لم يبينه الله لنا من أمر القدر، كالسؤال عن علل أقدار الله، ونحو ذلك.

وقد سأل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ النبي ﷺ عن القدر وأجابهم ولم يزرهم، فلما وقع خوض فيما نهى الله عنه غضب وزجرهم، وهكذا فعل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مع التابعين تعلّما، ومع المخالفين زجرا وتأديبا. فنهى النبي ﷺ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ محمول على ما يأتي:

١- الخوض في القدر على منهج فاسد:

ويشمل:

- الجري في بحث مسائل القدر على طرائق المبتدعة والفلاسفة والكفار، ووفقا لأصولهم المخالفة لمنهج أهل السنة والجماعة.
 - محاولة اختراق حجب الغيب، وكشف ما ستره الله من علم القدر الذي لا سبيل إليه؛ كالبحث عن علل أقدار الله على التفصيل، وغير ذلك من التكلف، الذي نهى الله عنه، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ:
- وَأَصْلُ ضَلَالِ الْخَلْقِ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ هُوَ الْخَوْضُ فِي فَعْلِ الْإِلَهِ بَعْلَةً فَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَفْهَمُوا حِكْمَةَ لَهُ فَصَارُوا عَلَى نَوْعِ الْجَاهِلِيَّةِ^(١)

(١) القصيدة الثائية في القدر، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، شرح وتحقيق: محمد بن إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة - الرياض، ط ١، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م (ص ١١١، ١١٤).

وغيب القدر جانب خفي، وفيه يدخل نحو: لماذا هدى الله فلانا، وأضل فلانا؟ ولماذا قدر الله المعاصي وعاقب عليها؟ ولماذا أفقر فلانا وأغنى غيره... والله سبحانه يقول: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. والخوض في هذا خوض في كنه وحقيقة صفات الله جَلَّوَعَلَا من العلم والمشئمة، والخلق والحكمة، ولا سبيل للعقل إلى ذلك.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «والمقصود: التنبيه على أن العقول تعجز عن إدراك كنه الغاية المقصودة بالأفعال، كما تعجز عن إدراك كنه الفاعل»^(١). ومثل هذه المسالك لا تهدي أصحابها، ولا تزيدهم إلا حيرة؛ ولهذا تواتر نهي علمائنا عن الدخول في هذا المرتع الويل!

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ: «والقدر سر الله لا يُدْرَك بجَدال، ولا يَشْفِي منه مقال، وقد تظاهرت الآثار، وتواترت الأخبار، عن السلف الأخيار بالاستسلام والانقياد والإقرار: بأن علم الله سابق، ولا يكون في ملكه إلا ما يريد، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]»^(٢).

وما أسره الله من علم القدر فلرحمته بعباده، وللطفه بخلقه؛ لئلا يفتتنوا ويتركوا العمل، ويتكلوا على ما كتب من المصير في الأزل، فيكونوا بين أمن وقنوط، وأولى بهم وأحرى أن يكونوا بين خوف ورجاء.

(١) بيان تلبيس الجهمية، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: مجموعة من المحققين، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط ١، ١٤٢٦هـ (٨/٢).

(٢) التمهيد (٦/١٣ - ١٤).

٢- دخول غير المتأهل فيما لا يحسنه:

وذلك لأن هذا الباب يحتاج في بحثه إلى تأهل بعلوم الشريعة، وإدراك لمراميها، وقد قال ﷺ - في سياق التحريم -: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩]، ويقول سبحانه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

٣- التنازع المفضي للافتراق والافتتان:

فذلك لتضمنه ضرب آيات الكتاب بعضها ببعض، وقد تقدم النهي عن ذلك؛ لقوله ﷺ - لبعض أصحابه -: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ مَا اتَّخَفَتْ قُلُوبُكُمْ، فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فَمُوقُوا عَنْهُ»^(١).

وقد يشمل التنازع في مثل: لم قدر الله كذا؟! وهل يغفر الله لفلان أو فلان؟! وما قد يتضمنه من التآلي على الله، ونحو ذلك^(٢).

أما من درس القدر وخاض فيه بأهلية، وعلى الوجه المشروع فقد دخل في باب من أبواب العلم التي تزيده إيماناً وعرفاناً و يقيناً، وقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فمن بعدهم يبحثون ذلك، ويباحثون به طلبتهم من التابعين.

ومن ذلك: أن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال يوماً - لأبي الأسود الدؤلي رَحِمَهُ اللَّهُ -: «أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، شيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر ما سبق؟ أو فيما يستقبلون به مما أتاهاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بل شيء قضي عليهم، ومضى عليهم، قال: فقال: أفلا يكون ظلماً؟

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٠)، ومسلم (٢٦٦٧) من حديث جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) القواعد الكلية في باب القدر، لربيع أحمد البيطار، مركز البصائر للبحث العلمي، ط ١،

قال: ففزعْتُ من ذلك فزعا شديدا، وقلتُ: كل شيء خلق الله وملكُ يده، ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، فقال لي: يرحمك الله، إني لم أرد بما سألتك إلا لأحزر عقلك، إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس اليوم، ويكدحون فيه، أشيء قُضي عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟

فقال: لا، بل شيء قُضيَ عليهم ومَضَى فيهم، وَتَصَدِّقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧-٨] ^(١).

رابعاً: أركان الإيمان بالقدر:

للإيمان بالقدر أركان أربعة تتوقف صحة الإيمان بالقدر على الإيمان بها، وكلها دلت عليه الآيات والأحاديث، واتفق أهل السنة، وفيما يأتي بيان تلك الأركان:

الركن الأول: الإيمان بالعلم:

وهو الإيمان بعلم الله المحيط بالموجودات والمعدومات، والممكنات والمستحيلات، فهو علم لا أول له، ولا آخر، يشمل: الكليات والجزئيات، وما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، لم يُسبق بجهالة، ولا يُلحق بنسيان، ولا يعتريه نقص بحال، وعلم الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى بعباده وأعمالهم ومآلهم لا يضطر طائعا إلى الطاعة، ولا عاصيا إلى المعصية.

والإيمان بهذا الركن من المعلوم من الدين بالضرورة، دل عليه الكتاب والسنة، وإجماع أهل الملة.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٠).

قال الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، وقال ﷺ: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الحشر: ٢٢].
وقد قال ﷺ: - في أبناء المشركين الذين ماتوا صغاراً -: «اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ»^(١).

وفي الحديث - أيضاً -: «... وَإِنْ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ...: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]»^(٢).
وقد نقل المزمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٦٤هـ) جُمَلًا من عقيدة أهل السنة، ومنها: «أحاط علمه بالأمور، وأنفذ في خلقه سابق المقدور، وهو الجواد الغفور، ﴿يَعْلَمُ حَآيَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، فالخلق عاملون بسابق علمه، ونافذون لما خلقهم له من خير وشر، لا يملكون لأنفسهم من الطاعة نفعاً، ولا يجدون إلى صرف المعصية عنها دفعا»^(٣).

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذه مقالات وأفعال اجتمع عليها الماضون الأولون من أئمة الهدى، وبتوفيق الله اعتصم بها التابعون قدوة ورضا، وجانبوا التكلف فيما كُفُوا، فسُدُّوا بعون الله ووفقوا، لم يَرِغِبُوا عن الاتباع فيقصروا، ولم يجاوزوه تزيذا فيعتدوا، فنحن بالله واثقون، وعليه متوكلون، وإليه في اتباع آثارهم راغبون»^(٤).

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٤)، ومسلم (٢٦٥٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢٣١٢٧) من حديث رجل من بني عامر.

(٣) شرح السنة، لإسماعيل بن يحيى بن إسماعيل، أبو إبراهيم المزمي، تحقيق: جمال عزون، مكتبة الغرباء الأثرية - السعودية، ط ١، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م (ص ٧٥ - ٧٦).

(٤) شرح السنة، للمزمي (ص ٨٩).

حكم من أنكر ركن العلم:

أنكر القدرية الأوائل علم الله السابق، وزعموا: أن الله لا يعلم الأمر إلا بعد وقوعه! ولقد نص الأئمة على أن من أنكر علم الله السابق، فقد أنكر صفة الله الثابتة المجمع عليها، وهو كافر - عياذاً بالله-، وهو منقول عن عمر بن عبد العزيز ومالك وغيرهما^(١).

قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «ناظروا القدرية بالعلم فإن أقروا به خُصِمُوا، وإن أنكروا كفروا»^(٢).

وقال عبد الله بن أحمد رَحِمَهُ اللهُ: «سمعت أبي يقول: إذا قال الرجل: العلم مخلوق فهو كافر؛ لأنه يزعم: أنه لم يكن له علم حتى خلقه»^(٣).

وهذا المذهب في غاية البطلان؛ ولهذا انقرض من الأرض، أو يكاد! قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «وقد ترك اليوم، فلا يعرف من يُنسب إليه من المستأخرين من أهل البدع المشهورين، والقدرية اليوم مطبقون على أن الله تعالى عالم بأفعال العباد قبل وقوعها»^(٤).
وقد أنكر الفلاسفة المنتسبون للإسلام علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْجَزِيئَاتِ؛ فكفرهم الغزالي^(٥).

(١) السنة، للخلال (١/٥٣٣).

(٢) شرح الطحاوية، لابن أبي العز (٢/٣٥٤).

(٣) السنة، للخلال (١/٢٥٩).

(٤) المفهم، للقرطبي (١/١٣٢-١٣٣).

(٥) تهافت الفلاسفة، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، تحقيق: الدكتور سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة - مصر، ط٦ (ص ٣٠٧-٣٠٨).

أما أهل الإسلام والسنة فيقولون كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ^(١):
وَهُوَ الْعَلِيمُ بِمَا يُوسُوسُ عَبْدُهُ فِي نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ نُطْقٍ لِسَانٍ
بَلْ يَسْتَوِي فِي عِلْمِهِ الدَّانِي مَعَ الْـ قَاصِي وَذُو الْإِسْرَارِ وَالْإِعْلَانِ
وَبِكُلِّ شَيْءٍ لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْـ فَكَيُونُ مَوْجُودًا لَدَى الْأَعْيَانِ

الركن الثاني: الإيمان بالكتابة:

وهو الإيمان الجازم بأن الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى كتب في اللوح المحفوظ كل ما هو كائن إلى يوم القيامة، فليس ثمة شيء يقع في الكون - إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها - إلا وهو مكتوب في اللوح المحفوظ، وقد رُفعت عنه الأقلام، وجفت به الصحف.

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ [الحج: ٧٠]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].
وقال ﷺ: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قال: وَعَرَّشُهُ عَلَى الْمَاءِ»^(٢).

وقد وقع الإجماع من أهل السنة على وجوب الإيمان بالكتابة؛ كإجماعهم على وجوب الإيمان بالعلم.

قال أبو الحسن الأشعري رَحِمَهُ اللهُ: «وأجمعوا على أنه تعالى قد قدر جميع أفعال الخلق... وأثبت في اللوح المحفوظ ما هو كائن منهم إلى يوم

(١) نونية ابن القيم، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط ٢، ١٤١٧ هـ (ص ٣٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

يبعثون»^(١).

والكتابة أنواع، منها: الكتابة الأزلية في اللوح المحفوظ، والكتابة العُمرية، وهي ما يكتبه المَلَكُ قبل نفخ الروح في الجنين، كما في الحديث: «... ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤَمَّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكُتُبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِي أَوْ سَعِيد...»^(٢)، ومنها: كتابة حولية في ليلة القدر، وكتابة يومية في صحف الملائكة.

حكم من أنكر الكتابة:

إن الإيمان بالكتابة فرع الإيمان بالعلم السابق، وعليه؛ فإن إنكار الكتابة في اللوح المحفوظ كفر كإنكار العلم، والتكذيب بها تكذيب بصريح القرآن الكريم^(٣).

المحو والإثبات:

أشكل على البعض قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]، فظنوا أن الكتابة الأزلية في اللوح المحفوظ تُمحى وتُثبت، والحق بخلاف ذلك، فالكتابة نوعان: نوع سابق على العمل: وهو ما ذكرناه مما يكون في اللوح المحفوظ، وهذا لا تغيير فيه، ولا تبديل، وهو القضاء المبرم.

(١) رسالة إلى أهل الثغر، لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، تحقيق: عبد الله شاکر المصري، مكتبة العلوم والحكم، السعودية، لبنان، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م (ص ٢٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) فتح الباري (١١/٤٨٩).

نوع لاحق على العمل: وهو كتابة الملائكة أفعال العباد وأقوالهم، وهذا يقبل التغيير والتبديل، ويقال له: القضاء المعلق^(١).

فالمحو الإثبات يتعلق بما في علم المَلَك وما في صحيفته التي كتبها، وليس بما في علم الله، وما في اللوح المحفوظ.

وهذا يفهم قول النبي ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسَيِّطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ؛ فَلْيَصِلْ رَحْمَهُ»^(٢).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «والجواب المحقق: أن الله يكتب للعبد أجلا في صحف الملائكة، فإذا وصل رحمه زاد في ذلك المكتوب، وإن عمل ما يوجب النقص نقص من ذلك المكتوب»^(٣).

وعلى هذا النحو يفهم ما ورد من دعاء أبي وائل رَحِمَهُ اللهُ: «اللهم إن كنتَ كتبتنا أشقياء فامحنا، واكتبنا سعداء، وإن كنتَ كتبنا سعداء فأثبتنا؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب»^(٤).

الركن الثالث: الإيمان بالمشيئة:

يجب الإيمان بمشيئة الله تعالى النافذة، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ومشيئته تعالى شاملة لكل ما يقع في الكون؛ فلا يخرج عن مشيئته شيء. لا يكون في كونه إلا ما يريد^(٥)، يُضِلُّ من يشاء بعدله، ويهدي من أراد

(١) فتح الباري (١١/٤٨٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٨٦)، ومسلم (٢٥٥٧) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) مجموع الفتاوى (١٤/٤٩٠ - ٤٩١).

(٤) تفسير الطبري (١٦/٤٨١).

(٥) شفاء العليل، لابن القيم (٨٠).

بفضله، وكل ميسر بتيسيره إلى ما سبق من علمه وقدره^(١).
 قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]،
 وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١].
 وفي الحديث القدسي الذي احتجت فيه الجنة والنار: «فَقَالَ اللَّهُ ﷻ لِهَذه - أي: للنار -: أَنْتَ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ، وَقَالَ لِهَذه - أي: للجنة -: أَنْتَ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مَلُؤُهَا»^(٢).
 ولما قال بعض الناس للنبي ﷺ: «ما شاء الله وشئت»، قال ﷺ: أَجَعَلْتَنِي
 لله عَدَلًا؟ قُل: مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ»^(٣).

يقول الإمام أبو بكر الإسماعيلي رَحِمَهُ اللَّهُ - عن مذهب أهل السنة -:
 «ويقولون ما يقوله المسلمون بأسرهم: ما شاء الله كان، وما لا يشاء لا
 يكون»^(٤).

وللعبد مشيئة واختيار وإرادة وقدرة، وهي تابعة جميعاً لمشيئة الله
 تعالى، وأفعال العباد مرادة لأصحابها، إلا أنها لا تقع إلا بمشيئة الله.
 مشيئة الله والفرق بينها وبين الإرادة الكونية والشرعية:
 إن مشيئة الله تعالى في هذا المقام هي إرادة الله تعالى الكونية، فما شاءه

(١) مقدمة ابن أبي زيد القيرواني، لأبي محمد عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن النفزي،
 القيرواني، المالكي، تحقيق: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار العاصمة (ص ٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٤٩)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (١٠٧٥٩)، وابن ماجه (٢١١٧)، وحسنه العراقي والألباني
 من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) اعتقاد أئمة الحديث، لأبي بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن العباس بن مرداس
 الإسماعيلي الجرجاني، تحقيق محمد بن عبد الرحمن الخميس، دار العاصمة -
 الرياض، ط ١، ١٤١٢ هـ (ص ٥٧).

الله تعالى قدرا هو ما أراد وقوعه في كونه تعالى، قال ﷻ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]؛ فالإرادة الكونية والمشیئة بمعنى واحد في الاصطلاح الشرعي.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «المشيئة: إرادة الله تعالى»^(١).

أما التباين والاختلاف فهو بين المشیئة القدرية وبين المحبة الشرعية، فالله ﷻ أمر بأوامر وشرائع، وأرادها من عباده دينا وشرعا، ولا يلزم من ذلك: أن يريد وقوعها كونا، فالله تعالى أراد الإيمان من الكفار شرعا، ولم يُرد وقوعه قدرا وكونا، كما أن ما وقع في الكون من شر وفساد إنما وقع بمشيئة الله وعلمه، وإن كان ممقوتا عند الله دينا وشرعا.

فلا تستلزم المشیئة القدرية الكونية المحبة الإلهية الشرعية؛ فكل ما يحصل في الكون من خير أو شر لا يكون إلا بمشيئة الله ﷻ، ولكن الله تعالى لا يحب إلا الخير والصالح الذي أمر به وشرعه على ألسنة رسله. والمشيئة لم ترد في القرآن الكريم والسنة إلا بالمعنى الكوني القدری، بخلاف الإرادة التي وردت بالمعنيين، فهي من هذا الوجه أعم من المشیئة.

الركن الرابع: الإيمان بالخلق:

يؤمن أهل السنة بأن الله تعالى موصوف بصفة الخلق، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خالق كل شيء، وخالق كل عامل وعمله، لا خالق سواه، ولا رب غيره،

(١) الأسماء والصفات، لأحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوِجَرْدِي الخراساني، أبو بكر البيهقي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادي، جدة - المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م (١/٣٦٦).

فهو الخالق وما سواه مخلوق، وأفعال العباد تُسند إليهم فعلا، وتُسند إلى الله تعالى خلقا.

هذه عقيدة أنبياء الله تعالى ومرسله، وعليها أطبقت الكتب الإلهية، والفطر البشرية، والعقول الزكية.

قال الله ﷻ: ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢].

وقال ﷻ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦].

وقال ﷻ: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآذَنْ تُؤَفِّكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

ويقول النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنَعَتَهُ»^(١).

قال الإمام البخاري - تعليقا على هذا الحديث -: «فأخبر: أن الصناعات وأهلها مخلوقة، وإذا كان الله خالقا للصناعات لزم أن يكون هو الخالق للتأليف الذي أحدثوه فيها، فإنما صارت الصناعات وتكونت بهذا التأليف، والتأليف هو فعل العبد، فأفعال العباد مخلوقة»^(٢).

وقد انعقد إجماع السلف الصالح رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ، وَمَا يَعْمَلُونَ، وَأَنَّهُ خَالِقُ الْأَعْيَانِ وَالصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ وَالْآثَارِ.

قال اللالكائي رَحِمَهُ اللَّهُ: «سياق ما نُقِلَ مِنْ إجماع الصحابة والتابعين... أَنَّ أفعال العباد كلها مخلوقة لله، طاعاتها ومعاصيها، وهو مذهب أهل السنة والجماعة يتوارثونه سلفا عن خلف من لدن رسول الله ﷺ، لا شك

(١) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (١٢٤) وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٦٠٣٧)

من حديث حذيفة رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) خلق أفعال العباد (٦٦/٢).

ولا ريب^(١).

درء التعارض بين خلق الله لأفعال العباد، وبين كونهم فاعلين لها حقيقة: إذا تقرر أن الله تعالى هو خالق أفعال العباد، فإن هذا لا ينافي أن للعباد إرادة ومشية، وأنهم ممكنون من الفعل والاختيار، ومن أدلة ذلك: إضافة الأعمال والأقوال والإرادات إلى أصحابها، ونسبتها إليهم على وجه المشية والاختيار، وذلك في كثير من آي القرآن.

قال ﷻ: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال سبحانه: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧].

وقال: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ [التوبة: ٤٦].

ولما سُئل ﷺ عن الوضوء من لحم الغنم قال: «إِنْ شِئْتَ فَتَوَضَّأْ، وَإِنْ شِئْتَ فَلَا تَوَضَّأْ»^(٢).

فلا تضاف الأعمال والأقوال إلا إلى أصحابها، ولا تقع منهم إلا بعد علم بها وإرادة، ولا تقع إلا بقدرة، قال ﷻ: ﴿وَعَدُوا عَلَىٰ حَرِّ قَدِيرِينَ﴾ [القلم: ٢٥].

وقال سبحانه: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ [الفتح: ٢١].

وقد أثبتت الآيات والأحاديث كسب الإنسان لأعماله، ولما يترتب عليها،

قال جلَّ وعَلَا: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال سبحانه: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

وكذا وردت النصوص بنسبة الاستطاعة إلى العبد، كما في قول الله تعالى:

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٥٨٩ - ٥٩٤).

(٢) أخرجه مسلم (٣٦٠) من حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقول النبي ﷺ: «صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ»^(١).

وعليه؛ فالنصوص متكاثرة متضافرة على إثبات قدرة العبد وإرادته ومشيتته واستطاعته، وأنه تضاف إليه القوة والضعف، والقدرة والعجز، والوسع والطاقة، والثواب والعقاب على فعله وعمله، وينقطع عمله بموته؛ لانقطاع قدرته وإرادته.

وقد حكى إجماع السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ على ذلك عدد من الأئمة.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها مع إيمانهم بالقضاء والقدر... أن العباد لهم مشيئة وقدرة، يفعلون بمشيئتهم وقدرتهم ما أقدرهم الله عليه، مع قولهم: إن العباد لا يشاؤون إلا أن يشاء الله»^(٢).

ولا ينافي هذا خلق الله تعالى لأفعال العباد، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى خلق العباد، ثم إنه ﷻ خلق فيهم إرادتهم ومشيتهم، وخلق فيهم قدرتهم التي ينفذون بها إرادتهم، فإذا كانت الإرادة والقدرة اللتان يكون بهما الفعل مخلوقتين لله تعالى كان الفعل الواقع بالجوارح مخلوقا لله تعالى، وهذا يتطابق في المعنى مع كون الله تعالى خالقا للذوات وللأفعال والصفات.

فمشيئة العبد وقدرته سبب تام لفعله، والله تعالى خالق هذا السبب، وخالق السبب التام خالق للمسبب، وعلى هذا فكل ما وقع بسبب فعل العبد فهو مخلوق لله - أيضًا -؛ فإن العبد إذا أكل فشبع كان كل من الأكل

(١) أخرجه البخاري (١١١٧) من حديث عمران بن حصين رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) مجموع الفتاوى (٤٥٩/٨).

والشعب مخلوقين - أيضًا - ووطء العبد لزوجته فعله، وفعله مخلوق، وما تولد من هذا الوطء ولده، وهو مخلوق لله أيضًا.

وبناء على ما سبق: فأفعال العباد وأقوالهم وإراداتهم ومشيتاتهم وقدراتهم تابعة لخلق الله تعالى ومشيتة وقدرته، فهي تُسند إلى العباد فعلا واختيارا، وتُسند للرب الخالق خلقًا وإيجادًا وإقدارًا.

خامسًا: آثار وثمرات الإيمان الصحيح بالقضاء والقدر:

من آمن بالقضاء والقدر إيمانًا صحيحًا لا شوب فيه، ولا ابتداع، فبرئ من الإفراط والتفريط، وأثبت القدر، وأخذ بالأسباب، وتوكل على الله تعالى واستسلم لأمره وحكمه في شرعه وقدره، فقد استحق أن يثمر هذا الإيمان في قلبه وحياته الدنيا والآخرة أعظم الثمار، وأبرك الآثار، ومن ذلك:

١- تصحيح الإيمان والمعتقد:

كل من آمن بالقضاء والقدر على وجهه فقد حقق الركن السادس من أركان الإيمان، ومن جحد رأسًا فقد خرج من الإسلام، ومن تخبط في ظلمات الابتداع فيه فقد ضل.

ومن آمن بالقضاء والقدر حقق التوكل على الله، واعتمد بقلبه على مولاه، وذلك أعظم الثمرات.

٢- إدراك الأمور بحقائقها:

لن يعرف العبد قدر نفسه، ولا ما حوله مما يجري في كون ربه إلا بعد أن يؤمن بقضاء الله وقدره؛ إذ عند ذلك يوقن أنه عبد مريبوب لربه، ناصيته بيده، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرا إلا ما شاء الله، فلا يعجب بعمله إن أحسن، ولا يقنط إن أساء.

يرى فضل الله عليه في الصالحات، ويرى قلة وذلة نفسه في السيئات، ثم هو يقر الله تعالى بنعمه وآلائه، ويبادر إلى شكر ربه على نعمائه!

٣- الثبات في الفتن والابتلاءات:

المؤمن بالقدر ثابت الجنان، لا يتزعزع يقينه، ولا يتزلزل إيمانه؛ لأنه يعلم أنه ما أصابه من مصيبة إلا بإذن الله، وأن الخير والنعماء بقدر، وأن السراء والضراء بقدر، وأن كلا من عند الله تعالى لحكمة بالغة! فلا يفرح بالنعماء فرحا يُطغيه، ولا ييأس بالضراء بؤسا يُرديه! فلا تبطره النعمة، ولا تضعفه المصيبة.

يقول الحق أينما كان، فلا النكال يُرهبه، ولا الإنعام يُغيره!

٤- الاشتغال بالعبادة وصالح العمل:

إن الإيمان بالقدر يسكب في قلب أصحابه عزيمة ويقينا يحمل على العمل بطاعة الله، وينهى عن القعود والكسل! فيستقيم على منهج سواء في طلب ما ينفعه، وترك العجز والأسى على ما فات، مستعينا بربه، غير مكتر من: (لو)؛ فإن: (لو) تفتح عليه باب الوسوس والهواجس والبطالة!

٥- استقامة الأخلاق والسلوك:

إن من تطهر قلبه بالإيمان بالقدر - على وجهه - كما صحت عباداته واعتقاداته فقد حسنت أخلاقه! فلا يرى لأحد من عباد الله حاسدا، ولا على أحد من ذوي الفضل حاقدا.

وإنما يفيض الخير من قلبه الراضي بقضاء ربه على لسانه بقول الخير، وعلى جوارحه بعمل الخير، فيكون محمود السيرة والسريرة، مرضي الأخلاق والطريقة.

لا يحتج بالقدر إذا عصى الله تعالى، أو ساء منه خلق، بل يلوم نفسه، ويسترضي ربه، ويُتبع السيئة الحسنة.

٦- تحقيق العبودية لرب البرية مع الوجل والحذر:

وذلك بإحراز فريضة الوقت والتعبد لله بها على كل حال، من غير أمن من مكر الله تعالى، فبدنه في طاعة وعبادة، وقلبه - مع ذلك - في حذر ووجل من سوء الخاتمة؛ لأن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، والخاتمة غيب لا يعلمه إلا الله!

ومن طهر باطنه من المخالفات، وظاهره من الانحرافات رعى حسن الخاتمة من رب الأرض والسماوات!

والحاصل: أن خيري الدنيا والآخرة في الإيمان بقضاء الله وقدره، كما آمن به نبينا ﷺ وأصحابه، والحمد لله رب العالمين.



البَابُ الرَّابِعُ

حياة الإيمان

الفصل الأول: نور الإيمان.

الفصل الثاني: دعوة الإيمان.

الفصل الثالث: سباق الإيمان.

الفصل الرابع: أخوة الإيمان.

الفصل الخامس: مجالس الإيمان.

الفصل السادس: عزة الإيمان.

الفصل السابع: حلاوة الإيمان.

الفَصْلُ الْأَوَّلُ

نور الإيمان



إن نور الإيمان حقيقة لا امتراء فيها! وهو نور واحد لا تعدد فيه، ولا يشتهه بغيره؛ نور يغمر القلب أولاً، ويظهر على الوجه والجوارح آخرًا! قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

قال الضحاك رَحِمَهُ اللَّهُ: «الظلمات: الكفر، والنور: الإيمان»^(١). والله تعالى هو المتفضل على المؤمنين بأخذ نواصي قلوبهم إلى نور الإيمان، وضياء الإسلام، فلا خروج من ظلمات الكفر والشرك والنفاق والموبقات إلا بإذن الولي المولى جل في علاه، وإذنه تحبيبه الإيمان إلى القلوب، وتوفيقه لإبصار سبل السلام، والاستقامة على أعمال الإسلام. قال سبحانه: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦].

وإذا كانت الهداية إلى أنوار الإيمان محض منة السلام تعالى؛ فإن العبد الذي يوفق إلى تلك المنة العظيمة هو من طلب وتتبع رضوان الله بحق، فكان جل اهتمامه منصرفاً إلى اتباع الدين الذي نزل به الوحي، أما

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير (٤ / ٥٦٤).

من كان مطلوبه تقرير ما نشأ عليه، أو أخذه عن أسلافه وآبائه، أو درسه في بيئته من غير اهتداء بأنوار التنزيل، والافتداء بالصحب الجليل؛ فهو غير متبع لرضوان الله.

إن نور الإيمان المعنوي الذي يشرق على القلب، فتستضيء به الأرواح، ويحصل معه الانشراح، وتكشف معه حقائق القيم والتصورات، والمواقف والأشخاص - هو الطريق المفضي إلى أنوار الآخرة في القبور، وعند الحشر والنشور، وعلى الصراط عند العبور.

من شرح الله صدورهم للإسلام في الدنيا فهم على نور من ربهم، هم أنفسهم مَنْ ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [الحديد: ١٢].

وَمَنْ سَأَلُوا اللَّهَ تَعَالَى النُّورَ فِي الدُّنْيَا بِصَدَقٍ، وَسَعَوْا إِلَيْهِ بِمَنْهَجٍ حَقٍّ، هُمْ هُمْ مَنْ يَقُولُ - فِي الْآخِرَةِ عَلَى الصِّرَاطِ - : ﴿رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحریم: ٨].

أما من كان سؤالهم النور دعوى، وتحققهم به قولاً لا حقيقة؛ فهم مَنْ يَقُولُ - لِأَهْلِ النُّورِ فِي الْآخِرَةِ - : ﴿انْظُرُونَا نَقْنِسَ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: ١٣].

إنه طريق النور في الدنيا، يهدي من حيرة، ويشفي من غواية، ويفتح أبواب الهداية، وهو طريق واحد لا تعدد فيه، أما ظلمات الشرك والطغيان فأنواع متنوعة، لا تنحصر، ولا تختصر، إنها ظلمات الشبهة والشهوة، وظلمات الفسق والنفاق، وظلمات الشك والقلق، وظلمات التيه والغواية، وظلمات الكبر والعصيان، لا يجمعها جامع، ولا يربط بينها رابط سوى الانحراف عن منهج الله، والإعراض عن نور الله، والاحتكام إلى غير وحي الله، فماذا بعد نور الحق إلا ظلمة الضلال!

فلما كانت الظلمة بمنزلة طرق الباطل، والنور بمنزلة طريق الحق، فقد

أفرد النور، وجمعت الظلمات؛ فوحد ولي الذين آمنوا، وهو الله الواحد الأحد، وجمع أولياء الذين كفروا لتعدددهم وكثرتهم. وجمع الظلمات، وهي طرق الضلال والغي؛ لكثرتها واختلافها، ووحد النور، وهو دينه الحق، وطريقه المستقيم الذي لا طريق سواه^(١). ومن عاش في الظلمات، لم يكن مآله إلا إلى الحسرات في نار مظلمة الأطباق، مُدلهمة السواد.

ومن لم يهتد بنور الإيمان، خُلد في النيران! قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَةِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وما مثل مَنْ رفع إلى النور رأساً، وانفسح له صدرا إلا كَمِيت دبّت الحياة في أوصاله، فانطلق بين الناس يهدي ويهتدي. وغيره في ظلمات الشرك والضلالة في الدنيا، وليس بخارج من ظلمات النار في الآخرة.

قال جلّ وعلا: ﴿وَمَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَةِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]. فكما لا يستوي الأعمى والبصير، ولا الأحياء ولا الأموات، ولا الظل ولا الحرور، فكذلك لا يستوي المؤمن البصير، ولا الكافر الضرير.

ولا مَنْ أُوتِيَ النور، فكان حيا بصيرا، ولا مَنْ حُرِمَ النور فكان ميتا أعمى. قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۖ وَلَا الظُّلُمَةُ وَلَا النُّورُ ۚ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۚ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَا أَنْتَ

يُسْمِعُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿[فاطر: ١٩-٢٢].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾
[الإسراء: ٧٢].

فَمَا أَبْعَدَ المقارنة بين أهل النور وأهل الظلمة! إن المؤمن في أنوار فوقها أنوار، والكافر الفاجر في ظلمات بعضها فوق بعض!

قال محمد بن أسلم (٢٤٢هـ): «فبدء الإيمان من قبل الله فضل منه ورحمة، ومن يَمَن به على مَنْ يشاء من عباده، فيقذف في قلبه نورا ينور به قلبه، ويشرح به صدره، ويزيد في قلبه الإيمان، ويحببه إليه، فإذا نور قلبه، وزين فيه الإيمان، وحببه إليه، آمن قلبه بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر كله، خيره وشره، وآمن بالبعث والحساب، والجنة والنار، حتى كأنه ينظر إلى ذلك، وذلك من النور الذي قذفه الله في قلبه، فإذا آمن قلبه نطق لسانه مصدقا لما آمن به القلب، وأقر بذلك، وشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن هذه الأشياء التي آمن بها القلب فهي حق، فإذا آمن القلب، وشهد اللسان عملت الجوارح، فأطاعت أمر الله، وعملت بعمل الإيمان، وأدت حق الله عليها في فرائضه، وانتهت عن محارم الله إيماناً وتصديقاً بما في القلب، ونطق به اللسان، فإذا فعل ذلك كان مؤمناً»^(١).

وبضدها تتميز الأشياء:

فالكافر يغرق في ظلمات خمس، حياة كلها ظلام كظلمة قبورهم، وظلمة مآلهم في نار الجحيم!

(١) حلية الأولياء (٩/ ٢٤٥-٢٤٦).

فعن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في قوله تعالى: ﴿أَوْ كُظِّلِمَتْ فِي بَحْرِ لَيْحٍ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ [النور: ٤٠] - قال: «ضرب مثلاً آخر للكافر، فهو يتقلب في خمس من الظلم: فكلامه ظُلْمَة، وعمله ظُلْمَة، ومدخله ظُلْمَة، ومخرجه ظُلْمَة، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة إلى النار»^(١).

ولنزول نور الإيمان في القلب علامات وأمارات بها يُعرف، فمن ذلك: الانشراح والانفساح والطمأنينة والارتياح، والثقة والرضا، وزيادة الحرص على الطاعات، والتجافي عن السيئات، والعمل بالورع، والإقبال على الآخرة، والتفكير في الموت، والحذر من الاستدراج والمكر.

لما تلا النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، قيل: «فهل لذلك علم يعرف به؟ قال: نَعَمْ، إِذَا دَخَلَ النُّورُ الْقَلْبَ، انْفَسَحَ وَانْشَرَحَ، فْقِيلَ: فهل لذلك من علم يعرف به؟ قال: نَعَمْ، الْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نَزُولِ الْمَوْتِ»^(٢).

فهذه حال من تمكن النور من قلبه، فامتد إلى لسانه وعمله، فصار نوراً يُرى، ونورا يهدي بحاله ومقاله، فهو يسعى في النور، ويجاهد في النور، ويعيش حياة النور.

ثم يُشرق هذا النور على الدنيا بأسرها فيصلحها، يشرق على الظلمات فيُبددها،

(١) تفسير ابن جرير (١٧ / ٣٣١).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في السنن (٩١٨)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٥٤٥٥) عن أبي جعفر مرسلاً.

وعلى خفافيش الظلام فيهتك ستورهم، ويفضح حالهم، وينذر مآلهم.

ولأمر ما توسط نور الإيمان سورة النور!

قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا لُهِمِهِمْ تَجْدَرُ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿النور: ٣٥-٣٧﴾.

فَمَنْ أَرَادَ النُّورَ؛ فَلْيُزِمِ الْوَحْيَ.

قال سبحانه: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿المائدة: ١٥﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿النساء: ١٧٤﴾﴾.

وقال جلَّ وعلا: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿الأعراف: ١٥٧﴾﴾.

ومثل هذا النور في قلب العبد المؤمن ﴿كَمِشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴿النور: ٣٥﴾﴾.

أما المعرضون عن النور فقد ضرب الله لهم في القرآن مثلين:
المثل الأول: للجهلة الضلال.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

فكل من عمل على غير هدى، أو عمل لغير الله صار عمله عليه، لا له.
المثل الثاني: لمن عرف الحق، فأثر الباطل عليه.

﴿كَظَلُمْتُ فِي بَحْرٍ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ لَمْ يَكْدِ رِنَهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

فأثروا ظلمة الضلال والباطل والهوى على الهدى.

ونور الإيمان يلتقي مع نور القرآن، ونور الإسلام يجتمع مع نور الوحي.
قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].
فجمع بين الروح الذي يحصل به الحياة، والنور الذي يحصل به الإضاءة والإشراق، وأخبر: أن كتابه الذي أنزله على رسوله ﷺ يتضمن الأمرين، فهو روح تحيا به القلوب، ونور تستضيء وتشرق به، كما قال تعالى:
﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

أي: أَوْ مَنْ كَانَ كَافِرًا مَيِّتَ الْقَلْبَ، مَغْمُورًا فِي ظِلْمَةِ الْجَهْلِ، فَهَدَيْنَاهُ لِرَشْدِهِ، وَوَفَّقْنَاهُ لِلْإِيمَانِ، وَجَعَلْنَا قَلْبَهُ حَيًّا بَعْدَ مَوْتِهِ، مُشْرِقًا مُسْتَنِيرًا بَعْدَ ظِلْمَتِهِ، فَجَعَلْنَا الْكَافِرَ لَانْصِرَافِهِ عَنْ طَاعَتِهِ، وَجَهْلِهِ بِمَعْرِفَتِهِ، وَتَوْحِيدِهِ، وَشَرَائِعِ دِينِهِ، وَتَرَكَ الْأَخْذَ بِنَصِيْبِهِ مِنْ رِضَا، وَالْعَمَلَ بِمَا يُؤَدِّيهِ إِلَى نَجَاتِهِ وَسَعَادَتِهِ؛ بِمَنْزِلَةِ الْمَيِّتِ الَّذِي لَا يَنْفَعُ نَفْسَهُ بِنَافِعَةٍ، وَلَا يَدْفَعُ عَنْهَا مِنْ مَكْرُوهِ، فَهَدَيْنَاهُ لِلْإِسْلَامِ، وَأَنْعَشْنَاهُ بِهِ، فَصَارَ يَعْرِفُ مَضَارَ نَفْسِهِ وَمَنَافِعَهَا، وَيَعْمَلُ فِي خِلَاصِهَا مِنْ سَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى وَعِقَابِهِ، فَأَبْصَرَ الْحَقَّ بَعْدَ عَمَاهُ عَنْهُ، وَعَرَفَهُ بَعْدَ جَهْلِهِ بِهِ، وَاتَّبَعَهُ بَعْدَ إِعْرَاضِهِ عَنْهُ، وَحَصَلَ لَهُ نُورٌ وَضِيَاءٌ يَسْتَضِيءُ بِهِ، فَيَمْشِي بِنُورِهِ بَيْنَ النَّاسِ، وَهُمْ فِي سَدَفِ الظَّلَامِ^(١).

لِذَلِكَ كُلُّهُ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ - وَمِنْ وَرَائِهِ كُلُّ مُؤْمِنٍ - أَشَدَّ مَا يَكُونُ حَرَصًا عَلَى نُورِ الْإِيمَانِ.

فَكَانَ يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَهْبِهُ النُّورَ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ فِي النُّورِ، وَأَنْ يَمُدَّهُ بِمَدَدٍ مِنَ النُّورِ!

وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَدْعُو فِي ذَهَابِهِ إِلَى الْمَسْجِدِ لَيْلًا، وَفِي صَلَاةِ اللَّيْلِ بِهَذَا الدُّعَاءِ الْمُبَارَكِ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي لِسَانِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَمَنْ فَوْقِي نُورًا، وَمَنْ تَحْتِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ شِمَالِي نُورًا، وَمَنْ أَمَامِي نُورًا، وَمَنْ خَلْفِي نُورًا.

وَاجْعَلْ فِي نَفْسِي نُورًا، وَأَعْظِمْ لِي نُورًا، وَعَظِّمْ لِي نُورًا، وَاجْعَلْ لِي

(١) إغاثة اللهفان، لابن القيم (١/ ٢٠ - ٢١).

نُورًا، وَاجْعَلْنِي نُورًا، اللَّهُمَّ أَعْطِنِي نُورًا، وَاجْعَلْ فِي عَصْبِي نُورًا، وَفِي لَحْمِي نُورًا، وَفِي دَمِي نُورًا، وَفِي شَعْرِي نُورًا، وَفِي بَشْرِي نُورًا»^(١).

وربما قال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي نُورًا فِي قَبْرِي، وَنُورًا فِي عِظَامِي»^(٢).

وربما قال: «وَزِدْنِي نُورًا، وَزِدْنِي نُورًا، وَزِدْنِي نُورًا»^(٣).

وربما قال: «وَهَبْ لِي نُورًا عَلَى نُور»^(٤).

ويجتمع من اختلاف الروايات في الدعاء بالنور وطلبه خمس وعشرون خصلة، كما قاله ابن العربي المالكي^(٥).

فاللهم يا نور السماوات والأرض، يا مَنْ حجابُه النور، واللهم يا واهب النور اجعلنا بنور وَحْيِكَ مهتدين، وبنور كتابِكَ وَسُنَّةِ نَبِيِّكَ مقتدين، واجعلنا من أهل النور في حياتنا، وبعد موتنا، وعند حشرنا ونشرنا، واجعل لنا من لَدُنْكَ نُورًا.
آمين.



(١) أخرجه البخاري (٦٣١٦)، ومسلم (٧٦٣) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤١٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٦٩٦) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) فتح الباري (١١/١١٨).

(٥) فتح الباري (١١/١١٨).

الفصل الثاني

دعوة الإيمان



إن الدعوة إلى الإيمان أشرف الدعوات، والداعي إلى الإيمان أشرف البريات!

قال سبحانه: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].
والدعوة في حقيقتها: نداء الناس إلى الله تعالى؛ إيماناً به وتصديقاً، وإلى دين الإسلام إجابةً وتحقيقاً^(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «الدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان به، وبما جاءت به رسله، بتصديقهم فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا به»^(٢).

ودعوة العباد - إنسهم وجنهم - إلى الله تعالى أشرف أعمال النبي ﷺ وأزكاها، ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ٤٥ وداعياً إلى الله بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿[الأحزاب: ٤٥ - ٤٦].
وعلى سبيله ﷺ مضى الدعاة إلى الله.

(١) مبادئ علم أصول الدعوة، د. محمد يسري (ص ١٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥ / ١٥٧ - ١٥٨).

إن داعي الإيمان حقيق بأن يُسمع نداؤه، وأن تستجاب دعوته، وأن يطاع لما يأمر به من الإيمان، والدعوة إلى طاعة الرحمن.

قال تعالى: ﴿يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيَجْزِلَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ (٣١) وَمَنْ لَا يُحِبَّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿[الأحقاف: ٣١-٣٢].

والقرآن الكريم تضمن كثيراً من نداءات الإيمان الداعية إليه، والمنادية للمؤمنين بهذه الصفة عظيمة الأثر، عميقة الإيحاءات في النفوس؛ ولهذا كان الصالحون يقفون طويلاً أمام الآيات التي تتضمن قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يتلون بها باللسنة والقلوب معاً، ويسمعونها بكل جوارح الطاعة والامتثال، يتواصون فيما بينهم بقولهم:

إذا سمعت: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، فأرفعها سمعك، وافتح لها قلبك؛ لأن ما بعدها إما أمر تلتزمه، وإما نهى تتركه، وإما توجيه تأخذ به.

إن دعوة الإيمان هي دعوة إلى الحياة الحقة، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ودعوة الإيمان هي دعوة الله، وهي الدعوة إلى الله، قال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ [الرعد: ١٤].

وقال سبحانه: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [الحج: ٦٧].

ودعوة الإيمان الأمر فيها بالدعوة هو الله، والداعي هو رسول الله، وهو المبلغ عن الله، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧].

ودعوة الإيمان دعوة ربانية، لا يطلب فيها الداعي أجراً إلا من الله!

قال سبحانه: ﴿وَيَقَوْمٍ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنِّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩].
وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنِّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [سبا: ٤٧].
وأحسن القول طرًا هو دعوة الداعي إلى الله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

وهي دعوة إلى الإيمان قولاً، وفعلاً، وجهاداً.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].
إنها دعوة تستغرق الحياة بأسرها، وتشغل العمر كله، وتأتي على نشاط الإنسان بأسره، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٣﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

ودعوة الإيمان ليست محلاً للمساومة، أو المراجعة، أو المجادلة، وإنما هي تسليم لله، وتوكل على الله، ﴿قُلْ لَّنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

ودعوة الإيمان هي دعوة لإفراد الله تعالى وحده بالعبادة، وهي دعوة الأنبياء والمرسلين، وهي أول ما يخاطب به الناس من أمر الدين، وهي الشرط لصحة وقبول الطاعات، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

ركائز دعوة الإيمان:

دعوة الإيمان تقوم على ركائز مهمة:

أولاً: إيمان النبي ﷺ والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

وهذا هو الإيمان الذي ينجي في الدنيا والآخرة، وقد أخبر النبي ﷺ عن

النجاة وأهلها، فقال - عن الفرقة الناجية - : «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»^(١).
وهذا الإيمان هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٣٧].

وهو إيمان السابقين الأولين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وهذا الإيمان بدعوته يقوم على التسليم والتعظيم لكتاب الله، وسنة رسوله الكريم ﷺ، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢].

وهو إيمان يعول على إجماع السلف الصالح من الصحابة والتابعين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين قال الله - عن سبيلهم - : ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وهو إيمان أهل الكتاب والسنة!

الذين «يعلمون أن أصدق الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، ويؤثرون كلام الله على كلام غيره من كلام أصناف الناس، ويقدمون

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤١) من حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

هدي محمد ﷺ على هدي كل أحد، وبهذا سُموا: أهل الكتاب والسنة! ^(١).

وهو إيمان يفهم النصوص بفهم ومنهج الصحابة وأهل القرون المفضلة، أولئك الذين نزل فيهم القرآن، وعرفوا بفصاحة اللسان، وسعة العلم، وحسن القصد، وتقوى الرب؛ فلا يعارضون النصوص بشبهة تعارض الخبر، ولا بشهوة تعارض الأمر، أو إرادة تعارض الإخلاص، أو اعتراض يعارض القدر والشرع ^(٢).

وهو إيمان مركب من اعتقاد وقول وعمل، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، أصله: تصديق الخبر، والانقياد للشرع، وكمالُه الواجب بفعل الأركان والواجبات، وترك الكبائر والمحرمات، وكمالُه المستحب بفعل المندوبات، وترك المكروهات، والورع عن الشبهات.

والعمل الصالح من العبادات توقفي على ما ورد به الدليل، والأصل في العبادات الحظر إلا ما ورد به الشرع، وسد ذرائع الابتداع من مهمات الإيمان، كما قال نبينا ﷺ: «مَنْ عَمَلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» ^(٣).

وجماع الدين يقوم على أصليْن: ألا يُعبد إلا الله، وألا يُعبد الله تعالى إلا بما شرع، فلا يُعبد بالبدع، «وَكُلُّ بَدْعٍ ضَلَالَةٌ» ^(٤).

وإذا كان هذا الإيمان يُتلقى عن صحابة النبي العدنان فإن محبتهم - إذن - واجبة على كل مؤمن ومؤمنة.

(١) مجموع الفتاوى (١٥٧/٣).

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم (١٤٧/٢).

(٣) أخرجه مسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) أخرجه مسلم (٨٦٧) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

فلا يُذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل، وأهل السنة يسكتون عما شجر بينهم، ويعرفون للسابقين منهم فضلهم، ولا يخوضون فيما وقع من الفتن والقتال بينهم.

قال ابن عبد البر العربي المالكي رَحِمَهُ اللهُ: «ما جاء عن النبي من نقل الثقات، وجاء عن الصحابة، وصح عنهم فهو علم يُدان به، وما أُحدث بعدهم، ولم يكن له أصل فيما جاء عنهم فبدعة وضلالة»^(١).

وقال ابن كثير الدمشقي الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة: هو بدعة؛ لأنه لو كان خيرا لسبقونا إليه»^(٢).

ثانياً: شمولية الإيمان:

الإيمان عقيدة شاملة في معناها، وفي أعمالها، فهي تشمل كل القضايا الكبرى التي ضل في فهمها واعتقادها كثير من الخلق؛ سواء فيما يتعلق بالله تعالى، أو أنبيائه وملائكته، أو كتبه، أو اليوم الآخر، أو القدر، أو غير ذلك مما يتعلق بالاعتقاد القلبي، ثم إن عقيدة الإيمان شاملة - أيضاً - في أعمالها وآثارها الواقعية ضرورة أن الإيمان قول وعمل؛ ولهذا تتسع آثار الإيمان،

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٤٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٧٨).

ويمتد نطاقه ليطوق مناشط الحياة ويغطيها بأسرها، ومن جهاتها المختلفة، بحيث تتكامل هذه الآثار وتتفاعل في صياغة الحياة صياغة إيمانية ربانية! إن شمولية الإيمان والعقيدة تعني: عدم الاقتصار على طلب علمها، وممارسة أعمالها، والتحقق بمقتضياتها في باب دون باب، أو في أصل دون غيره؛ إذ ليس شيء من الإيمان مهجورا، والجمع بين علم الإيمان ومقتضياته وآثاره في القلب والجوارح هو تحقيق للعبودية في أكمل صورها، وأجلى معانيها.

قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٣) لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

ومما يؤكد شمول الإيمان لتكاليف الدين: ارتباط الأحكام بالإيمان في القرآن ارتباطا وثيقا، ويتبين ذلك بأمور، منها: ارتباط آيات الأحكام في مقدماتها وخواتيمها بالإيمان وقضاياها، فكثيرا ما بدأت آيات الأحكام بنداء المؤمنين، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وغيرها من الآيات، وارتبطت في خواتيمها بالتقوى، وهي من أعمال الإيمان القلبية، وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وفي آيات الوصية، قال سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

وقبل ذلك قوله تعالى - في الصيام - ﴿يَتَذَكَّرُ أَلَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].
وهكذا آيات إيجاب الحج تُختم بالتقوى. والإيمان - كما تقرر - قول وعمل، والمعاصي والذنوب قاذحة في الإيمان وكماله الواجب، ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

صور ومظاهر شمولية الإيمان:

لشمولية الإيمان والاعتقاد صور متعددة، ومظاهر متنوعة، وجوانب مختلفة، من أهمها ما يلي:

١- العناية بتحقيق أصل الإيمان:

إن أصل الإيمان ما هو في القلب من قول وعمل:
إذ القلب هو محط نظر الرب، وهو مستقر الإيمان والتوحيد، وهو الذي بصلاحه تصلح الجوارح، وبفساده تفسد، وبتركية ما في القلوب تتزكى أعمال الجوارح، وتنفع صاحبها في الدنيا والآخرة، ولا ينجو في الآخرة إلا من أتى الله بقلب سليم، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) ﴿إِلَّا مَن أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩]، سالم من كل انحراف، وشائبة شرك، قال سبحانه: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣].
وهذه العناية بتحقيق أصل الإيمان والدين هي تحقيق لقوله تعالى:
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

عبادة بكامل الحب والذل، واستعانة بتحقيق التوكل!
وبالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِعَائِدَتِنَا يُوْقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «إن أصل الدين في الحقيقة الأمور الباطنة من العلوم والأعمال، وإن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونها»^(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «أعمال القلوب هي الأصل المراد المقصود، وأعمال الجوارح تبع، ومكملة ومتممة... فمعرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح؛ إذ هي أصلها، وأحكام الجوارح متفرعة عنها»^(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ -أيضاً-: «من تأمل الشريعة في مصادرها ومواردها علم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها، وأن أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح، فعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح، وأكثر وأدوم، فهي واجبة في كل وقت»^(٣).

فعبادات القلب من الإخلاص والمحبة والقبول والخوف والرجاء والتوكل وغيرها هي جوهر كل خير، وعنهما يصدر كل بر!

وما أصدق قول أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «يا حبذا نوم الأكياس وفطرتهم، كيف يغبنون به قيام الحمقى وصومهم، والذرة من صاحب تقوى أفضل من أمثال الجبال عبادة من المغترين»^(٤).

وعليه؛ فإن إهمال هذا الجانب من الإيمان أو عده من الوعظ، أو الرقاق ونحو ذلك، يعد خللاً كبيراً، وخطأ جسيماً تتعين مراجعته، ويلزم إصلاحه.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «أعمال القلوب التي تسمى: المقامات والأحوال،

(١) التحفة العراقية (ص ٤٢).

(٢) بدائع الفوائد، لابن القيم (٣/ ٧٠٥).

(٣) بدائع الفوائد (٣/ ٧١٠).

(٤) الفوائد، لابن القيم (ص ١٤١).

وهي من أصول الإيمان وقواعد الدين، مثل: محبة الله ورسوله، والتوكل على الله، وإخلاص الدين له، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له، وما يتبع ذلك... هذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق المأمورين في الأصل باتفاق أئمة الدين، والناس في هذا على ثلاث درجات، كما هم في أعمال الأبدان على ثلاث درجات: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات»^(١).

٢- العناية بجوانب الإيمان كافة:

فالإيمان بربوبية الله يجب أن يكون معه الإيمان بألوهيته، ولا يصلح بحال الإيمان بأحدهما، والعناية بالدعوة إليه دون الآخر! فإذا كان الله تعالى هو الخالق الرازق المدبر، فهو كذلك وحده لا شريك له، المعبود المقصود سبحانه جل في علاه!

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فالإيمان بالربوبية أساس للإيمان بالألوهية، والقرآن يسوق دلائل الربوبية، ويجمع إليها الدعوة لعبادة الله وحده لا شريك له!

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

ويقول سبحانه - بعد أن ذكر آيات ربوبيته -: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ

﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوكُمْ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿النحل: ١٧ - ٢٢﴾.

٣- تناول أسماء الله الحسنى وصفاته العلى علماً وعملاً:

إن تخليص الأخلاق والسلوك من الآفات والموبقات التي تنشأها الغفلة عن مدلولات الأسماء والصفات - وهو من الجانب العملي - لا يقل في أهميته عن تخليص الفكر والقلب من الشبهات والأهواء في هذا الباب من الإيمان، وهو الجانب العلمي.

وبعد تحرير الجانب العلمي بأصوله التي تقتضي نسبة كل كمال لله، ونفي كل نقص عنه تعالى، وإثبات ما أثبت لنفسه في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ يجب قطع الطمع عن إدراك الكيفية.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ، عَلَمًا﴾ [طه: ١١٠].

ومع ذلك، فلا بد من الاهتمام بآثارها القلبية، والتعبد لله ﷻ بها، ودعائه تعالى بها؛ «فعلم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع، والعطاء والمنع، والخلق والرزق، والإحياء والإماتة - يثمر له عبودية التوكل عليه باطنا، ولوازم التوكل وثمراته ظاهرا.

وعلمه بسمعه تعالى وبصره، وعلمه أنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السماوات، ولا في الأرض، وأنه يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور - يثمر له حفظ لسانه وجوارحه، وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه، فيثمر

له ذلك الحياء باطنا، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح. ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه، ورحمته - توجب له سعة الرجاء، ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه. وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزه - تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعا من العبودية الظاهرة هي من موجباتها.

وكذلك علمه بكماله وجماله، وصفاته العلى - يوجب له محبة خاصة بمنزلة أنواع العبودية، فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات^(١). وبناءً عليه؛ فالإيمان بأسماء الله وصفاته ليس هو المعرفة النظرية فحسب، ولا مجرد نفى التحريف الكلامي، والشبه البدعية التي اكتفتها فقط، وإنما يتجاوز ذلك إلى تدبر مدلولاتها وآثارها ومقتضياتها، والتعبد لله ﷻ بها.

٤- سد الطرق الموصلة للانحرافات كافة:

سواء في ذلك الانحرافات العقدية، أو العملية، وسواء في ذلك ما يفتح الذرائع للشرك، أو للبدعة.

ومن أجل ذلك حرمت الشريعة كل سبب يفضي إلى انحراف، ومن ذلك: تحريم اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، وتحريم الغلو في تعظيم أحد من الخلق، ورفع فوق رتبته، ولو كان النبي ﷺ، والنهي عن بدع القبور، لا سيما قبور المعظمين، والنهي عن الحلف بالآباء... وغير ذلك. مع بيان أن العبادة توقيفية، لا مجال للابتداع فيها، قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ

(١) مفتاح دار السعادة، لابن القيم (٢/١٠٨٦ - ١٠٨٧).

هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ
ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿ [الأنعام: ١٥٣].

٥- السعي في تحكيم الشريعة وإقامة الدين:

إن تحكيم الشرع المطهر وثيق الارتباط بالرضا بالله ربا، وبالإسلام ديناً،
وبمحمد ﷺ رسولا، فلا يثبت عقد الإسلام، ولا تتحقق حقيقة الإيمان إلا
بالتصديق مع الانقياد لحكم الله ورسوله ﷺ، وشريعة الإيمان، ومن لم
يتحقق في قلبه هذان الأمران لم يثبت له حكم الإسلام.

وإن نقل مصدرية الأحكام ومرجعيتها من الوحي المعصوم إلى الهوى
المذموم - اعتداء على مقام الألوهية، ونقض لعقيدة الوجدانية، وردة إلى الجاهلية!
قال سبحانه: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾
[المائدة: ٥٠].

٦- تحقيق عقيدة الولاء والبراء:

إن (لا إله إلا الله) ولأهلها، وبراء من أعدائها! فموالاة أهلها، والبراءة
من أعدائها من أصول الإيمان.

وكما يجب لأهل الإسلام عامة ولأهل السنة خاصة محبة ونصرة
وموالاة؛ فيجب لأهل الكفر عامة والمحاربين خاصة بغض ومعاداة، قال
تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ
رَاكِعُونَ ﴾ [المائدة: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمُ
بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [المتحنة: ١].

وقال سبحانه: ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ

ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً ﴿٢٨﴾ [آل عمران: ٢٨].

ويجب تخليص الولاء بين الأتباع والمتبوعين من الموافقة على المخالفة، أو ترك التذكير والمناصحة، أو اعتقاد التقديس والعصمة، أو ترك التأييد والنصرة. ويجب تخليص البراء من سوء الفهم في اعتقاد لزوم الاعتداء، أو ترك الوفاء بالعهود والمواثيق، أو مجانبة الإنصاف.

٧- إنكار الانحرافات المعاصرة كافة:

وهذا من شمولية المواجهة للانحرافات في الإيمان والعقيدة، وعدم التفريق بين انحراف، أو شرك حضاري، وآخر بدائي! والاهتمام بالإنكار على أربابها؛ سواء أكانت عند الأضرحة والقبور، أو لدى أرباب الحكم والقصور!

إن هذا الزمان فتنه الكبرى في تنحية الدين عن الحياة، ونزع صفة الدين عن الدولة بما يرسخ اللادينية، وينشر الإلحاد ومعتقداته، ويقوي تياراته في الفكر والأدب والثقافة، وشتى العلوم والمناشط الإنسانية! إن من اهتم سابقا بالإنكار على القول بخلق القرآن لا يسعه لو كان حيا اليوم أن يسكت عن تنحية القرآن والسنة عن حكم الأمة!

ولا يسعه أن يقر استبدال رابطة القومية بالأخوة الإسلامية! كما لا يسعه أن يقر من يسارع في الصهاينة اليهود الغاصبين لمقدسات المسلمين، ويعقد معهم عقودا دائمة للصلح، ولإقرارهم على ما اغتصبوه من بلاد ومقدسات المسلمين!

وكل تلك الانحرافات تضرب في أصول الإيمان من الربوبية والألوهية، والولاء لأهل الإيمان، والبراء من الكفار!

ثالثاً: إيجابية الإيمان:

إن الإيمان حقيقة فعالة، لا تقبل أن تستكن في الضمير حتى تسعى في تغيير الواقع.

إن الإيمان لا تُستكمل شعبه، ولا يتم الانتساب له حقاً إلا بالعمل به، والدعوة إليه، والتضحية في سبيله، والصبر على الأذى في دعوته، إن عقيدة الإيمان تمارس عملياً بالبلاغ مع الانضباط في أثناء ذلك بالمشروعية؛ هدفاً، ووسيلة، وغاية.

إن الإيمان عقيدة إيجابية حية فعالة، لا يقف أثرها عند مجرد التصديق النظري، بل يتعدى ذلك لينشئ واقعا عملياً.

إن كلمة التوحيد لها أصل ثابت في قلب المؤمن من العلم والاعتقاد، ولها فروع باسقات تثمر كلما طيباً، وعملاً صالحاً، وأخلاقاً حسناً، وآداباً راقية.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٥].

مظاهر الإيجابية العملية:

هذه الإيجابية العملية الحية لها آثار كثيرة، ومظاهر عديدة:

١- فمن الإيجابية: استقامة سلوك أهل الإيمان:

الإيمان ينشئ أخلاقاً كريمة، وسلوكاً مستقيماً يظهر ذلك على أهله، وهو أثر من آثار استقامة القلب، وطهارة النفس؛ ذلك أن الإيمان حقيقة إيجابية فاعلة ومتحركة، والتلازم بين الإيمان الصحيح والخلق القويم لا يُتصور انفكاكه.

فإن وُجد خلل في الأخلاق والآداب والسلوك فإنه يشير إلى مثله في

الإيمان وأعمال القلوب!

﴿وَأِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»^(١).

وما أكثر الآيات والأحاديث التي وصفت أخلاق أهل الإيمان، وجميل آدابهم، ومآثرهم!

٢- ومن الإيجابية: وضوح آثارها على الداعية إلى الله:

المؤمن لا ينفك عن أن يكون متحركاً في سبيل الدعوة إلى الإيمان بقلبه وفعاله وحاله، ينفع الله به حيث كان؛ كالنحلة والنخلة والزهرة، لا ينقطع به النفع، ولا يمكن أن يترك الدعوة إلى ربه، وإلى سبيل ربه، وإلى الإيمان بربه!

ومن كانت هذه صفته فإنه لا بد أن يظهر أثر الإيمان على فكره ودعوته، وأقواله وأفعاله وأهدافه، فيرى الإيمان في أعماله، ويُقرأ في كتاباته، ويُسمع في خطاباته!

والإيمان - أيضاً - يصوغ انفعالاته فرحاً وحزناً، فالقلب مرتبط بقضية الإيمان، ونصره، والانتصار له.

لقد أصاب المؤمنين هم وحزن لما لحقت الروم هزيمة من المجوس الفرس؛ لأن أهل الكتاب أقرب لهم من عبدة النار! فلما انتصر الروم، فرح المسلمون، ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾  يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَن شَاءَ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ [الروم: ٤ - ٥].

(١) أخرجه أحمد (٨٩٥٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهذا الميزان الإيماني يسدد منهج النقد والتقويم، فيصدر عنه المؤمن في تقويم ما حوله من مواقف وأحداث، ومن حوله من أشخاص وفئات، ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨].

٣- ومن الإيجابية: اتقاد جذوة التضحية في سبيلها:

لسان حال كل مؤمن: الصدق مع الله في نصرته اقتداءً بنبيه ﷺ، وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وبأهل الصدق من المؤمنين، ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وإن بدرا، وأحدا، والخندق، وفتح مكة، وحروب الردة، واليرموك، والقادسية، وغيرها - تشهد بهذه الحقيقة!

وكما بذلوا النفس، فقد بذلوا المال النفيس، ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فالمؤمن لأجل انتصار إيمانه ودعوته يبذل ماله وجهده ونفسه وولده، لأجل ذلك يُسَالَم ويُقَاوَم، ويسعى، ويتحرك، ويبذل، وتزهق روحه لتنصر عقيدته، ويُمكن لها في أرض الله.



الفصل الثالث سباق الإيمان

إن الإيمان دُرّة يتيمة، وجوهرة كريمة، عرف قَدَرُها السابقون فتنافسوا في تحصيلها، وسعوا وشمروا في اكتسابها، ولقد دعاهم ربهم إلى تلك المسابقة، وعقد لواءها بقوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١].

ولا يرغب في ذلك السباق، ولا يتنافس فيه إلا من عرفوا قيمة الإيمان فأحبوه، وزينه الله في قلوبهم، فهداهم إلى طلب الجنة دار المؤمنين.

ومن الخلق من رغب عن الإيمان، واشتروا الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة، فتسابقوا ولكن في المعصية، وتنافسوا ولكن في الفجور، وسارعوا إلى الهاوية وبئس المصير!

والفرق هائل بين من نافس في تحصيل الدرجات العلى من الجنة، فكان أول المؤمنين، وسابق المسلمين، ومقدم المتقين، وبين من نافس في تحصيل الدرجات السفلى من النار، فكان أول الكافرين، ورأس المنافقين، والسابق إلى سجين!

إن المقابلة بين الفريقين بعيدة المدى، لقد قال الله تعالى - لنبيه ﷺ -: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَأُطِرَ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يُطْعَمُ قُلٌّ إِنَّي أُمِرْتُ أَنَّ أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

وقال النبي ﷺ - مُبلِغاً عن ربه -: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر: ١١-١٢].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٦٣] لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

أما الفريق الآخر فقد قال الله - له -: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٤١].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِدْ أَلْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨].

الفرق واسع شاسع بين أول مؤمن وأول كافر.

وكما أمر الله بالمسابقة أمر - أيضاً - بالمسارعة والعجلة في أمر الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَعْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال الله - على لسان نبيه موسى الكليم ﷺ -: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٤].

وقال - أيضاً -: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وهكذا الأنبياء والمرسلون، هم أول الواصلين إلى الإيمان، والحاصلين على عطية الرحمن.

ثم يأتي من بعدهم طلائع السابقين من أتباعهم، الذين كتب الله لهم فضل السبق، ومنحهم جائزة الأولوية في طاعة رب البرية.

قال تعالى - على لسان سحرة فرعون -: ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٧]

مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعْمُوْنَ لَأُفْطِنَنَّ أَيَّدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا أَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ [الشعراء: ٤٧ - ٥١].

لما عرف السَّحرة قدر عطية الإيمان، وجزالة الثواب لمن كان سابقاً أولاً في الإيمان تحملوا العذاب والبلاء، ورجوا من الله الثواب، ومنزلة السبق والأولية في الإيمان، والتضحية واليقين، وهكذا كان أصحاب نبينا ﷺ في شدة تنافسهم، وصدق مسابقتهم في طلب الإيمان، والدرجات العلى من الجنان.

قال سبحانه: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْمُهِاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فهؤلاء السابقون من المهاجرين والأنصار بأسمى وأسنى المراتب في الدنيا والآخرة، ثم يأتي من بعدهم مَنْ تبعهم بإحسان، وهم قلة قليلة.

قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٠ - ١٤].

ولما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لأبي بن كعب -: «لقد كنت أرانا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا.

قال أبي: تصديق ذلك في أول الآية التي في أول الجمعة، وأوسط الحشر، وآخر الأنفال.

أما أول الجمعة: ﴿وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣].

وأوسط الحشر: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠].
 وأما آخر الأنفال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥] ^(١).

وهذه الآيات تدل بدلالة ظاهرة عجيبة على منزلة السابق في دين الله.
 ومما يُعضدها: قول الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

إن السباق الإيماني يهذب أخلاق أهل الإيمان، ويصفيها من كل كدر، ويقوي التآخي بين المؤمنين، وينزع الغل والضعينة، ويفتح آفاقا من التعاون والتناصر، والعمل لدين الله تعالى.

ولقد ضرب السابقون الأولون من الصحابة أمثلة من نور في هذا الميدان الذي تنافسوا فيه، مقتدين بنبيهم ﷺ الذي قام حتى تفتطرت قدماءه، فلما قيل له: «ألست قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك، وما تأخر؟» قال: أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟! ^(٢).

وهذا التسابقُ الإيماني تعددت ميادينه عند الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ففي ساح الفداء والجهاد يسمع عميرُ بنُ الحمام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم بدر النبي ﷺ مُشعلاً ميدان التنافس قائلاً: «قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ».

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير (١١/ ٦٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩) من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فتلامس الكلمة قلبه الطاهر الذي تخلله نور ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥]،
فالتقى نور الإيمان مع نور كلام النبي العدنان.

فقال عمير: «يا رسول الله، جنة عرضها السموات والأرض؟!

فقال ﷺ: نَعَمْ، فقال عمير: بَخْ بَخْ!

فقال ﷺ: مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ: بَخْ بَخْ؟

فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها».

وهنا تأتيه البشارة التي تستفرغ عزم القلب، وتُحرك كوامن الشوق،
وذلك حين قال ﷺ: «فإنك من أهلها».

فانتعش القلب فرحا وطربا، فألقى تمرات كان قد أخرجها ليأكلها
تقويا على الجهاد، ثم قال الكلمة الخالدة: لئن أنا عشتُ حتى آكل تمراتي
هذه، إنها لحياة طويلة^(١).

إنه يريد أن يكون أول متسابق يصل إلى خط الشهادة في بدر الكبرى، في
يوم الفرقان.

وكما في ميدان الشهادة سبق عمير في بدر، جاء بعده مصعب في أحد، ومعه
حمزة بن عبد المطلب، ومعهما أنس بن النضر في ثلة من الشهداء السابقين.

وميدان الصدقة له فرسان مُقدمون- أيضًا- فهذا أبو الدرداء الأنصاري
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسمع قول الله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

فيذهب مسرعًا إلى حائطه وبستانه الأثير، وينادي على زوجته: أن اخرجي،

(١) أخرجه مسلم (١٩٠١) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فقد أقرضت ربي حائطي، فتعمدُ الزوجة الصالحة إلى ما بيد أبنائها من تمر البستان، فتلقيه، وما في الأفواه فتخرجه، وهي تقول: ربح البيع أبا الدحداح. وتأتيه البشارة: «كَمْ مِنْ عَذَقٍ رَدَّاحٍ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ»^(١).

ومثل أبي الدحداح مُنفقون كثر، ليس آخرهم عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أجمعين.

ولما أنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

قال أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بينما أنا أديرُ الكأس على أبي طلحة، وأبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسهيل بن بيضاء، وأبي دجانة، حتى مالت رؤوسهم من خليط بسر وتمر، فسمعتُ منادياً ينادي: ألا إن الخمر قد حُرمت.

قال: فما دخل علينا داخل، ولا خرج منا خارج حتى أهرقنا الشراب، وكسرنا القِلَالَ، وتوضأ بعضنا، واغتسل بعضنا، وأصبنا من طيب أم سليم، ثم خرجنا إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠ - ٩١].

لقد حرصوا أن يقولوا من فورهم: انتهينا ربنا»^(٢).

ولما أنزل الله تحويل القبلة إلى الكعبة استداروا وهم في الصلاة مسارعين

(١) أخرجه أحمد (١٢٤٨٢)، والحاكم (٢١٩٤) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير (٦٦٦/٨).

مسابقين إلى مَرَضَةِ اللَّهِ.

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «بَيْنَا النَّاسُ بَقْبَاءَ إِذْ جَاءَهُمْ آتٌ، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ، وَقَدْ أُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةَ: فَاسْتَقْبَلُوهَا - وَكَانَتْ وَجُوهُهُمْ إِلَى الشَّامِ - فَاسْتَدَارُوا إِلَى الْكَعْبَةِ»^(١).

وللنساء نصيبهن من المسابقة إلى الإيمان، وطاعة الرحمن «لما أنزل الله تعالى آية: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَذَقْنَا أَنْ يُعَرِّفَنَّ فَلَا يُؤْذِنَنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة، وعليهن أكسية سود يلبسنها»^(٢).

فهذه صورة مشرفة من المسارعة الراشدة إلى إقامة أمر الله تعالى بالحجاب من غير تردد، أو تلكؤ.

فَلَوْ كُنَّ النِّسَاءُ كَمَنْ فَقَدْنَا لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ
فَمَا التَّائِيْتُ لِاسْمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ وَلَا التَّذَكِيرُ فَخْرٌ لِلْهَلَالِ^(٣)

وهكذا يمضي جيل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وقد سبقوا سبقاً بعيداً حين تلقوا الإيمان، ثم تلقوا القرآن والأحكام، فنافسوا في المعالي، وسابقوا إلى الجنان، فما لحقهم أحد!

(١) أخرجه البخاري (٣٨٨)، ومسلم (٨٢٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٤١٠١) من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) الأمثال السائرة من شعر المتنبي، لإسماعيل بن عباد بن العباس أبي القاسم الطالقاني المشهور بالصاحب بن عباد، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، مكتبة النهضة، بغداد، ط ١، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م (ص ٣٨).

لكن التابعين لم يقنعوا بأن يتركوا مضمار السباق من منافسة حقيقية للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حتى قال أحدهم لنفسه: لقد كان الصحابة خلف النبي ﷺ على جياذ مُضْمَرَة، ونحن خلفهم على حُمْر عرجاء، أفتريدون أن تقعدي بنا عنهم، فيفوزوا برسول الله ونقعد، والله لنلحقن بهم ولو حبوا؛ حتى يعلموا أنهم قد خلفوا رجالا.

كان غير واحد من السلف - منهم: حماد بن سلمة - لو قيل له: «إنك تموت غدا، ما استطاع أن يزيد في عمله شيئا»^(١)؛ ولهذا كافأه الله بأن توفاه وهو يصلي.

وهكذا يستجيب المؤمن لقوله ﷺ: «التَّوَدُّةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ خَيْرٌ إِلَّا فِي عَمَلِ الْآخِرَةِ»^(٢).

ومتى اجتمعت النفس على الطاعة اغتنم المؤمن وقته، وشغل نفسه بالعمل بما يرضي الله.

إِذَا هَبْتَ رِيَا حُكَّ فَاعْتَنِمَهَا فَعُقِبَى كُلِّ خَافَقَةٍ سُكُونُ
وَلَا تَغْفَلَ عَنِ الْإِحْسَانِ فِيهَا فَلَا تَدْرِي السُّكُونُ مَتَى يَكُونُ^(٣)

ولهذا تواتر عن أهل السبق والمسابقة التحذير من: (سوف).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن الرجل إذا حضرت له فرصة القربة والطاعة فالحزم كل الحزم في انتهازها، والمبادرة إليها، والعجز في تأخيرها والتسويق

(١) حلية الأولياء (٦/ ٢٥٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨١٠) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب، لأحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري شهاب الدين النويري، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط ١، ١٤٢٣هـ (٦/ ١٣٨).

بها، ولا سيما إذا لم يثق بقدرته وتمكنه من أسباب تحصيلها؛ فإن العزائم والهمم سريعة الانتقاص كلما تثبت، والله سبحانه يعاقب من فتح له بابا من الخير فلم ينتهزه بأن يحول بين قلبه وإرادته، فلا يمكنه بعد من إرادته؛ عقوبة له، فمن لم يستجب لله ورسوله إذا دعاه حال بينه وبين قلبه وإرادته، فلا يمكنه الاستجابة بعد ذلك»^(١).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤].
وقد بين الله سبحانه هذا في قوله: ﴿وَنَقَلُبُ أَفْسَدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ ءَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].
وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].



الفصل الرابع أخوة الإيمان

إن أخوة الإيمان وشيعة ربانية المبدأ، تقوم على قاعدة جلية من الإيمان بالواحد الديان، فهي رابطة الإيمان، وهي عنوان الحب في الله، والبذل في الله، وبها تمام الإحسان.

وإذا كانت الأخوة النسبية بين الأشقاء تشد الشقيق إلى شقيقه برابط من أب شقيق وأم حنون؛ فإن الإيمان يجعل الأخوة عروة غير مُنقصمة، وإن اختلفت الأنساب، وتباينت الأصلاب!

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وهذه الأخوة عابرة للزمان والمكان، فهي تربط أهل الإيمان حيث كانوا، ومتى كانوا، وتمتد من الدنيا إلى الآخرة!

قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

وعلى هذه الوشيعة في ظلال أصحابها يتمنى الإنسان أن يحيا في الدنيا والآخرة!

فَلَيْتَنِي أَحْيَا بِقُورِهِمْ فَإِذَا فَقَدْتُهُمْ انْقَضَىٰ عُمْرِي
فَتَكُونُ دَارِي بَيْنَ دُورِهِمْ وَيَكُونُ بَيْنَ قُبُورِهِمْ قَبْرِي

فإذا اجتمع الناس على مصالح الأرض، وروابط الدنيا، فاجتماع

الإخوان على تحقيق الإيمان ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].
إن الإيمان برابطته الوثيقة، ووشيجته، ولحمته العميقة يكفي عن كل روابط الحياة من دونه، فهو يُغني عن المصالح المشتركة، والتاريخ المشترك، والمصير المشترك، وسائر المشتركات في هذه الحياة، ولا يُغني عنه ما سواه.
إن أخوة الإيمان تزيل الفوارق، وترفع الحواجز، وتجعل أهلها جسدا واحدا يمضي لغاية واحدة، ويسعى لهدف واحد.

«مِثْلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مِثْلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»^(١).
«الْمُسْلِمُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ، إِنْ اشْتَكَى عَيْنُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ، وَإِنْ اشْتَكَى رَأْسُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ»^(٢).

هكذا المؤمنون المتآخون في الدنيا، فإذا قامت القيامة شفع بعضهم لبعض عند ربهم، واستظلوا بظل العرش يوم تدنو الشمس من الرؤوس، ويلجم العرق الناس إجماعا!

أما إخوان الدنيا، والمصالح الأرضية، والمتآخين على الشر والعدوان، المجتمعين على الطغيان فهم حال أخرى في القيامة.

قال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٦٧) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أين هذه الحال من حال أهل الإيمان في الحديث: «مَا مُجَادَلَةٌ أَحَدُكُمْ لَصَاحِبِهِ فِي الْحَقِّ يَكُونُ لَهُ فِي الدُّنْيَا أَشَدُّ مُجَادَلَةً لَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ فِي إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ أَدْخَلُوا النَّارَ، قَالَ: يَقُولُونَ: رَبَّنَا، إِخْوَانُنَا كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا، وَيُصُومُونَ مَعَنَا، وَيَحْجُونَ مَعَنَا، فَأَدْخَلْتَهُمُ النَّارَ، فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَأَخْرَجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ»^(١).

أُخُوَّةُ الْإِيمَانِ حُبٌّ وَوَلَاءٌ:

إن أُخُوَّةَ الْإِيمَانِ عمود فسطاطها هو الحب، وما الأجر الجزيل إلا ثمرة ذلك الحب الفضيل.

ومن السبعة الذين هم في ظل الله يوم القيامة: «رَجُلَانِ تَحَابَا فِي اللَّهِ؛ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ، وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ»^(٢).

وفي الحديث القدسي: «الْمُتَحَابُونَ فِي جَلَالِي لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ، يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشَّهَدَاءُ»^(٣).

والثوابُ يمتد من المتحابين بقلوبهم وأرواحهم إلى المتبازلين بأموالهم، المتواصلين بأبدانهم.

وفي الحديث القدسي -أيضاً-: «حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِينَ فِي، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَزَاوِرِينَ فِي، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَاذِلِينَ فِي، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَصَافِينَ فِي، الْمُتَوَاصِلِينَ»^(٤)، بل إن الأجر يبلغ ما هو أعظم من ذلك؛ إذ يقول نبينا ﷺ: «مَا

(١) أخرجه أحمد (١١٨٩٨)، والنسائي (٥٠١٠)، وابن ماجه (٦٠) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٠٨٠)، والترمذي (٢٣٩٠) من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٠٠٢)، والحاكم (٧٣١٥) من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تَحَابَ رَجُلَانِ فِي اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا كَانَ أَفْضَلُهُمَا أَشَدَّهُمَا حُبًّا لَصَاحِبِهِ»^(١).

ورحم الله الحسن البصري إذ يقول: «إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا لأن أهلنا يذكرُوننا بالدنيا وإخواننا يذكرُوننا بالآخرة»^(٢).

وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يذكر الأخ من إخوانه بالليل، فيقول: ما أطولها من ليلة!، فإذا صلى الغداة غدا إليه، فإذا لقيه التزمه، أو اعتنقه^(٣).

نوايا المتآخين:

والمتآخون في الله يَنوون بأخوتهم امتثال أمر ربهم، وأمر نبهم الذي قال لهم: «كُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا»^(٤).

ويطلبون بالأخوة الإيمانية وجه الله تعالى، والدار الآخرة، وتذوق حلاوة الإيمان في الدنيا بمحبة الإخوان في الله تعالى، ويرجون بالتآخي إكمال شرائع الدين؛ إذ أوثق عرى الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله. وفي الأثر: «مَنْ أَعْطَى اللَّهَ تَعَالَى، وَمَنَعَ اللَّهَ تَعَالَى، وَأَحَبَّ اللَّهَ تَعَالَى، وَأَبْغَضَ اللَّهَ تَعَالَى، وَأَنْكَحَ اللَّهَ تَعَالَى فَقَدْ اسْتَكَمَلَ إِيْمَانَهُ»^(٥).

ومن خلال ذلك التآخي يكون سعيهم في تمكين هذا الدين، ورفع شأن المسلمين، ودفع غربة الإسلام، وحفظ شرائعه، وزيادة الإيمان؛ إذ الشيطان

(١) أخرجه البزار (٦٨٦٩)، وابن حبان (٥٦٦)، والطبراني في الأوسط (٢٨٩٩) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) إحياء علوم الدين، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، دار المعرفة - بيروت (١٧٦/٢).

(٣) أخرجه أحمد في الزهد (٦٤٢).

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٥٨) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه أحمد (١٥٦١٧)، والترمذي (٤٦٨١) من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مع الواحد وهو من الاثنين أبعد^(١)، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية^(٢).

حقوق المتأخين:

وهي حقوق وثيقة، وآداب رفيعة، وقمة في الإيثار بالنفس والمال، وهي عشرة كاملة:

أولها: خدمة الإخوان بالنفس:

فالمحب يبذل نفسه قبل ماله لإخوانه.

كان عمر يخدم مواليه، ويبرهم قبل خدمة أصحابه وبرهم.

وقال مجاهد: صحبتُ ابن عمر وأنا أريد أن أخدمه، فكان هو يخدمني^(٣)!

ثانيها: الإكرام بالطعام:

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا نُنْطِغُكُمْ لِرُوحِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان: ٩].

وقال تعالى: ﴿ أَوْ صَدِيقَكُمْ ﴾ [النور: ٦١].

قال أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ: «لو أن الدنيا جُمعت حتى تكون في لقمة،

ثم أخذها امرؤ مسلم فوضعها في فم أخيه المسلم لما كان مسرفاً»^(٤).

وقال سليمان الداراني رَحِمَهُ اللَّهُ: «إني لأُلْقِم اللقمة أخا من إخواني، فأجد

طعمها في حلقي»^(٥).

(١) أخرجه أحمد (١٧٧)، والترمذي (٢١٦٥)، والنسائي في الكبرى (٩٢١٩) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢١٧١٠)، وأبو داود (٥٤٧) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢٨٥ / ٣).

(٤) الآداب الشرعية والمنح المرعية، لمحمد بن مفلح بن محمد بن مفرج أبي عبد الله شمس الدين المقدسي، ثم الصالحي الحنبلي، عالم الكتب (٢٥١ / ٢).

(٥) قوت القلوب، لأبي طالب المكي (٣٧٦ / ٢).

ثالثها: قضاء الحوائج بالأموال:

قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

فكانوا يُقدمون إخوانهم على أنفسهم في قضاء حوائجهم.

قيل لمحمد بن المنكدر رَحِمَهُ اللهُ: «ما بقي مما يُستلذ؟ قال: الإفضال على الإخوان»^(١).

رابعها: التفقد والسؤال:

«حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِي، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَزَاوِرِينَ فِي، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَاذِلِينَ فِي، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَصَافِينَ فِي، الْمُتَوَاصِلِينَ»^(٢).

قال عطاء الخراساني رَحِمَهُ اللهُ: «تعاهدوا إخوانكم بعد ثلاث، فإن كانوا مرضى فعودوهم، وإن كانوا مشاغل فاعينوهم، وإن كانوا نسوا فذكروهم»^(٣).

خامسها: الإعانة والنصرة:

قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

وفي الحديث: «انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا، أَوْ مَظْلُومًا»^(٤).

فَإِذَا صَاحَبْتَ فَاصْحَبْ صَاحِبًا ذَا حَيَاءٍ وَعَفَافٍ وَكَرَمٍ
قَوْلُهُ لِلشَّيْءِ لَا إِنْ قُلْتَ لَا وَإِذَا قُلْتَ نَعَمْ قَالَ نَعَمْ^(٥)

(١) الإخوان، لأبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق: فاضل بن خلف الحمادة الرقي، دار أطلس الخضراء، الرياض، ط ١، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م (١٧٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٠٢)، والحاكم (٧٣١٥) من حديث معاذ بن جبل رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ.

(٣) حلية الأولياء (١٩٨/٥).

(٤) أخرجه البخاري (٢٤٤٣) من حديث أنس رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ.

(٥) الإخوان، لابن أبي الدنيا (٥٢).

ولهذا قيل: الإخوان زينة في الرخاء، وعُدة عند البلاء^(١).

سادسها: التناصح، والأمر بالمعروف:

في الحديث: «الدينُ النصيحة»^(٢).

وفي الحديث - أيضاً -: «وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانصَحْ لَهُ»^(٣).

قال الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «المؤمن مرآة أخيه، إن رأى فيه ما لا يعجبه سدده، وقومه، وحاطه، وحفظه في السر والعلانية»^(٤).

سابعها: الصفح، والعفو عن الزلات:

قال تعالى: ﴿فَاَصْفَحْ أَصْفَحَ الْجَمِيلِ﴾ [الحجر: ٨٥].

وهو الرضا بغير عتاب.

قال الفضيل رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفتوة: الصفح عن عثرات الإخوان»^(٥).

وقال الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن من حق الإخوان: أن تغفر هفوتهم، وتستتر زلتهم؛ لأن من رام بريئاً من الهفوات، سليماً من الزلات، رام أمراً معوزاً، واقترح وصفاً معجزاً»^(٦).

وَإِذَا الْحَبِيبُ أَتَى بِذَنْبٍ وَاحِدٍ جَاءَتْ مَحَاسِنُهُ بِأَلْفِ شَفِيعٍ^(٧)

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير، لعبد الله بن المقفع، دار صادر، بيروت (ص ١٠٨).

(٢) أخرجه مسلم (٥٥) من حديث تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢١٦٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) الإخوان، لابن أبي الدنيا (٥٥).

(٥) مدارج السالكين، لابن القيم (٢/ ٣٢٥).

(٦) أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي

الشهير بالماوردي، دار مكتبة الحياة، بدون طبعة، ١٩٨٦م (ص ١٧٨).

(٧) مدارج السالكين، لابن القيم (١/ ٣٣٧).

ثامنها: الدعاء بظهر الغيب:

وفي الحديث: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ إِلَّا قَالَ الْمَلَكُ: وَلَكَ بِمِثْلٍ»^(١).

وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُسْلِمَ لَيُغْفَرُ لَهُ وَهُوَ نَائِمٌ، فَقِيلَ: كَيْفَ ذَلِكَ؟! قَالَ: يَقُومُ أَخُوهُ مِنَ اللَّيْلِ، فَيَتَهَجَّدُ، فَيَدْعُو اللَّهَ، فَيَسْتَجِيبُ لَهُ، وَيَدْعُو لِأَخِيهِ، فَيَسْتَجِيبُ لَهُ فِيهِ»^(٢).

تاسعها: إدخال السرور على القلوب:

قال ابن حزم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا تَنْقُلْ إِلَى صَدِيقِكَ مَا يُوْلِمُ نَفْسَهُ، وَلَا يَنْتَفِعُ بِمَعْرِفَتِهِ؛ فَهَذَا فِعْلُ الْأَرَاذِلِ، وَلَا تَكْتُمُهُ مَا يَسْتَضِرُّ بِجَهْلِهِ؛ فَهَذَا فِعْلُ أَهْلِ الشَّرِّ»^(٣).

وقال يحيى بن مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لِيَكُنْ حِظُّ الْمُؤْمِنِ مِنْكَ ثَلَاثًا: إِنْ لَمْ تَنْفَعِهِ فَلَا تَضُرَّهُ، وَإِنْ لَمْ تُفَرِّحْهُ فَلَا تَغْمُهُ، وَإِنْ لَمْ تَمْدَحْهُ فَلَا تَذْمُهُ»^(٤).

عاشرها: أداء حقوق المسلمين العامة:

في الحديث عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِسَبْعٍ، وَنَهَانَا عَنْ سَبْعٍ: أَمَرَنَا بِعِيَادَةِ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعِ الْجَنَازَةِ، وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ، وَإِبْرَارِ الْقَسَمِ - أَوْ الْمُقْسَمِ - وَنَصْرِ الْمَظْلُومِ، وَإِجَابَةِ الدَّاعِي، وَإِفْشَاءِ السَّلَامِ...»^(٥).

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٢) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (٧٥٧)، والبيهقي في الشعب (٨١٨٦).

(٣) الأخلاق والسير في مداواة النفوس، لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٢، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م (ص ٤٧).

(٤) صفة الصفوة (٢/ ٢٩٢).

(٥) أخرجه البخاري (١٢٣٩)، ومسلم (٢٠٦٩).

ولا يفسد التأخي مثل المعاصي!
ففي الحديث: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَفُرِقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا
بَذَنبٍ يُحَدِّثُهُ أَحَدُهُمَا»^(١).

وقد تنقلب بسبب المخالفات المحبة إلى عداوة.
﴿فَسَوْأَ حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ، فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى
يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [المائدة: ١٤].

والأثرة والتنافس على الدنيا مذهبتان لسماحة التأخي.
وفي الحديث: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(٢).
ولا بد من اجتناب آفات اللسان بين الإخوان، وكثرة المخالفة في
الأعمال والأحوال تنقص المحبة، وقد تستحكم بسببها الجفوة.
والدعاء بحفظ المحبة من أعظم أسباب الألفة، ودوام الأخوة.
فاللهم اغفر لإخواننا وأحبابنا أجمعين، واجمعنا بهم في الدنيا مؤتلفين،
 واجمعنا بهم في الآخرة على سرر متقابلين.



(١) أخرجه أحمد (٥٣٥٧) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الفصل الخامس مجالس الإيمان

إن مجالس الإيمان هي البيئة التي ينمو فيها الإيمان ويتدبر، وهي المحضن الذي يحيا فيه المؤمن ويتنعم، فهي مجالس تملأ القلب يقينا وخشوعا، وتسكب في النفس طمأنينة وسكينة، وتغذي الروح بغذاء الإيمان، وأنوار القرآن.

هي مجالس النبي ﷺ التي كان المؤمنون يحافظون عليها، ويزدحمون فيها، ويحرصون على القرب فيها من النبي ﷺ، فينهلون من أنوار كلامه، وبركات رؤيته ومخالطته، ويتأدبون فيها بأدب النبوة.

مجالس ذكر القرآن الكريم بعض أخبارها، وما كان يجري فيها، ثم جاء ذكرها مفصلا في السنة المطهرة، والسيرة المشرفة!

قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

قال هند بن أبي هالة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في وصف مجلس النبي ﷺ -: «مجلسه مجلس علم وحكم وحياء وأمانة وصبر، لا تُرفع فيه الأصوات، ولا تُؤبَن فيه الحرَم، ولا تُنثَى فلتاته، متعادلين، بل كانوا يتفاضلون فيه بالتقوى متواضعين، يُوقرون فيه الكبير، ويرحمون فيه الصغير، ويؤثرون ذا الحاجة،

ويحفظون الغريب»^(١).

ومجالسه ﷺ في مكة كانت مصنع الرجال، ومدرسة الإيمان، حيث كانت دار الأرقم بن أبي الأرقم هي الحاضنة الأولى لنبتة الإيمان الوليدة، وقد ورد التنويه بها في مكة غير مرة، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وهي المجالس التي جاء الأمر الإلهي للنبي ﷺ بملازمتها، والمحافظة عليها، والصبر على حضورها وعمارتها إيماناً واحتساباً. قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨]. فهذه المجالس المباركة للإيمان والتدبر والتفكير والتذكر وإحياء النفوس بكلام ربها، وسنة نبيها ﷺ؛ فلا يمكن التفريط بها، أو التهاون في تقوية رابطتها في القلوب والنفوس المؤمنة؛ لتنشأ الجماعة التي ستغير وجه الحياة والتاريخ.

وفي مجالسه ﷺ تلقى الصحابة الإيمان قبل الأحكام، كما أخبر بذلك ابن عمر وغيره، فتلقوا تعظيم الله تعالى وإجلاله، وتوحيده، والإخلاص له، وإسلام الوجه والانقياد، والمحبة مع كمال الخضوع لله تعالى، ثم تلقوا أحكام القرآن والسنة، فعملوا بها، واجتمعوا على إقامة الدين والدعوة إليه.

(١) الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية، لمحمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك الترمذي أبي عيسى، تحقيق: سيد عباس الجلبي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤١٢هـ (٣٣٧).

ثم وردت الصحابة من بعده ﷺ تلك المجالس الإيمانية، فنقلت أخبارها، وانتشر عيبرها، فهي مجالس أهل العلم وإن كانوا مساكين، وهي مجالس أهل الفقه في الدين، ولو كانوا من المستضعفين.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان جعفر بن أبي طالب يحب المساكين، ويجلس إليهم، ويُحدثهم ويُحدثونه، وكان رسول الله ﷺ يكتنيه: أبا المساكين»^(١).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا، أما إنها ليست بمجالس القصاص، ولكنها مجالس أهل الفقه»^(٢).

وقد قال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لبعض إخوانه -: «اجلس بنا نؤمن ساعة»^(٣)، أو «اجلس بنا، فلنؤمن ساعة، فيجلسان، فيذكران الله ويحمدانه»^(٤).

وقال ابن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يوما لأبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: «تعالى نؤمن ساعة، إن القلب أسرع تقلبًا من القدر إذا استجمعت غليانًا»^(٥).

وعن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تلقى التابعون والسلف تلك المجالس، فحافظوا عليها، وعُنوا بلزومها، والتفقه بأدائها، ومن ثم نُقلت ودُوت، وعُني المصنفون بذكر أخبارها، وبوبوا الأبواب عليها، ومن ذلك:

قول ابن حبان رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذكر الأمر بمجالسة الصالحين وأهل الدين دون أضدادهم من المسلمين»^(٦).

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٢٥).

(٢) أخرجه أبو يوسف في الآثار (٩٥٩).

(٣) صحيح البخاري (١٠ / ١).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣١٠٠٢).

(٥) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (١١٣٧).

(٦) صحيح ابن حبان (٣٢٠ / ٢).

وقال - أيضاً - رَحِمَهُ اللهُ: «ذكر البيان بأن من جالس الذاكرين الله يسعده الله بمجالسته إياهم»^(١).

وبوب النووي رَحِمَهُ اللهُ على: (صحيح مسلم): «باب: استحباب مجالسة الصالحين، ومجانبة قُرْءاء السوء»^(٢).

وبوب الطبراني رَحِمَهُ اللهُ: «باب: ما جاء فيمن يُعرض عن مجالس الذكر»^(٣). وهكذا تمتد العناية بتلك المجالس حضا عليها، ودعوة للإفادة منها، ومن صالحي أهلها.

عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوِّءِ كَحَامِلِ الْمَسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمَسْكِ إِذَا مَا يُحْدِثُكَ، وَإِذَا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِذَا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحاً طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِذَا مَا يُحْرِقُ ثِيَابَكَ، وَإِذَا أَنْ تَجِدَ رِيحاً خَبِيثَةً»^(٤).

وفي الحديث إشارة إلى أن من المجالس ما لا يمت للإيمان بصلّة، فهي مجالس يضعف فيها الإيمان، ويتردد عليها الشيطان؛ لأنها مجالس أهل العصيان والطغيان.

(١) صحيح ابن حبان (٣/١٣٩).

(٢) شرح مسلم (١٦/١٧٨).

(٣) الدعاء، لسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي أبي القاسم الطبراني، تحقيق: محمد سعيد بن محمد حسن البخاري، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م (٣/١٦٥٤).

(٤) أخرجه البخاري (٢١٠١)، ومسلم (٢٦٢٨) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

والمؤمن يرغب في مجالس أهل الإيمان، ويرغب عن مجالس أهل العصيان، والفرق شاسع بين من يجتمعون على كتاب الله، ومن يجتمعون على مُعاقرة الخمر، وقول الزور، وفعل الفواحش.

فضائل المجالس الإيمانية:

من فضائل تلك المجالس الإيمانية، ومصالح تلك اللقاءات التربوية ما يلي:
 أولاً: التقرب إلى الله بحضورها:
 وذلك لأنها - بذاتها - عبادة إلى الله تُقرب، وفي الجنة تُرغب، ومن النار وأهلها تُرهب.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطَّرِيقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ، تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ. قَالَ: فَيُحْفَنُهُمْ بِأَجْنَحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا.
 قَالَ: فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ - وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ -: مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالُوا: يَقُولُونَ: يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ.
 قَالَ: فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: لَا - وَاللَّهِ - مَا رَأَوْكَ. قَالَ: فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟! قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمَجِيداً وَتَحْمِيداً، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحاً.

قَالَ: يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي؟ قَالَ: يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ. قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَا - وَاللَّهِ - يَا رَبِّ، مَا رَأَوْهَا. قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟! قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصاً، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَباً، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً.

قال: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ. قال: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قال: يَقُولُونَ: لَا - وَاللَّهِ - يَا رَبِّ، مَا رَأَوْهَا. قال: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟! قال: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فَرَارًا، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً.

قال: فَيَقُولُ: فَأَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ. قال: يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ: فِيهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ. قَالَ: هُمْ الْجُلَسَاءُ لَا يَشْفَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ^(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا مَرَرْتُمْ بَرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا. قلت: يا رسول الله، وما رياض الجنة؟ قال: الْمَسَاجِدُ. قلت: وما الرتع يا رسول الله؟ قال: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ»^(٢).

ثانيًا: هي مجالس بها يزداد الإيمان، ويُصان من النقصان:

ولا أدل على كونها كذلك من حديث حنظلة الأسدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قال: قلت: نافق حنظلة. قال: سبحان الله! ما تقول؟! قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ، يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّ رَأْيَ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا.

قال أبو بكر: فوالله، إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: وَمَا ذَاكَ؟! قلت: يا رسول الله، نكون عندك تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّ رَأْيَ

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٠٩).

عين، فإذا خرجنا من عندك، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيرا. فقال رسول الله ﷺ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّكُمْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحْتُكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ، وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ، سَاعَةٌ وَسَاعَةٌ»^(١).

فهذا المعنى ظاهر لائح من هذا الحديث الذي يدل على ارتقاء الصحابة لقمة سامقة من الإيمان بحضرة النبي ﷺ، وفي مجلسه الشريف، فإذا خرجوا من عنده، نزلوا عن تلك الرتبة المنيفة، وشعروا بهذا النقص في إيمانهم! وقد تقدم قول معاذ وابن رواحة، وتواصي طائفة من سلف الأمة بها. وفي الحديث: «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، يَقْرَأُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَذَكَّرُونَ فِيهِمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَعَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»^(٢).

وهي مجالس يجتمع فيها الشيوخ مع الطلاب، فيأخذون من هديهم، ويتأدبون بأدبهم.

أوصى حبيب الشهيد رَحِمَهُ اللَّهُ ابنه، فقال: «يا بني، اصحب الفقهاء، وتعلم منهم، وخذ من أدبهم؛ فإنه أحبُّ إليَّ من كثير من الحديث»^(٣).

ثالثاً: هي مجالس علم وتربية، وتواص وتآخ:

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عليك بإخوان الصدق، فعش في

(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٠) من حديث حنظلة الأسدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة (ص ٣٢).

أكنافهم؛ فإنهم زين في الرخاء، وعُدّة في البلاء»^(١).

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عليكم بالإخوان؛ فإنهم عُدّة في الدنيا والآخرة»^(٢).

وقال رجل لداود الطائي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أوصني؟ قال: اصحب أهل التقوى؛ فإنهم أيسر أهل الدنيا عليك مؤونة، وأكثرهم لك معونة»^(٣).

قال موسى بن عقبة رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن كنت لألقى الأخ من إخواني، فأكون بلقيه عاقلاً أياماً»^(٤).

وقال أبو سليمان رَحِمَهُ اللَّهُ: «كنت أنظر إلى أخ من إخواني بالعراق، فأعمل على رؤيته شهراً»^(٥).

إنهم شرف وزين في الرخاء، وعُدّة في الشدة والبلاء!

خرج ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على أصحابه، فقال: «أنتم جلاءٌ حزني»^(٦).

وقال شبيب بن شيبه رَحِمَهُ اللَّهُ: «إخوانُ الصدق خيرُ مكاسب الدنيا، وهم زينة في الرخاء، وعُدّة في البلاء، ومعونة على حسن المعاشرة»^(٧).

رابعاً: مجالسة العلماء تُذكر بالله:

من فوائد مجالس العلماء والصالحين: أن رؤيتهم تُذكر بالله.

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبِدِ التميمي أبي حاتم الدارمي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت (ص ٩٠).

(٢) تفسير القرطبي (١٣/ ١١٦).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الإخوان (٤٣).

(٤) روضة العقلاء (ص ٩٢).

(٥) روضة العقلاء (ص ٩٣).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في الإخوان (٨٤)، وابن الجعد في مسنده (١٧٦٣).

(٧) الأدب الصغير والأدب الكبير، لعبد الله بن المقفع (ص ١٠٨).

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَوْلِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى: الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللَّهُ تَعَالَى»^(١).

وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ لَا ثَلَاثٌ خَلَالَ لِأَحَبِّتُ إِلَّا أَبْقَى فِي الدُّنْيَا. فَقَالَتْ: وَمَا هُنَّ؟ فَقَالَ: لَوْ لَا وُضُوعٌ وَجْهِي لِلْسُّجُودِ لِخَالِقِي فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، يَكُونُ تَقْدِمَةٌ لِحَيَاتِي، وَظَمًا لِلْهَوَاجِرِ، وَمَقَاعِدَةُ أَقْوَامٍ يَنْتَقُونَ الْكَلَامَ كَمَا تُنْتَقَى الْفَاكْهَةُ»^(٢).

وَقَالَ بِلَالُ بْنُ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَخْ لَكَ كَلِمَا لَقِيكَ ذَكَرَكَ بِحَظِّكَ مِنْ اللَّهِ خَيْرَ لَكَ مِنْ أَخْ كَلِمَا لَقِيكَ وَضَعُ فِي كَفِّكَ دِينَارًا»^(٣).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَشَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ رُبَّمَا جَلَسَ إِلَى أَيُّوبَ السَّخْتِيَانِي، فَيَكُونُ لِمَا يَرَى مِنْهُ أَشَدَّ اتِّبَاعًا لَوْ سَمِعَ حَدِيثَهُ»^(٤).

وَحَدَّثَ أَيُّوبُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ نَفْسِهِ فِي مَجَالَسِهِ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، فَقَالَ: «جَالَسْتُ الْحَسَنَ أَرْبَعَ سَنِينَ، فَمَا سَأَلْتُهُ هَيْبَةً لَهُ»^(٥).

وَعَنْ حَمَادِ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «مَا رَأَيْتُ مِثْلَ مَجْلِسِ هِشَامِ بْنِ حَسَانَ أَحْسَنَ سَمْتًا وَهَدْيًا، وَإِنْ كَانَ لِي حَدِيثٌ فَيُبْكِي، وَتَجْرِي الدَّمُوعُ عَلَى لَحْيَتِهِ مِنْ غَيْرِ تَكْلُحٍ، وَلَا تَقْبُضُ»^(٦).

وَكَانَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُحَدِّثَ تَوَضَّأَ، وَجَلَسَ عَلَى

(١) أَخْرَجَهُ الْبَزَارُ (٥٠٣٤).

(٢) حَلِيَّةُ الْأَوْلِيَاءِ، لِأَبِي نَعِيمٍ (٢١٢/١).

(٣) صِفَةُ الصَّفْوَةِ (٣٧٦/٢).

(٤) حَلِيَّةُ الْأَوْلِيَاءِ (٧/٣).

(٥) حَلِيَّةُ الْأَوْلِيَاءِ (١١/٣).

(٦) حَلِيَّةُ الْأَوْلِيَاءِ (٢٧٣/٦).

فراشه، وسرح لحيته، وتمكن في الجلوس بوقار وهيبة، ثم حدث، ف قيل له في ذلك، فقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ، ولا أحدث به إلا على طهارة متمكنا، وكان يكره أن يحدث في الطريق وهو قائم، أو يستعجل، فقال: أحب أن أفهم ما أحدث به عن رسول الله ﷺ»^(١).

وقال ابن المبارك رَحِمَهُ اللهُ: «تعجبني مجالس سفيان الثوري، كنت إذا شئت رأيته في الورع، وإذا شئت رأيته مُصليا، وإذا شئت رأيته غائضا في الفقه»^(٢).

وقال قبيصة رَحِمَهُ اللهُ: «ما رأيت الأغنياء أذل منهم في مجلس سفيان الثوري، ولا الفقراء أعز منهم في مجلس سفيان الثوري»^(٣).

وقال حفص بن غياث رَحِمَهُ اللهُ: «كنا نستغني بمجلس سفيان عن الدنيا»^(٤).

وقال السائب سلم بن جنادة رَحِمَهُ اللهُ: «جالست وكيع بن الجراح رَحِمَهُ اللهُ سبع سنين، فما رأيته بزق، وما رأيته مس - والله - حصة بيده، وما رأيته جلس مجلسه فتحرك، وما رأيته إلا مُستقبل القبلة، وما رأيته يحلف بالله»^(٥).

وقال أبو داود السجستاني رَحِمَهُ اللهُ: «لقيت مائتين من مشايخ العلم، فما رأيت مثل أحمد بن حنبل؛ لم يكن يخوض في شيء مما يخوض فيه الناس من أمر الدنيا، فإذا ذكر العلم تكلم»^(٦).

(١) حلية الأولياء (٦/٣١٨).

(٢) حلية الأولياء (٦/٣٥٨).

(٣) حلية الأولياء (٦/٣٦٥).

(٤) حلية الأولياء (٨/٣٤٩).

(٥) حلية الأولياء (٨/٣٦٩).

(٦) حلية الأولياء (٩/١٦٤).

وقال خلف بن سلم رَحِمَهُ اللهُ: «كنا في مجلس يزيد بن هارون، فمزح يزيد مع مستمليه، فتنحح أحمد بن حنبل - وكان في المجلس - فقال يزيد: من المتنحح؟ ف قيل له: أحمد بن حنبل، ف ضرب بيده على جبينه، وقال: ألا أعلمتموني أن أحمد ههنا حتى لا أمزح»^(١).

مَجَالِسُهُمْ مِثْلُ الرِّيَاضِ أُنَيْقَةٍ لَقَدْ طَابَ مِنْهَا الرِّيحُ وَاللَّوْنُ وَالطَّعْمُ
 أَعْتَاضُ عَنْ تِلْكَ الرِّيَاضِ وَطَيْبِهَا مَجَالِسَ دُنْيَا حَشَوَهَا الزُّورُ وَالْإِثْمُ
 فَدُرُ حَوْلَ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ وَأَصْحَابُهُ - أَيْضًا - فَهَذَا هُوَ الْعِلْمُ
 وَكُنْ تَابِعَا خَيْرَ الْقُرُونِ وَمُمْسِكَا بِأَثَارِهِمْ فِي الدُّنْيَا هَذَا هُوَ الْحَزْمُ^(٢)



(١) حلية الأولياء (١٦٩/٩).

(٢) نزهة الأبصار بطرائف الأخبار والأشعار، لعبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن درهم، المكتب الإسلامي، بيروت (٢/٩٤٦).

الفَصْلُ السَّادِسُ

عِزَّةُ الْإِيمَانِ

لقد قضى الله جل في علاه: أن العِزَّةَ لله ولرسوله، ولعباده المؤمنين في كل وقت وحين، فقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

ولقد حكم سبحانه بأن الاستعلاء في الأرض لا يكون إلا بحق الإيمان، وعبادة الرحمن، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وكل علو في الأرض بغير حق فهو بغير إيمان، وكل استعلاء بغير إيمان فهو بغير حق.

إذ مصدرُ العلو والعِزَّةُ هو الله جل في علاه، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠]، وكل من طلب العِزَّةَ والاستعلاء من جهة البشر فقد خاب سعيه، وضل كسبه، ورجع بخيبة الأمل.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنَعُوكَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

وقال سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

فالعزة والعلو في الأرض للإسلام في ذاته ولأهله من حيث كونهم مؤمنين،
لا من حيثة أخرى!

كما قال ﷺ: «الإِسْلَامُ يَعْلُو، وَلَا يُعْلَى عَلَيْهِ»^(١).

فالإيمان قوة حقيقية يقينية، مَنْ تشبث بها اعتز وارتفع، وَمَنْ أدبر عنه
ذل واتضع!

وحقيقته: استقواء إيماني بعزة العزيز تعالى، وارتفاع معنوي بالارتباط
بالواحد العلي جل في علاه.

وطريق تحقيقه: لزوم عبودية الله، والحرص على تقواه، وذاك أُس
الخير، ومنبع العزة، ومصدر الكرامة، فلا يتفياً العبد ظلال العزة، ولا
يرتقي ذرى المعالي إلا في عبوديته الخالصة لله.

وكل من عاش في ظلال تحقيق عبودية الله على هذه الأرض، وفي هذه
الحياة ناله من تلك العزة بقدر تحقيقه لمراد الله تعالى.

إن استعلاء المؤمن بإيمانه على شهواته، ومغريات الحياة، وعلى
الشبهات ومفسدات الدين هو السر في تلك القوة، وذلك المدد الذي يُثبت الله
به المؤمنين، ويقوي به قلوب المجاهدين، ومعه يتحقق النصر للموحدين!

والاستعلاء والاعتزاز الإيماني شعور مستمر لا ينقطع، وليس هو كلمات
تقال، أو شعارات تُرفع، ولكنه عمل دؤوب، وسعي لا يتوقف.

قال الحسن رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ لِعَمَلِ الْمُؤْمِنِينَ أَجْلاً دُونَ الْمَوْتِ،
ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]»^(٢).

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٢٢٨٣)، والدارقطني (٣٦٢٠) من حديث عائذ بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم (١/ ١٨٤).

والاعتزاز بالإيمان، والاستعلاء به أمر ملازم في كل حال للمؤمن؛ حال قوته وضعفه، واستخلافه واستبداله.

وقد أنزل الله آيات سورة آل عمران بعد هزيمة أحد، وتعقيباً على مُصَاب المؤمنين، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٩) **﴿١٣٩﴾** إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ. وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ **﴿١٤٠﴾** وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿[آل عمران: ١٣٩ - ١٤١].

فلا يمكن أن يتسرب بعدها إلى القلوب وهن أو هزيمة، وإنما هو الثبات والاعتزاز والاستعلاء بالإيمان.

فالإيمان أعلى وأعلى من كل قيمة، والاستعلاء بالإيمان مع الضعف والقلّة هو هو مع القوة والكثرة.

إن المؤمن يؤمن بحق الإيمان، ويراه مطلقاً لا يُقيده شيء، ويؤمن بحسن عاقبته لا يحده شيء، ويتيقن من كفاية الله له، فلا يؤيسه شيء. ويعتقد أن المؤمن المعتقد بإيمانه هو الأعلى في مصدر التلقي؛ إذ يتلقى عن الله ورسوله، وهو الأعلى في عقيدته وشريعته وأخلاقه وآدابه، وأن خلاصة ما عند الخلق من الحق وزيادة هو مختزل في بعض آيات كتابه، وحديث رسوله ﷺ.

وليس من معاني العزة والاستعلاء الإيماني: الكبر على الخلق، ولا العُجب والاعتزاز بما هداه الله إليه من الإيمان الحق؛ ذلك أن العجب والاعتزاز والكبر ليست من الإيمان في شيء، بل هي من أخلاق الجاهلية، فالمؤمن يقبل الحق، ويعمل به، ويخالط الخلق على أساسه، فلا ينغزل، ولا ينفصل، ولا يتكبر، ولا يتجبر، وإنما هو هين لين مثل الجمل الأنف، متى قيد انقاد في الحق، ومتى استنخ أناخ للحق، يخالط الناس، ويصبر على أذاهم، ولا

يُخْلِيهِمْ مِنْ نَصَحِهِ، وَلَا يَتْرَكُهُمْ مِنْ لُطْفِهِ وَرَفْقِهِ.
ومن اختار العزلة عن الخلق فإنما اختار ذلك لضعفه، لا لكماله -
غالبًا - وإلا فالمؤمنون الأقوياء الأعزاء يخالطون الخلق، ويظهرون الحق،
أما الضعفاء فيختارون السبل الأيسر، والطرق الأقصر، ولو كانت أقل
أجرًا، وأضعف أثرًا.

فَعَظْمَةُ الْمُؤْمِنِ بَعُمُقِ أَثَرِهِ فِي غَيْرِهِ، وَاسْتَعْصَاءُهُ عَلَى التَّأَثُّرِ بِغَيْرِهِ!
وحين تتبدل الأحوال، ويقف المؤمن مغلوبًا على أمره، مهزومًا في
معركة مادية، أو مسجونًا عند أعدائه، أو مضطهدًا في رزقه، أو خائفًا في نفسه؛ فإن
استشعاره لعزته واستعلائه يمليان عليه المقاومة، والمصابرة، والمرابطة،
والمراغمة لأعدائه، ويؤكدان له أن للإيمان وأهله كَرَّةً وَلَا بَدَّ مِنْهَا، وله
عودة ولا غنى عنها، وأنه مهما طال الزمان أو قصر، فالنصر له في الدنيا والآخرة.
قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١].

وَأَنَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ لَا يَدُومُ اسْتِضْعَافُهُمْ مَتَى كَانُوا بَعَرَى الْإِيمَانِ مُسْتَمْسِكِينَ!
والمثل مضروب بحال نبينا ﷺ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقد ساوموه ﷺ،
وفاوضوه، تارة يُرْهَبُونَ، وأخرى يُرْغَبُونَ.

والمصطفى ﷺ لا تلين له في الحق قناة، ولا تتوهن له في النصر عزيمة،
«وَاللَّهِ، لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي شِمَالِي، عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا
الْأَمْرَ مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ، أَوْ أَهْلَكَ مِنْ دُونِهِ»^(١)، وهو في هذا مُقْتَدٍ
بأسلافه الصالحين من النبيين والمرسلين.

(١) أخرجه ابن إسحاق في المغازي (١/ ٢٤٠ - سيرة ابن هشام).

فهذا نبي الله نوح يقول: ﴿يَقَوْمُ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١].

وعلى منواله نسج نبي الله هود حين قال: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوكَ أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِن رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤-٥٦].

وعلى هدي النبي ﷺ والأنبياء سار الصحابة رضوان الله عليهم، كما قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وهذا أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يضرب مثلاً في اعتزاز المسلم بإيمانه واستعلائه بدينه، فقد أخرج البخاري: «أن أبا بكر خرج مهاجراً إلى الحبشة، حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه أحد المشركين وهو ابن الدَّغْنَةِ، وهو سيد القارة، فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فأنا أريد أن أسيح في الأرض، فأعبد ربي.

قال ابن الدَّغْنَةِ: إن مثلك لا يخرج، ولا يخرج؛ فإنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وأنا لك جار؛ فارجع فاعبد ربك.

ثم إنه رجع به إلى مكة، فطاف أشرافها مُعلنًا جوار أبي بكر وحمايته، ثم إن المشركين رجعوا إلى ابن الدَّغْنَةِ ليمنع أبا بكر من الصلاة بفناء داره، ومن رفع صوته بصلاته وقرآنه، أو يرد جواره عليه.

فأتى ابنُ الدَّغْنَةِ الصديق، فقال: قد علمت الذي عقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترد إلى ذمتي؛ فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له.

قال أبو بكر: إني أرد إليك جوارك، وأرضى بجوار الله^(١).

ومثل الصديق فعل عثمان بن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما دخل في جوار الوليد بن المغيرة، غير أنه لم يؤذ، وإنما رأى أن المؤمنين معه من أهل الشرك في مكة في أذى بليغ، فقال في نفسه: والله، إن غدوي ورواحي في جوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يَلْقَوْنَ من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني، لنقص كثير في نفسي.

فمشى إلى الوليد بن المغيرة، فقال له: يا أبا عبد شمس، وفّت ذمتك، وقد رددتُ إليك جوارك!

وانطلق معه إلى المسجد، فأعلن أمام الملاء من قريش أنه أحب ألا يستجير بغير الله، وقد رد جوار الوليد عليه.

ثم إنه أُوذِيَ بعدها، فلطمه بعض المشركين، فأذهب عينه، فقال له الوليد: والله يا ابن أخي، إن كانت عينك عما أصابها لغنية، ولقد كنت في ذمة منيعة.

فقال عثمان: بل -والله- إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله! وإني لفي جوار مَنْ هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس. فقال له الوليد: هلم يا ابن أخي إلى جوارك فعد، فقال: لا^(٢).

إنه قمة الاعتزاز والاستعلاء بالإيمان على كل قُوى الأرض الجائرة والحائدة عن منهج الله، وهو استعلاء المؤمن القوي بإيمانه، وإن كان قليل العدد والعدة.

(١) أخرجه البخاري (٣٩٠٥).

(٢) أخرجه ابن إسحاق في المغازي (٢/ ١٤ - ١٥ - سيرة ابن هشام).

وهذا خبيب بن عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يأسره المشركون، ويقتادونه للصلب بمكة انتقاما لقتلاهم في بدر، فيقول:

دعوني أركع ركعتين، فلما سلم، قال: والله، لولا أن تقولوا: إني أصلي جزعا من الموت لزدتُ منها، فقال له أحدهم: أيسرك أن محمداً عندنا تُضرب عنقه، وأنت في أهلك؟ فقال: لا - والله - ما يسرنني أني في أهلي، وأن محمداً في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه.

فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مستعلياً بإيمانه ^(١) -:

وَمَا بِي حَذَّارَ الْمَوْتِ إِنْ لَمَيِّتْ وَإِنِّي إِلَى رَبِّي إِيَّابِي وَمَرْجَعِي
وَلَسْتُ أَبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَى أَيِّ شَقِّ كَانَ فِي اللَّهِ مَضْجَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَاءُ يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شَلُو مُمَزَّعٍ
فَلَسْتُ بِمُبْدٍ لِلْعَدُوِّ تَخْشَعَا وَلَا جَزَعَا إِنِّي إِلَى اللَّهِ مَرْجَعِي

الاستعلاء بالإيمان، وموقف ربعي بن عامر:

إن المسلمين الأوائل وقفوا أمام المظاهر الجوفاء، وقوى الباطل المنتفخة، وقفوا أمامها موقف المؤمن المستعلي بدينه، الواثق بربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أرسل سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ربعي بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى رستم قائد الجيوش الفارسية، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالوسائد والبُسُط والحريز، فدخل ومعه سلاحه، وبيضتهُ على رأسه، راكبا على فرس قصيرة، فجعل يمشي وهو يخرق الوسائد بحربته حتى جاء أمام رستم، وربط الفرس

(١) أخرجه أحمد (٨٠٩٦)، والنسائي في الكبرى (٨٧٨٨).

بإحدى الوسائد، فقال له رستم: «ما جاء بكم؟! فقال: الله ابتعثنا لنُخرج مَنْ شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»^(١).

فاللهم إنا نسألك إيماناً يبعث في قلوبنا العزة بك، والتوكل عليك، ونسألك إيماناً تطمئن به قلوبنا، وتنتصر به نفوسنا، وتستعلي به أرواحنا، ولا تُهزم معه جيوشنا، بقوتك وعزتك يا قوي يا عزيز.

وصدق الله: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].



(١) البداية والنهاية، لابن كثير (٩/ ٦٢٢).

الفصل السابع

حلاوة الإيمان



إن للإيمان طعمًا يجده من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولًا، وإن للإيمان حلاوة، وإن له لطلاوة، وإن له لسبيلًا وأمارات لتحصيل حلاوته، ولا تستشعار أثر نعمته!

فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ»^(١).

ومن العجب: أن يهتم علماء الحديث بهذا الباب العظيم من حلاوة الإيمان في مُصنِّفاتهم العلمية!

فهذا البخاري^(٢) يذكر باب: حلاوة الإيمان في الصحيح، ويحذو حذوه محمد بن نصر المروزي^(٣)، والنسائي^(٤)، وابن حبان^(٥)، والبلغوي^(٦).

(١) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) صحيح البخاري (١٢/١).

(٣) تعظيم قدر الصلاة، للمروزي (٤٥١/١).

(٤) سنن النسائي، لعبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبي غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط ٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م (٨/٩٦).

(٥) صحيح ابن حبان (٤٧٣/١).

(٦) شرح السنة، للبلغوي (٤٨/١).

وأوردوا تحت هذا الباب أحاديث كثيرة.

والنوي يُبوب في: (صحيح مسلم): باب: «بيان خصال مَنْ اتصف ببيان خصال مَنْ اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان»^(١)، وقد قال شراح هذا الحديث قولاً بليغاً في معناه ومغزاه، فمن ذلك:

يقول القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ: «... معناه: صح إيمانه، واطمأنت به نفسه، وخامر باطنه؛ لأن رضاه بالله ربا، وبمحمد ﷺ نبيا، وبالإسلام ديناً دليل ثبوت معرفته، ونفاذ بصيرته بما رضي به من ذلك، ومخالطة بشاشته قلبه، وهذا كالحديث الآخر: «وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا...»^(٢) الحديث؛ وذلك أن الإنسان إذا رضي أمراً واستحسنه سهّل عليه أمره، ولم يشق عليه شيء منه، فكذلك المؤمن إذا دخل قلبه الإيمان سهّلت عليه طاعات ربه، ولذت له، ولم يشق عليه معاناتها^(٣).

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «هذا حديث عظيم، أصل من أصول الإسلام»^(٤). وقد بين أبو العباس القرطبي معنى تلك الحلاوة، فقال رَحِمَهُ اللهُ: «وهي عبارة عما يجده المؤمن المُحقق في إيمانه، المطمئن قلبه به من انشراح صدره، وتنويره بمعرفة الله تعالى، ومعرفة رسوله، ومعرفة منة الله تعالى

(١) شرح صحيح مسلم، للنوي (١٣/٢).

(٢) أخرجه البخاري (٢١)، ومسلم (٤٣) من حديث أنس رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ.

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم، للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي السبتي، تحقيق: د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م (١/٢٧٠).

(٤) شرح صحيح مسلم (١٣/٢).

عليه في أن أنعمَ عليه بالإسلام، ونَظَّمه في سلك أمة محمد خير الأنام، وحبب إليه الإيمان والمؤمنين، وبغض إليه الكفر والكافرين، وأنجاه من قبيح أفعالهم، وركاكة أحوالهم.

وعند مطالعة هذه المنن، والوقوف على تفاصيل تلك النعم تطير القلوب فرحًا وسرورًا، وتمتلئ إشراقًا ونورًا، فيا لها من حلاوة، ما أَلْذَها! وحالة ما أَسْرَفَها! فنسأل الله تعالى أن يَمُنَّ بدوامها وكمالها، كما مَنَّ بابتدائها وحصولها؛ فإن المؤمن عند تذكر تلك النعم والمنن لا يخلو عن إدراك تلك الحلاوة، غير أن المؤمنين في تَمَكُّنها ودوامها متفاوتون، وما منهم إلا وله منها شرب معلوم، وذلك بحسب ما قسم لهم من هذه المجاهدة الرياضية، والمنح الربانية^(١).

فيالله، ما أجمل ذلك الطعمَ الحلوَ للإيمان الذي له تنشرح الصدور، وتلتذ القلوب، وتُشَبُّ لذته في القلب بالحلاوة في الفم، بل ربما غلبت لذة الإيمان في القلب الحلاوة الحسية حتى دفع بحلاوته كل مرارة في الحياة، واستعذبت كلَّ مشقةٍ في سبيل الله!

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «وفي قوله: (حلاوة الإيمان): استعارة تخيلية، شبه رغبة المؤمن في الإيمان بشيء حلو، وأثبت له لازم ذلك الشيء، وأضافه إليه... وفيه تلميح إلى قصة المريض والصحيح؛ لأن المريض الصفراوي يجد طعمَ العسل مُراً، والصحيحُ يذوق حلاوته على ما هي عليه، وكلما نقصت الصحة شيئاً ما نقص ذوقه بقدر ذلك»^(٢).

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/ ٢١٠).

(٢) فتح الباري (١/ ٤٦-٤٧).

فَالْبَيَانُ النَّبَوِيُّ شَبَهَ الْمَعْنَوِيَّاتِ بِالْمَحْسُوسَاتِ؛ لِيَقْرَبَ الْمَعْنَى، وَلِيَنْزِلَ الْمَعْنَوِيَّاتُ مَنْزِلَةَ الْمَحْسُوسَاتِ، وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى أَنَّ لِلْإِيمَانِ طَعْمًا حَقِيقِيًّا، وَلَذَّةَ حَسِيَّةٍ، يَجِدُهَا الْمُؤْمِنُونَ الصَّالِحُونَ فِي الْفَمِ وَالْبَدَنِ، وَكَوْنَ الْمُؤْمِنِ لَا يَدْرِكُ ذَلِكَ الطَّعْمَ؛ فَلِأَنَّهُ لَمْ يُجْرَبِ الْكُفْرَ؛ إِذْ لَا يَدْرِكُ الْحَسَنَ إِلَّا مَنْ رَأَى الْقَبِيحَ، وَبُضْضَهَا تَتَمَيَّزُ الْأَشْيَاءُ!

وَأَيًّا مَا كَانَ الْمَعْنَى الْحَسِيَّةِ، وَمَا هِيَ حَقِيقَتُهُ؛ فَإِنَّ الْمَعْنَوِيَّ مُسْلِمٌ، وَإِنْ كَانَ الْقَائِلُ قَدْ قَالَ فِي أَثَرِ الْإِيمَانِ الْحَسِيَّةِ^(١):

لَهَا أَحَادِيثُ مِنْ ذَكَرَكَ تَشْغَلُهَا عَنْ الطَّعَامِ وَتُلْهِيَهَا عَنِ الزَّادِ
إِذَا شَكَّتْ مِنْ كَلَالِ السَّيْرِ أَوْعَدَهَا رَوْحُ الْقُدُومِ فَتَحِيَا عِنْدَ مِيعَادِ

وَلَقَدْ كَانَ مِنْ خُصُوصِيَّاتِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنْ يُوَاصِلَ الصِّيَامَ بِغَيْرِ إِفْطَارٍ، وَأَنْ يَتَحَمَلَ الْجُوعَ وَالْعَطَشَ مَا لَا يَتَحَمَلُهُ غَيْرُهُ، فَلَمَّا سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ قَالَ: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ؛ إِنِّي أَبِيتُ لِي مُطْعَمٌ يُطْعِمُنِي، وَسَاقٌ يَسْقِينِي»^(٢).

وَلِهَذَا يَصَحُّ أَنْ يَقَالَ: إِنَّ لِلْإِيمَانِ حَلَاوَةً، لَا يَعْرِفُ طَعْمَهَا إِلَّا مَنْ ذَاقَهَا، فَمَنْ ذَاقَ عَرَفَ، وَمَنْ عَرَفَ اغْتَرَفَ!

وَلَمَّا ذَاقَ السَّلَفُ طَعْمَ الْإِيمَانِ، وَوَجَدُوا حَلَاوَتَهُ اسْتَثْبَلُوا فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ كُلَّ صَعْبٍ، وَتَحَمَلُوا كُلَّ عَنَاءٍ، وَبَذَلُوا فِي هَذَا السَّبِيلِ كُلَّ نَفْسٍ!

مَا كُلُّ مَنْ ذَاقَ طَعْمًا نَالَ لَذَّتَهُ مَنْ لَمْ يَذُقْ طَعْمَ حُبِّ اللَّهِ لَمْ يَذُقْ

ذَاقُوا حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ فَأَشْرَقَتْ قُلُوبُهُمْ، وَاسْتَنَارَتْ وَجُوهُهُمْ، وَبَذَلُوا فِي

(١) زاد المعاد (٢/ ٣١).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٦٣) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مرضاة الله، ورضوا بقضاء الله صبرا على المكاره، واستسلاما لأحكام الله!
وعبروا عن سعادتهم ونعمتهم، فقالوا: «لو علم الملوك وأبناء الملوك
ما نحن فيه من السرور والنعيم إذا لجالدونا على ما نحن فيه بأسيا فهم أيام
الحياة على ما نحن فيه من لذة العيش، وقلة التعب»^(١).

وقالوا: إن كان أهل الجنة في مثل ما نحن فيه من النعيم، إنهم لفي عيش
طيب^(٢).

إِذَا سَكَنَ الْغَدِيرُ عَلَى صَفَاءٍ وَجُنُبَ أَنْ يُحَرِّكَهُ النَّسِيمُ
بَدَتْ فِيهِ السَّمَاءُ بَلَا امْتِرَاءٍ كَذَلِكَ الشَّمْسُ تَبْدُو وَالنُّجُومُ
كَذَلِكَ قُلُوبُ أَرْبَابِ التَّجَلِّي يُرَى فِي صَفْوِهَا اللَّهُ الْعَظِيمُ^(٣)

قال مسلم بن يسار رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما تلذذ المتلذذون بمثل الخلوة بمناجاة الله ﷻ»^(٤).
وهذا حبيب أبو محمد رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «مَنْ لم تَقْر عينه بك فلا قرت،
وَمَنْ لم يَأْنَس بك فلا أُنِيس»^(٥).

قَامَ الْمُحِبُّ إِلَى الْمُؤَمِّلِ قَوْمَةً كَادَ الْفُؤَادُ مِنَ السَّرُورِ يَطِيرُ^(٦).

(١) حلية الأولياء (٧/ ٣٧٠).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٥٢).

(٣) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٣١٨).

(٤) حلية الأولياء (٢/ ٢٩٤).

(٥) صفة الصفوة، لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي،
تحقيق: أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، مصر ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م (٢/ ١٨٩).

(٦) صفة الصفوة (٢/ ٢٦٦).

وَعَلَيْهِ؛ فَمَتَى وَجَدَ الْمُؤْمِنُ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ وَجَدَ حَلَاوَتَهُ، فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ ادَّعَى الْإِيمَانَ وَجَدَ تِلْكَ الْحَلَاوَةَ! حَتَّى يَكُونَ مُخْلِصًا صَادِقًا فِي إِيْمَانِهِ وَيَقِينِهِ. وَمَنْ وَجَدَهَا بُرْهَةً مِنْ حَيَاتِهِ لَمْ يَنْسَ ذَلِكَ الطَّعْمَ، وَاشْتَاقَ إِلَيْهِ بَقِيَّةَ عَمْرِهِ حَتَّى يَحْصِلَهُ، وَلَا تَتَأْتِي تِلْكَ الْحَلَاوَةُ لِغَيْرِ الْمَخْلِصِينَ الْمُتَّقِينَ! فَاَلْمَخْلِصُونَ الصَّادِقُونَ الْمُتَّقُونَ هُمُ الْمُؤْهِلُونَ لِتِلْكَ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ، وَالْمَنَّةِ الْجَلِيلَةِ!

«وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا تَصِحُّ الْمَحَبَّةُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ حَقِيقَةً، وَحُبُّ الْآدَمِيِّ فِي اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، وَكَرَاهِيَةُ الرُّجُوعِ إِلَى الْكُفْرِ إِلَّا لِمَنْ قَوِيَ بِالْإِيمَانِ يَقِينُهُ، وَاطْمَأْنَنَتْ بِهِ نَفْسُهُ، وَانْشَرَحَ لَهُ صَدْرُهُ، وَخَالَطَ لَحْمَهُ وَدَمَهُ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي وَجَدَ حَلَاوَتَهُ»^(١).

وَلَا تُؤْتِي تِلْكَ الْمَحَبَّةُ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَهْلِ الْإِيمَانِ ثَمَرَتَهَا، وَلَا تُؤْتِي أَكْلَهَا إِلَّا لِمَنْ تَحَقَّقَ بِذَلِكَ، مُخْلِصًا لِلَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ!

يَقُولُ أَبُو الْعَبَّاسِ الْقُرْطُبِيُّ: «وَقَدْ أَفَادَ هَذَا الْحَدِيثُ: أَنَّ مَحَبَّةَ الْمُؤْمِنِ الْمَوْصِلَةَ لِحَلَاوَةِ الْإِيمَانِ لَا بَدَّ أَنْ تَكُونَ خَالِصَةً لِلَّهِ تَعَالَى، غَيْرَ مَشْوَبَةٍ بِالْأَغْرَاضِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَلَا الْحُظُوظِ الْبَشَرِيَّةِ؛ فَإِنْ مِنْ أَحَبَّهُ لِذَلِكَ انْقَطَعَتْ مَحَبَّتُهُ إِنْ حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ الْغَرَضُ، أَوْ يَثْسُ مِنْ حَصُولِهِ، وَمَحَبَّةُ الْمُؤْمِنِ وَظِيفَةُ مُتَعِينَةٍ عَلَى الدَّوَامِ، وَجَدَتْ الْأَغْرَاضَ وَالْمَصَالِحَ، أَوْ عَدِمَتْ، وَلَمَّا كَانَتْ الْمَحَبَّةُ لِلْأَغْرَاضِ هِيَ الْغَالِبَةُ قُلَّ وَجْدَانُ تِلْكَ الْحَلَاوَةِ، بَلْ قَدْ انْعَدَمَ، لَا سِيَّمَا فِي هَذِهِ الْأَزْمَانِ الَّتِي قَدْ انْمَحَى فِيهَا أَكْثَرُ رُسُومِ الْإِيمَانِ، وَعَلَى

(١) شرح صحيح مسلم، للنووي (٢/١٤).

الجملة؛ فمحبة المؤمنين من العبادات التي لا بد فيها من الإخلاص في حسن النيات»^(١).

وقفات مع حديث: حلاوة الإيمان:

الوقفة الأولى: مع محبة الله ورسوله:

الإيمان اعتقاد وقول وعمل، ترجع جميعاً إلى الأصل القلبي، وهو ما يكون في القلب من أقوال وأعمال، وهي جميعاً ترجع إلى أصل واحد، هو: محبة الله ورسوله.

فمحبة الله تعالى ورسوله ﷺ هي أصل الدين، وأصل الإيمان، وعنهما تصدر الأقوال والأعمال.

وكلما كانت المحبة في القلب أقوى وأعظم كانت الطاعات أكثر، واللذات أدوم وأكبر، والتعظيم والتأله لله أوفر.

ولا تكمل تلك المحبة في القلب إلا بأن يكون الله ﷻ ورسوله ﷺ أحب شيء إلى قلب العبد، فتسبق محبة الله ورسوله إلى القلب كل محبة، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنْ آلِهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

وفي الحديث: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ، وَوَلَدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»^(٢).

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/ ٢١٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

بل لا يكتمل الأمر حتى يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إلى العبد من نفسه التي بين جنبيه.

لما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يا رسول الله، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا نَفْسِي. قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ. فقال عمر: فإنه الآن - والله - لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي. فقال النبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الْآنَ يَا عُمَرُ»^(١).

ولا تكتمل تلك المحبة حتى تقهر كل محبة سواها؛ فلا زوجة، ولا ولد، ولا صديق، ولا قريب، فهي محبة شديدة الرسوخ، فكل محبة دونها فهي مقهورة مغلوبة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فلا شركاء، ولا أنداد، ولا معارضة، ولا مزاحمة لتلك المحبة!

ولا تقوى محبة الله تعالى بمثل معرفته سبحانه، فمن عرف الرب بصفاته العلى من الجلال والكمال والجمال أحبه جل في علاه! وتحركت كل جوارحه وجوانحه بطاعة الله؛ تلذذاً بالعبادة، وتمتعاً بالطاعة، ومسارةً إلى مرضاة الله، وطلباً للذة النظر إلى وجهه الكريم!

ومن عرف إحسان الله إلى عباده أحبه لعظيم إحسانه، وسابغ امتنانه! ومن عرف نبيه، وما حباه الله به من الكمال، والجمال، وجليل الخصال أحبه، وأسباب زيادة الحب هي - من وجه - علامات الحب! وثمرات تلك المحبة عظيمة، على إيمان المؤمن وعبادته في الدنيا، وعلى جزائه ومصيره في الآخرة.

(١) أخرجه البخاري (٦٦٣٢) من حديث عبد الله بن هشام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فمن ثمراتها الإيمانية: الزهد في الدنيا، وكثرة الذكر، وتلاوة القرآن، واتباع النبي ﷺ، والجهاد في سبيل الله، والاحتكام إلى شرع الله، وتفدية الإسلام بالغالي والرخيص، والنفس والنفيس، ومحبة آل بيت النبي الكرام وصحابته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وإعطاء الزكاة طيبة بها النفس، والرضا بقضاء الله وقدره. أما ثمراتها في الآخرة فعلى رأسها: النجاة في الآخرة، وتحصيل رضوان الله، والفوز بجنته ودار كرامته.

الوقفه الثانية: مع الحب في الله:

ففي الحديث: «مَنْ سَرَهُ أَنْ يَجِدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ فَلْيُحِبِ الْمَرْءَ لَا يُحِبُهُ إِلَّا اللَّهُ»^(١).

وممن يظلمهم الله بظلمه يوم لا ظل إلا ظله: «... وَرَجُلَانِ تَحَابَا فِي اللَّهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ، وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ...»^(٢).

والحب في الله، والله، وبالله دعامة المجتمع المسلم، وعبادة جليلة في وقت واحد!

فكل مؤمن يُحِبُ لإيمانه، وكل صالح يُحِبُ لصلاحه، لا لغرض آخر، فالولاء بحبه ونصرته لله ولرسوله وللمؤمنين، وكما يُبْنَى الدين على محبة الله ورسوله يُبْنَى على محبة من آمن بالله ورسوله، ومن يحب الله ورسوله، ومن يحبه الله ورسوله.

قال سبحانه: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣) وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ

(١) أخرجه أحمد (٧٩٦٧)، والحاكم (٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ ﴿ [الأنفال: ٦٢ - ٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. ولما تحققت المحبة لله، وفي الله بالإخلاص لله تعالى شاع في المجتمع المسلم تكافل وتعاون وتراحم وتبادل، فانتشرت صدقة السر، والتبرع بقضاء الحاجات، وإيثار الفقراء، ومواساة المساكين، والعفو عن المخطئين، والحلم على الجاهلين، وإغاثة الملهوفين، فكان المجتمع المسلم في ظلال الإيمان دُرّة المجتمعات، وما ذاك إلا لأنهم ذاقوا حلاوة الإيمان، فَسَخَتْ القلوب والأيدي بالعطاء.

والحب في الله يقابله البغض في الله، والموالاة في الله يقابلها المعاداة في الله، وكل ذلك مطلوب لتحصيل حلاوة الإيمان.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أحب في الله، وأبغض في الله، ووال في الله، وعاد في الله، فإنما تُتَأَلَّ ولاية الله بذلك، لا يجد رجل طعم الإيمان - وإن كثرت صلاته وصيامه - حتى يكون كذلك، وقد صارت مؤاخاة الناس اليوم، أو عامتهم في الدنيا، وذلك لا يجزئ عن أهله شيئاً، ثم قرأ: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقرأ: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]»^(١).

الوقفة الثالثة: كراهية الكفر وعاقبته:

كل من أحب الله ورسوله، والإيمان وأهله فإنه يكره الكفر وأهله،

(١) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٣٩٦)، والبيهقي في الشعب (٩٠٦٩).

ويبغض سوء عاقبته؛ ذلك أن الإيمان هو الحق، ونقيضه الكفر، وهو الباطل المحض، فلا يجتمع إيمان وكفر في قلب عبد.

فشجرة الكفر خبيثة اجتثت من فوق الأرض، ما لها من قرار، ولا ثبات، ولا بقاء، ولا ثمرة طيبة، وإنما هي نكرة الثمار!

ومن تفيأ ظلال شجرة الإيمان الثابتة الباسقة التي تطاول عنان السماء، وتضرب بجذور راسخة في الأرض لا يمكن أن يتذوق ثمار شجر الكفر النكدة، ولا يقبل أن يطعم طعمها، أو يجد ريحها الكريه!

قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

فالمؤمن يكره الردة إلى الكفر بكل صورها وأشكالها، ويكره كل آياتها وتياراتها.

فلا يوالي أحداً على غير الإسلام، ولا يعطي أحداً حق التشريع من دون الملك العلام، ولا يقبل جحوداً لشرائع الإسلام وأنظمتها وأصوله، ولا استهزاء بكتابه، أو نبيه، أو شعائره.

وهو يكره كل صور الإلحاد، والوثنية، والملل الأرضية، والمناهج الضالة التي تعج بها الأرض اليوم.

وكما يكره الكفر بملكه كافة في الدنيا، يكره عاقبته الوخيمة وعقوبته الأليمة (النار)، ويكره أن يكون من أهلها الخالدين فيها، أو المتوعددين بها.

ومن وجد حلاوة الإيمان كره مرارة الكفر والفسوق والعصيان.

بل يكون إلقاءه في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر، أو يرتد عن دينه.

ومن وجد الحلاوة مع الإيمان أغناه ذلك عن محبة الأنداد، وتأليها من دون رب الأرض والسموات.

وما أصدق قول هرقل لأبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في نقاشه له قبل أن يُسلم - :
«وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب»^(١).

أسبابٌ أُخِرُ لتحصيل حلاوة الإيمان:

لئن كان الحديث قد عرض لأسباب ثلاثة يجد معها المؤمن من حلاوة الإيمان، إلا أنه ليس حاصرا لتلك الأسباب، فهناك أسباب أُخِرُ، منها ما يلي:

١- إيتاء الزكاة والصدقات عن طيب نفس:

وقد قال تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

وفي الحديث: «ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ طَعِمَ طَعِمَ الْإِيمَانُ: مَنْ عَبْدَ اللَّهَ وَحَدَهُ وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ، رَافَدَةً عَلَيْهِ كُلَّ عَامٍ، وَلَا يُعْطِي الْهَرَمَةَ، وَلَا الدَّرَنَةَ، وَلَا الْمَرِيضَةَ، وَلَا الشَّرْطَ اللَّثِيمَةَ، وَلَكِنْ مِنْ وَسْطِ أَمْوَالِكُمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَسْأَلْكُمْ خَيْرَهُ، وَلَمْ يَأْمُرْكُمْ بِشَرِّهِ»^(٢).

و«الصدقة بُرْهَانٌ»: على تحقق الإيمان، وإعطائها عن طيب نفس علامة على ذوق حلاوة الإيمان.

(١) أخرجه البخاري (٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٨٢) من حديث عبد الله بن معاوية الغاضري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢- صحة المعتقد، والإيمان بالقدر:

عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع لَن يَجِدَ رَجُلٌ طَعَمَ الإِيمَانَ حَتَّى يُؤْمَنَ بِهِن: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ بَعَثَنِي بِالْحَقِّ، وَبَأَنَّهُ مَيِّتٌ، ثُمَّ مَبْعُوثٌ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَيُؤْمَنُ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ»^(١).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «ثلاث مَن كُن فيه يجد بهن حلاوة الإيمان: تركُ المرء في الحق، والكذب في المزاحة، ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه»^(٢).

وقال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «يا بني، إنك لن تطعم طعم الإيمان، ولن تبلغ حقيقة العلم بالله حتى تؤمن بالقدر خيره وشره.

قال: قلت: يا أبتاه، وكيف لي أن أعلم ما خير القدر من شره؟
قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك»^(٣).
وقال علي رضي الله عنه: «إنه لن يجد عبد، أو يذوق حلاوة الإيمان حتى يستيقن يقينا غير ظان أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه»^(٤).

٣- مكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب:

قال عمار بن ياسر رضي الله عنه: «ثلاث مَن كُن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: الإنفاق من الإقتار، وإنصافُ الناس من نفسك، وبذلُ السلام للعالم»^(٥).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٠٩٥٢) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٠٠٨٢).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٧٠٥).

(٤) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (١٤٥٨).

(٥) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٩٤٣٩).

وتقدم قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَ فِيهِ يَجِدُ بَيْنَ حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ: تَرْكُ الْمَرَاءِ فِي الْحَقِّ، وَالْكَذْبُ فِي الْمَزَاحَةِ، وَيَعْلَمُ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيَخْطئه، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيَصِيبَهُ»^(١).

٤- أداء الحقوق الخاصة:

عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «... وَلَا تَجِدُ امْرَأَةً حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى تُؤَدِيَ حَقَّ زَوْجِهَا، وَلَوْ سَأَلَهَا نَفْسَهَا وَهِيَ عَلَى ظَهَرِ قَتَبٍ»^(٢).

٥- الزهد في الدنيا، وطلب الآخرة:

مَنْ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِلَذَاتِ الدُّنْيَا، وَبَذَلَ وُسْعَهُ فِي تَحْصِيلِهَا، وَشَغَلَ قَلْبُهُ بِمَحَبَّتِهَا فَإِنَّهُ يَعْسُرُ عَلَيْهِ أَنْ يَجِدَ حَلَاوَةَ الطَّاعَاتِ.

قَالَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «حَرَامٌ عَلَى قُلُوبِكُمْ أَنْ تَصِيبَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى تَزْهَدُوا فِي الدُّنْيَا»^(٣).

٦- الكف عن المعاصي والسيئات والبدع والمخالفات:

مَنْ ذَاقَ حَلَاوَةَ الطَّاعَةِ مَالَتْ نَفْسُهُ عَنِ الذُّنُوبِ، وَرَغِبَتْ عَنِ الْمَخَالَفَاتِ، وَتَجَافَتْ عَنِ فِتَنِ الشَّهَوَاتِ، وَالْأَهْوَاءِ، وَتَعَافَتْ بِرَحْمَةِ اللَّهِ مِنَ الْأَدْوَاءِ، فَهِيَ نَفْسٌ شَرِيفَةٌ الِهْمَةُ، مُجَاهِدَةٌ صَابِرَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى.

قَالَ سَفِيَّانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «... وَاجْتَنِبِ الْمَحَارِمَ كُلَّهَا تَجِدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ»^(٤).

فَإِنْ كَانَ الْإِنْسَانُ مَمَّنْ تَغْلِبُهُ نَفْسُهُ، وَيُجَاهِدُهَا؛ فَعَلَيْهِ أَلَا يَيْأَسَ، وَلَا

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٠٠٨٢).

(٢) أخرجه الحاكم (٧٣٢٥)، والطبراني في الكبير (٥٢ / ٢٠).

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩٤ / ٨).

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨٢ / ٧).

يترك المجاهدة، ومن رجا شيئاً طلبه، ومن خاف شيئاً هرب منه.
 وإذا اجتهد واستعان بالله تعالى، ولازم الاستغفار والاجتهاد فلا بد أن
 يؤتيه الله من فضله ما لم يخطر ببال، وإذا رأى أنه لا ينشرح صدره، ولا
 يحصل له حلاوة الإيمان، ونور الهداية؛ فليكثر التوبة والاستغفار، وليلازم
 الاجتهاد بحسب الإمكان؛ فإن الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ
 سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وعليه بإقامة الفرائض ظاهراً وباطناً، ولزوم الصراط المستقيم مُستعينا
 بالله، مُتبرئاً من الحول والقوة إلا به^(١).



(١) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية، دراسة وتحقيق: حسين محمد مخلوف، دار المعرفة،
 بيروت، لبنان، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م (٣/ ٩٩).

البَابُ الْخَامِسُ

أَهْلُ الْإِيمَانِ

الفصل الأول: موالاة أهل الإيمان.

الفصل الثاني: صفات أهل الإيمان.

الفصل الأول

موالاتة أهل الإيمان



إن الإيمان بالرحمن هو أعلى خصائص الإنسان؛ إذ قد خلق الله بني آدم على فطرة الإيمان، فمن استقام مع دواعي فطرته وما ركزه الله في عقله وخلقته، وما استفاض من حوله من دلائل الكون على وحدانية الله، وأصغى سمعه للوحي الذي جاء بأصول الإيمان وتفصيله - فقد حقق أعظم مقامات الإنسان حين يكون مؤمناً بربه الديان!

وهذا الإيمان هو الوشيجة العظمى والمنزلة الكبرى والرابطة التي تمايز بين الإنسان المؤمن، وبين غيره الذي ينحدر إلى رتبة البهائم حين لا يجتمع مع غيره إلا على روابط الأبدان ومصالحها.

إن رابطة الإيمان بالرب الرحمن هي رابطة الاختيار الواعي البصير، أما روابط الأرض الأخرى فليس فيها اختيار؛ إذ لا اختيار لأحد في الدم والنسب، أو الأرض والوطن، أو القوم والعشيرة، أو اللون واللغة، أو الفئة والطائفة، وإنما هي أمور لا يختارها الإنسان.

أما رابطة الإيمان فهي رابطة علوية، لا أرضية، مقدسة وليس مدنسة، تحافظ على خصيصة الإنسان وكرامته الذاتية والإنسانية.

إن الاجتماع بين البشر المختلفين عرقياً وثقافياً ولغوياً على رابطة واحدة أمر ممتنع إلا أن تكون رابطة الإيمان، وهذا هو ما ينشئ المجتمع الإنساني

العالمي المفتوح، الذي لا يتميز فيه عرق على غيره، ولا لون على ما عدها.
﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ﴾ [الحجرات: ١٣].

إنها رابطة طاهرة نقية من كل القيود والحدود الاضطرارية التي لا يد
للإنسان فيها، ولا قدرة له على اختيارها، أو تغييرها.

ثم إن كل رابطة دنيوية من عرق، أو نسب، أو لسان، أو مصلحة لا يزيدها
الإيمان إلا وثوقاً، فلا تمتنع تلك الروابط في ظل الرابطة الإيمانية إلا إذا
عارض الانتساب إلى قوم أو لسان رابطة الإيمان، عندها تُقدّم تلك الموالاة
الإيمانية، وتنقطع كل الصلات والعلاقات عندما لا يوجد الإيمان، وتعرض
كل الروابط للضعف إذا زال ولاء الإيمان!

فقد يتخلى الولد المؤمن عن أبيه الكافر، أو المشرك، قال تعالى:
﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

وقد يتخلى الوالد عن الولد إذا فرق بينهما الإيمان.

قال سبحانه: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ
الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ﴾ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَنْفُسُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا
تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطِكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٥-٤٦].

ومتى أسلمت الزوجة الكافرة ولم يُسلم زوجها فقد تلاشى ذلك العقد
وأمر بنقضه وفسخه، قال جلّ وعلا: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَهُمُ الْمُؤْمِنَاتُ
مُهَجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ
حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَانَيْتُمُوهُنَّ
أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ﴾ [الممتحنة: ١٠].

وكما تنقطع تلك الصلة في الدنيا فإنها لا تنفع في الآخرة، فلن تنتفع امرأة نوح وامرأة لوط بزوجهما، وقد قال سبحانه: ﴿فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يَغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ [التحریم: ١٠].

وهكذا الروابط النسبية والقومية والقبائلية والعشائرية، والصلوات والمصالح الاقتصادية والطائفية، وكل العلائق الأرضية، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٣) قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ﴿[التوبة: ٢٣ - ٢٤].

فالإيمان والموالاة بين أهله محبة ونصرة هي الرابطة الوشيعة الحقيقية، والمودة والمحبة الدينية هي التي تنعقد بين أهل الإيمان لا غير! قال سبحانه: ﴿لَا تَحِدْ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

إن الولاء والموالاة مرتبطان بالإيمان أشد ارتباط، بل الولاء من ثمرات الإيمان بين المؤمنين، كما قال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال ﷺ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿[المائدة: ٥٦].

قال سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴿التوبة: ٧١﴾.

ولا يمكن أن تنعقد موالاة تتضمن محبة القلب ونصرة الجوارح بين المؤمنين والكافرين!

قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يعني بذلك: فقد برئ من الله، وبرئ الله منه، بارتداده عن دينه، ودخوله في الكفر»^(١).

﴿يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وللموالاة بين المؤمنين أحوال وأحكام؛ فمن المؤمنين من يُحِبُّ جملة، ومنهم من يُحِبُّ ويوالى من وجه دون وجه.

فالولاء المطلق للأنبياء المعصومين، ودونهم الصديقون، ثم الشهداء والصالحون، وهم أصحاب الإيمان الكامل والإيمان المطلق.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].
فهؤلاء يُحِبُّون ويوالون في الله تعالى.

وأما الصنف الثاني فهم أصحاب مطلق الإيمان، وهؤلاء يُحِبُّون لإيمانهم، وَيُبْغِضُونَ لمعاصيهم وكبائرهم، فَيُحِبُّون بقدر ما معهم من الخير

(١) تفسير الطبري (٥/ ٣١٥).

والإيمان، وَيُغَضُّونَ عَلَى قَدَرِ مَا مَعَهُمْ مِنَ الْفُسُوقِ وَالْعَصِيَانِ.
وأما الذين يُيَغَضُّونَ وَيُتَبَرَّأُ مِنْهُمْ جملة فهم الكفار والمنافقون
والمشركون من أهل الكتاب وغيرهم.

فتعين موالاة حزب الرحمن، والبراءة من حزب الشيطان.
«إن المؤمن تجب موالاته، وإن ظلمك واعتدى عليك، والكافر تجب
معاداته، وإن أعطاك وأحسن إليك؛ فإن الله سبحانه بعث الرسل وأنزل
الكتب؛ ليكون الدين كله لله، فيكون الحب لأوليائه، والبغض لأعدائه،
والإكرام والثواب لأوليائه، والإهانة والعقاب لأعدائه... فيجتمع في الشخص
الواحد موجبات الإكرام والإهانة؛ كاللص الفقير تقطع يده لسرقته، ويُعطى
من بيت المال ما يكفيه لحاجته، وهذا الأصل الذي اتفق عليه أهل السنة
والجماعة، وخالفهم فيه الخوارج والمعتزلة ومن وافقهم»^(١).

وبناء على ما سبق: فإن الموالاة بين المؤمنين تتضمن أمرين: المحبة
القلبية، والنصرة العملية:

فالمحبة القلبية الكاملة لأهل الإيمان الكامل، ودونها لمن هو دون
ذلك بحسب طاعته، والكراهية القلبية الكاملة لأهل الكفر والنفاق.

وإذا قوي ما في القلب من التصديق والمعرفة والمحبة لله ورسوله
أوجب بغض أعداء الله، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٨١].

وقال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/٢٠٩).

اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴿[المجادلة: ٢٢].

وقد تحصل للرجل موادتهم لرحم، أو حاجة، فتكون ذنباً ينقص به إيمانه، ولا يكون به كافراً، كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة لما كاتب المشركين ببعض أخبار النبي ﷺ، وأنزل الله فيه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [المتحنة: ١].

وكما حصل لسعد بن عباد لما انتصر لابن أبي في قصة الإفك، فقال لسعد بن معاذ: كذبت والله، لا تقتله ولا تقدر على قتله، قالت عائشة: وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية؛ ولهذه الشبهة سمي عمر حاطباً: منافقاً، فقال: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال: إنه شهد بدراً، فكان عمر متأولاً في تسميته: منافقاً؛ للشبهة التي فعلها^(١).

ومن هنا يظهر: أن مناط التكفير بموالاته غير المسلمين إنما هو ديني، لا دنيوي محض، فمن ناصرهم، أو أحبهم لدينهم؛ رغبة به، ورضاً بهم وبدينهم، أو سخطاً على دينه، ومعاداة له فقد كفر.

وقد قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنْ مِنْ تَوْلَاهُمْ وَنَصَرَهُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ دِينِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ؛ فَإِنَّهُ لَا يَتَوَلَّى مَتَوَلٍّ أَحَدًا إِلَّا هُوَ بِهِ وَبَدِينِهِ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ رَاضٍ، وَإِذَا رَضِيَهُ وَرَضِيَ دِينَهُ فَقَدْ عَادَى مَا خَالَفَهُ وَسَخَطَهُ، وَصَارَ حَكْمُهُ حَكْمَهُ»^(٢).

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٢٢ - ٥٢٣).

(٢) تفسير الطبري (٨/ ٥٠٨).

فمن والى على غير ملة الإسلام فقد هدم الدين، وصار من الظالمين.
وموالاة أهل الإيمان ومعاداة أهل الكفران من أصول الدين وشعب الإيمان.

عناية الوحي بغرس عقيدة الولاء والبراء:

لقد عني الوحي بغرس عقيدة الولاء بين المؤمنين، والبراءة ممن عداهم،
فمن مظاهر ذلك:

١- الأمر بتجريد الولاء لله ورسوله وللمؤمنين:

قال سبحانه: ﴿إِنهَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ لأبي ذر: «أَيُّ عُرَى الْإِيمَانِ - أَظْنَهُ قَالَ - : أَوْثَقُ؟ قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: الْمُوَالَاةُ فِي اللَّهِ، وَالْمُعَادَاةُ فِي اللَّهِ، وَالْحُبُّ فِي اللَّهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ»^(١).

٢- تجريد الاعتقاد في طلب النفع، ودفع الضر:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ يَضْرِبْ فَلَاكَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧].

وفي الحديث: «وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ»^(٢).

٣- بيان حال من اتبع غيره على غير هدى في الآخرة:

قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمْ

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٢١٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الْأَسْبَابُ ﴿١٣٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَتَيْنَاكَ لَنَافَعَةً فَنَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿البقرة: ١٦٦-١٦٧﴾.

٤- إظهار القدوات في باب الموالاة والمعاداة:

قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

٥- بيان أن موالاة المؤمنين ركيزة بناء المجتمع:

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وفي الحديث: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(١).
وفي الحديث - أيضًا -: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»^(٢).
وفي الحديث - أيضًا -: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَى»^(٣).

وإذا كانت موالاة غير المسلمين محرمة مطلقاً فإنها إذا دعت إليها ضرورة فتجوز باللسان دون الجنان؛ دفعا للأذى البدني.

(١) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤٦) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٨٥) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

أما التعامل مع غير المسلمين ببيع، أو شراء، أو إجارة، أو رهن، أو نحو ذلك فلا يعد موالاة.

كذلك ما يكون من حب طبعي بين رجل وزوجته غير المسلمة من أهل الكتاب، أو من محبة طبيعية لوالده غير المسلم، وصلته له، وقد أذن النبي ﷺ لأم حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنْ تَصِلَ أَبَاهَا وَكَانَ مُشْرِكًا آنذاك، وأذن لأسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بصلته أمها.

ولا يدخل في الموالاة: الإحسان العملي إليهم بعيادتهم، أو زيارتهم، أو تعزيتهم، ونحو ذلك.

قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِنُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].



الفصل الثاني

صفات أهل الإيمان



إن الإيمان يؤثر عميقا في صفات أهله، ويؤتي ثمارا طيبة في أخلاق أصحابه، ولقد تضمن القرآن كثيرا من تلك الصفات تنويعا بها، وذكر لأهلها، وثناء على المتحليين بها، كما تضمن القرآن حسن الجزاء لأهلها، ولا تكاد تلك الصفات أن تنحصر، أو تحصى؛ لكثرتها، وتتابعها، وترادف معانيها. وتارة تضاف تلك الصفات إلى المؤمنين، وتارة تضاف إلى المتقين، والمحسنين، وعباد الرحمن، وتارة أخرى تضاف إلى أولي الألباب وإلى المؤمنين حقا!

كل ذلك تنويعا وتلوينا في الخطاب، وتشويقا للتحلي بحلية الإيمان، والتزين بزِينته، وتحقيق الانتساب الكامل إليه، والانخراط في سلك أهله. وعرض تلك الصفات والأخلاق الجميلة أمر ليس ميسورا، وهي مبثوثة في مئات الآيات والأحاديث، ولعل من التجديد في عرضها أن ترتب ألف بائيا، مع ذكر أدلتها باختصار، وهو ما يمكن عرضه على النحو التالي:

من صفات المؤمنين على حرف (الألف):

١- الاتباع المحمود:

وهو اتباع أمر الله تعالى، واتباع كتابه، واتباع نبيه ﷺ، واتباع أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، واتباع صراطه المستقيم.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ [يونس: ٣٥].

وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانصِتْ لَهُ﴾ [القيامة: ١٨].

وقال جلَّ وعلا: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْقَدِّمِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ هُمْ يَتَّبِعُونَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وفي الحديث: «والذي نفسي بيده، لو أن موسى عليه السلام كان حيا ما وسعته إلا أن يتبعني»^(١).

٢- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال سبحانه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

وفي الحديث: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه،

(١) أخرجه أحمد (١٥١٥٦) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبَقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»^(١).

٣- الاجتماع المحمود:

وهذا الاجتماع ضده الفرقة، وهو سبب الرحمة، كما أن الفرقة عذاب. قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. والاجتماع يشمل: الاجتماع على الحق مع جماعة المؤمنين وإمامهم. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وقال ﷺ: «فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ؛ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذَّنْبُ الْقَاصِيَةَ»^(٢).

٤- الإحسان:

قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢].

وقال سبحانه: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧].

(١) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٤٧)، والنسائي في الكبرى (٩٢٢) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال سبحانه: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].
وفي الحديث: الإحسان: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(١).

٥- الإخاء:

قال سبحانه: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].
وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].
وفي الحديث قال الصديق للنبي ﷺ لما خطب عائشة: «إِنَّمَا أَنَا أَخُوكَ، فَقَالَ ﷺ: أَنْتَ أَخِي فِي دِينِ اللَّهِ وَكِتَابِهِ، وَهِيَ لِي حَلَالٌ»^(٢).

٦- الإخبات:

الإخبات: طمأنينة ورضا بالله وقضائه مع تواضع.
قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [هود: ٢٣].
وقال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].
وقال جلَّ وعَلَا: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].
وفي الحديث: «رَبِّ أَعْنِي وَلَا تُعْنِ عَلَيَّ، وَانصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرْ الْهُدَىٰ إِلَيَّ، وَانصُرْنِي عَلَىٰ مَنْ بَغَىٰ عَلَيَّ، رَبِّ

(١) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٨١).

اجْعَلْنِي لَكَ شَكَارًا، لَكَ ذَكَارًا، لَكَ رَهَابًا، لَكَ مَطَوَاعًا، إِلَيْكَ مُخْبِتًا»^(١).

٧- الإخلاص:

وهو إفرااد الله بالقصد في العبادة.

قال تعالى: ﴿وَأَدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وقال سبحانه: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴿٣﴾

[الزمر: ٢-٣].

وقال جلَّ وعَلَا: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠].

وفي الحديث: «ثَلَاثٌ لَا يُغَلُّ عَلَيْهِنَّ صَدْرُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ أُولِي الْأَمْرِ، وَلُزُومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ»^(٢).

وفي الحديث - أيضًا -: «أَسْعَدُ النَّاسَ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ: نَفْسِهِ»^(٣).

٨- الأدب:

وهو استعمال ما يُحمد قولًا وفعلًا؛ أخذاً بمكارم الأخلاق، ووقوفاً مع المستحسنات، وهو مع الله تعالى، ومع نبيه ﷺ، ومع الخلق، والنفس.

قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ

اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَى﴾ [الحجرات: ٣].

(١) أخرجه أحمد (١٩٩٧)، والترمذي (٣٥٥١)، والنسائي في الكبرى (١٠٣٦٨) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أحمد (١٦٧٣٨) من حديث جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٩٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال سبحانه: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وفي الحديث: «... وَأَنْفَقَ عَلَى عِيَالِكَ مِنْ طَوْلِكَ، وَلَا تَرْفَعْ عَنْهُمْ عَصَاكَ أَدَبًا، وَأَخْفَهُمْ فِي اللَّهِ»^(١).

٩- الاستعانة بالله:

هي طلب المعونة من الله، وله أن يطلب من المخلوق ما يقدر عليه.
قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].
وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣].
وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].
وفي الحديث: «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ...»^(٢).

وفي الحديث - أيضًا -: «وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ، وَالرَّوْحَةِ، وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلِجَةِ»^(٣).
١٠- الاستغفار:

وهو طلب المغفرة من الله تعالى، وهو دأب المؤمنين.
قال سبحانه: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠].
وقال سبحانه: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨].
وقال سبحانه: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].
وفي الحديث: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ

(١) أخرجه أحمد (٢٢٠٧٥) من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٨٦٨) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري (٣٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ»^(١).

١١- الاستقامة:

وهي سلوك الصراط المستقيم، والتمسك بأمر الله قولاً وفعلاً.

قال تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

وقال سبحانه: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣].

وفي الحديث: «قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقَم»^(٢).

وفي الحديث -أيضاً-: «اسْتَقِيمُوا، وَلَنْ تُحْصُوا، وَعَلِمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ

الصَّلَاةُ، وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ»^(٣).

١٢- الإصلاح:

ومنه: إصلاح ذات البين، وإصلاح المجتمعات.

قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكَذِبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ

الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٣٨) من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٤٣٦)، وابن ماجه (٢٧٧) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي الحديث: «لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَنْمِي خَيْرًا، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا»^(١).

١٣- الاعتصام:

هو الاجتماع على التمسك بكتاب الله، وسنة نبيه ﷺ.
قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].
وقال سبحانه: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].
وفي الحديث: «... وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ: كِتَابُ اللهِ...»^(٢).

وفي الحديث - أيضًا -: «إِنَّ اللهَ يَرْضَىٰ لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا، فَيَرْضَىٰ لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةُ الْمَالِ»^(٣).
١٤- إفشاء السلام:

وهو إذاعته ونشره في مجتمع المسلمين.
قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وفي الحديث: «أي الإسلام خير؟ قال: تُطْعَمُ الطَّعَامَ، وَتُقْرَأُ السَّلَامُ عَلَىٰ

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٢)، ومسلم (٢٦٠٥) من حديث أم كلثوم بنت عقبة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (١٧١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

مَنْ عَرَفْتَ، وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ»^(١).

١٥- أكل الطيبات:

قال تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

وقال سبحانه: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة: ٤].
وفي الحديث: «إِنْ أَطِيبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ، وَإِنْ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ»^(٢).
وفي الحديث - أيضًا -: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدَلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبِ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنْ اللَّهُ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّهَا لِصَاحِبِهِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ»^(٣).

١٦- الأمانة:

وهي عفة الإنسان عما ليس له فيه حق، وأداء الحقوق إلى أهلها.
قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].
وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].
وقال جلَّ وعلا: ﴿فَلْيُوْذِ الَّذِي آوَتْ مِنْ أَمْنَتِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٣].
وفي الحديث: «أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»^(٤).

(١) أخرجه البخاري (١٢)، ومسلم (٣٩) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٢) أخرجه أحمد (٢٤٠٣٢)، وأبو داود (٣٥٢٨)، وابن ماجه (٢١٣٧) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.
(٣) أخرجه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٤) أخرجه أحمد (١٥٤٢٤)، وأبو داود (٣٥٣٤)، والترمذي (١٢٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي الحديث - أيضًا -: «لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ: أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»^(١).

١٧- الإنابة:

وهي الإسراع إلى مرضاة الله، مع الرجوع إليه في كل وقت.
قال تعالى: ﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر: ٥٤].
وقال تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ﴾ [الروم: ٣١].
وفي الحديث: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أُنَبِّتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ؛ فَاعْفُ رِجْلِي مَا قَدَمْتُ، وَمَا أَخَرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ، وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي، لَا إِلَهَ لِي غَيْرُكَ»^(٢).

١٨- الإنصاف (العدل):

وهو العدل في المعاملة مع الخلق.
قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ءَاعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: ٨].

وفي الحديث: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(٣).
وقال عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الْإِيمَانَ: الْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ، وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ، وَالْإِنْفَاقُ مِنَ الْإِقْتَارِ»^(٤).

(١) أخرجه البخاري (٤٣٨٢)، ومسلم (٢٤١٩) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٧١) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) صحيح البخاري (١ / ١٥).

١٩- الإنفاق:

وهو إخراج المال الطيب في الطاعات والمباحات.

قال تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٣].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُوكَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢].

وقال ﷺ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وفي الحديث: «إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة - وهو يحتسبها - كانت له صدقة»^(١).

وفي الحديث - أيضًا -: «من أنفق نفقة في سبيل الله، فحسنة بسبعمائة»^(٢).

٢٠- الإيثار:

وهو تقديم الغير على النفس في حظوظها الدنيوية:

قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وفي الحديث: «أنا أولى الناس بالمؤمنين في كتاب الله ﷺ، فأياكم ما ترك ديناً، أو ضيعة، فادعوني فأنا وليه، وأيكم ما ترك مالا؛ فليؤثر بماله عصبته

(١) أخرجه البخاري (٤٠٠٦)، ومسلم (١٠٠٢) من حديث أبي مسعود البدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١٨٩٠٠)، والترمذي (٢١٦٩١)، والنسائي في الكبرى (٤٣٨٠) من

حديث حُرَيْم بن فاتك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مَنْ كَانَ»^(١).

ومن صفات المؤمنين على حرف (الباء):

٢١- البر:

وهي صفة جامعة لفعل ما أمر الله به، والكف عما نهى الله عنه.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال سبحانه: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

وقال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣].

وفي الحديث: «... وَالْحَجَّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ»^(٢).

وفيه - أيضًا -: «البر حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطْلَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ»^(٣).

٢٢- بر الوالدين:

وهو الإحسان إلى الوالدين، ورعاية أحوالهما، وإكرام صديقهما من

بعدهما.

(١) أخرجه مسلم (١٦١٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٤٣٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٥٣) من حديث النّوّاس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال سبحانه: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾

[النساء: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقال سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَلَدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: ١٤].

وفي الحديث: أن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله ﷻ؟ قال: الصلاة على وقتها، قلت: ثم أي، قال: ثم بر الوالدين، قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله»^(١).

٢٣- البصيرة (الفراسة):

البصيرة: قوة القلب المنور بنور الله تعالى.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وقال سبحانه: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤].

وفي حديث الدجال: يقول الشاب الذي يقتله الدجال: «وَاللَّهِ مَا كُنْتُ فِيكَ قَطُّ أَشَدَّ بَصِيرَةً مِنِّي الْآنَ»^(٢).

وفي الحديث - أيضًا -: «اتَّقُوا فَرَاَسَةَ الْمُؤْمِنِ؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ»^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (٧١٣٢)، ومسلم (٢٩٣٨) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الترمذي (٣١٢٧) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢٤- البكاء من خشية الله:

قال تعالى: ﴿وَيَحْزَنُونَ لِلَّذِينَ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

وقال سبحانه: ﴿إِذَا نُنِیْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

وفي الحديث: «سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: ... وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»^(١).

وفي الحديث - أيضًا -: «لا يلج النار أحد بكى من خشية الله، حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله، ودخان جهنم في منخري امرئ أبدا»^(٢).

من صفات المؤمنين على حرف (التاء):

٢٥- التبليغ عن الله ورسوله:

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا عَلَى الرُّسُولِ إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

وفي الحديث: «أَلَا لِيُبْلِغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يُبْلِغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضَ مَنْ سَمِعَهُ»^(٣).

وفي الحديث - أيضًا -: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا؛ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(٤).

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (٩٢٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١٠٥٦٠)، والترمذي (١٦٣٣)، وابن ماجه (٢٧٧٤) من حديث أبي

هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٠٦)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٢٦- التبين والتثبت:

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤].
وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَلَةٍ﴾ [الحجرات: ٦].

وفي الحديث: «... فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد، وأمره أن يتثبت ولا يعجل، فانطلق حتى أتاهم...»^(١).

٢٧- التدبر:

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْرَ عَلَى قُلُوبٍ أَفْقَالَهَا﴾ [محمد: ٢٤].
وقال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَذَبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

وقال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَذَّبَرُوا ءَايَتِهِ وَلِيَسْتَذْكُرُوا أُولَ الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

٢٨- التذكر:

قال تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١].
وقال سبحانه: ﴿وَمَا يَذْكُرُوا إِلَّا أُولَ الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].
وقال تعالى: ﴿سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ [الأعلى: ١٠].
وفي الحديث: «استأذنتُ ربي أن أستغفرَ لأمي فلم يأذن لي، واستأذنتُهُ أن أزورَ قبرَها فأذن لي»^(٢).

(١) أخرجه عبد الرزاق في التفسير (٣/ ٢٢٠).

(٢) أخرجه مسلم (٩٧٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفيه - أيضًا - : «نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، فَزُورُوهَا؛ فَإِنْ فِي زِيَارَتِهَا تَذَكُّرَةٌ»^(١).

٢٩- التذكير:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

وقال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى: ٩].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥].

وفي الحديث: أن حنظلة الأسدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قلت: يا رسول الله، إنا نكون عندك تذكركنا بالنار والجنة، حتى كأننا رأينا عين»^(٢).

وفي الحديث - أيضًا - : «أَذَكَّرُكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي نَجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، وَأَقْطَعَكُمْ الْبَحْرَ، وَظَلَّلَ عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْكُمُ الْمَنَ، وَالسَّلْوَى، وَأَنْزَلَ عَلَيْكُمُ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى أَتَجِدُونَ فِي كِتَابِكُمُ الرَّجْمَ؟»^(٣).

٣٠- التعاون على البر والتقوى:

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

وفي الحديث: قلت: «يا رسول الله: أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمان بالله، وجهاد في سبيله، قال: قلت: أي الرقاب أفضل؟ قال: أعلاها ثمنًا، وأنفسها عند أهلها، قال: قلت: فإن لم أفعل؟ قال: تُعِينُ صَانِعًا، أَوْ تَصْنَعُ

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٣٥) من حديث بريدة بن الحصيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٥٠) من حديث حنظلة الأسدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٦٢٦) من حديث عكرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرسلًا.

لَا خَرْقَ»^(١).

٣١- تعظيم الحرمات والشعائر:

وتعني هذه الصفة: العلم بوجوبها والقيام بحقوقها.
قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠].
وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].
وفي الحديث: قال النعمان بن قوئل: «يا رسول الله، أرايت إذا صليت المكتوبة، وحرمت الحرام وأحللت الحلال أَدْخَلَ الْجَنَّةَ؟ فقال: ﷺ نَعَمْ»^(٢).
وفي الحديث - أيضًا -: «مَا مِنْ أَيَّامٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَا أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعَمَلُ فِيهِنَّ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَشْرِ»^(٣).

٣٢- التفاؤل:

هو حسن ظن بالله تعالى أن يُجْزِيَ الْخَيْرَ، والاستبشار بما يسمعه من كلم طيب، أو إشارة صالحة.
وفي الحديث: «أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَمِعَ كَلِمَةً فَأَعْجَبَتْهُ، فَقَالَ: أَخَذْنَا فَالْكَ مِنْ فَيْكَ»^(٤).
وفي الحديث - أيضًا - أن رسول الله ﷺ قال: «لَا طَيْرَةَ، وَخَيْرُهَا الْفَأَلُ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْفَأَلُ؟ قَالَ: الْكَلِمَةُ الصَّالِحَةُ يَسْمَعُهَا أَحَدُكُمْ»^(٥).

(١) أخرجه البخاري (٢٥١٨)، ومسلم (٨٤) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (١٥) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه أحمد (٥٤٤٤) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه أحمد (٩٠٤٠)، وأبو داود (٣٩١٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه البخاري (٥٧٥٥)، ومسلم (٢٢٢٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٣٣- التفكير:

وهو: تأمل القلب في معاني الأشياء لإدراكها وإدراك المطلوب منها.
قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقال سبحانه: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].
وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ [الروم: ٨].
وفي الحديث: «لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةُ آيَةً، وَيْلَ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]»^(١).
٣٤- التقوى:

وهي فعلُ المأمورات، واجتناب المنهيات، وحفظُ النفس من أسباب الهلكة.
قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].
وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].
وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢].
وقال سبحانه: ﴿وَأَزَلِفَتْ أَلْحَنَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠].
وفي الحديث: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»^(٢).

(١) أخرجه ابن حبان (٦٢٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري (١٤١٧)، ومسلم (١٠١٦) من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفيه - أيضًا - : «أُوصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ»^(١).

وفيه - أيضًا - : «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتَّقَى، وَالْعَفَافَ وَالْغَنَى»^(٢).

٣٥- تلاوة القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة: ١٢١].

وقال سبحانه: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢٥٢].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٢٧].

وفي الحديث: «اقْرءُوا الْقُرْآنَ مَا اِتَّفَقَتْ قُلُوبُكُمْ، فَإِذَا اِخْتَلَفْتُمْ فَقُومُوا عَنْهُ»^(٣).

وفي الحديث - أيضًا - : «يُقَالُ لَصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْتَقْ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرْتَلُ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنْ مَنَزَلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرُؤُهَا»^(٤).

٣٦- التناصر:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَسْتَضَرُّوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ [الأنفال: ٧٢].

وقال سبحانه: ﴿وَلْيَنْصُرْكَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ

الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

(١) أخرجه أحمد (١٧١٤٥)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦) من حديث

العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٢١) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٦٠)، ومسلم (٢٦٦٧) من حديث جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه أحمد (٦٧٩٩)، وأبو داود (١٤٦٤)، والترمذي (٢٩١٤) من حديث عبد الله بن

عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال سبحانه: ﴿إِلَّا نَضْرِبْهُ فَلَاحُ نَكْرَهُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠].
وفي الحديث: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا، أَوْ مَظْلُومًا، فَقَالَ رَجُلٌ: أَنْصُرْهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرْهُ؟ قَالَ: تَحْجُزْهُ - أَوْ: تَمْنَعْهُ - مِنَ الظُّلْمِ؛ فَإِنْ ذَلِكَ نَضْرِبُهُ»^(١).

٣٧- التواضع (خفض الجناح والذلة للمؤمنين):

قال تعالى: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].
وقال تعالى: ﴿أَذِلَّةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].
وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

وفي الحديث: «وَإِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا؛ حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»^(٢).

وفي الحديث - أيضًا -: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ»^(٣).

٣٨- التوبة:

قال سبحانه: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وقال تعالى: ﴿الَّتِيبُونَ الْعِيدُونَ الْحَمْدُونَ السَّيِّحُونَ الرَّكْعُونَ
السَّجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ
لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

(١) أخرجه البخاري (٦٩٥٢) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال تعالى: ﴿مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَنَاطَتٍ تَبِيتَ عِدَّتِ سَيِّحَتٍ ثَبِيتٍ وَابْكَارًا﴾ [التحریم: ٥].

وفي الحديث: «مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ»^(١).

وفي الحديث - أيضًا -: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»^(٢).

٣٩- التوكل:

هو صدق اعتماد القلب على الرب في جلب المصالح، ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال سبحانه: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

وفي الحديث: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدْ التَّقَمَ الْقَرْنَ وَاسْتَمَعَ الْإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ، فَيَنْفُخُ، فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لَهُمْ: قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا»^(٣).

ومن صفات المؤمنين على حرف (الثاء):

٤٠- الثبات:

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١٣٠٤٩)، والترمذي (٢٤٩٩) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٣١) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦].

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وفي الحديث: «... وَثَبْتُ حُجَّتِي، وَاهْدَ قَلْبِي وَسَدِّدْ لِسَانِي...»^(١).
 وفي الحديث: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ...»^(٢).
 وفي الحديث: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَسَلُّوا لَهُ بِالتَّيْتِ؛ فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ»^(٣).
ومن صفات المؤمنين على حرف (الجيم):

٤١- الجهاد:

وهو رتب ودرجات.

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرِّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وفي الحديث: عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قلت: يا رسول الله، أي الأعمال

(١) أخرجه أحمد (١٩٩٧)، وأبو داود (١٥١٠)، والترمذي (٣٥٥١) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أحمد (١٢١٠٧)، والترمذي (٢١٤٠) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٢٢١) من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أفضل؟ قال: الإيمَانُ بالله، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ»^(١).

وفي الحديث: «وَذُرْوَةٌ سَنَامِهِ الْجِهَادُ»^(٢).

٤٢- الجود (الكرم):

قال تعالى: ﴿أَكْرَمِي مَثْوَاهُ﴾ [يوسف: ٢١].

وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي

أَكْرَمَنِي﴾ [الفجر: ١٥].

وقال سبحانه: ﴿إِنْ تَجَتَنَّبُوا كِبَارِيَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ

وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمُ رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣١].

وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ، وَيُحِبُّ مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ،

وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا»^(٣).

وفي الحديث: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ

يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِرَتَهُ...»^(٤).

من صفات المؤمنين على حرف (الحاء):

٤٣- حسن الخلق:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [الفلم: ٤].

وقال سبحانه: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

(١) أخرجه البخاري (٢٥١٨)، ومسلم (٨٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦١٦) من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الحاكم (١٥١)، والبيهقي في الكبرى (٢٠٧٨١) من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٦٠١٩)، ومسلم (٤٨) من حديث أبي شريح الخزاعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال جلَّ وعَلَا: ﴿أَدْفَعْ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

وفي الحديث: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخُلُقٍ حَسَنٍ»^(١).

وفي الحديث - أيضًا -: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا: أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخَيْرُهُمْ: خَيْرُهُمْ لِنِسَائِكُمْ»^(٢).

وفي الحديث - أيضًا -: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»^(٣).

٤٤- حفظ الفروج:

قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٢٩].
وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠].

وقال سبحانه: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].
وفي الحديث: «إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتَ»^(٤).
وفي الحديث - أيضًا -: «... وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ»^(٥).

(١) أخرجه أحمد (٢١٣٥٤)، والترمذي (١٩٨٧) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٧٤٠٢)، والترمذي (١١٦٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٨٩٥٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه أحمد (١٦٦١) من حديث عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه أحمد (٢٢٧٥٧) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من صفات المؤمنين على حرف (الخاء):

٤٥- الخشوع:

وهو: انقياد القلب بالخشوع والذل للرب تعالى.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾

[المؤمنون: ١ - ٢].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا

وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وفي الحديث: «مَا مِنْ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ، فَيُحَسِّنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا، إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ، مَا لَمْ يَأْتِ كَبِيرَةً، وَذَلِكَ الدَّهْرُ كُلُّهُ»^(١).

٤٧- الخوف من الله:

الخوف اضطراب القلب وحركته من توقع العقوبة، فالخوف من الله خوف من عذابه وعقابه، فإذا اجتمع مع المحبة والرجاء كمل حال العبد.

قال تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

[الأنعام: ١٥].

وقال جلَّ وعَلَا: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠].

(١) أخرجه مسلم (٢٢٨) من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي الحديث: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزَلَ، أَلَا إِنَّ سَلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةً، أَلَا إِنَّ سَلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ»^(١).

٤٦- الخشية:

وهي أخص من الحوف، فهي: خوف مقرون بالمعرفة والتعظيم والإجلال لمقام ذي الجلال.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ [الأعلى: ١٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وفي الحديث: «عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ: عَيْنُ بَكَتَ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنُ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢).

من صفات المؤمنين على حرف (الدال):

٤٨- الدعاء:

قال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ نَضُّرًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

(١) أخرجه الترمذي (٤٥٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (١٦٣٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢].
وفي الحديث: «دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلِ»^(١).

و«أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ؛ فَأَكْثَرُوا الدَّعَاءَ»^(٢).

٤٩- الدعوة إلى الله:

قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].
وقال سبحانه: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

وقال سبحانه: ﴿وَيَقَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى التَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ [غافر: ٤١].

وفي الحديث: «... إِنِّي أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلَمَ تَسْلَمَ...»^(٣).

وفي الحديث - أيضًا - : «دَعَانَا النَّبِيُّ ﷺ، فَبَايَعَنَاهُ»^(٤).

من صفات المؤمنين على حرف (الذال):

٥٠- الذكر:

قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ٤١].

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٣) من حديث أم الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه البخاري (٧٠٥٥)، ومسلم (١٧٠٩) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال جلّ وعلا: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].
 وقال تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].
 وفي الحديث - أيضاً -: «سبعة يُظْلَهُمُ اللهُ في ظله يوم لا ظل إلا ظله: ...
 وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا ففَاضَتْ عَيْنَاهُ»^(١).

وفي الحديث - أيضاً -: «سَبَقَ الْمُفْرَدُونَ، قالوا: وما المفردون يا رسول
 الله؟ قال: الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا، وَالذَّاكِرَاتُ»^(٢).

من صفات المؤمنين على حرف (الراء):

٥١- الرجاء:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].
 وقال تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].
 وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾
 [العنكبوت: ٥].

وفي الحديث: «أَرْبَعُونَ خَصْلَةً أَعْلَاهُنَّ: مَنِيحَةُ الْعَنَزِ، مَا مِنْ عَامِلٍ يَعْمَلُ
 بِخَصْلَةٍ مِنْهَا رَجَاءَ ثَوَابِهَا، وَتَصَدِّقَ مَوْعُودِهَا إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ بِهَا الْجَنَّةَ»^(٣).

٥٢- الرحمة:

قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا
 مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (٩٢٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٦) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٣١) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وفي الحديث: «اللَّهُمَّ ارْحَمْهُمَا؛ فَإِنِّي أَرْحُمُهُمَا»^(١).

وفي الحديث - أيضًا -: «تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاخُمِهِمْ وَتَوَادِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالْسَّهْرِ وَالْحُمَى»^(٢).
وفي الحديث - أيضًا -: «الْراحمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مِّنْ فِي السَّمَاءِ»^(٣).

٥٣- الرضا:

قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال سبحانه: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٨].

وفي الحديث: «... أَفَلَا تَرْضَوْنَ أَن يَذْهَبَ النَّاسُ بِالْأَمْوَالِ، وَتَرْجِعُونَ إِلَىٰ رَحَالِكُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ...»^(٤).

وفي الحديث - أيضًا -: «... رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا...»^(٥).

(١) أخرجه البخاري (٦٠٠٣) من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٣١٧) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه أحمد (٦٤٩٤)، وأبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه البخاري (٣١٤٧)، ومسلم (١٠٥٩) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه مسلم (٣٨٦) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من صفات المؤمنين على حرف (الزاي):

٥٤- الزكاة، و(التزكي):

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤].

وقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وفي الحديث: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ»^(١).

وفي حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنَّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ»^(٢).

وفي الحديث- أيضًا-: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «... وَزَكَاةً أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَاَهَا...»^(٣).

من صفات المؤمنين على حرف (السين):

٥٥- السكينة:

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

(١) أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧)، ومسلم (٥٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٢٢) من حديث زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ [التوبة: ٢٦].

وفي الحديث: «... عَلَيْكُمْ بالسكينة، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتَمُّوا»^(١).

من صفات المؤمنين على حرف (الشين):

٥٦- الشفقة:

قال تعالى: ﴿وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾ [المعارج: ٢٧].

وفي الحديث من قول عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَأَشْفَقْتُ إِنْ اغْتَسَلْتُ أَنْ أَهْلِكَ»^(٢).

٥٧- الشكر:

قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال تعالى: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ [النحل: ١٢١].

وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: ١٣].

وقال تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ [الأحقاف: ١٥].

وفي الحديث: «اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْن عِبَادَتِكَ»^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٦٣٦)، ومسلم (٦٠٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٨١٢)، وأبو داود (٣٣٤).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢١١٩)، وأبو داود (١٥٢٢) من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي الحديث - أيضاً-: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ - وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ - إِنَّ أَصَابَتُهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(١).

٥٨- الشورى:

قال تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وفي الحديث: «الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ»^(٢).

وفي الحديث - أيضاً-: «وَمَنْ اسْتَشَارَهُ أَخُوهُ الْمُسْلِمُ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِغَيْرِ رُشْدٍ، فَقَدْ خَانَهُ»^(٣).

من صفات المؤمنين على حرف (الصاد):

٥٩- الصبر والمصابرة:

قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَاصْبِرُوا وَرَاطِبُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وفي الحديث: «سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أُثْرَةً؛ فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ»^(٤).

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٢٢)، وابن ماجه (٣٧٤٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٨٢٦٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٣٧٩٢)، ومسلم (١٨٤٥) من حديث أسيد بن حُضَيْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي الحديث - أيضًا -: «وَمَنْ يَصْبِرْ يُصْبِرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرَ وَأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ»^(١).

٦٠- الصدق:

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقال سبحانه: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩].

وفي الحديث: «... إِنْ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنْ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنْ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صَدِيقًا...»^(٢).

وفي الحديث - أيضًا -: «مَنْ طَلَبَ الشَّهَادَةَ صَادِقًا أُعْطِيَهَا، وَلَوْ لَمْ تُصْبِهِ»^(٣).

٦١- الصدقة:

قال تعالى: ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨].

وفي الحديث: «إِنْ الْمُسْلِمَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً - وَهُوَ يَحْتَسِبُهَا - كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً»^(٤).

٦٢- الصّبح:

قال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ [النور: ٢٢].

(١) أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (١٩٠٨) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (١٠٠٢) من حديث أبي مسعود البدر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال تعالى: ﴿وَأِنْ تَعَفُّواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

وقال تعالى: ﴿فَاعْفُواْ وَأَصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وفي الحديث: قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ فَاحِشًا، وَلَا مَتَفَحِشًا، وَلَا صَخَابًا فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفو وَيَصْفَح»^(١).

وفي صفته ﷺ في التوراة من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ، وَلَكِنْ يَعْفو وَيَصْفَح»^(٢).

٦٣- الصلاة وإقامتها:

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ١١٠].

وقال سبحانه: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وقال تعالى: ﴿مُتَّبِعِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣١].

وفي الحديث: «إِنَّ الْإِسْلَامَ بُنِيَ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصِيَامِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ»^(٣).

وفي الحديث - أيضًا -: «الصَّلَاةُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، مَا لَمْ تُغَشَّ الْكِبَائِرُ»^(٤).

(١) أخرجه أحمد (٢٥٩٩٠)، والترمذي (٢٠١٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٣٨).

(٣) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (٢٢) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه مسلم (٢٣٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٦٤- الصلاة:

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥].
وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢].
وقال تعالى: ﴿تُوفِّي مُسْلِمًا وَالْحَقِّي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].
وفي الحديث: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ. قالوا: وكيف يستعمله؟
قال: يُؤَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ مَوْتِهِ»^(١).
وفي الحديث - أيضًا -: «يَذْهَبُ الصَّالِحُونَ، الْأَوَّلُ، فَالْأَوَّلُ»^(٢).
وفي الحديث - أيضًا -: «أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا
أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»^(٣).

٦٥- صلة الرحم:

قال تعالى: ﴿وَابْتَالُوا أُولَٰئِينَ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [البقرة: ٨٣].
وقال تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥].
وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ
سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].
وفي الحديث: «إِنْ أَبَرَّ الْبَرَّ: صَلَّةُ الْوَلَدِ أَهْلَ وَدِ أَبِيهِ»^(٤).

(١) أخرجه أحمد (١٢٠٣٦)، والترمذي (٢١٤٢) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٣٤) من حديث مرداس الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٤٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٥٢) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي الحديث - أيضًا - : «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحْمَهُ»^(١).
٦٦ - الصوم:

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقال تعالى: ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].
وفي الحديث: «مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَعَدَ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا»^(٢).

وفي الحديث - أيضًا - : «عَلَيْكَ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَا عَدَلَ لَهُ»^(٣).

من صفات المؤمنين على حرف (الضاد):

٦٧ - الضراعة والتضرع:

قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].
وقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].
وفي الحديث: «الصَّلَاةُ مَثْنَى مَثْنَى، تَشْهَدُ فِي كُلِّ رَكْعَتَيْنِ، وَتَضَرُّعٌ وَتَخَشُّعٌ وَتَمَسْكُنُ»^(٤).

(١) أخرجه البخاري (٦١٣٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٤٠)، ومسلم (١١٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٢٢١٤٨)، والترمذي (٣٨٥)، والنسائي (٢٢٢٢) من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه أبو داود (١٢٩٦)، والترمذي (٣٨٥)، والنسائي (٦١٨) من حديث الفضل بن

العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

من صفات المؤمنين على حرف (الطاء):

٦٨ - الطاعة:

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾

[النساء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وفي الحديث: «... مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»^(١).

وفي الحديث - أيضًا -: «... فَمَنْ أَطَاعَ مُحَمَّدًا ﷺ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَى مُحَمَّدًا ﷺ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ»^(٢).

وفي الحديث - أيضًا -: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلَا يَعْصِهِ»^(٣).

٦٩ - الطمأنينة:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨١) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٩٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وفي الحديث: «البر ما اطمأن إليه القلب، واطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في القلب، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك»^(١).

من صفات المؤمنين على حرف (العين):

٧٠- العبادة:

وهي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾

[الأنبياء: ٩٢].

وقال جلّ وعلا: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢].

وقال سبحانه: ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

وفي الحديث: «إن رجلا قال للنبي ﷺ أخبرني بعمل يدخلني الجنة، قال: ما له؟ ما له؟ وقال: النبي ﷺ أرب ما له، تعبّد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم»^(٢).

٧١- العزة والاستعلاء:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

(١) أخرجه أحمد (١٨٠٠١) من حديث وابصة بن معبد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٩٦)، ومسلم (١٤) من حديث أبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

وفي الحديث: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، أَعَزَّ جُنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَغَلَبَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ»^(١).

٧٢- العفة:

قال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣].
وقال تعالى: ﴿وَأَنْ يَسْتَغْفِرَ خَيْرٌ لَّهُمْ﴾ [النور: ٦٠].
وقال سبحانه: ﴿وَلَيْسَتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣].

وفي الحديث: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتَّقَى، وَالْعَفَافَ وَالْغَنَى»^(٢).
وفي الحديث -أيضاً-: «بَرُوا آبَاءَكُمْ تَبَرَّكُمْ أَبْنَاؤُكُمْ، وَعَفُوا تَعَفَّ نَسَاؤُكُمْ»^(٣).
٧٣- العفو والغفران:

قال تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ [البقرة: ١٠٩].
وقال سبحانه: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].
وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الجاثية: ١٤].

(١) أخرجه البخاري (٤١١٤)، ومسلم (٢٧٢٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٢١) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٠٠٢)، والحاكم (٧٢٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي الحديث: «... أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمِيْتُكَ: الْمُتَوَكِّلُ، لَيْسَ بِقَظٍ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ»^(١).
وفي الحديث - أيضًا -: «تَعَاَفَوْا الْحُدُودَ فِيمَا بَيْنَكُمْ، فَمَا بَلَغَنِي مِنْ حَدٍّ فَقَدْ وَجَبَ»^(٢).

٧٤- العلم:

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦].
وقال سبحانه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨].
وقال سبحانه: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبا: ٦].
وفي الحديث: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»^(٣).
وفي الحديث - أيضًا -: «... وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»^(٤).

٧٥- العمل:

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥].
وقال تعالى: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٦].
وقال سبحانه: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ [آل عمران: ١٩٥].

(١) أخرجه البخاري (٢١٢٥) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٧٦)، والنسائي في الكبرى (٧٣٣١) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٢٧) من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال سبحانه: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا بِمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى وَأَلْزَمُوا سُبُلَهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].
وفي الحديث: «... فاعمل من وراء البحار؛ فإن الله لن يترك من عملك شيئاً»^(١).

وفي الحديث: «إذا مرض العبد، أو سافر، كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً»^(٢).

من صفات المؤمنين على حرف (الغين):

٧٦- غَضَ البصر:

قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠].
وقال سبحانه: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣١].

وفي الحديث عن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجاءة فأمرني أن أصرف بصري»^(٣).

وفي الحديث - أيضاً -: «لَا يَنْظُرُ الرَّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ، وَلَا الْمَرْأَةُ إِلَى عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ»^(٤).

من صفات المؤمنين على حرف (الفاء):

٧٧- الفرح بفضل الله:

قال تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

(١) أخرجه البخاري (١٤٥٢)، ومسلم (١٨٦٥) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٩٦) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢١٥٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (٣٣٨) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال سبحانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وفي الحديث: «للصائم فرحتان يفرحُهُمَا: إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربه فرح بصومه»^(١).

وفي الحديث - أيضاً -: «لَيُصِيبَنَّ أَقْوَامًا سَفَعَ مِنَ النَّارِ؛ بِذُنُوبٍ أَصَابُوهَا عُقُوبَةٌ، ثُمَّ يُدْخِلُهُمُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ»^(٢).

٧٨- الفقه في الدين:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وفي الحديث: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ، وَاللَّهُ يُعْطِي، وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَائِمَةٌ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ»^(٣).

من صفات المؤمنين على حرف (القاف):

٨٨- القسط:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلدِّينِ بِالقِسْطِ﴾ [النساء: ١٢٧].

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٥٠) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٧١) من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

وفي الحديث: «إن المُقسطينَ عندَ الله على منابرٍ من نورٍ، عن يمين الرحمن ﷻ - وَكَلَّمَا يَدَيْهِ يَمِينٍ - الذينَ يعدلونَ في حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا»^(١).

٧٩- القوة في الدين:

قال تعالى: ﴿خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٧١].

وقال سبحانه: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَعِذُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوَى الْأَمِينُ﴾ [الفصص: ٢٦].

وفي الحديث: «المؤمنُ القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كُلِّ خيرٍ»^(٢).

وفي الحديث تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «فأما رسول الله ﷺ ورجال من أصحابه فكانوا أهلَ قوة، وكان معهم الهدْيُ، فلم يقدروا»^(٣) على العمرة»^(٤).

من صفات المؤمنين على حرف (الكاف):

٨٠- كظم الغيظ:

قال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

(١) أخرجه مسلم (١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) فلم يقدروا: يعني: لم يحلوا.

(٤) أخرجه البخاري (١٥٦٠).

وفي الحديث: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ اللَّهُ بِكَرٍّ عَلَى رُءُوسِ السَّالَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُخَيَّرَهُ اللَّهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ»^(١).

وفي الحديث - أيضًا -: «مَا مِنْ جُرْعَةٍ أَكْبَرُ أَجْرًا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ جُرْعَةٍ غَيِظَ كَظَمَهَا عَبْدٌ ابْتِغَاءً وَجْهَ اللَّهِ»^(٢).

من صفات المؤمنين على حرف (اللام):

٨١- اللين:

قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي نَقْشِرُهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وفي الحديث: «أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، هُمْ أَرْقُ أَفْئِدَةً، وَأَلْيَنُ قُلُوبًا»^(٣).

وفي الحديث - أيضًا -: «سُدُّوا الْخَلَلَ، وَلِينُوا فِي أَيْدِي إِخْوَانِكُمْ»^(٤).

من صفات المؤمنين على حرف (الميم):

٨٢- المحبة:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ

(١) أخرجه أحمد (١٥٦٣٧)، وأبو داود (٤٧٧٧)، وابن ماجه (٤١٨٦) من حديث معاذ بن أنس الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٦١١٤)، وابن ماجه (٤١٨٩) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري (٤٣٨٨)، ومسلم (٥٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه أحمد (٥٧٢٤) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَلَا يَحِدُّونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴿ [الحشر: ٩].

وفي الحديث: «آيَةُ الْإِيمَانِ: حُبُّ الْأَنْصَارِ»^(١).

وفي الحديث - أيضاً -: «مَنْ أَشَدَّ أُمْتِي لِي حُبًّا: نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَأَى بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ»^(٢).

وفي الحديث - أيضاً -: «هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرْبُهَا؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحَبُّتُهُ فِي اللَّهِ ﷻ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ؛ بَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ، كَمَا أَحَبَّتُهُ فِيهِ»^(٣).

٨٣- المسارعة في الخيرات:

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال سبحانه: ﴿وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٤].

وقال سبحانه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا

السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وفي الحديث: «أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ - لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -

: قَدْ سَبَقَكَ أَبُو بَكْرٍ، قُلْتُ: إِنْ يَفْعَلُ فَإِنَّهُ سَبَاقٌ بِالْخَيْرَاتِ، مَا اسْتَبَقْنَا خَيْرًا قَطٍ إِلَّا سَبَقْنَا إِلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ»^(٤).

وفي الحديث: «التَّوَدُّةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا فِي عَمَلِ الْآخِرَةِ»^(٥).

(١) أخرجه البخاري (١٧) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٣٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه أحمد (٢٦٥) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه أبو داود (٤٨١٠) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من صفات المؤمنين على حرف (النون):

٨٤- النصيحة والتواصي:

قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١].

وقال سبحانه: ﴿وَالْعَصْرُ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر].
وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَّصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧].
وفي الحديث: «الدينُ النصيحةُ. قلنا: لمن؟ قال: لله، ولكتابه، ولرَسُوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم»^(١).

وفي الحديث - أيضًا -: أن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنَّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ»^(٢).

من صفات المؤمنين على حرف (الهاء):

٨٥- الهجرة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].
وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا

(١) أخرجه مسلم (٥٥) من حديث تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧)، ومسلم (٥٦).

لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿[الحج: ٥٨].

وفي الحديث: «أي: الهجرة أفضل؟ قال: أَنْ تَهْجَرَ مَا كَرِهَ رَبُّكَ ﷺ»^(١).
وفي الحديث - أيضًا -: «المُسلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ،
وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»^(٢).
وفي الحديث - أيضًا -: «... فَمَنْ كَانَتْ هَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ
إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هَجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا،
فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»^(٣).

٨٦- الهدى:

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].
وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ يَقُولُهُمْ﴾ [محمد: ١٧].
وقال جلَّ وعَلَا: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٣٧].
وفي الحديث: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتَّقَى، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى»^(٤).
وفي الحديث: «... فَعَلَيْكُمْ بِسُتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِينَ...»^(٥).
وفي الحديث - أيضًا -: «... اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ، وَاجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًا»^(٦).
وفي الحديث - أيضًا -: «مَا كَانَ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ كَانَ لَهُ حَوَارِيُونَ

(١) أخرجه أحمد (٦٤٨٧) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (١٠)، ومسلم (٤٠) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري (٥٤)، ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (٢٧٢١) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه أحمد (١٧١٤٤)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦) من حديث

العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) أخرجه البخاري (٣٠٢٠)، ومسلم (٢٤٧٥) من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَهْتَدُونَ بِهَدْيِهِ، وَيَسْتَنُونَ بِسُنَّتِهِ»^(١).

من صفات المؤمنين على حرف (الواو):

٨٧- الوفاء:

قال تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: ١٧٧].
وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].
وقال سبحانه: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].
وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُورٌ بِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].
وفي الحديث: «أَحَقُّ مَا أَوْفَيْتُمْ مِنَ الشَّرُوطِ أَنْ تَوْفُوا بِهِ: مَا اسْتَحَلَلْتُمْ بِهِ الْفُرُوجَ»^(٢).

وفي الحديث - أيضًا -: «اقضُوا الله؛ فالله أحق بالوفاء»^(٣).
وفي الحديث - أيضًا -: «... وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ، وَالصَّدَقَةِ، وَالْعَفَافِ، وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ»^(٤).

٨٨- الولاء:

قال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ تَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].
وقال سبحانه: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾
﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].
وقال جلَّ وعَلَا: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

(١) أخرجه مسلم (٥٠) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٥١٥١)، ومسلم (١٤١٨) من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (١٨٥٢) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه البخاري (٢٩٤١)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقال سبحانه: ﴿إِنهَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

وفي الحديث: «أَلَا إِنَّ آلَ أَبِي - يعني: فلانا - لَيَسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ، إِنَّمَا وَلِيَّ اللَّهِ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ»^(١).

وفي الحديث - أيضاً -: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ...»^(٢).

وفي الحديث - أيضاً -: «اللَّهُ ﷻ مِائَةُ رَحْمَةٍ، وَإِنَّهُ قَسَمَ رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَوَسَعَتْهُمْ إِلَى آجَالِهِمْ، وَذَخَرَ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ رَحْمَةً لِأَوْلِيَائِهِ...»^(٣).



(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٠)، ومسلم (٢١٥) من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه أحمد (١٧١٨)، وأبو داود (١٤٢٥)، والترمذي (٢٥٢٠) من حديث الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (١٠٦٧٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

البَابُ السَّادِسُ أَعْدَاءُ الْإِيمَانِ

الفصل الأول: أعداء وخصوم الإيمان.

الفصل الثاني: معارضة الإيمان.

الفصل الأول أعداء وخصوم الإيمان



كما أن للإيمان وأهله أولياء، فإن لهما خصوما وأعداء، وأولئك الخصوم عداوتهم قديمة وحديثة، وهي عداوة مستمرة وممتدة من فجر التاريخ الإنساني، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها! وأشد ما تكون الخصومة مع أكمل الخلق - الأنبياء عليهم السلام - من لدن أبيهم آدم، وإلى خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم أجمعين. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وتلك العداوة سطرها القرآن بين الشيطان والإنسان، وغايتها صده عن طريق الإيمان، وهي عداوة شديدة أقسم عليها صاحبها، فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]، وقال - عن عاقبتها -: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، ومن خصائص تلك العداوة: أن الشيطان وذريته مسلط على الإنسان، يجري منه مجرى الدم، وهو مطلع على الإنسان في خلوته وجلوته على حد سواء!

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرْتَكِبُ الْهُوَوقِيْلَهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرْوَاهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

ومع ذلك الكيد؛ فإن الله تعالى وصفه بالضعف، وبين: أن الشيطان ليس له على أهل الإيمان من سلطان.

فقال سبحانه: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].
وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ
الْفَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

وقد علم النبي ﷺ أهل الإيمان ما يتحصنون به من وسوسة وكيد الشيطان.
أما المعترك الأكبر، والأعداء الأكثر فهم أولياء الشيطان من بني الإنسان!
أولئك الذين أطاعوه، فعبدوه من دون الله، أو ألحدوا في وجود الله، أو حرفوا
دين الله، أو عبدوا مع الله آلهة مزعومة، أو ادعوا لأنفسهم حقوق الله من
التحليل والتحریم، أو أنشأوا مذاهب كفرية، وتيارات إلحادية، فمع كل
أولئك خصومة لا تهدأ، ولا تنقضي حتى تنقضي هذه الحياة!

وأعداء الإيمان وخصومه لم يكونوا ليحاربوا في الميدان بالسيف والرمح
فحسب! وإنما الحرب على الإيمان بالتشكيك والدس، وإلقاء الشبهات،
وتدبير المكائد، والحرب على أصول الإيمان، وتسليط أهل النفاق ليعملوا
عملهم في إلقاء الافتراءات، وترويج الانحرافات، وإثارة الفتن!

وهؤلاء الخصوم ذكرهم الله إجمالاً في القرآن، كما ذكر خبرهم
تفصيلاً، قال سبحانه: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۚ فَالَّذِينَ كَفَرُوا
قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُّصْبُّ مِنْ فَوْقَ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي
بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقْلِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ
غَمٍّ أَعِيدُوا فِيهَا وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩-٢٢].

فالفريق الأول هم أهل الإيمان، وطاعة الرحمن، والفريق الآخر هم عبدة
الأوثان من المشركين. وقيل: إن الآية نازلة في الذين بارزوا يوم بدر: حمزة،
وعلي، وعبيدة بن الحارث، وعتبة وشيبة ابني ربيعة، والوليد بن عتبة.

قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إني لأول- أو: من أول- من يجثو للخصومة يوم القيامة بين يدي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى»^(١).

وقيل: الفريق الآخر: أهل الكتاب، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هم أهل الكتاب، قالوا للمؤمنين: نحن أولى بالله، وأقدم منكم كتابا، ونبينا قبل نبيكم. وقال المؤمنون: نحن أحق بالله، آمنا بمحمد ﷺ، وآمنا بنبيكم، وبما أنزل الله من كتاب، فأنتم تعرفون كتابنا ونبينا، ثم تركتموه، وكفرتم به حسدا، وكان ذلك خصومتهم في ربهم^(٢).

وقيل: الفريق الآخر: الكفار كلهم من أي ملة كانوا. قال مجاهد وعطاء: «هم الكافرون والمؤمنون، اختصموا في ربهم»^(٣).

وقال مجاهد: «مثل الكافر والمؤمن خصومتهم التي اختصموا في ربهم، خصومتهم في الدنيا من أهل كل دين، يرون أنهم أولى بالله من غيرهم»^(٤).

والقول الأخير هو الجامع لما سبقه، وهو المتفق مع قاعدة التفسير: «العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب».

وهو الذي تشهد له آيات القرآن الكريم، نحو: قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير (٤٨٩/١٦).

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير (٤٩١/١٦).

(٣) أخرجه ابن جرير في التفسير (٤٩٢/١٦).

(٤) أخرجه ابن جرير في التفسير (٤٩٢/١٦).

تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴿[الأنفال: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٠١].

وفيما يلي شيء من البيان التفصيلي عن تلك الخصومة، ومظاهرها، وحال أربابها:

أولاً: الملاحدة:

وهم أولئك الذين أنكروا وجود الله أصلاً، فلم يؤمنوا بخالق، ولا رازق، وإنما آمنوا بالمادة، وكفروا بالغيب والبعث واليوم الآخر، ولم يعتقدوا بعثاً، ولا حساباً، ولا جزاء، ويسمون بالدهريين، ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وقد يسمون بالطبيين، أو الطبائعيين، وهؤلاء موجودون قديماً وحديثاً!

وكما وجدوا قديماً، فمنهم - في الحديث -: الشيوعيون، والوجوديون، والدارونيون.

وإلحادهم في ذات الله ووجوده، وليس في آياته أو صفاته، أو بعض كتبه، أو بعض رسله، أو بعض ملائكته!

بخلاف الملاحدة المنتسبين لدين؛ فإن إلحاد هؤلاء مقيد بخلاف إلحاد أولئك؛ فإنه مطلق.

وهؤلاء خصومتهم مع كل أتباع الرسل والرسالات.

ثانياً: المشركون، والكفار، والملأ المتكبرون:

وهؤلاء وإن زعموا وجود الله ولم ينكروه، إلا أنهم عبدوا معه غيره، وأشركوا به في عبادته، وقد حكى القرآن عنهم قوله: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ ﴿[العنكبوت: ٦١].

وكل من عبد مع الله غيره فهو مشرك، وكل مشرك كافر بالله تعالى.
وقد قال الله - عن المشركين والمشركات - : ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ
وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وقال سبحانه: ﴿أَنَّ اللَّهَ
بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٣].

وهؤلاء - في القديم والحديث - من أشد الناس عداوة لأهل الإيمان، كما قال
سبحانه: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾
[المائدة: ٨٢].

والكفار هم المشركون، وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يخاطب مشركي مكة
بقوله: ﴿قُلْ يَتَّيْبُهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١].

وقال سبحانه - عن شرك الكفار - : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ
وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٥].

ومن هؤلاء الكفار والمشركين: صنف ذكره القرآن باسم المملأ،
ووصفهم بالاستكبار، قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن
قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَن ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَتَصْلِحَ مَا سَلَّمَ مِنْ رَبِّهِ
قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي
ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥-٧٦].

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ
وَمَلَائِكِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٥-٤٦].

كما وصفهم بحب الجاه والرياسة: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا
إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي

ءَابَايْنَا الْأَوَّلِينَ ﴿ [المؤمنون: ٢٤].

وهم أهل فساد في الأرض، وصد عن سبيل الله، وعدوان على أهل الإيمان، ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنْقُبُلْ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كَفَرْتُمْ لَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٨٨].

ومن هؤلاء الملأ: طواغيت جبابرة متكبرون، دعوا إلى عبادة أنفسهم من دون الله رب العالمين، منهم: النمرود الذي قال: ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، ومنهم: فرعون الذي قال: ﴿ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ﴾ [النازعات: ٢٤]، ومنهم: كل طاغية ملك الرقاب، فأذل العباد، ونشر في الأرض الفساد! وكل أولئك خصوم لأهل الإيمان، وأعداء لعباد الرحمن! ثالثاً: أهل الكتاب:

وهو اسم يجمع اليهود والنصارى.

وقد قال تعالى - عن عداوة يهود -: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ [المائدة: ٨٢].

وقد عانى المسلمون من لدن نبيهم ﷺ من كيد اليهود وعداوتهم شيئاً كثيراً، حيث اعتدى يهود بني قينقاع على شرف امرأة مسلمة، واجتمعوا على قتل رجل مسلم.

وغدر يهود بني النضير بالنبي ﷺ، وأرادوا قتله، وخان بنو قريظة العهد يوم الخندق، وتمالؤوا مع الأحزاب، وفعل يهود خيبر فعلهم، فحاربهم النبي ﷺ. وقد حاربت النصارى النبي ﷺ، وكان أول تجمع لهم من قبائل قضاعة

وغسان من أهل دومة الجندل، فخرج إليهم النبي ﷺ سنة خمس من الهجرة، ونزل بساحتهم فتفرقوا.

ولما ظهرت تكتلات أخرى تهدف لمحاربة المدينة أرسل إليهم النبي ﷺ سرية بقيادة عبد الرحمن بن عوف إلى قبيلة كلب النصرانية في دومة الجندل في السنة السادسة للهجرة.

ثم كانت مؤتة في شمال الجزيرة، وفيها استشهد زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ثم خرج لهم رسول الله ﷺ بنفسه على رأس الجيش في تبوك، فالتقى الله الرعب في قلوبهم، ففروا خائفين خائبين.

وقد قال الله تعالى - عن عداوتهم -: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُم عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧]، ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وما يزال سعيهم قديما وحديثا عبر احتلال صليبي، وحملة حاكمة على الإيمان وأهله، وسعي للعدوان، وتعد على خيرات بلاد المسلمين فيما عُرف بالاستعمار (الاحتلال) في العصر الحديث.

رابعاً: المنافقون:

وهم قوم استبطنوا الكفر، وأعلنوا الإيمان كذبا وزورا ليحموا أنفسهم، وليتمكنوا من الكيد للإسلام وأهل الإيمان، ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا﴾ [التوبة: ٧٤]، وقد وصفهم الله تعالى بأوصاف

فاضحة، فقال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ١٠]، ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ [آل عمران: ٨٦]، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١١]، ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُغُوتٌ عَنْهُمْ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٣٩]، ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤٢﴾ مُدْبِذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢-١٤٣].

وهكذا تتعدد صفاتهم السيئة، ويأتيهم الوعيد الصادق: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٥]، ﴿ بَشِيرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٣٨].

وقد كان لأهل النفاق مواقف سطرها القرآن من رؤوسهم؛ ليفضح بذلك أمرهم، وليتنبه المسلمون من بعد إلى خبث مسالكهم، وفساد طرائقهم، وسعيهم في المسلمين بالفساد.

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٧]، ومسجد الضرار موجود إلى يوم الناس هذا في مؤسسات تعمل لحرب الإسلام، ونشر الشبهات، وتشكيك المسلمين.

ولا شك أنه من أفتك وسائل الحرب على الإيمان وأهله: رفع لافتات إسلامية على أوضاع، ومؤسسات، وتيارات، وأفكار لهدم الإسلام من داخله.

وربما وقع تعاون وثيق بين أهل الكتاب وأولئك المنافقين، فكان حلفا نجسا على أهل الدين.

وقد تقوضت دولة العثمانيين بمثل هذه التحالفات الدنسة، وما يزال المكر والكيد يعمل عمله في الأمة، ويؤتي ثماره النكدة إلا أن يستفيق المسلمون.

ومن أعداء الإيمان وأهله: أفكار خبيثة حملت إلى أهل الإيمان كفرا ظاهراً عبر دعوة إلى وحدة الأديان، أو عبر عقائد باطنية لا تمت للإسلام بصلة، أو من خلال أفكار مادية وجودية، أو فلسفات إحادية، أو من خلال دعوات للقومية، أو العلمانية، أو الليبرالية، وكلها تنتهي إلى معارضة الإيمان، ومناقضته من أصوله.

وعبر ما يزيد على قرنين من الزمان توالى ذلك الكيد حتى أفضى إلى تغييب الهوية الإيمانية للأمة، وطمس معالم الشخصية الإسلامية، وإشاعة روح التغريب، والتحلل من عرى الدين والإيمان، وذلك تحت ستار من خداع المصطلحات، وكذا الادعاءات، فما أحوج أهل الإيمان في الأمة اليوم إلى أن يدركوا حقيقة العداوة، وطبيعة الصراع الذي يفرضه أعداؤهم عليهم من قديم.

ولا يخفى أن الصراع الديني يتخذ وجوها من الحصار الاقتصادي، والحرمان التقني، ومن أخطر ذلك: بناء أنظمة للحكم ترعى العلمانية، وتقوم عليها، وتقنات على فتات موائد الأسياد في الغرب من يهود ونصارى! ثم هم يستعلنون بالحرب على الإسلام وأهله، والإيمان وحزبه؛ بزعم الإرهاب!

وقد قال تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَسِيقُونَ ۖ أَشْتَرَوْا

بَعَايَتْ اللَّهُ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ [التوبة: ٨-١٠].

وهنا يتعين استحضار وجود مشاريع عدوان على الإيمان تارة تنزيًا بالزي الصليبي، وأخرى بالصهيوني، وثالثة بالعلماني، ورابعة بالباطني! ومن أسوأ ما في هذا العدوان: أن يتحالف هؤلاء المتحالفون على الإيمان وأهله من أهل السنة والجماعة! وأن يجتمعوا على حرب أهل الإيمان بكل سبيل مادي ومعنوي!

والواقع اليوم يشهد تحالفات ثنائية، وأحيانا ثلاثية بين تلك المشاريع الأربعة التي تهدد أهل الإيمان!

وهؤلاء الأعداء والخصوم يجمعهم: أنهم ليسوا على ملة الإسلام حقيقة وحكما؛ كالمشركين وأهل الكتاب، وقد يكون بعضهم تحكم له بالإسلام ظاهراً، وهو منافق باطنًا، عيادًا بالله.

وهذه خصومة كبرى، وعداوة عظمى بخلاف عداوة أو خصومة من انتسب إلى الإسلام، وانحرف عن سنن الإيمان بالدخول في بدعة كلية، أو انحراف أصيل.

وهذا مع غيره مما يأتي بحثه في الفصل التالي: (معارضة الإيمان).



الفصل الثاني معارضة الإيمان

إن أهل الإيمان يتلقون عن الوحي علمًا وعملاً، فينطلقون من القرآن وصحيح السنة، وما استند إليهما من إجماع السلف، وكل ذلك لا يتعارض مع عقل صحيح صريح، ولا فطرة مستقيمة. وأهل الإيمان يعرفون بيقينهم أن نصوص الكتاب والسنة الثابتة حق من عند الله، وكل ما خالفهما فباطل لا صحة له.

ويتلقون تلك النصوص بالتعظيم لها والتسليم؛ تصديقاً بها وامثالاً لها وعملاً بما دلت عليه، ومبادرة ومسارة في الإتيان بها على أكمل وجوه الانقياد والاتباع، من غير تفريط في التزامها.

معتقدين أنه لا تضاد بين أي القرآن وأخبار النبي العدنان، وأن كلا من عند ربنا الرحمن، لا يفرقون بينهما في الاحتجاج والاستدلال، ولا ينفكون عن افتقار إليهما وتعويل عليهما، وعمل بما دلت عليه الأخبار الصحيحة سواء أكانت آحاداً، أم متواترة.

ويعتقدون أن النصوص وافية بما يحتاج إليه الخلق في دينهم، ويعتقدون أن النبي ﷺ بلغ الدين بكماله، ويؤمنون بالانقياد والقبول والرضا بما دلت عليه، والاتباع لما أمرت به، والكف عما نهت عنه، والتحاكم إليها ظاهراً وباطناً.

مع تمام التسليم وعدم المعارضة لها بأي صورة من صور المعارضة ظاهراً وباطناً.

فلا يعارضون نصاً بعقل فاسد، ولا واقع ضاغط، ولا مصلحة، ولا بخلاف فقهي.

ويأخذون النصوص مأخذ الافتقار إلى علمها والاحتياج إلى فهمها، ومن ثم العمل بها، ولا يقدمون عليها قول أحد كائناً من كان؛ إذ هي الحجة العليا، والمرجع الأول في الإيمان، فيعتنون بجمع آحاد النصوص في كل باب، وينهجون في فهمها والاستنباط منها منهج النبي ﷺ والصحابة الثقات والأئمة الأئمة.

ويعتقدون أن ما وقع فيه الخلاف من مسائل الدين والإيمان فالواجب رده إلى الكتاب والسنة، مع الاعتذار عن المخطئ من أئمة أهل السنة، فلا يعصمونهم ولا يؤثمونهم!

ويفرون بين مسائل اجتهادية لا يثرب فيها على المخالف، ومسائل إجماعية وقطعية لا يُحتمل فيها خلاف!

كما لا يعدون من مسائل الاجتهاد ما ورد فيه خلاف شاذ، أو كان من زلات العلماء، كما لا تعارض لديهم بين ترك الإنكار على المخالف في المسائل الاجتهادية، وبين التحقيق العلمي لها، وبيان ضعف دليل المخالف والتحذير من مذهبه.

وقد أثمر منهج أهل السنة في تلقي الإيمان من النصوص والتعويل عليها دون غيرها صدق الانتساب إلى سلف الأمة مع وحدة الصف واجتماع كلمة أهل السنة، وتكثير الصواب وتقليل الخطأ، وحصول التمكين في الدنيا،

والنجاة - برحمة الله - في الآخرة!

وفي مقابل أهل السنة والإيمان ومناهجهم المباركة وجدت مناهج معارضة ومسالك مخالفة ترتب عليها توهين الاعتماد على الوحي المعصوم في مسائل الإيمان أصولاً وفروعاً، وقد مثلت تلك المخالفات خرقاً للإجماع على توحيد مصدر تلقي الإيمان بحيث شابه شوب فلسفي مذموم عند طائفة، وشوب كلامي مردود عند طائفة أخرى، وشطح مسلكي عند طائفة ثالثة، بحيث ضعف القبول والانقياد للوحي، وتشوش التسليم واليقين بمحكمات الإيمان، وامتألت بعض الصدور بالشكوك والريبة، والاستكبار، واتباع الأهواء، وقدمت طوائف بين يدي الله ورسوله!

ولهذا كان سبيل أهل الإيمان في التلقي ما عبر عنه إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ حين قال: «وليس في السنة قياس، ولا تُضرب لها الأمثال، ولا تُدرَك بالعقول والأهواء، إنما هي الاتباع، وترك الهوى»^(١). وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ - عنهم -: «وهم يَزُنُون بهذه الأصول الثلاثة - أي: الكتاب والسنة والإجماع الثابت عن السلف - جميع ما عليه الناس من أقوال وأعمال باطنة، أو ظاهرة مما له تعلق بالدين»^(٢).

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «فالعلم النافع من هذه العلوم كلها: ضبط نصوص الكتاب والسنة، وفهم معانيها، والتقيد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين، وتابعيهم في معاني القرآن والحديث، وفيما ورد عنهم

(١) شرح أصول الاعتقاد (٣١٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥٧/٣).

من الكلام في مسائل الحلال والحرام، والزهد والرقائق، والمعارف، وغير ذلك، والاجتهاد على تمييز صحيحه من سقيمه أولاً، ثم الاجتهاد على الوقوف على معانيه وتفهمه ثانياً، وفي ذلك كفاية لمن عقل، وشغل لمن بالعلم النافع عُنِي واشتغل»^(١).

وقد عرف التاريخ والواقع وجود معارضات للإيمان يجمعها الانحراف عن منهج الوحي المعصوم، واتباع الهوى المشئوم! لكنها اتخذت صوراً، أو أشكالاً متعددة، فلا بد من التنبيه لها للحذر والتحذير منها، ومن هذه الصور والأشكال:

أولاً: إهمال النصوص والأصول الشرعية للنظر والاستنباط في قضايا الإيمان:

وهذه معارضة بالإعراض، ومخالفة بالإهمال وعدم الالتفات، وهذا من أكبر أصول الانحراف عن الإيمان! قال أحمد رَحِمَهُ اللهُ: «الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عقال الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، مجرمون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمشابهة من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم، فنعوذ بالله من فتن الضالين»^(٢).

(١) بيان فضل علم السلف على علم الخلف، لزين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن السلامي البغدادي، ثم الدمشقي الحنبلي، دار الصميعي، ط ٢، ١٤٠٦ هـ (ص ٧١).
(٢) الرد على الزنادقة والجهمية، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، تحقيق: صبري بن سلامة شاهين، دار الثبات للنشر والتوزيع، ط ١ (ص ٥٦).

ومن أجل هذا الإعراض عن كتاب الله وسنة نبيه ﷺ عُرف المخالفون بالجهل بالنصوص تارة، وبرد النصوص وعدم قبولها تارة أخرى، وبالإيمان ببعضها والكفر ببعض أخرى!

ثم إن ذكروا النصوص فإنهم لا يذكرونها اعتماداً، وإنما اعتضاداً، ولا يعولون عليها اعتقاداً، وإنما استئناساً!

وليست هذه طريقة الراسخين من أهل الإيمان!

قال الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ: «إن للراسخين طريقاً يسلكونها في اتباع الحق، وإن الزائغين على طريق غير طريقهم»^(١).

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ- في تقدير خطورة مسلك الإعراض عن طريقة الراسخين:- «من فسر القرآن والحديث وتأوله على غير التفسير المعروف عن الصحابة والتابعين فهو مفتر على الله، ملحد في آيات الله، محرف للعلم عن مواضعه، وهذا فتح لباب الزندقة والإلحاد، وهو معلوم البطلان بالاضطرار من دين الإسلام»^(٢).

ثانياً: اضطراب منهج وأصول النظر والاستنباط:

المعارضون للإيمان المعترضون على محكماته ومسلماته يبدأ اضطرابهم ويظهر خطأهم بعد إهمالهم للنصوص والتفاتهم عنها في ردهم للثابت منها إذا خالف أهواءهم، واجترأ عليهم عليها قدحاً ورداً!

(١) الاعتصام، للشاطبي (٢/ ١٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٤٣).

ومما نُقِلَ عن عمرو بن عبيد إمام المعتزلة قوله - في رد حديث: (إِنْ أَحَدُكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِي، أَوْ سَعِيدٍ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ)^(١) -: «لو سمعت الأعمش يقول هذا لكذبتَه، ولو سمعته من زيد بن وهب لَمَا صدقته، ولو سمعتُ ابن مسعود يقول هذا لما قبلته، ولو سمعتُ رسول الله ﷺ يقول هذا لرددته، ولو سمعتُ الله يقول هذا لقلتُ: ليس على هذا أخذتَ ميثاقنا»^(٢).

أما ما ينقل اليوم عن طوائف من العلمانيين واليساريين وأضرابهم من رد القرآن والسنة الصحيحة وما دلت عليه من أحكام ثابتة فكثير، وكثير منهم يصرح بأن تلك النصوص لا تصلح لهذا الزمان!

ومن اضطرابهم وفساد منهجهم: التصديق بالقرآن دون السنة، وقد حكى أرباب المقالات عن الخوارج: أنهم يجوزون الكبائر على الأنبياء؛ ولهذا لا يلتفتون إلى السنة المخالفة في رأيهم لظاهر القرآن، وإن كانت متواترة، فلا يرجمون الزاني، ويقطعون يد السارق فيما قل وكثر؛ زعما

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ميزان الاعتدال في نقد الرجال، لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْمَاز الذهبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط ١، ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م (٢٧٨/٣).

منهم - على ما قيل - إنه لا حجة إلا القرآن، وأن السنة الصادرة عن الرسول ﷺ ليست حجة! ^(١).

وعلى هذا المذهب الضال بعض غلاة المعتزلة فقد حكى عبد القاهر البغدادى عن النظامية من المعتزلة قولهم: «يجوز أن تجتمع الأمة على الخطأ؛ فإن الأخبار المتواترة لا حجة فيها؛ لأنها يجوز أن يكون وقوعها كذبا» ^(٢).

وقد وُجد في بعض بلاد المسلمين من ينكر حجية السنة اليوم، ويسمون أنفسهم بـ(القرآنيين)!

ومن ذلك الاضطراب والخلل: إيمانهم ببعض النصوص دون بعض! فهؤلاء الخوارج والمرجئة على طرفي نقيض حين آمن الأولون بنصوص الوعيد، وتركوا الإيمان بنصوص الوعد، فكفروا المسلمين واستباحوا دماءهم وأموالهم.

وأما الآخرون فآمنوا بنصوص الوعد وأهملوا نصوص الوعيد، فقالوا: لا يضر مع الإيمان القلبي معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة. والصواب: الجمع بين نصوص الوعد والوعيد، وتفسير بعضها ببعض، وهكذا فإن من مسالك أهل الانحراف عن الإيمان: التعويل على بعض النصوص، وعدم الالتفات للبعض الآخر.

ومن ألوان الخلل - أيضاً - الاحتجاج بالمتشابه من النصوص على أنه محكم، ورد المحكم بزعم: أنه متشابه!

(١) الصارم المسلول، لابن تيمية (ص ١٨٤).

(٢) أصول الدين، لعبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادى التميمي الإسفراييني أبي منصور، تحقيق: إبراهيم محمد رمضان، دار ومكتبة الهلال، بيروت ٢٠٠٣م (ص ١٨).

وتقديمُ العمل بالمنسوخ على ناسخه!
 وحملُ المقيد على المطلق، والخاص على العام، والمبين على
 المجمل، وكل ذلك انحراف عن منهج النظر الصحيح.
 وهكذا يفسرون النصوص بما وافق مذاهبهم، ولا ينطلقون من النصوص،
 وإنما من فاسد الأهواء وتالف المناهج!

منهج أهل الأهواء في التعامل مع النصوص الشرعية:

لقد عُرف لهم من تلك المناهج في التعامل مع النص الشرعي ثلاثة مناهج
 رئيسة:

الأول: المنهج الحرفي السطحي:

وهو منهج لا يعولون فيه على فهم السلف ولا فقههم لتلك النصوص،
 ولا يتبعون في الاستنباط منه قواعد الصحابة والأئمة، وإنما ما وافق
 عقولهم، أو جارَى أفهامهم! ومن أشد من عُرف ذلك عنهم الخوارج!

الثاني: المنهج التحريفي:

وهو منهج يذهب أصحابه بالنصوص مذاهبَ بعيدة في فهمها، بما
 يخالف - أيضًا - ما فهمه الصحابة والأسلاف الصالحين، وأهل اللسان
 العربي المستقيم، بسبب ما استقر في أذهانهم من أصول فاسدة.
 وقد اشتهر هذا عن الجهمية والمعتزلة، وبعض المتكلمين من المتأخرين،
 وغلاة الصوفية، والشيعة، ومتأخري الخوارج.

الثالث: المنهج الباطني:

وهو منهج الذين يقولون: إن للنصوص معاني باطنة تخالف ظاهرها!
 واشتهر هذا عن فرق ضالة مارقة كالرافضة، وفرق الدروز، والإسماعيلية،

والنصيرية، والفلاسفة وغلاة الصوفية المتفلسفة.

ثالثاً: إحداث أصول جديدة للاستنباط تعارض أصول أهل السنة:

أخطر ما في معارضة الإيمان: إنشاء أصول جديدة تقابل أصول أهل السنة؛ بحيث يُعتمد عليها في العلم والمعرفة، كما يُعتمد عليها في استنباط الأحكام.

ولما أسس المخالفون لمنهج تلقي الإيمان أصولاً مبتدعة ذهبوا إلى تسميتها: (أصول الدين)، ثم صارت مرجعاً في تقرير مسائل الإيمان. ومن تلك الأصول المنحرفة:

١- تقليد المبطلين، أو التقليد الباطل، ومن أمثلته:

تقليد المشركين لأبائهم في الشرك بالله تعالى، وما هم عليه من عمل الجاهلية الأولى، قال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وهذا التقليد كان مانعاً من الدخول في الإسلام، وقد يوجد من التقليد في الإسلام ما هو باطل - أيضاً - وهو يصد عن اتباع السنة!

ومن أمثلته:

عند الإمامية الاثني عشرية:

تقليد الأئمة الاثني عشر بعد زعم عصمتهم، وأنهم في مرتبة فوق النبي والولي والمَلِك!

«ومن ضروريات مذهبنا: أن لأئمتنا مقاما لا يبلغه ملك مقرب، ولا نبي مرسل»^(١).

وعند غلاة الصوفية الباطنية:

مثل ما عند الرافضة من الغلو في تقليد الأولياء والأقطاب بعد ادعاء عصمتهم وارتفاع رتبهم على الأنبياء والمرسلين!

مَقَامُ النَّبُوَّةِ فِي بَرَزَخٍ فَوْقَ الرُّسُولِ وَدُونِ الْوَلِيِّ^(٢)

أما الفلاسفة المنتسبون للإسلام فقد عظموا فلاسفة اليونان تعظيم الرافضة وغلاة الصوفية للأئمة والأولياء!

«فعارضوا الكتاب والسنة بأقوالهم، والعجيب: أنهم ينهون العامة عن تقليد الرسل، ومع ذلك فهم يقلدون رؤوسهم»^(٣).

وهذه مسالك باطلة في معارضة الإيمان، وقد أورثت أصحابها ضلالا بعيدا، وانحرافا عظيما عن دين الله تعالى.

وهكذا فإن «معارضة أقوال الأنبياء بآراء الرجال، وتقديم ذلك عليها هو من فعل المكذبين للرسل، بل هو جماع كل كفر»^(٤).

وكما أن التقليد الباطل للضالين مجمّع على تحريره فإنه - أيضًا - عدوان على العقل، وتهميش لواجبه، وازدراء له، وتضييع لمهامه في النظر والتفكير الصحيح.

(١) الحكومة الإسلامية، للخميني (ص ٥٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٢٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٨٩).

(٤) درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٢٢٠٤).

وقد نصّ علماؤنا: أن كثيراً من الفرق تأثرت بتلك الأصول المنحرفة ومن يمثلها!

قال أبو الحسن الأشعري رَحِمَهُ اللهُ - عن تأثر المعتزلة بالفلاسفة في نفي صفات الله تعالى -: «... وهذا قول أخذوه عن إخوانهم من المتفلسفة الذين يزعمون: أن للعالم صانعا لم يزل ليس بعالم ولا قادر ولا حي ولا سميع ولا بصير ولا قديم!

غير أن هؤلاء الذي وصفنا قولهم من المعتزلة في الصفات لم يستطيعوا أن يُظهروا من ذلك ما كانت الفلاسفة تُظهره، فأظهروا معناه بنفيهم أن يكون للباري علم وقدرة، وحياة وسمع وبصر، ولولا الخوف لأظهروا ما كانت الفلاسفة تُظهره من ذلك، ولأفصحوا به، غير أن خوف السيف يمنعهم من إظهار ذلك»^(١).

٢- تقديس العقل وادعاء عصمته:

والعقل خلق الله، وقد رفع الوحي من قيمته، وأثنى على أهله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٧-١٨].

وإلى أهل العقول اتجه الخطاب في القرآن مرارا، وجرى تقديمهم في السنة، ووقع منهم التقليد الأعمى الذي هو حجاب العقل وغطاء الفهم، ووجه الوحي العقل إلى مجالاته النافعة، وكفه عما لا يطيق الخوض فيه؛ كالخوض في حقيقة ذات الله تعالى، وكنه صفات الله تعالى، وحقيقة القدر، ونحو ذلك مما لا قدرة للعقل عليه.

ولقد وُجد من أهل الإسلام من يهمل العقل، ولا يلتفت إليه ويلغيه، وعُرفت لهم مقالات غريبة عن الإسلام وكتابه؛ كقول بعضهم: «إنه لا تحصل الأصول الكاملة إلا مع غياب العقل بالجنون والسكر والوله!»^(١).
«وكلما كان الشيخ أحمقَ وأجهَلَ كان بالله أعرفَ، وعندهم أعظم»^(٢).
«ومن أراد التحقيق: فليترك العقل والشرع»^(٣).

وقد وُجد من أهل الإسلام من يبالغ في العقل ويقدسه، بل ويؤله؛ كالفلasفة.

أما المعتزلة والجبرية فقدموا ما يعتقدونه عقلا على النصوص الشرعية، بل جعلوا العقل حاكما على الشرع ومقدما عليه، ويجعلونه أصل العلم، وما دونه تبع له!

وزعموا: أن الأنبياء لم يعرفوا من الحق ما عرفوا، أو أنهم عرفوا ولم يبينوا، وأن أهل الإيمان المتبعين للنبي ﷺ وأصحابه وأئمة السلف لم يعرفوا من معاني الوحي ما عرفوا هم بعقولهم!
وربما قالوا: نحن عرفنا الحق بعقولنا، ثم اجتهدنا في حمل كلام الأنبياء على ما يوافق مدلول العقل!^(٤).

واعتقدوا وقوع التعارض الحقيقي بين العقل والنقل؛ ولذلك قالوا: يجب تقديم العقل!، وصالوا على النصوص صولة المحاربين.

(١) مجموع الفتاوى (٣/٣٣٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٢/١٧٤).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/٢٤٣).

(٤) درء تعارض العقل والنقل (١/١٩).

«ومنها... ردهم للأحاديث التي جرت غير موافقة لأغراضهم ومذاهبهم، ويدعون أنها مخالفة للمعقول، وغير جارية على مقتضى الدليل؛ فيجب ردها؛ كالمنكرين لعذاب القبر والصراط والميزان ورؤية الله ﷻ في الآخرة، وكذلك حديث الذباب وقتله، وأن في أحد جناحيه داء، وفي الآخر دواء... وما أشبه ذلك من الأحاديث الصحيحة المنقولة نقل العدول»^(١).

وفي العصر الحديث وُجد من يسمون أنفسهم بـ(العقلانيين)، وما هم إلا أفرار وتلامذة للمعتزلة المتقدمين، وكما عُرفوا بانبهارهم بالفكر الغربي فقد عُرفوا بالجرأة على النصوص ردا لها، واعتراضا عليها، وتحريفا لفهمها، وإنكارا لما ثبت فيها ومنها.

وتارة يسمون عبثهم المعاصر بـ(القراءة الجديدة للنصوص الشرعية)، وتارة بـ(القراءة التأويلية، والحداثية والتجديدية)... إلى آخر تلك المصطلحات التي يخالف ظاهرها باطنها، وحقيقتها: إسقاط النصوص وما دلت عليه! وقد عبر ابن القيم عن نقد ونقض تلك المناهج في القديم بما يصلح أن يكون في الحديث - أيضًا - فقال: «وأنت لا تجد الاختلاف في شيء أكثر منه في آراء المتأولين، وسوانح أفكارهم، وزبالة أذهانهم التي يسمونها: قواطع عقلية، وبراهين يقينية، وهي عند التحقيق خيالات وهمية، وقوادح فكرية، نبذوا بها القرآن والسنة وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، واتبعوا ما يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا»^(٢).

(١) الاعتصام، للشاطبي (٢/ ٣٣).

(٢) الصواعق المرسلة (١/ ٣١٨ - ٣١٩).

٣- الكشف والمنامات ونحوها:

وهذه الطرائق يزعمون من وراءها: اطلاعا على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الخفية، وبهذه الطرائق قال غلاة الرافضة وغلاة الصوفية!

قال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: «اعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية؛ فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون!»^(١).

وقال الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ: «وأضعف هؤلاء احتجاجا: قوم استندوا في أخذ الأعمال إلى المنامات، وأقبلوا وأعرضوا بسببها، فيقولون: رأينا فلانا- الرجل الصالح- فقال لنا: اتركوا كذا، واعملوا كذا، ويتفق مثل هذا كثيرا للمترسمين برسم التصوف.

وربما قال بعضهم: رأيت النبي ﷺ في النوم، وقال لي كذا، وأمرني بكذا، فيعمل بها ويترك بها، فيعمل بها معرضا عن الحدود الموضوعة في الشريعة»^(٢). وربما اعتمدوا ما يسمونه: ذوقا! وهو عندهم نور عرفاني يقذفه الله في قلوبهم!

قال ابن عربي: «والذوق أول مبادئ التجليات الإلهية»^(٣).

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ١٩).

(٢) الاعتصام، للشاطبي (٢/ ٩٣).

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، لزين الدين محمد المدعو عبد الرؤوف ابن تاج العارفين ابن علي ابن زين العابدين الحدادي، ثم المناوي القاهري، عالم الكتب، القاهرة، ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م (ص ١٧٢).

ومثل ذلك - أيضاً -: ما يسمون بـ (الإسراءات والمعاريج)، يقصدون: أن الأولياء تعرج أرواحهم إلى السماء، فينكشف لهم من حجاب المعرفة، ويطلعون على علوم يفسرون بها القرآن، ويشرعون من خلالها الأحكام! وقال الشعراني - من أئمتهم -: «صرح المحققون بأن للأولياء الإسراء الروحاني إلى السماء بمثابة المنام يراه الإنسان، ولكل منهم مقام معلوم لا يتعداه، وذلك حين يُكشف له حجاب المعرفة، فكل مكان كشف له فيه الحجاب حصل المقصود به، فمنهم من يحصل له ذلك بين السماء والأرض، ومنهم من يحصل له ذلك في سماء الدنيا، ومنهم من ترقى روحه إلى سدرة المنتهى! إلى الكرسي! إلى العرش!»^(١).

وزعم بعضهم: أن الولي يعرض إلى ربه فيجالسه، ويكلمه، ويحل فيه! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقد قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ - وهو يعدّد جملة من المكفّرات -: «من ادعى مجالسة الله تعالى، والعروج إليه، ومكالمته، أو حلوله في أحد الأشخاص، كقول بعض الصوفية...»^(٢).

وزاد غلو بعضهم حين زعم: أن ميزان قبول السمعيات موافقتها للكشف والمشاهدة!

وقد رد ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ على الغزالي في هذا، فقال: «هذا الكلام مضمونه: أنه لا يُستفاد من خبر الرسول ﷺ شيء من الأمور التعليمية، بل

(١) كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان، لعبد الوهاب بن أحمد الشعراني، دار الكتب العلمية (ص ٣٤).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض (٢/ ٢٨٣).

إنما يدرك ذلك كل إنسان بما حصل له من المشاهدة والنور والمكاشفة، وهذا أصلان للإلحاد؛ فإن كل ذي مكاشفة إن لم يزنها بالكتاب والسنة وإلا دخل في الضلالات»^(١).

وإذا كان الله تعالى ورسوله ﷺ شهدا لعمر بن الخطاب، وحكم له النبي ﷺ بأنه محدث ملهم، فلن يكون أحد من مدعي تلك الأمور بأفضل من عمر، فعليه أن يسلك سبيل عمر في اتباع الوحي والعمل ببيانه، ولا يجعل ما يرد عليه هو المعيار، والوحي تبعاً لذلك!

٤- التلقي عن عقائد وثقافات غير المسلمين:

مع اتساع دولة المسلمين واكتسابها لحضارات وديانات قديمة، ودخول كثير من أهل تلك الملل في الإسلام بدأت أفكار تتسرب إلى المسلمين من تلك الديانات عبر المسلمين الجدد، وبعضهم لم يحسن إسلامهم، وبعضهم إنما أسلم نفاقاً كما وقع هذا من بعض المجوس واليهود!

كما إن المسلمين ناظروا مخالفيهم في العقيدة في تلك البلاد، واتصلوا بهم شخصياً فكان ذلك - أيضاً - من الروافد!

حتى صار معلوماً: أن ظهور البدع الكبيرة والفرق النارية في الأمة ارتبط بتلك المؤثرات، وعلى رأسها: عقائد أهل الكتاب!

فمثلاً: بدعة القدر وإنكار علم الله تعالى السابق بدعة نصرانية الأصول! قال الأوزاعي رَحِمَهُ اللهُ: «أول من نطق في القدر: رجل من أهل العراق يقال له: سوسن كان نصرانياً فأسلم، ثم تنصر، فأخذ عنه معبد الجهنني،

(١) درء التعارض (٥/ ٣٤٨).

وأخذ غيلان عن معبد»^(١).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ - عن بدعة الحلول والاتحاد-: ومن قال من ضلال المسلمين: إن الله يَتَّحِدُ، أو يَحِلُّ في الأنبياء والأولياء، وإن هذا من السر الذي لا يباح به فقوله من جنس قول النصارى في المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٢).

فعقيدة التشبيه لله تعالى بخلقه مصدرها اليهود!

يقول الشهرستاني رَحِمَهُ اللهُ: «... وزادوا في الأخبار أكاذيب وضعوها ونسبوها إلى النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأكثرها مقتبسة من اليهود؛ فإن التشبيه فيهم طباع، حتى قالوا: اشتكت عيناه، فعادته الملائكة، وبكى على طوفان نوح حتى رمدت عيناه...»^(٣).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عما يقولون علوا كبيرا!

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: - عن تأثر الرافضة والباطنية بالمجوس والصابئة -: «وأخذوا من دين المجوس والصابئة والمشركين ما خلطوه في الإسلام، وهم أعظم الطوائف نفورا عن سنة النبي ﷺ وحديثه وآثار أصحابه لمضادة ذلك لبدعتهم»^(٤).

أما ما جره التأثير بفلاسفة اليونان من البلاء على المعتزلة والجهمية ومن تأثر بهم فقد جرى بذكره الركبان!

(١) شرح أصول الاعتقاد (١٣٩٨).

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية (٤/ ٤٦١) بتصرف.

(٣) الملل والنحل، لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، مؤسسة الحلبي (١/ ١٠٦).

(٤) الصواعق المرسلات (٤/ ١٤٠٦).

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «طالعت المعتزلة- مثل: أبي الهذيل العلاف، والنظام، ومعمر، والجاحظ- كتب الفلاسفة في زمان المأمون، واستخرجوا منها ما خلطوه بأوضاع الشرع، مثل: لفظ الجوهر، والعَرَض، والمكان، والكون...، وأول مسألة أظهروها: القول بخلق القرآن، وحيثذ سمي هذا الفعل: فعل علم الكلام، وتلت هذه المسألة مسائل الصفات»^(١).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ- في معرض نقده لنفاة الخلة والمحبة-: «وأصل قولهم هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة من البراهمة والمتفلسفة ومبتدعة أهل الكتاب الذين يزعمون: أن الرب ليس له صفة ثبوتية أصلاً، وهؤلاء هم أعداء إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَام، وهم يعبدون الكواكب، وينون الهياكل للعقول والنجوم وغيرها، وهم ينكرون في الحقيقة أن يكون إبراهيم خليلاً، وموسى كليماً»^(٢).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ- في بيان التأثير بالرهينة والفلسفة-: «ولما كانت الفلاسفة قريباً من زمان شريعتنا، والرهينة كذلك مد بعض أهل ملتنا يده إلى التمسك بهذه، وبعضهم مد يده إلى التمسك بهذه، فترى كثيراً من الحمقى إذا نظروا في باب التزهد ترهبنا، فنسأل الله ثباتاً على ملتنا، وسلامة من عدونا»^(٣).

وبعد ذكر تلك الأنواع من معارضات الإيمان والتي يجمعها اسم

(١) تلبس إبليس، لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م (ص ٨٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٧).

(٣) تلبس إبليس (ص ٤٧).

الأهواء، فإن الحجة تقوم بالكتاب العزيز والسنة المطهرة؛ لذا ففيهما الكفاية لمن أراد الهداية، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِيَّاكَ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وقال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال جلَّ وعلا: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

فالكفاية والهداية والشفاء في اليقين بما أنزل الله في كتابه، وما أجراه على لسان نبيه من السنة المطهرة.



البَابُ السَّابِعُ

آفات وخوارم الإيمان

الفصل الأول: ضعف الإيمان.

الفصل الثاني: نواقض الإيمان.

الفصل الثالث: قواعد الإيمان.

الفصل الرابع: قواعد إجراء الأحكام.

الفصل الأول ضعف الإيمان



من المعلوم أن لكلَّ عَمَلٍ شِرَّةً، ولكل شِرَّةٍ فترةٌ، والإيمان كما يزيد ينقص، والعبد كلما طال عليه الأمد تعرَّض قلبه لقسوةٍ، وحصلت لروحه وحشةٌ، وإذا كانت زيادة الإيمان ونقصانه لا يخلو منها أحدٌ؛ فإنَّ ضعف الإيمان هو استمرارٌ لنقص الإيمان، واستمرارٌ لحالة الغفلة، وامتدادٌ لشأن القسوة، وبقاءٌ لمنسوب الإيمان في سفح هابط.

شكا حنظلة الأسدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنبي ﷺ، فقال: «نافق حنظلة يا رسول الله، فقال ﷺ: وَمَا ذَاكَ؟! قال: قلت: يا رسول الله، نكون عندك تُذَكِّرُنَا بالنار والجنة حتَّى كأنَّا رأي عينٍ، فإذا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، فقال ﷺ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ تَدُوْمُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحْتُكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ، وَفِي طُرُقِكُمْ، لَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ، سَاعَةً وَسَاعَةً، سَاعَةً وَسَاعَةً، سَاعَةً وَسَاعَةً»^(١).

وهذه الحال إذا طرأت، فدافعها المؤمن لم تضره - بإذن الله - وإنما تضرُّ إذا ساكنها وعاشها وعاش بها؛ ذلك لأنه يهبط ويتخبَّط في إيمانه، ويضطرب في قلبه، ويظهر ذلك على جوارحه.

إنَّ الإيمانَ في حقيقته مصدر الطاقة المتجددة، والقوة الدافعة، والعصمة

(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٠).

من الضعف النفسي، بل والبدني أيضًا!
وقد كان النبي ﷺ يُحذّر من أسباب الضعف والنقص والقصور
الإيماني، ويبيّن خطر المعاصي على الإيمان، وضررها على الإنسان، وقال
ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ
وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»^(١).

وبيّن: أنّ للمعاصي عقوبات، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَحُكُمْ مِنْ
مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقد روي قوله
ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا مِنْ حَدْثٍ عَوْدٍ، وَلَا اخْتِلَاجٍ عَرِيقٍ، وَلَا
نَكْبَةٍ حَجَرٍ، وَلَا عَثْرَةٍ قَدَمٍ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَمَا يَعْفُو اللَّهُ عَنْهُ أَكْثَرُ»^(٢).

مظاهر وأعراض ضعف الإيمان:

إنّ حزمةً من الأعراض والمظاهر تدل على امتداد حالة ضعف الإيمان،
واتساع دائرتها في حياة الإنسان، ومن تلك الأعراض ما هو قلبيّ، وما هو
عمليّ، فمن تلك الأعراض القلبية:

١- قسوة القلب، وعدم تأثره بالذكر، وفُقدان لذة الإيمان، وحلاوة الطاعة:

فلا العين تدمع، ولا القلب يخشع! وربّما اشتغل العبد بطاعةٍ لينتفع بها
غيره، ويستفيد منها سواه، فيتعلم لينتفع غيره، ويعظ ليعتبر سواه، ﴿فَوَيْلٌ
لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

٢- الاستهانة بفوات الطاعة:

فلا يتألّم القلب لفوات صلاة الجماعة، وحلقة التعليم، ونوافل الصلوات،

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه وكيع في الزهد (٩٣)، وهناد بن السري في الزهد (٤٣١)، مرفوعاً وموقوفاً.

ولا يضطرب قلبه عند ضياع مواسم الخيرات، وربما شعر القلب الغافل براحه عند فوات شيء من المستحبات!

٣- ضعف إرادة التوبة، وقلة المسارعة إلى الأوبة، والصُّدود عن إبداء ندم قلب غافل، وفؤاد عن نفعه ذاهل:

وتسويفُ التوبة من أعظم الاغترار، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

٤- الخوف من كل شيء، ومن لا شيء:

ذلك أنَّ مَنْ لم يخفِ الله خاف ممّا سواه، ومن خاف الله خاف منه ما عداه، وما الأمان إلا ثمرة الإيمان ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، أَمِنَ فِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَالضَّمِيرِ.

٥- الكآبة، وضيق الصدر، والقلق، والهَم:

وهي عقوبةُ كان النبي ﷺ يستعِذ بالله منها، فيقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ»^(١)، وكل مَنْ كان بالإيمان متحققاً كان صدره بالذكر منشراحاً ومطمئناً، إذا: الغموم والهموم عقوبات عاجلة، ونار حاضرة، يَصْلَاهَا مَنْ أَدْبَرَ قَلْبُهُ عَنْ رَبِّهِ، وانشغل بما يضرُّه.

أما مظاهر الضعف العملية، فمنها:

١- فَقْدَانُ الْوَرَعِ، والميل إلى الرُّخْصِ، وطلب الأيسر والأسهل من الأحكام بِغَضِّ النَّظَرِ عَنْ الْأَحْوَطِ فِي الدِّينِ:

وهُنَا يَفْقِدُ الْإِنْسَانُ حَسَاسِيَّتَهُ تَجَاهَ الشُّبُهَاتِ، فَيُنْزِلُهَا مَنْزِلَةَ الْمُبَاحَاتِ، وَيَتْرَكُ مُحَاسِبَةَ نَفْسِهِ عَلَى تَحْرِيرِ الْحَلَالِ، وَالبعد عن الحرام في مأكَلٍ، ومشربٍ، وملبسٍ، وتعاملاتٍ.

(١) أخرجه البخاري (٢٨٩٣) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهذا يعني: إنزال المكروهات منزلة المباحات، والتوسّع في ارتكابها، والتوسّع في المباحات إلى حدّ الإسراف، أو التبذير المذموم!

٢- التّهاون بالآداب والسّنن:

فلّا يبالي بما فات منها، ولا يستدرك ما غاب عنه منها، ولا يسعى للمواظبة والمحافظة عليها، ويضعف طلب الأجر عليها، ولا يبالي بالحرّج الذي يلحقه في دينه حين يتركها، ولا الدرجات التي تفوته في الجنة، والفارق بينه وبين أهل قوة الإيمان واسع شاسع.

قال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عند موته، وقد بكى فسئِلَ عن ذلك، فقال:-
«إنّما أبكي على ظمأ الهواجر، وقيام ليل الشتاء، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلّق الذكر»^(١).

٣- التّكاسل عن الواجبات، ومواسم الخيرات:

فيتأخّر عن الصلوات، ولا يهتم بمواسم الطاعات؛ كعشر ذي الحجة، وعشر رمضان الأواخر، وليلة القدر، ونحوها، وربما أخر الحجّ مع قدرته، وتكاسل عن صلاة الليل مع إمكانه، وعن صلوات الكسوف والعيدين، ونحوها.

وربما أخر المكتوبات، وفرّط في كثير من الطاعات والحسنات، وأسوأ من هذا: أن ينظر إلى المجتهد في طاعة الله نظرة تصغير، أو تحقير، أو تهوين لأجل عنايته بطاعة الله فرضاً ونفلاً.

٤- الوقوع في المعاصي، والمُجَاهرة بها:

ولو لم يكن لها من عقوبة إلا الحرمان من الطاعة لكفى، وأسوأ من

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠٣/٥).

ذلك: المجاهرة بالمعصية والتمدح بها، والافتخار بإتيانها، ولا يُؤمن على من هذه حاله أن يُختم على قلبه، وأن يُطبع عليه، فيستحوذ عليه الشيطان. وفي الحديث: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَاْفِي إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهِرَةِ: أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ»^(١).

٥- الركون إلى الدنيا، والرضا بالتقصير:

الركون إلى الدنيا، والرضا بالتقصير والضعف، والاعتذار بغرورها من أظهر مظاهر ضعف الإيمان، وقد قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

وفي الحديث: «فَوَاللَّهِ، مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسِطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكْتَهُمْ»^(٢).

٦- الانقطاع وعدم الصبر:

وذلك يُعرف بالانقطاع عن أعمال خيرٍ اعتادها، وأخلاقٍ رفيعةٍ وتضحياتٍ وبذلٍ، وصبرٍ على كثيرٍ من الجهد والاجتهاد في طاعة الله تعالى، ويلتحق بهذا المعنى: استبدالُ الذي هو أدنى بالذي هو خير من قتل الوقت فيما لا نفع فيه، وما مضرت راحته، وتركٌ للتواصي بالحق، وبذل للجهد مع أهل الدعوة والخير، وتوَلَّى عن درب الدعوة إلى الله، وتركٌ للوفاء، وتنكر للرفقاء!

وما أشبه حاله بما ذكر الله في كتابه: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ۖ وَاعْتَدَى قَلِيلًا

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٩)، ومسلم (٢٩٩٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٠١٥)، ومسلم (٢٩٦١) من حديث عمرو بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَأَكَّدَى ﴿٣٤﴾ أَعْنَدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى
وَأَبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٦﴾ [النجم: ٣٣ - ٣٧].

٧- تبدُّل السَّمت والهدى:

حين يضعف الإيمان، ربما لا يشعرُ به صاحبه، ثم في مرحلةٍ تاليةٍ يعرف التحوُّلُ أهلُ البصيرة وصادقُ الفِرَاسَةِ، ثم يظهر التبدُّل للعيان، ويلحظه كلُّ إنسانٍ!

فَمَا أَسْرَّ عَبْدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَلْبَسَهُ اللَّهُ رَدَاءَهَا عَلَانِيَةً؛ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ!

قال تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وهذا السَّمت السيئ جزاء دنوي قبل الأخرى، ولعله أن يكون رادعاً لصاحبه عن تقصيره، فتبدُّل الحال، وتغيُّر الأمر عن سيما أهل الصلاح عقوبةٌ لمن تدبَّر!

٨- عدم الاهتمام بقضايا المسلمين:

فلا يتفاعل معها كثيرٌ ممَّن ضعف إيمانهم بدعاء، أو بصدقة، أو بعبادة، فهو لا يشعر بأدنى مسئولية تجاه أهل الإسلام.

وفي الحديث: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ؛ يَأْلَمُ الْمُؤْمِنُ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ كَمَا يَأْلَمُ الْجَسَدُ لِمَا فِي الرَّأْسِ»^(١).

وقد قال ذو النُّون المصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثَلَاثٌ مِنْ أَعْلَامِ الْإِيمَانِ: اغْتِمَامُ الْقَلْبِ بِمَصَائِبِ الْمُسْلِمِينَ، وَبَذْلُ النَّصِيحَةِ لَهُمْ مُتَجَرِّعًا لِمَرَارَةِ ظَنُونِهِمْ، وَإِرْشَادُهُمْ إِلَى مَصَالِحِهِمْ وَإِنْ جَهِلُوهُ وَكَرَهُهُ»^(٢).

(١) أخرجه أحمد (٢٢٨٧٧) من حديث سهل بن سعد الساعدي رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (١٠٦٩٦).

ضعف الإيمان عند الفضلاء والدعاة:

ضَعُفُ الإيمان ليس قاصرًا على العامة، بل قد تَسَرَّبَ صورٌ منه إلى الخاصة، وقد تُعَرَّفَ بعض مظاهره لدى بعض الدُّعاة.

من مظاهر ضعف الإيمان عند الدعاة والفضلاء:

فبالإضافة إلى ما ذُكِرَ من مظاهر، فيختصُّ الفضلاء بمظاهرٍ، منها:

١- اشتغال بعضهم بالناس، وإهماله لنفسه؛ تربيةً وتأديبًا وحملاً على نوافل العبادات.

٢- تحوُّل الدعوة والتعليم إلى حرفةٍ وصنعةٍ، لا قرينة ودعوة، وضعف استحضار الأجر الأخرى أثناء ممارسة العمل الدعوي، أو العلمي، أو السياسي.

٣- ضعفُ الانضباط بالعمل الجماعي، والرغبة في الانفراد، وعدم التَّطَوُّع إلا فيما يوافق أهواء النفوس، والتنقُّل بين المدارس الدعوية لا بحثًا عن حقٍّ، ولكن لشهوةٍ في النفس.

٤- سَرِيانُ رُوحِ التحاسد والتدابير والتباغض، والفرح بخطأ المخالف من الدعاة وطلبة العلم، وإظهار اللُّوم في ثياب النصِّح والنقد، مع المطالبة بعدم اتِّهام النوايا.

٥- التعصُّب والتَّحزُّبُ الأعمى لمدرسةٍ، أو دعوةٍ، أو شيخٍ، أو رايةٍ داخل إطار أهل السُّنة والجماعة، وأشدُّ من هذا: الوقوعُ في حبائل الفرق المنحرفة، ثم التعصُّب لمناهجها ومسالكتها!

من أسباب ضعف الإيمان عند الدعاة والفضلاء:

مظاهر ضعف الإيمان لدى الدعاة لها أسبابها ودوافعها المتعددة، فمن

ذلك:

١- النشأة في بيئة غير متديّنة، أو البعد عن المحاضن التربوية والمجالس الإيمانية، ومخالطة أهل الدنيا المتنافسين على حُطامها.

٢- طول الأمد في ذلك مدعاة الضعف والقسوة من غير شك.

قال تعالى: ﴿الَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

٣- قد تُمارس حملات الإعلام المضلل ضغطاً في البيئة التي يعيش فيها المسلم، وقد يمارس مثل ذلك علماء مُضللون، ودعاة منحرفون، ورموز مفتونون داخل المجتمع، وللبيوت والأسر والعائلات والوالدين أثر لا يُنكر في ذلك.

٤- وللجلّيس السوء، والرفيق الطالح عكس أثر الجلّيس الصالح في الصّد عن الخير، والإبعاد عن الهدى، وهذا قريب من تسلّط الشيطان على الإنسان.

﴿كَأَلَيْهِ اأَسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَان لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى اأَتَيْنَا﴾ [الأنعام: ٧١].

٥- قد تحصل تلك الحالة كردّة فعل، أو صدمة واقعية تعرّض لها الإنسان في بيئته بضغط، أو ظلم، أو قهر لأهل الإيمان، وتسلّط لأهل الطغيان، أو بسبب هزة إيمانية عميقة برؤية بعض أهل القدوة والأسوة على حال من التفريط والضعف، وقد يرجع ذلك لفهم غير صحيح لطبيعة الحياة والابتلاء فيها، وما يلقاه أهل الإيمان من تحديات وفتن في الأموال والأنفس والأهل والولد، مع ضعف المُعين، أو افتقاد الناصر في ظلّ تربية تربط الشخص بالشخص دون الحق والمنهج الصواب.

٦- كُلُّ إِفْرَاطٍ قَدْ يَعْقِبُهُ تَفْرِيطٌ، فَالْغُلُوُّ وَرِدَّاتُ الْفِعْلِ الَّتِي تَكُونُ بِسَبَبِهِ تَعْقِبُ حَالَةً مِنَ التَّسَاهُلِ وَالضَّعْفِ وَالْفَتُورِ؛ وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ!»^(١).

وقال: «هَلَكَ الْمُتَتَطُّعُونَ» ثلاثاً^(٢).

التعافي من ضعف الإيمان:

إن الوقاية من ضعف الإيمان أهمُّ من علاجه، وقد قال بعض السلف: «من فقه العبد: أن يعلم أيزداد إيمانه، أم ينقص؟ وإنَّ من فقه العبد: أن يعلم نزغات الشيطان من أين تأتيه؟»^(٣).

وهذا يتطلب يقظةً وحذرًا من الضعف وأسبابه، ومداومةً لمحاسبة النفس على التقصير.

ومن الأهمية بمكانٍ إذا ضعف العبد عن بعض العمل، ونقص إيمانه: أَلَّا يُخْلَ بواجبٍ، أو يقع في محرم، وقد قال ﷺ: «لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةٌ، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى سُنَّتِي فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ»^(٤).

وعليه؛ فالخطر يكمنُ في استدامة الضعف المخَّل بالواجبات والمحرمات؛ تركًا وفعلاً.

(١) أخرجه أحمد (٣٢٤٨)، وابن ماجه (٣٠٢٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٠) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، لأبي القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، دار طيبة، السعودية، ط٨، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م (١٧١٠).

(٤) أخرجه أحمد (٦٧٦٤) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ومما ينبغي التنبه إليه: أن علاج ضعف الإيمان، والتعافي من مظاهره يبدأ بمعرفة أسباب المرض وأعراضه، فمن توقَّى أسباب المرض، وعارض عوارضه، وعمل على مُضادَّتها، وسعى لتجديد الإيمان في قلبه وعمله، وأخلص في دعاء ربِّه أن يجدد الإيمان في قلبه، واستكثر من الدُّعاء في سجوده بالافتقار والاضطرار؛ فإنَّه حَرِيٌّ بالإجابة والعلاج بتجديد الإيمان؛ إجمالاً واختصاراً.

والعودةُ إلى حالة من صحة وتجديد وقوة الإيمان قد تكون تدريجيَّة كما كان الانحدار تدريجيًّا، وهذا هو الأغلب، ولا يمتنع أن تحدث أمورٌ قدريةٌ، أو طارئةٌ تكون سببًا في زيادة الإيمان، وصلاح الإنسان، وإن كان هذا على خلاف الأصل.

وعليه؛ فلا بدَّ من صدقِ عزيمةٍ، وتوطين النفس على المجاهدة، وتقوية شأن المراقبة، والسعي في إزالة قسوة القلب.

وسائل تجديد الإيمان:

لا بدَّ من بيانٍ تفصيليٍّ لوسائل وأسباب تجديد الإيمان، وهي تتمثل فيما يلي:

١- ذكر القلب:

فَقَسْوَةُ الْقَلْبِ لَا يُذِيْبُهَا مِثْلُ الذِّكْرِ، وَأَعْظَمُ الذِّكْرِ: الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، وَضَعْفُ الْإِيمَانِ مَرَضٌ قَلْبِيٌّ، وَعِلَاجُهُ عِلَاجُ رَبَانِيٍّ!

قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وكيفيَّة تعاطي هذا العلاج يكون بالتدبر والخشوع، والتفكير والتأمل،

وبالخوف والخضوع، والبكاء والندم.

ولبعض السُّور والآيات خواص عجيبة في أثرها على النفوس الرقيقة، وقد شَيَّبَت سورٌ معلومةٌ نبيَّنَّا ﷺ، وذكر منها: هود، والواقعة، والمرسلات، وعمَّ يتساءلون، وإذا الشمس كورت^(١).

ولقد قام المصطفى ﷺ الليل بآيةٍ يُرَدِّدها حتى أصبح: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

ويُصَلِّي الصَّديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالناس فلا يكاد يفهم منه القرآن لشدة بكائه. ويسمع عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [الطور: ٧] فلا يتمالك من البكاء، ويعتريه المرض، ويُسمَعُ نَشِيجُهُ خَلْفَ الصَّفُوفِ لَمَّا تَلَا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

وبعد القرآن يأتي ذكرُ الله على رأس أسباب إزالة قسوة القلوب، فَمَنْ لَزِمَ القرآن تلاوةً وتدبراً، والذكرَ استكثاراً ودواماً لان قلبه، وذهبت قسوته، وتهيا للصالحات.

٢- المسارعة بالأعمال الصالحة:

فالعَمَلُ الصَّالِحُ يَزِيدُ الْإِيمَانَ، ويقوي الجنان، ويستصلح الأركان، فمن رَقَّ قلبه، وانشرح صدره سارع إلى الصالحات، يطلب المغفرة والجنات ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وفي الحديث: «التَّوَدُّةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا فِي عَمَلِ الْآخِرَةِ»^(٢). وَمَنْ وُقِّفَ للصالحات استكثر منها مجتهداً فيها ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ مَا

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨١٠) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَهْجُونَ ﴿ الذاريات: ١٧ ﴾، ﴿ تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السجدة: ١٦].

وَمَنْ كَمَلَتْ عَلَيْهِ النعمة داوم على الصالحات أبداً ﴿ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩].

و«أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ»^(١)، «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»^(٢).

فلا تفريط في الأوراد والأذكار والعبادات مع الاشتغال بعظائم المهمات، ولا فتور عن الطاعات.

فإن فات من الطاعة المندوبة شيءٌ بادر الإنسان باستدراكه وقضائه «مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ، أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ، فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الظُّهْرِ كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ»^(٣).

وقد قضى النبي ﷺ ما فاته من نافلة الظهر بعد العصر، وكلُّ تلك الطاعات يصحبها رجاءُ القبول، وخوفُ الرَّد؛ ذلك أن تلك الأعمال لا تصلح لقدر ذي الجلال سبحانه!

وقد قال نبينا ﷺ: «لَوْ أَنَّ رَجُلًا يَخِرُّ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ يَوْمٍ وَلَدَ إِلَى يَوْمٍ يَمُوتُ هَرَمًا فِي مَرَضَةٍ اللَّهُ لَحَقَّرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٤).

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٤)، ومسلم (٢٨١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٧٤٧) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه أحمد (١٧٦٥٠) من حديث عتبة بن عبد السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٣- الموازنة بين الخوف والرجاء:

ملازمة حال الرغبة والرغبة، فرهبة من سوء الخاتمة، ومن عذاب الله،
وَمِنْ رَدِّ العمل، وعدم القبول، ومن المؤاخذة على ما فرط وسلف من
السيئات، ومن منازل أهل النار، ومن حال أهل دار البوار!
ورغبة في رحمة الله، ورجاء في عفو الله، واستبشار بفضل الله، ورغبة في
منازل أهل الجنة، ودرجاتها العلية، وفرح بفضل الله.

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

٤- التفكير في الموت وما بعده:

ومما يُعين على الثبات والدوام: ذكر الممات، وانتظار هادم اللذات،
ومُفَرِّق الجماعات، وزيارة عسكر الموتى، والتفكير في أحوالهم ومآلاتهم.
والتفكير في حقارة الدنيا، وسرعة زوالها، وانقضاء لذاتها ﴿وَمَا الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]، وهي كما أخبر النبي ﷺ: «الدُّنْيَا
مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذَكَرَ اللَّهَ، وَمَا وَالَاهُ، وَعَالِمًا، أَوْ مُتَعَلِّمًا»^(١).
ولا يُغني عن ابن آدم أن يُمتنع في الدنيا زمنًا ولو طال، ثم يصير إلى ما لا
يزول من العذاب.

﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ
عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧].

٥- تعظيم حرمان الله:

سواء أكانت في الشعائر، أو الأماكن، أو المواسم ﴿وَمَنْ يُعْظِمْ شَعَائِرَ

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

اللَّهُ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿ [الحج: ٣٢]، ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠].

خَلَّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التَّقَى
وَاصْنَعْ كَمَا شِ فَوْقَ أَرْ ضِ الشُّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى^(١)

ولا بد من لزوم جماعة أهل التقوى والصلاح، تواصياً معهم بالحق والصبر، وتجديداً للعزم معهم على العطاء، والبذل، والذكر، والشكر. وقد كان الواحد من السلف إذا جلس إلى إخوانه انتفعوا برؤيته، فضلاً عن كلامه وعمله، فهؤلاء من الذين إذا رُؤوا ذُكِرَ الله تعالى، والعبد في هذه الحياة قليل بنفسه، كثير بإخوانه؛ «فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذُّبُّ الْقَاصِيَةَ»^(٢).

٦- محاسبة النفس:

إن محاسبة النفس أمانٌ من التقصير، وضمانٌ من الضعف والتفريط. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]. قال الحسن رحمه الله: «إِنَّ الْعَبْدَ لَا يَزَالُ بِخَيْرٍ مَا كَانَ لَهُ وَاعْظُ مِنْ نَفْسِهِ، وَكَانَتِ الْمَحَاسِبَةُ مِنْ هِمَّتِهِ»^(٣).

فمن تفقد نفسه، وحاسبها على النقيير والقطمير اليوم خفَّ حسابُه غداً، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَتَرَ عَنِ الْخَيْرِ عِزُّهُ، واستُدْرَجَ إِلَى وَهْدَةِ الضعف والتقصير.

(١) ديوان ابن المعتز، لعبد الله بن محمد المعتز بالله الخليفة العباسي، دار صادر، بيروت (ص ٢٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٥١٤)، وأبو داود (٥٤٧) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) إغاثة اللفهان، لابن القيم (١/ ٧٨).

وهذه المحاسبة تُعِينُ على تجديد التوبة كل ليلة.

٧- وأخيراً: على الدعاة وطلبة العلم أمور:

ولخصوص الدعاة وطلبة العلم أمورٌ تُعِينُ على دفع غائلة الضعف في أثناء ممارسة الأعمال، فمن ذلك:

تعلم الإنصاف، والتقيد بآدابه، والاحتكام إلى العدل في كل قول وفعل، والاجتهاد في تصفية القلوب من دغل التحاسد والتغاير، والاجتهاد في طلب الوسطية في الخلطة والعزلة، وحب الاتباع، والإعراض عن المخالفين، وتضخيم الأخطاء، أو تهوينها.

مع صرف مزيد العناية لتأصيل منهج السلف في الإصلاح والتغيير، والعلم والعبادة، وتعاهد القلوب، وسلامة الصدور، والتحرر من الغلو والتشدد، ومن الإفراط والتسيب.

فاللهم جدد الإيمان في قلوب عرفتك وأحبتك، وإن خالفت إلى معصيتك، إلا أنها لا تعبد غيرك، ولا ترجو سواك، ولا تتوكل على غيرك.



الفصل الثاني نواقض الإيمان

مضى أن الإيمان اعتقاد قلبي، وقول لفظي، وفعل عملي، فهو اعتقاد وقول وعمل، وهذا متفق عليه بين السلف، وأن حقيقة الإيمان الذي أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهِ عِبَادَهُ مُرَكَّبَةٌ من هذه الأجزاء، كما تتركَّب حقيقة الإنسان من الجسد والروح، وأن العبد يدخل في الإيمان بشهادة التوحيد اعتقادًا لها، ونطقًا بها، وأنه كما يدخل بذلك في الإيمان، قد يخرج منه بالكفر والشرك والنفاق، عيادًا بالله تعالى!

وأنه كما تنتقض طهارة العبد بنواقض معلومة، فكذلك الإيمان ينتقض بمبطلات ونواقض معلومة، وتُسمَّى: المكفَّرات.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

ولمَّا كان الإيمان اعتقادًا وقولًا وعملاً، فإن المُكفَّرات كذلك: اعتقادات، وأقوال، وأفعال، حَكَمَ الشرع أنها تُخرج العبد من الإيمان، وتُوجب له الخلود في النيران.

وعليه، فإن نواقض الإيمان: قلبية، وقولية، وعملية.

وقد جرى التعبير عن تلك النواقض في الكتاب الكريم، والسنة المطهرة بأسماء متعددة؛ هي: الكفر، والشرك، والفسق، والظلم، والنفاق.

تقسيم الكفر إلى أكبر وأصغر:

تنقسم المكفرات السابق ذكرها إلى أكبر وأصغر، فأما الأكبر منها جميعاً فيُخرج صاحبها من ملة الإسلام، ويرفع عن دمه العصمة، وبعد إقامة الحجة ورفع الشبهة تجري عليه أحكام الكفار المرتدين في الدنيا، ويُحكم في الآخرة بخلوده في النار إن مات على رِدِّته.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وأما الأصغر منها جميعاً وسائر المعاصي والسيئات، فتُنقص الإيمان ولا تبطله، وصاحبه من أهل الملة في الدنيا والآخرة، وهو ممن تُدرّكه الشفاعة يوم القيامة.

نواقض الإيمان القلبية:

نواقض الإيمان القلبية: هي اعتقادات باطلة يخرج بها العبد من الإسلام، ومنها:

- اعتقاد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ثالث ثلاثة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

- اعتقاد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو المسيح ابن مريم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

- نسبة الصاحبة والولد لله تعالى، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضُ أَنْ يَكُونَ لَهُ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَحْبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿[الأنعام: ١٠١].

وقال ﷻ: ﴿وَأَنَّهُ، تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَحْبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣].

وقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَسَتْ لَهُمُ اللَّهُ أَنْفٌ يُؤَفَّكَوْنَ﴾ [التوبة: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

- إنكار وجود الله سبحانه وتعالى، أو الشك فيه، أو الإلحاد في آياته سبحانه وتعالى.
قال سبحانه: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَّ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠].

- اعتقاد أن أحداً يخلق أو يرزق أو يملك الكون مع الله سبحانه وتعالى:

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَيَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦].

- اعتقاد أن أحداً يعبد مع الله سبحانه وتعالى، قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُوتُ ۖ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۖ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۖ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مِمَّا عَبَدْتُمْ ۖ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۖ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۚ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

- اعتقاد أن أحدا يملك أن يُشرّع من دون الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١].
وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠].
وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].
وقال تعالى: ﴿وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].
- إنكار وجود الملائكة، أو الرسل، أو الكتب، أو أحدها، وإنكار اليوم الآخر أو القدر.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].
وقال سبحانه وتعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثَ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثَنَّهُ ثُمَّ لَنْنبُوَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

وقال سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمُنُ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴿[النساء: ١٥٠ - ١٥١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ [السجدة: ١٠].

- إظهار الإيمان واستبطان الكفر هو النفاق الأكبر، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظُنُّوا السُّوءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَعَصَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

- إنكار ختم النبوة، أو اعتقاد جواز النبوة بعد ختمها.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

- التكذيب بالقرآن الكريم، أو جحده، أو جحد بعضه، قال تعالى: ﴿وَمَا يَجْعَلُ فِيهَا مَائِكَةَ لَتَأْتِيَنَّهَا أَلَكُفْرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧].

وقال سبحانه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ [سبا: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ [فصلت: ٢٦].

- كراهة الإسلام، وبُغض شريعته وأحكامه، قال سبحانه وتعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٩].

وقال تعالى: ﴿بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَكَثُرَتْ لَهُمْ لِحِقَ كَرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠].

نواقض الإيمان القولية:

وهي ألفاظ وعبارات صريحة في دلالتها على الكفر، ومنها:

- سبُّ الله سبحانه وتعالى، أو سبُّ كتابه الكريم، أو نبيه ﷺ، أو أحدٍ من أنبيائه، أو الاستهزاء بشيءٍ من ذلك، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّمَا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤].

- الدعوة إلى العلمانية، والدعوة إلى وحدة الأديان، أو ادّعاء صحة التدين بأي دين كان، أو الدعوة إلى المذاهب الكفرية الإلحادية أو الباطنية، قال تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور: ٤٨ - ٥٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقال سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقال سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

وقال سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٠].

وقال سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ﴾ [محمد: ٢٦].

نواقض الإيمان العملية:

وهي الأفعال والتروك التي ثبت بالأدلة الشرعية القطعية أنها كفر أكبر تخرج صاحبها من الإسلام؛ ومنها:

- اتخاذ الأنداد من دون الله ﷻ، وصرف العبادة لغير الله ﷻ:

قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ
إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

- ممارسة التشريع من دون الله ﷻ - تحليلاً وتحريماً - وتبديل الشريعة،
وترك الحكم بالشريعة.

قال تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ
دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا
وَاحِدًا إِلَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وقال ﷻ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾
[الشورى: ٢١].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِیَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ
يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا بُدَّيْلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٦٤].

- الاستهانة العملية بالقرآن الكريم، والعبث بالمصحف؛ كأن يجعله
تحت قدميه، أو يمزقه ويحرقه، ويُلقيه في القاذورات، أو يضيف إليه، ويحذف
منه، أو يسعى لتغييره وتبديله، والإجماع منعقد على تعظيمه، وكفر من امتنه
قصداً وعمداً.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٨٠].

وكما أنَّ هناك نواقض متفق عليها، فهناك ما هو مختلف فيه؛ كترك الصلاة تكاسلاً من غير جحودٍ لفرضيتها.

وقد تجتمع النواقض الاعتقادية والقولية والعملية بحق شخصٍ واحدٍ، وقد يجتمع لديه الاعتقادي والعملي، أو الاعتقادي والقولي، وكل كفر ظاهر فلا بد من اشتماله على معنى كفري باطن، كالكبر أو الجحود أو الشك أو الإعراض أو الاستهانة أو غير ذلك، إذ بين الظاهر والباطن تلازم لا يتخلف إلا لمانع.



الفصل الثالث

قواعد الإيمان



كما أن هناك نواقض تنقض الإيمان فهناك نواقص تنتقصه وتقبح فيه وتذمه، وإن لم تذهب به من أصله.

وتلك القواعد والخوارم إنما هي أقوال وأفعال واعتقادات حكم الشارع الحكيم بأنها تنقص الإيمان ولا تنقصه.

فجامع تلك القواعد: أنها مخالفات متفاوتة في الإثم، وهي نوعان: النوع الأول: مخالفات في الحقيقة والصورة، وهي: الشرك الأصغر، والكبائر، والصغائر.

النوع الثاني: مخالفات في الحقيقة، وإن ظنها أصحابها مشروعة في الحقيقة والصورة، وهي: البدع بأنواعها المختلفة، سواء الحقيقية والإضافية، أو الاعتقادية والعملية، باستثناء البدع المكفرة.

وفيما يأتي بيان عن تلك القواعد والخوارم:

النوع الأول: مخالفات في الحقيقة والصورة:

أولاً: الشرك الأصغر:

هو ما ورد في النصوص الشرعية تسميته شركاً ولم يبلغ حد الشرك الأكبر، فهو كالوسيلة إلى الشرك الأكبر وكالذريعة إليه.

وهو من أعظم الكبائر وأخطرها، وتعلقه بالإيمان وقدحه فيه ظاهر.

وهذا النوع من الشرك لا يخرج معه صاحبه من الإسلام، ولا ينتفي عنه أصل الإيمان، ولا يحبط جميع عمله، وإنما يحبط ما اقترن به الشرك الأصغر من العمل.

وصاحب هذا النوع في الآخرة داخل تحت مشيئة الله تعالى، إن لم يتب في الدنيا قبل موته، فإن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه، ولو عذبه لم يخلد في النار، وتناله في الآخرة شفاعة الشافعين.

ويفرق بين الأكبر والأصغر بأمور، منها:

صريح النص عليه بأنه أصغر، وذلك كقوله ﷺ: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ: الشُّرْكَ الْأَصْغَرُ»^(١).

وما فهم الصحابة من النصوص الشرعية أنه أصغر، أو دون الأكبر.

كقوله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ وَأَشْرَكَ»^(٢).

ومما يدل على أنه شرك أصغر: مجيئه منكراً غير معرّف؛ كقوله ﷺ:

«إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتَّوَلَةَ شِرْكَ»^(٣).

والشرك الأصغر قسمان:

الأول: شرك خفي.

الثاني: شرك ظاهر.

فأما الخفي: فيتعلق بالنيات، وهو أن يقصد بعمله، أو ببعضه الرياء

والسمعة، أو يريد بعمله الدنيا، فيسير الرياء شرك.

(١) أخرجه أحمد (٢٣٦٣٠) من حديث محمود بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٦٠٧٢)، والترمذي (١٥٣٥) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه أحمد (٣٦١٥)، وأبو داود (٣٨٨٣)، وابن ماجه (٣٥٣٠) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأما الظاهر: فيتعلق بالأفعال والأقوال:

فأما الأقوال: فكالحلف بغير الله، وقول: ما شاء الله وشئت، والتسمي بملك الملوك، والتعبد لغير الله في الأسماء؛ كعبد الحسين ونحوه، والرقى البدعية.

وأما الأفعال: فكلبس الحلقة والخيط لرفع بلاء، أو دفع ضرر، وتعليق التمام خوفًا من العين، والتطير والتشاؤم من أشياء وترك العمل بسببها، وإتيان الكهان البدعي، وغيرها من الأعمال القاذحة في الإيمان.

ثانيًا: الكبائر والصغائر:

الكبائر: هي كل معصية استوجبت حدًا في الدنيا، أو لعنةً، أو غضبًا، أو وعيدًا خاصًا في الآخرة.

كقتل النفس بغير حق، وأكل الربا، والزنا، والقذف، وشرب الخمر، والتولي يوم الزحف، وغيرها.

والكبائر كلها من أمور الجاهلية، ومن قوادح الإيمان ونواقصه، ومرتكبها فاسق، لا يستحق اسم الإيمان المطلق، وإن كان معه مطلق الإيمان.

ولا يكفر مرتكب الكبائر ولو تعددت، إلا إذا ارتكب ما ينقض الإيمان.

وأهل الكبائر تنالهم الشفاعة في الآخرة، وقد يعفو الله عنهم لتوحيدهم، أو لحسنات ماحية، أو لمصائب مكفرة، ونحو ذلك، وكل ذلك من محض فضله تعالى، ومن عوقب من أهل الكبائر فإلى أمد، وفي النار لا يخلد.

علامات الكبيرة:

١- وصفها بكونها كبيرة:

كما قال تعالى: ﴿وَأَنفُوا أَلْيَنَمَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].

وقوله ﷺ: «الكَبَائِرُ: الإِشْرَاقُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ»^(١).

٢- وصفها بالموبقات:

وفي الحديث: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»^(٢).

٣- وصفها بأنها من أعظم الذنوب:

وفي الحديث -أيضاً-: «أي: الذنب أعظم عند الله؟ قال: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»^(٣).

٤- وصفها بأنها ظلم عظيم:

كما قال سبحانه: ﴿إِنَّكَ الشَّرُّكَ لَظَلَمْتَ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وهذا ونحوه كوصف فاعلها بأن الله يحاربه، أو أن الله يسخط عليه. والصغائر: هي ما لم يبلغ حد الكبائر، وهي: ما دون الحدين؛ حد الدنيا، وحد الآخرة، فكل ما لم يترتب على فعله حد في الدنيا، أو عقوبة، وما لم يترتب عليه حد، أو عقوبة أخروية خاصة فهو من الصغائر.

أصناف العصاة في الآخرة:

عصاة المؤمنين في الآخرة ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: من رجحت حسناتهم على سيئاتهم فأولئك يدخلون الجنة ابتداءً، ولا تمسهم النار إلا تحلة القسم: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١].

(١) أخرجه البخاري (٦٦٧٥) من حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الصنف الثاني: قوم تكافأت وتراجحت حسناتهم وسيئاتهم، وهذا جعلهم لا يدخلون الجنة ابتداءً ولم يلجوا النار، وهم أصحاب الأعراف في أصح أقوال أهل العلم، فيوقفون بينهما، ثم يؤذن لهم مآلاً في دخول الجنة، والله الحمد والمنة.

الصنف الثالث: قوم رجحت كفة سيئاتهم على حسناتهم، ولقوا الله تعالى بالكبائر غير تائبين، فهم في مشيئة الله تعالى، إن شاء عفا عنهم، وإن شاء عذبهم، ومنهم من تدركه حسنات ماحية، أو مصائب مكفرة، أو شفاعة شافع، أو ما ناله من العذاب في قبره، أو يوم حشره ونشره، أو ما عمل له من أعمال صالحة بلغت بعد موته، أو أدركته رحمة ربه وشفاعته؛ فلا يلج النار. ومنهم من يدخل النار فتأخذه إلى كعبيه، أو إلى أنصاف ساقيه، أو إلى ركبتيه، أو إلى ما هو فوق ذلك.

ومنهم من تأكله النار إلا مواضع سجوده لله تعالى تشريفاً لها. وهؤلاء يخرجون من النار يوماً من الدهر بشفاعة الأنبياء والأولياء إكراماً للشافعين، ورحمةً من رب العالمين.

ولا يخلد في النار أحد من عصاة الموحدين، والحمد لله رب العالمين.

النوع الثاني: مخالفات في الحقيقة، وهي البدع بأنواعها المختلفة:

كل أمر محدث في الدين فهو بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «والمحدثات جمع محدثة، والمراد بها: ما أحدث وليس له أصل في الشرع، ويسمى في عرف الشرع: بدعة، وما كان له أصل يدل عليه الشرع فليس ببدعة، فالبدعة في عرف الشرع مذمومة بخلاف اللغة»^(١).

قال تعالى - ناعياً على مبتدعة أهل الكتاب-: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَارِعُوهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا ذم لهم من وجهين؛ أحدهما: الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله، والثاني: في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا: أنه قرينة يقر بهم إلى الله ﷻ»^(١).

وقد قال ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَإِنَّ كُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(٢).

وقال ﷺ: «مَنْ أَخَذَتْ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ»^(٣).

وقال ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(٤).

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفِيتُمْ، وكل بدعة ضلالة»^(٥).

وقال -أيضاً- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «القصد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة»^(٦).

وقال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «خير الدين: دين محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، اتبعوا ولا تبتدعوا؛ فإنكم لن تضلوا ما اتبعتم الأثر، إن تتبعونا فقد سبقناكم سبقاً بعيداً، وإن تخالفونا فقد ضللتكم ضلالاً كبيراً، ما أحدث

(١) تفسير ابن كثير (٢٩ / ٨).

(٢) أخرجه أحمد (١٧١٤٤)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦) من حديث العرياض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) أخرجه مسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٥) أخرجه الدارمي (٢١١)، والطبراني في الكبير (١٥٤ / ٩).

(٦) أخرجه الدارمي (٢٢٣).

الأمة في دينها بدعة إلا رفع الله عنهم سنة الهدى»^(١).

وقال أبو إدريس الخولاني رَحِمَهُ اللهُ: «لأن أرى في المسجد نارًا لا أستطيع إطفاءها أحب إلي من أن أرى فيه بدعة لا أستطيع تغييرها»^(٢).

أسباب ذم البدع والتحذير منها:

قد تواتر ذم السلف للبدع وأهلها؛ وذلك لأمر كثيرة تستوجب ذمها والتحذير منها ومن أهلها، ومن ذلك:

١- البدعة قول على الله بغير علم:

والقول على الله بغير علم من أعظم الذنوب، ومن الكذب على الله ورسوله، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ﴾ [النحل: ١١٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وأما القول على الله بلا علم فهو أشد هذه المحرمات تحريمًا، وأعظمها إثمًا؛ فإنه يتضمن: الكذب على الله، ونسبته إلى ما لا يليق به، وتغيير دينه وتبديله، ونفي ما أثبتته، وإثبات ما نفاه، وتحقيق ما أبطله، وإبطال ما حققه، وعداوة من والاه، وموالة من عاداه، وحب ما

(١) السنة، لأبي عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المروزي، تحقيق: سالم أحمد السلفي، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، ط ١، ١٤٠٨ هـ (٨١).

(٢) السنة، للمروزي (٩٩)، وحلية الأولياء، وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٩ هـ (١٢٤).

أبغضه، وبغض ما أحبه، ووصفه بما لا يليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله، فليس في أجناس المحرمات أعظم عند الله منه، ولا أشد إثماً، وهو أصل الشرك والكفر، وعليه أُسست البدع والضلالات، فكل بدعة مضلة في الدين أساسها: القول على الله بلا علم»^(١).

٢- البدعة اتهام لمقام النبي ﷺ والصحابة:

ذلك أن المبتدع يتهم بحاله النبي ﷺ بخيانة الأمانة، وعدم بلاغ الرسالة؛ لأنه يُحدث من العبادة التي تقرب إلى الله بزعمه ما لم يشرعه رسول الله ﷺ، وهو - أيضاً - يتهم الصحابة بالجهل والغفلة عما تفتن هو له من البدعة! ويزعم بحاله: أنهم مقصرون في طاعة الله، وأنه ببدعته أفضل منهم، وعليه؛ فإنه لا يتأسى بفعلهم، ولا يهتدي بهديهم.

وقد قال ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، وَعَصُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ! فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ»^(٢).

قال ابن عبد البر رحمه الله: «ما جاء عن النبي ﷺ من نقل الثقات، وجاء عن الصحابة، وصح عنهم فهو علم يدان به، وما أُحدث بعدهم ولم يكن له أصل فيما جاء عنهم فبدعة وضلالة»^(٣).

وقال ابن كثير رحمه الله: «وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: هو بدعة؛ لأنه لو كان خيراً لسبقونا

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (١/ ٣٧٨).

(٢) أخرجه أحمد (١٧١٤٤)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦) من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (٢/ ٩٤٥).

إليه؛ لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا بادروا إليها»^(١).

٣- البدعة نوع من أنواع المضادة للشرعية:

لأنها تستدرك على الشريعة بزيادة، أو نقصان، أو فعل، أو ترك، أو تغيير للأصل الصحيح.

قال الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ: «فالمبتدع إنما محصول قوله بلسان حاله، أو مقاله: إن الشريعة لم تتم، وإنما بقي منها أشياء يجب، أو يُستحب استدراكها؛ لأنه لو كان معتقداً كمالها وتاممها من كل وجه لم يبتدع، ولا استدرك عليها»^(٢).

٤- البدعة شر من المعصية:

إذ هي ذنب في صورة طاعة؛ ذلك أن البدعة يصعب على صاحبها التوبة منها؛ لأنه يعتقد أنها طاعة لله تعالى فكيف يتوب منها؟! قال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ: «البدعة أَحَبُّ إلى إبليس من المعصية؛ فإن المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها»^(٣).

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: «أبى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يأذن لصاحب هوى بتوبة»^(٤).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «أئمة أهل البدع أضُرُّ على الأمة من أهل الذنوب؛

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٧٨ - ٢٧٩).

(٢) الاعتصام، لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن الشقير، سعد بن عبد الله آل حميد، هشام بن إسماعيل الصيني، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م (١/ ٦٥).

(٣) شرح أصول الاعتقاد (٢٣٨)، حلية الأولياء (٧/ ٢٦).

(٤) شرح أصول الاعتقاد (٢٨٥).

ولهذا أمر النبي ﷺ بقتل الخوارج، ونهى عن قتال الولاة الظلمة»^(١).

أقسام البدعة:

البدعة تنقسم باعتبار مدى تعلقها بدليل إلى: حقيقية، وإضافية: فالحقيقية: لم يدل عليها دليل ولا استدلال معتبر عند أهل العلم، لا في الجملة، ولا في التفصيل، فهي إحداث في الدين من كل وجه؛ كالرهبانية التي لم يشرعها الله، أو يفرضها، أو التقرب إلى الله بالامتناع عن الزواج مع وجود الحاجة إليه، أو الطواف بالأضرحة، وغيرها.

والإضافية: لها تعلق بالأدلة من حيث أصلها، ولا تعلق لها من حيث كيفيتها، أو وقتها، أو سببها، ونحو ذلك.

وهي كثيرًا ما تقع في العبادات؛ كتخصيص زمان معين بعبادة معينة على اعتقاد الفضل، أو السنية؛ كإحياء ليلة السابع والعشرين من رجب؛ بدعوى أنها ليلة الإسراء والمعراج، ويستحب فيها القيام.

ومن البدع ما يكون اعتقاديًا، سواء ارتبط بها عمل، أم لم يرتبط، وذلك مثل: بدع الجهمية والقدرية والمعتزلة وغيرها.

وهذه البدع تكون بتأويل غالبًا.

قال مالك رَحِمَهُ اللهُ: «أهل البدع: الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته، ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان»^(٢).

ومما تميز به البدعة العقدية: مخالفتها ومعارضتها للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة.

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٨٤).

(٢) شرح السنة، للبخاري (١/ ٢١٧).

قال الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ: «والرأي إذا عارض السنة فهو بدعة وضلالة»^(١).
 ويلتحق بالبدعة العقدية: كل عقيدة لم تثبت في الكتاب ولا السنة، ولم تنقل -
 أيضًا- عن سلف الأمة، وهذا يتضمن: الكف والسكوت عما سكوت عنه الله
 ورسوله وسلف الأمة، واعتبار حجية فهم الصحابة والسلف وكمال معتقدتهم.
 فمذهب السلف أسلم وأعلم وأحكم، لا كما يدعيه المخالفون.
 وقال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «كل من تكلم بكلام في الدين، أو في شيء من هذه الأهواء،
 ليس له فيه إمام متقدم من النبي ﷺ وأصحابه فقد أحدث في الإسلام حدثًا»^(٢).
 ويدخل في هذا: الخوص في الكلام الباطل الذي اتفق الأئمة على ذمه.
 قال مالك رَحِمَهُ اللهُ: «لو كان الكلام علمًا لتكلم فيه الصحابة والتابعون،
 كما تكلموا في الأحكام والشرائع، ولكنه باطل يدل على باطل»^(٣).
 وقال أحمد رَحِمَهُ اللهُ: «وكل من أحدث كلامًا لم يكن آخر أمره إلا إلى
 بدعة؛ لأن الكلام لا يدعو إلى خير»^(٤).
 والبدعة العملية هي تعبد الله تعالى بعادة لم يشرعها، أو لم يشرع
 صفتها، أو سببها، أو جنسها، أو قدرها، أو زمنها، أو مكانها، فكل تقرب
 إلى الله تعالى بعادة لم يشرع أصلها ولا وصفها فقد دخلت في هذا المعنى.
 والأصل في العبادات: المنع، إلا ما ورد به الشرع، قال ﷺ: «مَنْ عَمِلَ
 عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(٥).

(١) الاعتصام، للشاطبي (٣/ ٣٠٤).

(٢) صون المنطق، لجلال الدين لسيوطي، تحقيق: الدكتور علي سامي النشار، السيدة سعاد
 علي عبد الرازق، مجمع البحوث الإسلامية (ص ٢١١).

(٣) صون المنطق، لسيوطي (ص ٢١٧).

(٤) الإبانة الكبرى، لابن بطة (٦٧٦).

(٥) أخرجه مسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «وباب القربات يُقتصر فيه على النصوص، ولا يُتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء»^(١).

ولهذا كان أحمد وغيره من فقهاء أهل الحديث يقولون: «إن الأصل في العبادات التوقيف؛ فلا يشرع منها إلا ما شرعه الله، وإلا دخلنا في معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ﴾ [الشورى: ٢١]»^(٢). وعليه؛ فكل عبادة لم يفعلها النبي ﷺ ولم يشرعها ولم يعملها أهل القرون الثلاثة المفضلة ولم يثبتوها بوجه فهي بدعة.

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ: «ما جاء عن النبي ﷺ من نقل الثقات، وجاء عن الصحابة، وصح عنهم فهو علم يدان به، وما أحدث بعدهم ولم يكن له أصل فيما جاء عنهم فبدعة وضلالة»^(٣).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة رَحِمَهُمُ اللهُ: هو بدعة؛ لأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه؛ لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا بادروا إليها»^(٤).



(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٤٦٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٧/ ٢٩).

(٣) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (٢/ ٩٤٥).

(٤) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٧٨ - ٢٧٩).

الفصل الرابع

قواعد إجراء الأحكام

إن الحكم على المكلفين بانتقاض عقد الإيمان لمن المقامات العظيمة، التي لا يصلح فيها خوض بالظن، ولا نطق بغير رسوخ في العلم.

وإن من القواعد الشرعية التي ينبغي رعايتها في هذا الشأن ما يلي:

١- من ثبت إسلامه بيقين لم يُزَلْ بشك فيه، وإنما لا بد من يقين مثله لا يحتمل شكًا، أو ظنًا عند الحاكم، أو القاضي، أو العالم:

وفي التبين والتثبت أمر الله تعالى وأمر نبيه ﷺ فقال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤].

وقال سبحانه: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

وبهذا عمل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وسلف الأمة.

قيل لجابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أكنتم تقولون لأحد من أهل القبلة: كافر؟ قال: لا. قلت: فمشارك؟ قال: معاذ الله. وفزع»^(١).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن ثبت إسلامه بيقين لم يُزَلْ عنه ذلك بالشك، بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة، وإزالة الشبهة»^(٢).

(١) التمهيد، لابن عبد البر (١٧/ ١٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٤٦٦/ ١٢).

وفي الحديث: «أَيُّمَا رَجُلٍ قَالَ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا»^(١).
 وفي الحديث - أيضاً - : «وَمَنْ قَذَفَ مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ فَهُوَ كَقَتْلِهِ»^(٢).
 قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أن الحكم على الرجل المسلم بخروجه من دين الإسلام، ودخوله في الكفر لا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يُقَدِّمَ عليه إلا ببرهان أوضح من شمس النهار»^(٣).
 ومما لا شك فيه: أن الخطأ في تكفير المسلم أغلظ وأشد من الخطأ في الحكم لكافر بإسلام؛ لما يترتب على تكفير المسلم من أحكام.
 ٢- أحكام الدنيا إنما تجري على الظاهر، لا الباطن، وعلى آخر الأمر وخاتمة الحال، لا على أوله:

وقد دل على الشق الأول من هذه القاعدة قوله ﷺ: «إِنِّي لَمْ أَوْمَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ، وَلَا أَشَقَّ بُطُونَهُمْ»^(٤).
 وقوله ﷺ: «مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ»^(٥).
 وهذا فيه دليل على قبول الأعمال الظاهرة والحكم بما يقتضيه الظاهر^(٦).

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٤)، ومسلم (٦٠) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٤٧) من حديث ثابت بن الضحاک رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ (٥٧٨/٤).

(٤) أخرجه البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه البخاري (٣٩١) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) فتح الباري (١/٧٧)، شرح النووي، لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ٢، ١٣٩٢هـ (٢١٣/١).

وقد قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنْ أَنَا كَانُوا يُوْخَذُونَ بِالْوَحْيِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِنْ الْوَحْيِ قَدْ انْقَطَعَ، وَإِنَّمَا نَأْخُذُكُمْ الْآنَ بِمَا ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا أَمَّنَاهُ، وَقَرَّبَنَا، وَلَيْسَ إِلَيْنَا مِنْ سِرِّهِ شَيْءٌ، اللَّهُ يَحَاسِبُهُ فِي سِرِّهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا سُوءًا لَمْ نُؤْمَنْهُ، وَلَمْ نَصَدِّقْهُ، وَإِنْ قَالَ: إِنْ سِرِّهِ حَسَنَةٌ»^(١).

وقد نقل الشوكاني إجماع العلماء على إجراء الأحكام الدنيوية على الظاهر، وأن الله تعالى يتولى السرائر^(٢).

وقد دل على الشق الثاني من القاعدة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١].

فعلّق الله تعالى الحكم بامتناع المغفرة، وحصول اللعنة والخلود في النار بالموت على غير الإسلام.

وفي الحديث: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ - فِيمَا يَرَى النَّاسُ - عَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ - فِيمَا يَرَى النَّاسُ - عَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا»^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٢٦٤١).

(٢) نيل الأوطار، لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، تحقيق: عصام الدين الصباطي، دار الحديث، مصر، ط ١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م (٧/ ٢٢٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٩٣)، ومسلم (١١٢) من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي الحديث - أيضاً -: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١).
وعليه؛ فمن مات على الإسلام فهنيئاً له، ويرجى لأهل الإسلام والسنة
الخير الكثير، ويُقطع لهم بالنجاة من الخلود في النار، ويُخشى على أهل
الكبائر والابتداع من العذاب والعقاب، ويُقطع لموتى أهل الكفر والإلحاد
الذين ماتوا على ما عاشوا عليه بالخلود في النار أبداً! ^(٢).

٣- الحكم المطلق بتكفير، أو غيره لا يستلزم الحكم على الشخص المعين:
فالحكم المطلق على فعل، أو قول، أو اعتقاد بأنه كفر، أو فسق لا يستلزم
الحكم بالكفر، أو غيره في حق من قام به ذلك الكفر؛ لما هو معلوم من اشتراط
شروط، وتحقق ضوابط، وانتفاء موانع التكفير قبل الحكم على المعين!
وعليه؛ فقد يصح القول بأن الفعل كفر وفاعله غير كافر، أو القول، أو
الاعتقاد... وهكذا.

فقد صح أن النبي ﷺ لعن شارب الخمر، وهذا حكم مطلق ومجرد
عن الأشخاص والأعيان، لكن لما شرب بعض الصحابة ولعنه بعضهم قال
ﷺ: «لَا تَلْعَنُوهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»^(٣).
وقد أطلق القول بكفر ونفاق من وإلى أعداء الله، فلما تلبس حاطب بن
أبي بلتعته بهذا الفعل لم يكن كافراً ولا منافقاً، بل كان مؤمناً له سابقة شهوده
بدرأ، وكان ذلك مانعاً من تكفيره.

والمقصود: أن مذهب أهل السنة وسط بين من يكفر المسلم بكل ذنب

(١) أخرجه مسلم (٢٦) من حديث عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الإحكام في قواعد الحكم على الأنام، لمحمد يسري إبراهيم، دار اليسر، القاهرة، ط ٤،
١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م (ص ٥٤).

(٣) أخرجه البخاري (٦٧٨٠) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قيل فيه: إنه كفر، دون نظر إلى توفر شروط التكفير، وانتفاء موانعه، وبين من يقول: لا نكفر أحداً من أهل القبلة أبداً!

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فقد يكون الفعل، أو المقالة كفراً، ويطلق القول بتكفير من قال تلك المقالة، أو فعل ذلك الفعل، ويقال: من قال كذا فهو كافر، أو من فعل ذلك فهو كافر، لكن الشخص المعين الذي قال ذلك القول، أو فعل ذلك الفعل لا يُحَكَّم بكفره، حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها.

وهذا الأمر مطَّرد في نصوص الوعيد عند أهل السنة والجماعة، فلا يُشْهَد على معين من أهل القبلة بأنه من أهل النار؛ لجواز أن لا يلحقه لفوات شرط، أو لثبوت مانع»^(١).

فلا يكفر ولا يفسق ولا يبدع مسلم إلا بعد قيام الحجة وإزالة الشبهة، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]؛ «فلا يأثم أحد إلا بعد العلم، وبعد قيام الحجة عليه، والله لطيف رؤوف بهم، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]»^(٢).

٤- لا تُجْرَى الأحكام في الدنيا إلا بعد انتفاء ما يمنعها، أو يعارضها، وتحقق

شروطها وما يثبتها:

يتعين عند الحكم على المكلفين أن يتحقق الحاكم، أو القاضي من ثبوت أسباب الحكم وشروطه، وانتفاء موانعه وصوارفه وفق خطوات منهجية. فأهل العلم والإيمان موصوفون بالتأني عند إطلاق الأحكام والاحتياط

(١) مجموع الفتاوى (٣٤٥ / ٢٣).

(٢) الكبائر، لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، تحقيق: أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة الفرقان، عجمان، ط ٢، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م (ص ١٠١).

عند إجرائها على الناس، فلا يكفرون ولا يدعون إلا بعد قيام الحجة وظهور المحجة، وتحقق العلم وانتفاء الجهل، وارتفاع عوارض الأهلية من إكراه، أو خطأ في تأويل، فلا بد من الثبت من كمال أهلية المكلف وصلاحيته الشرعية للحكم عليه بمخالفته، وهو ما يعبرون عنه بثبوت الشروط الشرعية وانتفاء الموانع.

موانع إجراء الأحكام:

أما الموانع التي تمنع من الحكم على المكلف فهي:

١- الجهل وعدم بلوغ الخطاب الشرعي:

قال تعالى: ﴿فَتَيِّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَلَةٍ﴾ [الحجرات: ٦].

وقد أهدى بعضهم للنبي ﷺ خمرًا، فقال له: «هَلْ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَهَا؟ قال: لا»^(١)، فلم يؤاخذه النبي ﷺ. وهذا عذر له في أحكام الدنيا.

والجهل في الآخرة عذر معتبر - أيضًا -؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وقد أمر رجل بنيه أن يحرقوه ويطحنوه ويزروه في الريح، فلما فعلوا به ذلك بعد موته أمر الله الأرض فجمع ما فيها منه، فإذا هو قائم بين يدي ربه، فقال له:

ما حملك على ما صنعت؟!

قال: يا رب خشيتك، فغفر له^(٢).

(١) أخرجه مسلم (١٥٧٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٢٢)، ومسلم (٤٩٥٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فكان ظنه: أن الله لا يقدر على جمعه، وكان شكه في قدرة ربه سبباً في فعله ما فعل جهلاً وخوفاً من ربه، فغفر الله له جهله، وسوء ظنه.
قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «الله أسماء وصفات لا يسع أحداً رُدُّها، ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه فقد كفر، وأما قبل قيام الحجة فإنه يُعذر بالجهل؛ لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل، ولا الرؤية والفكر»^(١).
ومتى أمكن الجهل فهو عذر، ومن لا يعذر هو من لا يتصور إمكان الجهل في حقه.

٢- الخطأ في التأويل والاجتهاد:

قال سبحانه: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ، وَلَكِنْ مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

وأجرى البخاري رَحِمَهُ اللهُ قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾ في كل شيء^(٢).

وقد رفع الله إثم الخطأ والنسيان في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

والرجل الذي أخطأ فقال - من شدة الفرح -: «اللهم أنت عبي، وأنا ربك»^(٣) لم يكن مؤاخذاً بذلك الخطأ.

قال ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ: «ليس كل ضلال كفراً، ولا فسقاً إلا إذا كان

(١) فتح الباري (١٣/٤٠٧).

(٢) فتح الباري (١١/٥٥١).

(٣) أخرجه مسلم (٤٩٣٢) من حديث أنس بن مالك رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ.

عمداً، وأما إذا كان من غير قصد فالإثم مرفوع فيه، كسائر الخطأ»^(١).
وفي حق الحاكم والعالم قال ﷺ: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ، ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ، ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»^(٢).

فما يعرض للعالم من فهم للنصوص يكون مخالفاً لما نُقل عن النبي ﷺ والصحابة والأئمة يسمى: تأويلاً، ودرجات مخالفته متفاوتة، فمنه ما يُذم ويأثم صاحبه، ومنه ما يكفر به، ومنه دون ذلك^(٣).

وقد امتنع عامة السلف من تكفير أكثر أهل الأهواء؛ نظراً لتأويلاتهم التي خالفوا بها فهم الصحابة، من غير أن يردوا نصوص الكتاب والسنة، وإنما لشبهات عقلية ونحوها، أما ما كان من تأويلات بعيدة تدور حول التحلل من الدين والدخول في الإلحاد والكفر بالآخرة كتأويلات كثير من الفلاسفة والباطنية فلم يتوقف السلف في تكفير أهلها.

قال ابن الوزير رَحِمَهُ اللهُ: «لا خلاف في كفر من جحد ذلك المعلوم ضرورة للجميع، وتستتر باسم التأويل، فيما لا يمكن تأويله؛ كالملاحدة في تأويل جميع أسماء الله الحسنى، بل جميع القرآن والشرائع، والمعاد الأخروي من البعث والقيامة، والجنة والنار»^(٤).

(١) الإحكام في أصول الأحكام، لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت (٥/ ٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) يراجع: الإحكام في قواعد الحكم على الأنام (ص ٨٠-٩٣).

(٤) إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد، لابن الوزير محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي أبي عبد الله عز الدين اليمني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٩٨٧م (ص ٣٧٧).

٣- الإكراه:

وهو حمل الغير وإلزامه قهراً بما لا يريد، وبما ينافي رضاه واختياره. ويدل على اعتباره: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ، وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ»^(١).

وقد ثبت عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله: «ليس الرجل بأمين على نفسه إن أجمعه، أو أخفته، أو حبسته»^(٢).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ما من كلام أتكلم به بين يدي سلطان يدرأ عني به ما بين سوط إلى سوطين إلا كنت متكلمًا به»^(٣).

وعليه؛ فالإجماع منعقد على جواز التلفظ بالكفر تحت تأثير الإكراه المعتبر^(٤).

والإكراه المعتبر لا بد له من أمور:

- ١- أن يكون المكروه قادراً على إنفاذ وعيده.
- ٢- أن يكون المكروه عاجزاً عن أن يدفع عن نفسه.
- ٣- أن يغلب على الظن وقوع الوعيد المهدد به إن لم يفعل.

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٣) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٢٨٨٩١)، والبيهقي في الكبرى (١٥٢٠٧).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٣٧١٧).

(٤) فتح الباري (٣١٤/١٢).

٤- أن يكون الضرر المترتب على الإكراه كبيراً؛ كالقتل، والضرب الشديد، والحبس الطويل، ونحوه.

فإن كان المكره من أصحاب الهيئات والوجهات اعتُبر في حقه ما لا يُعتبر في حق غيره إكراهاً فيصير الشتم ويسير الحبس في حقه إكراهاً دون غيره^(١).

شروط إجراء الأحكام:

وأما الشروط الواجب توافرها لإجراء الأحكام فهي:

١- التحقق من انتفاء الموانع:

لما تقدم من كون وجود الموانع يعتبر عذراً وحائلاً دون إجراء الأحكام.

٢- التثبت من الفعل، أو القول والقصد:

وقد سبق وجوب التثبت من الكتاب والسنة، سواء في القول، أو الفعل، وفي القصد، وقد قال تعالى: ﴿أَجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال: ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨].

٣- إقامة الحجة على وجهها الصحيح شرعاً:

فلا عقوبة ولا مؤاخذه في أصول الدين وفروعه حتى تقوم الحجة من الوحي والرسالة، ولا تقوم الحجة إلا بعد فهمها، فمن لم يفهمها لم تقم عليه. إن قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص، فقد تقوم حجة الله على الكفار في زمان دون زمان، وفي بقعة وناحية دون أخرى، كما

(١) المغني، لأبي محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي، ثم الدمشقي الحنبلي الشهير بابن قدامة المقدسي، مكتبة القاهرة ١٣٨٨ هـ- ١٩٦٨ م (٧/٣٨٤).

أنها تقوم على شخص دون آخر، إما لعدم عقله وتمييزه، كالصغير والمجنون، وإما لعدم فهمه، كالذي لا يفهم الخطاب، ولم يحضر ترجماناً يترجم له، فهذا بمنزلة الأصم الذي لا يسمع شيئاً، ولا يتمكن من الفهم، وهو أحد الأربعة الذين يدلون على الله بالحجة يوم القيامة^(١).

والحجة إنما يقيمها العالم الذي يثق به المخالف من العامة ونحوهم؛ لأن العامة إنما فرضهم سؤال أهل الذكر، وليس كل من علم آية، أو حديثاً يستطيع أن يقيم الحجة، بل الأصل: أن الحجة تناط بالمجتهد، فإن لم يتيسر فبالعالم، أو بذي سلطان من أمير مطاع، أو قاصدٍ لكلمته نفاذ.

وعليه؛ فالحجة إنما تقوم ببيان الإمام، أو نائبه، دون إقامة الحجة من الآحاد فلا يترتب على حكمه بالتكفير شيء، ولو كان صحيحاً؛ لما في ذلك من الافتئات على الحاكم الشرعي، وما يترتب على ذلك من الفوضى التي تتناقض مع مقاصد الشريعة والأحكام.

وقد يكون من أقام الحجة مخطئاً، أو جاهلاً لا تقوم الحجة بمثله على غيره. فمن أعرض عن الحجة والعلم بها والعمل بموجبها، أو عاندها بعد قيامهما على وجهه فهذا المؤاخذ المعلوم شرعاً بحسب ما أقيمت عليه فيه الحجة.



(١) طريق الهجرتين وباب السعادتین، لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: عمر بن محمود أبي عمر، دار ابن القيم، الدمام، ط ٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م (ص ٦١٢).

مُحتويات الكتاب

مقدمة ٥

الباب الأول: الضرورة إلى الإيمان

الفصل الأول: الحاجة إلى الإيمان ١٧

أولاً: فطرية الإيمان ١٧

ثانياً: الحاجة النفسية للإيمان ١٩

ثالثاً: الحاجة العقلية للإيمان ٢٣

الفصل الثاني: فضل الإيمان ٣٠

أولاً: شدة الحاجة إلى الإيمان ٣٠

ثانياً: جلالة موضوع الإيمان ٣٣

ثالثاً: شدة خطر ما يناقضه ويعارضه ٣٥

الفصل الثالث: ثمرات الإيمان ٣٨

أولاً: ثمرات الإيمان الدينية ٣٨

١- الوصول إلى برّ اليقين بمعرفة ومعاملة ربّ العالمين ٣٨

٢- تحقيق الإخلاص وأعمال القلوب كافة ٣٩

٣- اشتغال الجوارح بالصالحات، وقبولها عند رب الأرض

والسماوات ٤٠

- ٤ - حفظ علم الإيمان، وعلوم الإسلام ٤١
- ٥ - هداية وإرشاد الخلق، ودعوتهم إلى الحق ٤١
- ٦ - محبة الله للمؤمنين وولايته ٤٢
- ٧ - عزة أهل الإيمان، واستعلاء أهل اليقين ٤٣
- ٨ - حصول معية الله للمؤمنين المتقين ٤٤
- ثانيًا: ثمرات الإيمان الدنيوية ٤٤
- ١ - الحياة الطيبة، والسعادة العاجلة ٤٤
- ٢ - قيام المدنية، وازدهار الحضارة ٤٥
- ٣ - استقامة الأخلاق ٤٦
- ٤ - الاجتماع والألفة ٤٧
- ٥ - انشراح الصدور، وطمأنينة القلوب، واستنارة البصائر ٤٨
- ٦ - المدافعة عن المؤمنين، والنصر على المحاربين، والاستخلاف ٤٨
- في الأرض والتمكين ٤٩
- ثالثًا: ثمرات الإيمان الأخروية ٥٠
- ١ - الأمن في الآخرة ٥٠
- ٢ - امتناع الخلود في النار ٥٠
- ٣ - دخول الجنة ابتداء ٥١
- ٤ - تحصيل الدرجات العلى من الجنات ٥١
- ٥ - حصول مَرَضَاة الله ٥٢
- ٦ - رؤية وجه الله الكريم ٥٣

الباب الثاني: فقه الإيمان

الفصل الأول: تلقي الإيمان.....	٥٧
معالم منهج تلقي الإيمان	٥٨
أولاً: الإيمان قبل القرآن.....	٥٨
ثانياً: الوحي مصدر الإيمان.....	٦٠
ثالثاً: الإيمان علمٌ وعملٌ بفهم السلف	٦٢
رابعاً: تلقّي نصوص الإيمان بالتّعظيم والتّسليم	٦٦
خامساً: تقديم أعمال القلوب من الإيمان.....	٦٩
سادساً: التلقّي الشامل لأصول الإيمان	٧٣
الفصل الثاني: علم الإيمان.....	٧٦
أولاً: تعريف علم الإيمان	٧٦
ثانياً: ركائز علم الإيمان.....	٧٧
ثالثاً: أدلة علوم الإيمان	٧٩
١ - أدلة شرعية سمعية.....	٧٩
٢ - أدلة شرعية عقلية.....	٧٩
رابعاً: أسماء علم الإيمان	٧٩
بين علم الإيمان ونقيضه.....	٨٠
خامساً: موضوع علم الإيمان	٨٣
سادساً: حكم علم الإيمان	٨٤
سابعاً: فضل علم الإيمان	٨٦

٨٨	ثامناً: ثمرات علم الإيمان
٨٩	تاسعاً: مسائل علم الإيمان
٨٩	قول القلب
٨٩	عمل القلب
٨٩	قول اللسان
٨٩	عمل الجوارح
٩٢	عاشراً: كتب علم الإيمان
٩٢	من أهم كتب العقيدة المسندة
٩٢	من أهم كتب متون العقيدة المنثورة
٩٣	من أهم كتب العقيدة المنظومة
٩٣	من أهم كتب الشروح
٩٤	الفصل الثالث: أسماء الإيمان
١٠٢	الفصل الرابع: حقيقة الإيمان
١٠٣	أولاً: اعتقاد القلب
١٠٥	ثانياً: إقرار اللسان
١٠٧	ثالثاً: عمل الجوارح
١١٨	الفصل الخامس: شعب الإيمان
١١٨	أدلة شعب الإيمان
١٢٠	عناية العلماء بحصر شعب الإيمان
١٢١	أحكام شعب الإيمان

١٢١	التفاوت بينها في الحكم والمرتبة
١٢٢	كل شُعبةٍ منها تسمَّى: (إيمانًا)
١٢٣	تفاوت الناس فيها
١٢٤	الفصل السادس: زيادة الإيمان ونقصانه
١٢٥	أدلة زيادة الإيمان ونقصانه
١٢٥	أولاً: إجماع السلف الصالح
١٢٧	ثانيًا: الأدلة من القرآن الكريم
١٢٧	ثالثًا: الأدلة من السنة المطهرة
١٢٨	رابعًا: أقوال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
١٣١	أسباب زيادة الإيمان
١٣٣	الفصل السابع: مراتب الإيمان
	المرتبة الأولى: مرتبة الإيمان المجمل، أو أصل الإيمان، أو مطلق
١٣٣	الإيمان
	المرتبة الثانية: مرتبة الإيمان المفصّل، أو حقيقة الإيمان، أو الإيمان
١٣٦	المطلق، أو الإيمان الواجب
١٤٠	المرتبة الثالثة: الإيمان الكامل

الباب الثالث: أركان الإيمان

١٤٥	مقدمة
١٤٧	الركن الأول: الإيمان بالله تعالى
١٤٧	النوع الأول: دليل الفطرة
١٤٩	النوع الثاني: دليل العقل

- ١- دليل العناية..... ١٥٠
- ٢- دليل الاختراع..... ١٥١
- دلائل الآيات في الأنفس والمخلوقات..... ١٥١
- النوع الثالث: آيات الأنبياء (المعجزات) ١٥٢
- النوع الرابع: إجابة الداعين، وإغاثة المكروبين ١٥٤
- وإجابة دعاء المضطرين تدل على وجود الله تعالى من جهة أخرى..... ١٥٥
- النوع الخامس: إجماع الأمم..... ١٥٦
- النوع السادس: الدليل النقلي..... ١٥٦
- الإيمان بربوبية الله تعالى..... ١٥٨
- أولاً: مجمل أفعال الربوبية..... ١٥٨
- ثانياً: من خصائص الربوبية..... ١٥٩
- ثالثاً: الاستدلال على توحيد الربوبية..... ١٦٠
- رابعاً: التلازم بين توحيد الربوبية والعبادة..... ١٦١
- خامساً: خطر الانحراف في الربوبية..... ١٦٢
- سادساً: آثار الإيمان بربوبية الله تعالى..... ١٦٣
- الإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته..... ١٦٤
- أولاً: منزلة العلم بأسماء الله وصفاته..... ١٦٤
- ثانياً: ركائز الإيمان بالأسماء والصفات..... ١٦٦
- ١- الإيمان بكل ما ورد من الأسماء والصفات في القرآن والسنة الصحيحة..... ١٦٦

- ٢- الأخذ في العقيدة بما اعتمده أهل السنة من مصادر التلقي ... ١٦٧
- ٣- تنزيه الله تعالى عن باطل التمثيل والتعطيل ١٦٩
- ٤- صفات الله تعالى معلومة المعنى على حقيقتها ١٧٢
- ٥- صفات الله تعالى مجهولة الكيفية ١٧٦
- ثانيًا: قواعد الإيمان بالأسماء الحسنى ١٨١
- القاعدة الأولى: أسماء الله حسنى كلها؛ سواء انفردت، أو اقترنت،
أو تضافت ١٨١
- القاعدة الثانية: أسماء الله توقيفية، ليست بمخلوقة ١٨٢
- القاعدة الثالثة: باب الأسماء أضيق من الصفات، والصفات أضيق
من الأخبار ١٨٤
- القاعدة الرابعة: أسماء الله أعلام وأوصاف تدل على ذات واحدة،
وأوصاف متباينة ١٨٥
- القاعدة الخامسة: الإيمان بالأسماء الحسنى يتضمن الإيمان
بالاسم، وما دل عليه من معان، وما اقتضاه من آثار ١٨٦
- القاعدة السادسة: لله تسعة وتسعون اسما، من أحصاها دخل
الجنة ١٨٧
- القاعدة السابعة: الحذر من الإلحاد في أسماء الله ١٨٨
- ثالثًا: من آثار الإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته ١٨٩
- ١- تزكية النفس، وإقامتها في طريق العبودية ١٨٩
- ٢- تحقيق التعبد لله بأسمائه وصفاته ١٨٩
- ٣- ألا ينازع العبد ربه في صفاته المختصة به ١٩٠

- الإيمان بالوهمية الله تعالى ١٩١
- أولاً: فضائل توحيد الألوهية ١٩٢
- ثانياً: التوحيد أول الواجبات، وبه دخول العبد في الإسلام ١٩٤
- الركن الثاني: الإيمان بالملائكة ١٩٦
- مقدمة ١٩٦
- أولاً: التعريف بالملائكة، وبيان حقيقتهم ١٩٦
- ثانياً: أدلة وجود الملائكة ١٩٧
- ثالثاً: الإيمان بالملائكة، وحكمه، وأدله ١٩٨
- رابعاً: خلق الملائكة ١٩٩
- ١- مادة خلقهم ١٩٩
- ٢- تاريخ خلقهم ٢٠٠
- ٣- عظم خلق الملائكة ٢٠٠
- ٤- خلق الملائكة حسن جميل ٢٠٠
- ٥- أجنحة الملائكة وتفاوتها ٢٠١
- ٦- للملائكة قدرة على التشكل ٢٠١
- ٧- الملائكة ليسوا ذكورا، ولا إناثا، ولا يتناسلون ٢٠٢
- ٨- الملائكة لا يأكلون، ولا يشربون ٢٠٢
- ٩- الملائكة لا يتعبون، ولا يسأمون، ولا يفترسون ٢٠٢
- ١٠- الملائكة يموتون ٢٠٣
- ١١- الملائكة لا يحصيهم عددا إلا الله ٢٠٣

- خامسًا: خُلِقَ الملائكة ٢٠٣
- ١ - كرام مكرمون ٢٠٣
- ٢ - لا يعصون الله، ولا يسأمون طاعته ٢٠٣
- ٣ - خائفون من الله وَجَلون ٢٠٣
- ٤ - الملائكة تتأذى مما يتأذى منه الآدميون ٢٠٤
- سادسًا: أعمال الملائكة ٢٠٤
- ١ - السفارة بين الله ورسله ٢٠٤
- ٢ - حملة العرش ٢٠٥
- ٣ - خزنة الجنة ٢٠٥
- ٤ - خزنة النار ٢٠٥
- ٥ - الموكل بالنفخ في الصور ٢٠٥
- ٦ - الموكلون بالظواهر الكونية المختلفة ٢٠٦
- ٧ - الموكلون بتثبيت قلوب المؤمنين، والقتال معهم ٢٠٦
- ٨ - الموكلون بالاستغفار والدعاء للمؤمنين وموالاتهم ٢٠٦
- ٩ - تبشير المؤمنين بالجنة، والسلام عليهم عند الموت وفي الآخرة ٢٠٧
- ١٠ - إهلاك الأمم المكذبة في الدنيا ٢٠٨
- سابعًا: الإيمان بالملائكة ومحبتهم وموالاتهم ٢٠٨
- ١ - محبة الملائكة، وموالاتهم ٢٠٨
- ٢ - الاستحياء من الملائكة، واجتناب الأذى ٢٠٨
- ٣ - الائتناس بالملائكة ٢٠٩

- ٤- التشبه بهم فيما يليق بالمؤمن ٢٠٩
- ثامناً: آثار وثمرات الإيمان بالملائكة ٢١٠
- ١- تحصيل صحيح الإيمان ٢١٠
- ٢- زيادة الإيمان ٢١٠
- ٣- تحصيل الأمن والاطمئنان ٢١١
- ٤- القيام بعبودية الشكر ٢١١
- ٥- عدم استكثار العمل ٢١٢
- ٦- الاستقامة على منهج الله ٢١٢
- ٧- تقوية عقيدة الخوف والرجاء ٢١٣
- ٨- ثبات القلوب في ميدان الجهاد والمجاهدة ٢١٣
- ٩- المسارعة إلى الطاعات، والتجافي عن السيئات ٢١٤
- الركن الثالث: الإيمان بالكتب ٢١٥
- أولاً: الكتب المذكورة في القرآن ٢١٥
- ١- صحف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام ٢١٥
- ٢- التوراة، وصحف موسى عَلَيْهِ السَّلَام ٢١٦
- ٣- الزبور ٢١٦
- ٤- الإنجيل ٢١٧
- ثانياً: حكم وأهمية الإيمان بالكتب السابقة ٢١٧
- ١- الأمر بالإيمان بها ٢١٨
- ٢- الإخبار بأن الإيمان بها صفة الرسول والمؤمنين والمتقين ... ٢١٩
- ٣- الحكم بكفر مَنْ لم يؤمن بتلك الكتب ٢١٩

- ثالثاً: الإيمان بكتب الله المنزلة إجمالي وتفصيلي ٢٢٠
- رابعاً: من الأحكام العقدية المتعلقة بالكتب الإلهية ٢٢٠
- ١ - اتفاق مصدرها، والمقصد من إنزالها ٢٢٠
- ٢ - كل كتاب ورسالة فهي خاصة إلا القرآن ٢٢٠
- ٣ - الرسائل والكتب متفقة في الأصول مختلفة في الشرائع ٢٢١
- ٤ - تحريف الكتب السابقة على القرآن ٢٢٢
- النوع الأول: تحريف المعنى مع بقاء اللفظ ٢٢٣
- النوع الثاني: التغيير والإضافة ٢٢٣
- النوع الثالث: التحريف بالكتمان ٢٢٣
- ٥ - موقف المسلم مما ورد في الكتب السابقة ٢٢٤
- خامساً: ثمرات الإيمان بالكتب السابقة ٢٢٦
- ١ - زيادة الإيمان بالله تعالى وأسمائه وصفاته العلا ٢٢٦
- ٢ - ظهور البرهان على أن العقل البشري كان - وما يزال - عاجزاً عن إدراك كيفية عبادة الله وحده ٢٢٧
- ٣ - التحقق من حكمة التشريع الإلهي المتدرج عبر شرائع الرسل المنزلة في الكتب الإلهية حتى خاتمها وناسخها:
- القرآن الكريم ٢٢٧
- ٤ - تقرير عقيدة: (إن الدين عند الله الإسلام) ٢٢٧
- ٥ - التوجه إلى الله تعالى بشكر نعمة إنزال الكتب ٢٢٧
- الإيمان بالقرآن الكريم ٢٢٨
- أولاً: معنى الإيمان بالقرآن الكريم، وما يتضمنه ٢٢٨
- ثانياً: تنزيلات القرآن الكريم ٢٢٩

- التنزل الأول: التنزل في اللوح المحفوظ ٢٢٩
- التنزل الثاني: التنزل من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في
السماء الدنيا جملة واحدة..... ٢٣٠
- التنزل الثالث: تنزل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالقرآن على نبينا ﷺ مفرقا
على حسب الوقائع والأحداث ٢٣٠
- ثالثاً: حقوق القرآن..... ٢٣١
- ١ - الإيمان بالقرآن..... ٢٣١
- ٢ - تعظيم القرآن وإجلاله ومحبته ٢٣٢
- ٣ - تلاوته وحفظه وتعاهده..... ٢٣٢
- ٤ - تدبر آياته بالعمل بعد الفهم..... ٢٣٣
- ٥ - تعلمه وتعليمه..... ٢٣٣
- ٦ - العمل به واتباعه..... ٢٣٣
- ٧ - التحاكم إليه وتحكيمه..... ٢٣٤
- ٨ - التزام الأدب مع القرآن..... ٢٣٤
- ٩ - الدعوة إليه وتبليغه..... ٢٣٥
- الركن الرابع: الإيمان بالرسل والرسالات..... ٢٣٦
- أولاً: معنى النبوة والرسالة..... ٢٣٦
- ثانياً: معنى الوحي وطرائقه..... ٢٣٧
- الطريقة الأولى: الإلقاء في الروع..... ٢٣٨
- الطريقة الثانية: الرؤيا المنامية للنبي..... ٢٣٨
- الطريقة الرابعة: الوحي بواسطة المَلَك ٢٣٩

٢٣٩	ثالثًا: حكم الإيمان بالرسل والرسالات
٢٤٠	رابعًا: حاجة البشرية إلى الرسل والرسالات
٢٤٣	خامسًا: الإيمان بالرسل، وما يتضمنه
٢٤٥	والمذكورون في القرآن الكريم هم
٢٤٦	سادسًا: خصائص وصفات الأنبياء والمرسلين
٢٤٦	١- البشرية والعبودية
٢٤٦	٢- الذكورة
٢٤٧	٣- الحرية
٢٤٧	٤- النسب الكريم
٢٤٨	٥- كمال الأخلاق
٢٤٨	٦- الحكمة وقوة الحجّة
٢٤٨	٧- كمال الخلقة البشرية
٢٤٩	٨- عصمة الأنبياء
	(١) الأنبياء معصومون فيما يبلغون عن الله تعالى من الوحي
٢٤٩	بالإجماع
٢٥٠	(٢) العصمة من الكبائر والدنايا التي تزري بهم
٢٥١	(٣) حكم الصغائر قبل البعثة وبعدها
٢٥٣	سابعًا: وظائف الأنبياء في أممهم
٢٥٣	١- الدعوة إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله
٢٥٤	٢- البلاغ المبين
٢٥٥	٣- تزكية النفوس وتعليمها
٢٥٦	٤- البشارة والندارة، وإقامة الحجّة

- ٥- التصدي لمنكرات الزمان ٢٥٦
- ٧- الشهادة على الأمم ٢٥٧
- ٧- سياسة الأمم ٢٥٨
- ثامناً: النبي والرسالة، والأمة الخاتمة ٢٥٩
- المجموعة الأولى: بشارات الكتب الإلهية السابقة ٢٥٩
- المجموعة الثانية: خوارق العادات التي جرت له ﷺ ٢٦٠
- المجموعة الثالثة: إخباره بالغيوب ﷺ ٢٦٠
- المجموعة الرابعة: إجابة دعائه ﷺ ٢٦١
- المجموعة الخامسة: استقامة أحواله طيلة حياته ﷺ ٢٦٢
- تاسعاً: معجزة الدهر وشعار الفخر: القرآن الكريم ٢٦٣
- عاشراً: حقوق الرسول الخاتم ﷺ ٢٦٤
- ١- الإيمان بالنبي ﷺ وبرسالته ٢٦٤
- ٢- تعظيمه وتوقيره ﷺ ٢٦٥
- ٣- محبته ﷺ ٢٦٥
- ٤- فداؤه ﷺ بالنفس والنفس ٢٦٦
- ٥- طاعته واتباعه ﷺ ٢٦٦
- ٦- محبة آل بيته وصحابته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ٢٦٧
- ٧- الصلاة والسلام عليه ﷺ ٢٦٨
- ٨- نشر دعوته وسيرته، والانتصار لستته ﷺ ٢٦٩
- الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر ٢٧٠
- أولاً: تعريف اليوم الآخر وأسمائه ٢٧٠

- ثانيًا: الإيمان باليوم الآخر وحكمه ٢٧١
- ١ - الموت والقبر أول منازل الآخرة..... ٢٧٢
- ١ - أمثلة من أشراط الساعة التي وقعت وانقضت ٢٧٤
- ظهور نار الحجاز..... ٢٧٤
- توقف الجزية والخراج ٢٧٥
- ٢ - أمثلة من أشراط الساعة التي وقعت وما تزال مستمرة
- الوقوع..... ٢٧٥
- ٣ - أمثلة من أشراط الساعة الصغرى التي لم تقع بعد ٢٧٥
- ٤ - أمثلة من أشراط الساعة الكبرى..... ٢٧٦
- ثالثًا: مشاهد اليوم الآخر ٢٧٧
- ١ - أهوال القيامة..... ٢٧٧
- ٢ - النفخ في الصور..... ٢٧٧
- ٣ - بعث الخلق ٢٧٨
- ٤ - حشر الخلائق من إنس، وجان، وحيوان ٢٧٨
- ٥ - أرض المحشر والموقف وأحوال أهله ٢٨٠
- ٦ - الشفاعة العظمى ٢٨١
- ٧ - مجيء الله تعالى لفصل القضاء ٢٨٢
- ٨ - العرض على الله تعالى..... ٢٨٢
- ٩ - تطاير الصحف وكتب الأعمال ٢٨٣
- ١٠ - الحساب وما يتضمنه ٢٨٣
- حساب المؤمنين..... ٢٨٤
- حساب الكفار والمنافقين..... ٢٨٤

- ٢٨٤ شهادة الشهود
- ٢٨٥ كلام الله لعباده في الحساب
- ١١ - الميزان ٢٨٦
- ١٢ - الحوض ٢٨٦
- ١٣ - الصراط ٢٨٧
- ١٤ - القنطرة ٢٨٨
- ١٥ - المآل إلى دار القرار ٢٨٩
- ذكر النار ٢٨٩
- ذكر الجنة ٢٩٠
- ١٦ - رؤية العباد لربهم تعالى ٢٩٢
- ١٧ - ذبح الموت ٢٩٢
- رابعًا: آثار وثمرات الإيمان باليوم الآخر ٢٩٣
- ١ - الانبعاث إلى فعل الطاعات رغبة وحرصًا ٢٩٣
- ٢ - الانكفاف عن المعاصي رهبة وخوفا ٢٩٣
- ٣ - امتلاء القلب بتعظيم الرب ٢٩٣
- ٤ - الزهد في الدنيا وطلب الآخرة ٢٩٤
- ٥ - تحصيل سعادة الدنيا والآخرة ٢٩٤
- الركن السادس: الإيمان بالقضاء والقدر ٢٩٥
- أولًا: معنى القضاء والقدر ٢٩٥
- ثانيًا: حكم الإيمان بالقضاء والقدر وأدلته ٢٩٥
- ثالثًا: قاعدة قبل البحث في القدر ٢٩٨
- ١ - الخوض في القدر على منهج فاسد ٢٩٩

- ٢- دخول غير المتأهل فيما لا يحسنه ٣٠١
- ٣- التنازع المفضي للافتراق والافتتان ٣٠١
- رابعاً: أركان الإيمان بالقدر ٣٠٢
- الركن الأول: الإيمان بالعلم ٣٠٢
- حكم من أنكر ركن العلم ٣٠٤
- الركن الثاني: الإيمان بالكتابة ٣٠٥
- حكم من أنكر الكتابة ٣٠٦
- المحو والإثبات ٣٠٦
- الركن الثالث: الإيمان بالمشيئة ٣٠٧
- مشيئة الله والفرق بينها وبين الإرادة الكونية والشرعية ٣٠٨
- الركن الرابع: الإيمان بالخلق ٣٠٩
- خامساً: آثار وثمرات الإيمان الصحيح بالقضاء والقدر ٣١٣
- ١- تصحيح الإيمان والمعتقد ٣١٣
- ٢- إدراك الأمور بحقائقها ٣١٣
- ٣- الثبات في الفتن والابتلاءات ٣١٤
- ٤- الاشتغال بالعبادة وصالح العمل ٣١٤
- ٥- استقامة الأخلاق والسلوك ٣١٤
- ٦- تحقيق العبودية لرب البرية مع الوجل والحذر ٣١٥

الباب الرابع: حياة الإيمان

- الفصل الأول: نور الإيمان ٣١٩
- وبضدها تتميز الأشياء ٣٢٢

٣٢٨	الفصل الثاني: دعوة الإيمان
٣٣٠	ركائز دعوة الإيمان
٣٣٠	أولاً: إيمان النبي ﷺ والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
٣٣٣	ثانياً: شمولية الإيمان
٣٣٥	صور ومظاهر شمولية الإيمان
٣٣٥	١- العناية بتحقيق أصل الإيمان
٣٣٧	٢- العناية بجوانب الإيمان كافة
٣٣٨	٣- تناول أسماء الله الحسنى وصفاته العلى علماً وعملاً
٣٣٩	٤- سد الطرق الموصلة للانحرافات كافة
٣٤٠	٥- السعي في تحكيم الشريعة وإقامة الدين
٣٤٠	٦- تحقيق عقيدة الولاء والبراء
٣٤١	٧- إنكار الانحرافات المعاصرة كافة
٣٤٢	مظاهر الإيجابية العملية
٣٤٢	١- فمن الإيجابية: استقامة سلوك أهل الإيمان
٣٤٣	٢- ومن الإيجابية: وضوح آثارها على الداعية إلى الله
٣٤٤	٣- ومن الإيجابية: اتقاد جذوة التضحية في سبيلها
٣٤٥	الفصل الثالث: سباق الإيمان
٣٥٤	الفصل الرابع: أخوة الإيمان
٣٥٦	أخوة الإيمان حب وولاء
٣٥٧	نوايا المتآخين
٣٥٨	حقوق المتآخين
٣٥٨	أولها: خدمة الإخوان بالنفس

ثانيها: الإكرام بالطعام	٣٥٨
ثالثها: قضاء الحوائج بالأموال	٣٥٩
رابعها: التفقد والسؤال	٣٥٩
خامسها: الإعانة والنصرة	٣٥٩
سادسها: التناصح، والأمر بالمعروف	٣٦٠
سابعها: الصفح، والعفو عن الزلات	٣٦٠
ثامنها: الدعاء بظهر الغيب	٣٦١
تاسعها: إدخال السرور على القلوب	٣٦١
عاشرها: أداء حقوق المسلمين العامة	٣٦١
الفصل الخامس: مجالس الإيمان	٣٦٣
فضائل المجالس الإيمانية	٣٦٧
أولاً: التقرب إلى الله بحضورها	٣٦٧
ثانياً: هي مجالس بها يزداد الإيمان، ويُصان من النقصان	٣٦٨
ثالثاً: هي مجالس علم وتربية، وتواصل وتأخ	٣٦٩
رابعاً: مجالسة العلماء تُذكر بالله	٣٧٠
الفصل السادس: عزة الإيمان	٣٧٤
الاستعلاء بالإيمان، وموقف رباعي بن عامر	٣٨٠
الفصل السابع: حلاوة الإيمان	٣٨٢
وقفات مع حديث: حلاوة الإيمان	٣٨٨
الوقفة الأولى: مع محبة الله ورسوله	٣٨٨
الوقفة الثانية: مع الحب في الله	٣٩٠
الوقفة الثالثة: كراهية الكفر وعاقبته	٣٩١

- أسبابٌ أُخِرَ لتحقيق حلاوة الإيمان..... ٣٩٣
- ١- إيتاء الزكاة والصدقات عن طيب نفس ٣٩٣
- ٢- صحة المعتقد، والإيمان بالقدر..... ٣٩٤
- ٤- أداء الحقوق الخاصة..... ٣٩٥
- ٥- الزهد في الدنيا، وطلب الآخرة..... ٣٩٥
- ٦- الكف عن المعاصي والسيئات والبدع والمخالفات ٣٩٥

الباب الخامس: أهل الإيمان

- الفصل الأول: موالاة أهل الإيمان..... ٣٩٩
- عناية الوحي بغرس عقيدة الولاء والبراء..... ٤٠٥
- ١- الأمر بتجريد الولاء لله ورسوله وللمؤمنين..... ٤٠٥
- ٢- تجريد الاعتقاد في طلب النفع، ودفع الضرر..... ٤٠٥
- ٣- بيان حال من اتبع غيره على غير هدى في الآخرة ٤٠٥
- ٤- إظهار القدوات في باب الموالاة والمعاداة ٤٠٦
- ٥- بيان أن موالاة المؤمنين ركيزة بناء المجتمع..... ٤٠٦
- الفصل الثاني: صفات أهل الإيمان ٤٠٨
- من صفات المؤمنين على حرف (الألف) ٤٠٨
- ١- الاتباع المحمود..... ٤٠٨
- ٢- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..... ٤٠٩
- ٣- الاجتماع المحمود..... ٤١٠
- ٤- الإحسان ٤١٠
- ٥- الإخاء ٤١١

- ٦- الإحبات ٤١١
- ٧- الإخلاص ٤١٢
- ٨- الأدب ٤١٢
- ٩- الاستعانة بالله ٤١٣
- ١٠- الاستغفار ٤١٣
- ١١- الاستقامة ٤١٤
- ١٢- الإصلاح ٤١٤
- ١٣- الاعتصام ٤١٥
- ١٤- إفشاء السلام ٤١٥
- ١٥- أكل الطيبات ٤١٦
- ١٦- الأمانة ٤١٦
- ١٧- الإنابة ٤١٧
- ١٨- الإنصاف (العدل) ٤١٧
- ١٩- الإنفاق ٤١٨
- ٢٠- الإيثار ٤١٨
- ومن صفات المؤمنين على حرف (الباء) ٤١٩
- ٢١- البر ٤١٩
- ٢٢- بر الوالدين ٤١٩
- ٢٣- البصيرة (الفراصة) ٤٢٠
- ٢٤- البكاء من خشية الله ٤٢١
- من صفات المؤمنين على حرف (التاء) ٤٢١
- ٢٥- التبليغ عن الله ورسوله ٤٢١

- ٢٦- التبين والتثبت ٤٢٢
- ٢٧- التدبر ٤٢٢
- ٢٨- التذكر ٤٢٢
- ٢٩- التذكير ٤٢٣
- ٣٠- التعاون على البر والتقوى ٤٢٣
- ٣١- تعظيم الحرمات والشعائر ٤٢٤
- ٣٢- التفاؤل ٤٢٤
- ٣٣- التفكير ٤٢٥
- ٣٤- التقوى ٤٢٥
- ٣٥- تلاوة القرآن الكريم ٤٢٦
- ٣٦- التناصر ٤٢٦
- ٣٧- التواضع (خفض الجناح والذلة للمؤمنين) ٤٢٧
- ٣٨- التوبة ٤٢٧
- ٣٩- التوكل ٤٢٨
- ومن صفات المؤمنين على حرف (الثاء) ٤٢٨
- ٤٠- الثبات ٤٢٨
- ومن صفات المؤمنين على حرف (الجيم) ٤٢٩
- ٤١- الجهاد ٤٢٩
- ٤٢- الجود (الكرم) ٤٣٠
- من صفات المؤمنين على حرف (الحاء) ٤٣٠
- ٤٣- حسن الخلق ٤٣٠
- ٤٤- حفظ الفروج ٤٣١

من صفات المؤمنين على حرف (الخاء)	٤٣٢
٤٥ - الخشوع	٤٣٢
٤٧ - الخوف من الله	٤٣٢
٤٦ - الخشية	٤٣٣
من صفات المؤمنين على حرف (الدال)	٤٣٣
٤٨ - الدعاء	٤٣٣
٤٩ - الدعوة إلى الله	٤٣٤
من صفات المؤمنين على حرف (الذال)	٤٣٤
٥٠ - الذكر	٤٣٤
من صفات المؤمنين على حرف (الراء)	٤٣٥
٥١ - الرجاء	٤٣٥
٥٢ - الرحمة	٤٣٥
٥٣ - الرضا	٤٣٦
من صفات المؤمنين على حرف (الزاي)	٤٣٧
٥٤ - الزكاة، و(التركي)	٤٣٧
من صفات المؤمنين على حرف (السين)	٤٣٧
٥٥ - السكينة	٤٣٧
من صفات المؤمنين على حرف (الشين)	٤٣٨
٥٦ - الشفقة	٤٣٨
٥٧ - الشكر	٤٣٨
٥٨ - الشورى	٤٣٩

- من صفات المؤمنين على حرف (الصاد) ٤٣٩
- ٥٩- الصبر والمصابرة ٤٣٩
- ٦٠- الصدق ٤٤٠
- ٦١- الصدقة ٤٤٠
- ٦٢- الصفح ٤٤٠
- ٦٣- الصلاة وإقامتها ٤٤١
- ٦٤- الصلاح ٤٤٢
- ٦٥- صلة الرحم ٤٤٢
- ٦٦- الصوم ٤٤٣
- من صفات المؤمنين على حرف (الضاد) ٤٤٣
- ٦٧- الضراعة والتضرع ٤٤٣
- من صفات المؤمنين على حرف (الطاء) ٤٤٤
- ٦٨- الطاعة ٤٤٤
- ٦٩- الطمأنينة ٤٤٤
- من صفات المؤمنين على حرف (العين) ٤٤٥
- ٧٠- العبادة ٤٤٥
- ٧١- العزة والاستعلاء ٤٤٥
- ٧٢- العفة ٤٤٦
- ٧٣- العفو والغفران ٤٤٦
- ٧٤- العلم ٤٤٧
- ٧٥- العمل ٤٤٧

- ٤٤٨ من صفات المؤمنين على حرف (الغين)
- ٧٦- غَضُّ البصر..... ٤٤٨
- ٤٤٨ من صفات المؤمنين على حرف (الفاء)
- ٧٧- الفرَح بفضل الله..... ٤٤٨
- ٧٨- الفقه في الدين ٤٤٩
- ٤٤٩ من صفات المؤمنين على حرف (القاف)
- ٨٨- القسط..... ٤٤٩
- ٧٩- القوة في الدين ٤٥٠
- ٤٥٠ من صفات المؤمنين على حرف (الكاف)
- ٨٠- كظم الغيظ ٤٥٠
- ٤٥١ من صفات المؤمنين على حرف (اللام)
- ٨١- اللين ٤٥١
- ٤٥١ من صفات المؤمنين على حرف (الميم)
- ٨٢- المحبة ٤٥١
- ٨٣- المسارعة في الخيرات ٤٥٢
- ٤٥٣ من صفات المؤمنين على حرف (النون)
- ٨٤- النصيحة والتواصي ٤٥٣
- ٤٥٣ من صفات المؤمنين على حرف (الهاء)
- ٨٥- الهجرة ٤٥٣
- ٨٦- الهدى ٤٥٤

- من صفات المؤمنين على حرف (الواو) ٤٥٥
- ٨٧- الوفاء ٤٥٥
- ٨٨- الولاء ٤٥٥

الباب السادس: أعداء الإيمان

- الفصل الأول: أعداء وخصوم الإيمان ٤٥٩
- من البيان التفصيلي عن تلك الخصومة، ومظاهرها، وحال أربابها .. ٤٦٢
- أولاً: الملاحدة ٤٦٢
- ثانياً: المشركون، والكفار، والملا المتكبرون ٤٦٢
- ثالثاً: أهل الكتاب ٤٦٤
- رابعاً: المنافقون ٤٦٥
- الفصل الثاني: معارضة الإيمان ٤٦٩
- أولاً: إهمال النصوص والأصول الشرعية للنظر والاستنباط في قضايا الإيمان ٤٧٢
- ثانياً: اضطراب منهج وأصول النظر والاستنباط ٤٧٣
- منهج أهل الأهواء في التعامل مع النصوص الشرعية ٤٧٦
- الأول: المنهج الحرفي السطحي ٤٧٦
- الثاني: المنهج التحريفي ٤٧٦
- الثالث: المنهج الباطني ٤٧٦
- ثالثاً: إحداث أصول جديدة للاستنباط تعارض أصول أهل السنة ... ٤٧٧
- ١- تقليد المبطلين، أو التقليد الباطل، ومن أمثلته ٤٧٧
- عند الإمامية الاثني عشرية ٤٧٧

- وعند غلاة الصوفية الباطنية ٤٧٨
- ٢- تقديس العقل وادعاء عصمته ٤٧٩
- ٣- الكشف والمنامات ونحوها ٤٨٢
- ٤- التلقي عن عقائد وثقافات غير المسلمين ٤٨٤

الباب السابع: آفات وخوارم الإيمان

- الفصل الأول: ضعف الإيمان ٤٩١
- مظاهر وأعراض ضعف الإيمان ٤٩٢
- ١- قسوة القلب، وعدم تأثره بالذكر، وفُقدان لذة الإيمان، وحلاوة الطاعة ٤٩٢
- ٢- الاستهانة بفوات الطاعة ٤٩٢
- ٣- ضعف إرادة التَّوبة، وقلة المسارعة إلى الأُوْبَة، والصُّدود عن إبداء ندم قلب غافل، وفؤاد عن نفعه ذاهل! ٤٩٣
- ٤- الخوف من كلِّ شيءٍ، ومن لا شيء ٤٩٣
- ٥- الكآبة، وضيق الصدر، والقلق، والهم ٤٩٣
- أما مظاهر الضعف العملية، فمنها ٤٩٣
- ١- فُقدانُ الورع، والميل إلى الرُّخص، وطلب الأيسر والأسهل من الأحكام بغَضِّ النظر عن الأحوط في الدين ٤٩٣
- ٢- التَّهاون بالآداب والسُّنن ٤٩٤
- ٣- التَّكاسل عن الواجبات، ومواسم الخيرات ٤٩٤
- ٤- الوقوع في المعاصي، والمُجَاهرة بها ٤٩٤
- ٥- الرُّكون إلى الدنيا، والرِّضا بالتقصير ٤٩٥

- ٦- الانقطاع وعدم الصَّبر ٤٩٥
- ٧- تبدُّل السَّمت والهدي ٤٩٦
- ٨- عدم الاهتمام بقضايا المسلمين ٤٩٦
- ضعف الإيمان عند الفضلاء والدعاة ٤٩٧
- من مظاهر ضعف الإيمان عند الدعاة والفضلاء ٤٩٧
- من أسباب ضعف الإيمان عند الدعاة والفضلاء ٤٩٧
- التعافي من ضعف الإيمان ٤٩٩
- وسائل تجديد الإيمان ٥٠٠
- ١- ذكر القلب ٥٠٠
- ٢- المسارعة بالأعمال الصالحة ٥٠١
- ٣- الموازنة بين الخوف والرجاء ٥٠٣
- ٤- التفكير في الموت وما بعده ٥٠٣
- ٥- تعظيم حرمة الله ٥٠٣
- ٦- محاسبة النفس ٥٠٤
- ٧- وأخيرًا: على الدعاة وطلبة العلم أمور ٥٠٥
- الفصل الثاني: نواقض الإيمان ٥٠٦
- تقسيم الكفر إلى أكبر وأصغر ٥٠٧
- نواقض الإيمان القلبية ٥٠٧
- نواقض الإيمان القولية ٥١٢
- نواقض الإيمان العملية ٥١٣
- الفصل الثالث: قواعد الإيمان ٥١٦
- النوع الأول: مخالفات في الحقيقة والصورة ٥١٦

أولاً: الشرك الأصغر	٥١٦
ثانياً: الكبائر والصغائر	٥١٨
علامات الكبيرة	٥١٨
١- وصفها بكونها كبيرة	٥١٨
٢- وصفها بالموبقات	٥١٩
٣- وصفها بأنها من أعظم الذنوب	٥١٩
٤- وصفها بأنها ظلم عظيم	٥١٩
أصناف العصاة في الآخرة	٥١٩
عصاة المؤمنين في الآخرة ثلاثة أصناف	٥١٩
النوع الثاني: مخالفات في الحقيقة، وهي البدع بأنواعها المختلفة	٥٢٠
أسباب ذم البدع والتحذير منها	٥٢٢
١- البدعة قول على الله بغير علم	٥٢٢
٢- البدعة اتهام لمقام النبي ﷺ والصحابة	٥٢٣
٣- البدعة نوع من أنواع المضادة للشرعية	٥٢٤
٤- البدعة شر من المعصية	٥٢٤
أقسام البدعة	٥٢٥
الفصل الرابع: قواعد إجراء الأحكام	٥٢٨
١- من ثبت إسلامه بيقين لم يزُل بشك فيه، وإنما لا بد من يقين مثله	
لا يحتمل شكًا، أو ظنًا عند الحاكم، أو القاضي، أو العالم	٥٢٨
٢- أحكام الدنيا إنما تجري على الظاهر، لا الباطن، وعلى آخر	
الأمر وخاتمة الحال، لا على أوله	٥٢٩

- ٣- الحكم المطلق بتكفير، أو غيره لا يستلزم الحكم على الشخص المعين ٥٣١
- ٤- لا تُجرى الأحكام في الدنيا إلا بعد انتفاء ما يمنعها، أو يعارضها، وتحقق شروطها وما يشتهها ٥٣٢
- موانع إجراء الأحكام ٥٣٣
- ١- الجهل وعدم بلوغ الخطاب الشرعي ٥٣٣
- ٢- الخطأ في التأويل والاجتهاد ٥٣٤
- ٣- الإكراه ٥٣٦
- شروط إجراء الأحكام ٥٣٧
- ١- التحقق من انتفاء الموانع ٥٣٧
- ٢- الثبوت من الفعل، أو القول والقصد ٥٣٧
- ٣- إقامة الحجة على وجهها الصحيح شرعاً ٥٣٧
- محتويات الكتاب ٥٣٩